دوغلاس موراي

DOUGLAS MURRAY

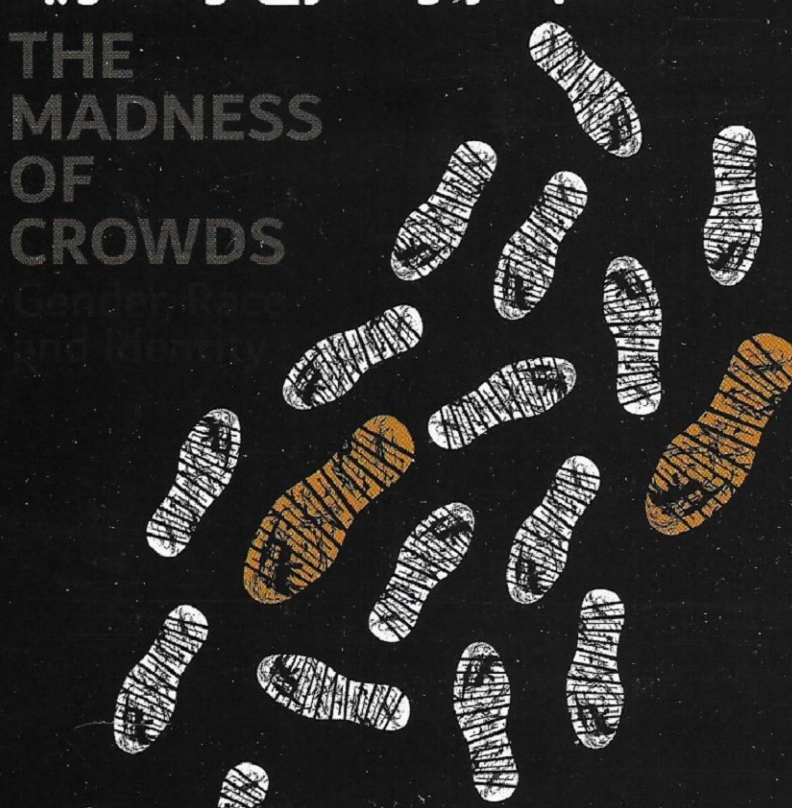


جنون الحشود

الجندر والعرق والهوية

THE MADNESS OF CROWDS

Gender, Race and Identity



ترجمة: جلال بدلة



جنون الحشود

(الجندر والعرق والهوية)

The Madness of Crowds

(Gender, Race and Identity)

Douglas Murray

جنون الحشود

(الجندر والعرق والهوية)

دوغلاس موراي

ترجمة: جلال بدلة





الكتاب
جنون الحشود
المؤلف
دوغلاس موراي

الطبعة الأولى: 2022
الترقيم الدولي:
978-603-91869-2-2
رقم الإيداع:
1443/12016

E-mail: admin@page-7.com
Website: www.page-7.com
Tel.: (00966)583210696
العنوان: الجبيل، شارع مشهور،
المملكة العربية السعودية

المحتويات

إشادةً بـ «جنون الحشود»

- في كتابه «جنون الحشود» يخوض دوغلاس موراي معركة خيّرة في سبيل حرية التعبير. ها هنا نظرة صدوقٌ إلى قضايا اليوم الأكثر إثارة للانقسام.

جوردان بي. بيترسون Jordan B. Peterson

- كيف لك ألا تعرف شيئاً عن «جنون الحشود!» الكتاب الذي أنهيتُ قراءتَه للتو. ليس لك أن تتجاهل هذا الكتاب، ليس لك أن تبقى من دون أي معرفة عنه!

توم ستوبارد Tom Stoppard

- كتاب [موراي] الأخير أكثر من رائع وينبغي قراءته، يجب على الجميع قراءته. يفضح الكتاب بلا رحمة حجم النفاق القائم والتناقضات السافرة إلى حدّ مثير للحرج، والتي تتفشى في موجة «التوعّي» الرائجة اليوم.

ريتشارد دوكنز Richard Dawkins

- هذا كاتب متخصص في التعبير عما يعرفه الجميع مسبقًا إلى حد ما، لكن يخشى قوله... الكتاب حسنُ المحاجة، وحسنُ التدعيم بالأدلة، وحسنُ الملاحظة.

ليونيل شرايفر Lionel Shriver

- رائعٌ بكل بساطة. وبقراءته حتى النهاية، شعرت كما لو أنني ألتقط أول أنفاسي الكاملة منذ سنوات. في لحظةٍ من الجنون الجماعي، لا يوجد ما هو أكثر إنعاشاً – أو حتى استفزازاً – من سلامة العقل.

سام هاريس Sam Harris

- سواء اتفق المرء معه أم اختلف، يظل دوغلاس موراي واحداً من أهم مفكري الشأن العام اليوم.

برنار-هنري ليفي Bernard-Henri Lévy

- قضية نُظِّمت ونوقشت بعناية، ضد خبَل سياسات الهوية. قراءة مبهرة.
The Times
- موراي مرشد رائع في حدة بصيرته، يقودنا عبر عصر محاربي العدالة الاجتماعية.
Daily Telegraph

- يؤدي كتاب موراي خدمةً رائعة.

Financial Times

- مذهل... معظم ما يكتبه موراي صائب ويصعب الاختلاف معه.

Sunday Times

- يكتب [موراي] برشاقة وذكاء.

Guardian

- ها قد عالج هنا موضوعاً آخر ملحّاً واستفزازيّاً، بذكاء وشجاعة.
Evening Standard

- رائع!

New York Magazine

- عملٌ مهمّ بحق، يستحق القراءة في أي زمان ومكان، ومكتوب بعناية فائقة.
National Review

- ينفذ موراي عبر غياب الاتساق المثير للريبة القائم في هذَر العدالة الاجتماعية، ليقول - بكل بلاغة - كلاماً يعتقد به 95 في المئة منا، لكن زرعت فينا الخشية من قوله بصوت عالٍ. اقرأوا هذا الكتاب.

National Post (Canada)

- من الساذج فيها إلى المأساوي، يغطي موراي نطاقاً من الباثولوجيا الهويّاتية، من دون أن يفقد رباطة جأشه البتّة. ونتحصل في النتيجة على كتاب هو ليس صرخة حرب سياسية بمقدار ما هو خريطة وبوصلة لعالم غريب من الطبوغرافيا المتغيرة وأشكال عدم الاتساق التي لا تنتهي.
Commentary

- بجسارة وبراعة... [موراي] قادر تماماً على هزيمة خصومه في روح الجدل.
The Australian

مقدّمة

نعيش في زمن الخبل الجماعي. نعيش في زمن يزداد فيه سلوك الناس لاعقلانيّة، سلوك محموم وقطيعي. بكلمة واحدة، سلوك بغيض، سواء في الفضاء العمومي أم الخصوصي، على الإنترنت أم في الحياة عموماً. نرى آثار هذا الجنون حيثما ولّينا وجوهنا في الأخبار. ورغمَ أننا نرصد أعراض هذه الظاهرة في كلّ مكان، تبقى أسبابها مجهولة لنا.

قُدّمت بهذا الصدد تفسيرات مختلفة، ومالت في مجملها إلى إرجاع هذا الجنون وكلّ جنون إلى حدث بعينه قد يكون الانتخابات الرئاسية، أو استفتاءً عامًّا. لكنّ أياً من هذه التفسيرات لم يلج إلى جذر ما نعيشه. ذلك أن غباشة الأخبار اليومية تحجب عنّا حوادث وتطورات أكثر جسامة بكثير. لقد آن الأوان لمواجهة الأسباب الحقّة لهذا التدهور.

ثمّ إنه نادراً ما جرى التعرّف إلى أصل هذه الحالة. لقد مررنا بمرحلة دامت أكثر من ربع قرن، تهاوت فيها سردياتنا ودحضت الواحدة تلو الأخرى، فإما أنها بلغت من اللاشعبية حداً يستحيل معه الدفاع عنها، وإما أنها باتت ممتنعة وغير قابلة للاستمرار. أولى هذه السرديات المنهارة ابتداءً من القرن التاسع عشر كانت تفسيرات الوجود التي أتت بها الأديان، لحقتها في القرن العشرين، وسارت على خطاها الآمال العلمانية التي لمّعت واجهتها الأيديولوجيات السياسية. ثمّ جاء الجزء الأخير من القرن العشرين، الذي تزامن مع بداية حقبة ما بعد الحداثة التي

عرّفت نفسها، وعُرِّفت بريبتها إزاء جميع السرديات الكبرى[1]. لكن الطبيعة تفزع من الفراغ، كما نُعلّم أطفالنا في المدرسة. هكذا، أخذت تصورات جديدة تطلّ برأسها وتملأ هذا الفراغ الما بعد حداثي، عاقدة العزم على فرض تفسيراتها ومنظوراتها الخاصة.

كان مجيء خطاب جديدٍ ليشغل هذه المساحة الشاغرة أمراً لا مناص منه. ما كان في مقدور مواطني الديمقراطيات الغربية المزدهرة الحالية القبول بأن يكونوا في تاريخ العالم أول من لا يتوافر على تفسير في شأن التجربة البشرية ولا على أي رؤية شاملة من شأنها أن تعطي وجودَهم معنى.

ذلك أن السرديات الكبرى كانت تهب الوجود معنى على الرغم من جميع النواقص التي تعتريها. لذا كان لا بد من تقديم إجابة عن السؤال: ما الذي علينا فعله الآن، ما خلا الثراء قدر المستطاع والاستمتاع بكلّ لذيذ ممكن؟

تمثّلت الإجابة التي فرضت نفسها في السنوات الأخيرة في الانخراط في معارك جديدة وحملات ما فتئت تشتد شراسة وفتح جبهات تتكاثر من دون توقف، وكذلك في البحث عن معنىً عبر شنّ حرب بلا هوادة على كلّ مَن قد يبدو في الجانب الخطأ من سؤال لا يكتسي صياغة ثابتة، وإجابة لا تلبث أن تتغيّر. تعود السرعة غير المعقولة لهذه السيرورة أساساً إلى واقع أنّ حفنة من الشركات في وادي السيليكون (google وtweeter وfacebook على نحو خاص) باتت هي التي تقرر ما على معظم سكان المعمورة معرفته والتفكير به وقوله، إلى جانب اعتمادها نموذجاً اقتصادياً وُصف بكلمات دقيقة كنموذج يبحث عن «عملاء مستعدين للدفع بغية تعديل سلوك آخرين»[2]. تتعقّد هذه الحالة وتتفاقم بسبب التطوّر

---

(1) انظر: Jean-François Lyotard, *The Postmodern Condition: A Report on Knowledge*, Manchester University Press, 1984, p. xxiv, et 37 [*La Condition postmoderne. Rapport sur le savoir*, Editions de Minuit, 1979].

(2) Jaron Lanier, *Ten Arguments for Deleting your social Media Account Right Now*, Henry Holt &Co., 2018, p.26.

التكنولوجي الذي يمضي بسرعة لا يسعنا مضاهاتها. إلا أنّ هذه الحروب التي تُشنّ بطريقة ممنهجة ليست من دون وجهة قصديّة، بل تخضع لاستراتيجية شاملة ذات هدفٍ جليل. هدفٌ غير واعٍ عند بعضهم ومدبّر عند بعضهم الآخر، ويتمثّل في إرساء ميتافيزيقا جديدة في مجتمعاتنا، أو دين جديد – إن صحّ التعبير.

لم يبدأ حشد الأعداد الغفيرة تحت راية تيار الأفكار الذي كان مقصورًا على أوساط أكاديمية منزوية، إلا مع الإفلاس المالي عام 2008، على الرغم من أنّ أسسه كانت قد أرسيت قبل ذلك الوقت بعقود. ومنذ هذا التاريخ باتت الجاذبية التي تمارسها هذه المجموعة من المعتقدات بيّنة. ليس من الواضح تماماً سبب انجذاب جيل لا يراكم رأس المال، وبشغف جم، إلى الرأسمالية؛ لكن ليس من الصعب في المقابل فهم السبب الذي قد يدفع جيلاً مقتنعاً بأنه قد لن يكون مالكاً سكنه أبداً، إلى الشعور بانجذاب قوي نحو رؤية أيديولوجية للعالم تَعِدُ بحلّ جميع أشكال الظلم؛ لا الأشكال التي يرزح تحتها هذا الجيل فحسب، بل الأشكال التي يُعاني منها جميع سكان المعمورة. لعلّ تفسير العالم من خلال عدسة «العدالة الاجتماعية»، و«سياسات الهوية»، و«تقاطع أشكال التمييز»، هو أكثر الجهود جرأة وشمولية منذ نهاية الحرب الباردة بغية خلق أيديولوجيا جديدة.

لاقت موضوعة **«العدالة الاجتماعية»** الرواج الأكبر حتى الآن، وذلك لما يلوح فيها من جاذبية، في بعض من نسخها على الأقل. حتى أن المصطلح نفسه صُمّم لينزع فتيل كلّ اعتراض ممكن: «أنت تعارض العدالة الاجتماعية؟ أتراكَ تريد الظلم الاجتماعي؟».

في غضون ذلك، أصبحت «سياسات الهوية» محفلاً لحركات العدالة الاجتماعية. إن من شأن هذه السياسات أن تقسّم المجتمع إلى مجموعات مصالح متعددة تبعاً للجنس (أو النوع الاجتماعي) والعِرق والميول الجنسية... إلخ. وترى في هذه الميزات الخاصيات الملائمة الوحيدة الأساسية لحامليها، ثم إنّها تمنحهم مكانة مميزة إضافية. خير مثال على ذلك تسليم الكاتب الأميركي كولمان هيوز Coleman

Hughes بوجود «معرفة أخلاقية متفوّقة[3]» متأتية من مجرّد كون المرء امرأة أو مثليّ الجنس أو ذا بشرة سوداء. تُفسّر هذه القناعة الميلَ المتزايد لدى بعضهم إلى استهلال أسئلتهم وتعليقاتهم بعبارة: «بصفته كذا» (Speaking as a). ترتب على الناس، الأحياء منهم والأموات، مهمة اختيار المعسكر الصحيح، الأمر الذي يُفسّر الدعوات المتزايدة إلى تحطيم تماثيل لشخصيات تاريخية يُنظر إليها على أنها في المعسكر الخاطئ، وإعادة كتابة الماضي بوصفها سبيلاً إلى خلاص هذه المجموعة أو تلك، ولمَ أصبح أمراً مستساغاً سماع عضو من حركة «نحن أنفسنا» (Senn Fein) الإيرلندية وهو يصرّح بأنّ إضراب أعضاء حركة «الجيش الجمهوري الإيرلندي» عن الطعام عام 1981 كان إضراباً من أجل حقوق مثليي الجنس[4]. لا شك في أن سياسات الهوية تُشجّع الأقليات على التعبير عن نفسها والتنظيم، لكنها في الوقت نفسه تدفعها نحو الانقسام.

مفهوم «تقاطع أشكال التمييز» هو الأقل جاذبية من بين هذه المفاهيم الثلاثة. فهو يدعونا إلى قضاء ما تبقّى من حياتنا في محاولة إيجاد حلٍّ للمطالب المتعلّقة بالهوية ومظالم أخرى، سواء كانت خاصة بنا أم بالآخرين، ومن ثمّ إلى إعادة النظر في تنظيمنا الاجتماعي بمقتضى منظومة «تعويضية» تفرضها السلطة الترّاتبية، المتبدّلة بصورة على نحو دائم، والتي سنقف عندها لاحقاً. إنّ مثل هذه المنظومة ليست عصيّة على التطبيق فحسب، بل تودي بنا إلى الجنون لأنها تضع أمامنا مطالب مستحيلة وتعهد إلينا بأهداف لا يمكن بلوغها. اليوم غادر هذا المفهوم أقسام العلوم الإنسانية التي ولِد فيها، وأصبح موضوع نظر جدي من طرف جيل الشباب – كما سنرى لاحقاً – وتسلل إلى داخل تشريعات التوظيف (بخاصة من خلال «الالتزامات لدعم التنوع») في مجموع الشركات الكبرى والحكومات.

(3) Coleman Hughes, in conversation with David Rubin, The Rubin Report, YouTube, 12 octobre, 2018.

(4) »Les grévistes de la faim sont morts pour les droits des gays, déclare le sénateur du Sinn Fein Fintan Warfield », Belfast telegraph, 15 août 2016.

وضِعت كشفيات جديدة تهدف إلى إجبار المواطنين على تبنّي هذه المعتقدات التي جرت سيرورة دمجها بسرعة هائلة. خير دليل على ذلك ما أشار إليه الرياضي والكاتب **إريك وينشتاين** Eric Weinstein (ويُظهره البحث على محرك Google Books)، من أن عبارات مثل LGTBQ[5] وWhite privilege [امتياز البيض] وtransphobia [رهاب العبور الجندري]، التي كانت مجهولة حتى وقت قريب، سرعان ما أصبحت رائجة وشائعة الاستخدام. يكتب **إريك وينشتاين** في هامش الرسم البياني المنبثق من استدلاله، أن «محفّزات التوعّي» التي يلوّح بها جيل الألفية وآخرون معه، لـ «الإجهاز على اضطهاد حضارات دامت آلاف السنين، قد نحتت منذ حوالي 20 دقيقة». وبعد إقراره بأن لا ضير في اختبار أفكار وعبارات جديدة، يشير إلى أن «على المرء أن يكون متهوراً جداً لكي يثق ثقة عمياء في هذه المفاهيم غير المثبتة التي ابتكرها والداه منذ ما لا يزيد عن خمسين عاماً في حقول لم تُختبَر قط[6]». من ناحيتهما، أشار كلّ من غريغ لوكيانوف Greg Lukianoff وجوناثان هايدت Jonathan Haidt في كتابهما The Coddling of American Mind [الحماية الفائقة للعقل الأميركي]، الصادر عام 2018، إلى حداثة عهد الوسائل المستخدمة بغية إرساء هذه الكشفيات الجديدة وتعزيزها. والواقع أن عبارات مثل «مُحفِّز» أو «الشعور بعدم الأمان»، أو تلك القناعة بأن الكلمات التي لا تتوافق مع الدين الجديد هي كلمات «مؤذية»، لم تدخل حيز الاستخدام إلا انطلاقاً من عام 2013[7]. يبدو الأمر كما لو أن الميتافيزيقا الجديدة أرست قواعدها أولاً، ثم استغرقت نصف عقد إضافي لتوسّع سطوتها المروّعة

---

(5) LGTBQ تجمع هذه الصديرة الأحرف الأولى من: مثليات الجنس ومثليو الجنس ومزدوجو التوجّه الجنسي والعابرون جندرياً وأحرار الجنس. (م)

(6) انظر الجدول على العنوان:

https://twitter.com/EricRWeinstein/status/1066934424804057088

(7) انظر:

Greg Lukianoff et Jonathan Haidt, *The Coddling of the American Mind: How Good Intentions and Bad Ideas Are Setting Up a Generation for Failure*. Allen Lane, 2018, p. 5-7 et suiv.

نحو الجمهور الواسع. ولقد نجح هذا التوسّع نجاحاً باهراً.

نستطيع رصد آثار هذا التوسّع في أخبار كلّ يوم. فبتأثير من هذه الميتافيزيقا، شعرت «الجمعية الأميركية لعلم النفس» بالحاجة إلى تقديم المشورة لأعضائها في شأن الوسائل التي تسمح باجتثاث «الذكورة التقليدية» المؤذية لدى الشباب والرجال[8]. يُفسّر لنا ذلك لماذا فُصِل مبرمج مغمور في google (هو جيمس ديمور James Damore)، كتب مذكرة تقترح أن بعض الوظائف في مجال التكنولوجيا تروق للرجال أكثر من النساء. وهو السياق نفسه الذي يُفسّر أيضاً تضاعف عدد الأميركيين بين عامي 2011 و2017 الذين ينظرون إلى العنصرية على أنها «مشكلة رئيسة»[9].

هكذا بدأ الجميع ينظر من جديد إلى الأشياء من خلال النظارات الجديدة التي فُرض علينا ارتداؤها، فتحوّلت موضوعات كثيرة إلى قنابل موقوتة، وباتت رؤيتنا على إثرها مشوّهة ومخبولة، الأمر الذي يُفسّر لنا كيف لصحيفة New York Times أن تقرر نشر مقالة لكاتب أسود بعنوان: «هل بمقدور أبنائي أن يكونوا أصدقاء مع البيض؟»[10]، وكيف لمقالة كتبتها امرأة في شأن وفيات راكبات الدراجات في لندن أن تُنشر تحت عنوان: «طرقات مصمَّمة على يد الرجال، تتسبب بقتل النساء»[11]. يؤدي خطاب كهذا إلى مفاقمة الانقسامات الموجودة وخلق أخرى. ما الغرض من ذلك كله؟ لا تبيّن دروس العقد الأخير كيف يمكننا العيش معاً وعلى نحو أفضل، بل يبدو أنها تفاقم الإحساس بأننا في

---

(8) APA Guidelines for psychological practice with men and boys, August 2018: https://www.apa.org/about/policy/boys-men-practice-guidelines.pdf

(9) انظر:
' Views of racism as a major problem increase sharply, especially among Democrats ', Samantha Neal, Pew Research Center, 29 August 2017.

(10) Ekow N. Yankah, *The New York Times*, 11 November 2017.

(11) انظر:
'Views of racism as a major problem increase sharply, especially among Democrats, Samantha Neal, *Pew Research Center*, 29 August 2017.

الحقيقة لسنا على قدر من البراعة يؤهّلنا لهذا النمط من العيش.

تنبّه معظم الناس إلى هذه المنظومة الجديدة من القيم. لم يحدث هذا التنبّه تدريجاً، بل عن طريق الوقوع في مآزق غير متوقعة. إذ ثمة حقيقة واحدة على الأقل بدأ كلّ منّا بملاحظتها في السنوات الأخيرة، وهي أن الثقافة باتت أشبه بحقل ألغام مريع. وسواء كانت هذه الألغام من زرع أفراد أم مجموعات، أو من سخرية الأقدار، فإنها تترقّب الخطوات العاثرة لمغفّل تائه، ما إن يضع قدمه على فتيلة التفجير حتى يتحوّل إلى رماد. وقد يحدث أن يلج متهوّر مجنون إلى هذه المنطقة المحرّمة وهو على وعي تام بما يفعله. كلّ انفجار هو فرصة سانحة للسجال (وبعض صيحات الإعجاب العرضية)، ثمّ يمضي كلّ في سبيله بعد أن أحيط علماً بالضحية الجديدة التي سقطت للتو على يد منظومة القيم الجديدة والغريبة لعصرنا، التي تلوح فيها صفة الارتجالية.

كان لا بدّ من مضي بعض الوقت لكي تصبح خارطة هذه الفِخاخ المتفجّرة واضحة، وقد أصبحت كذلك اليوم. ارتبطت أولى هذه الفخاخ بالمثلية الجنسية، إذ كان النصف الثاني من القرن العشرين مسرحاً لمعركة من أجل حصول المثليين على المساواة، وقد عرفت هذه المعركة نجاحاً باهراً ووسمت نهاية ظلم تاريخي مريع. هذه المعركة انتهت، وتكللت بالنصر، لكن الواضح أنها، على الرغم من ذلك، لن تتوقّف. أخذت هذه المعركة أشكالاً متبدلة، فتغيرت الصديرة GLB (المثليون والمثليات ومزدوجو التوجّه الجنسي) وأصبحت LGB (المثليات والمثليون ومزدوجو التوجّه الجنسي) بغية عدم التقليل من منظورية المثليات. ثم أضيفت الصديرة T (العابرون جندرياً) التي سأعود إليها لاحقاً. ثم الصديرة Q (أحرار الجنس)، ثم بعض العلامات النجمية. وكلما استطالت هذه الأبجدية المثلية، طرأ تغيّر داخل الحركة التي، ما إن انتصرت، حتى راحت تتصرف مثل مناوئيها في السابق. ففي حين انقلبت موازين القوى بعد هذا النصر، حدث أمر قبيح. ما من أحد كان يدعم زواج مثليي الجنس قبل عقد من الزمن، بما في ذلك

المدافعون عن حقوق المثليين، مثل مجموعة «ستونوال» Stonewall التي كانت تستقبحه. لكن بعد ذلك بسنوات عدة، أصبح هذا الزواج قيمة مؤسِّسة للعزيمة الليبرالية الحديثة، كما أصبح التغافلُ عن هذه المسألة التي لم تكن ترد على لسان أحد قبل سنوات (بما في ذلك حركات الدفاع عن المثليين)، أمراً لا يمكن القبول به. قد يتفق الناس أو لا يتفقون مع هذا المطلب القانوني، لكن تطوّراً سريعاً كهذا كان يفترض حساسية على درجة عالية من الخصوصية وتأملاً معمّقاً. والحال أننا مضينا في هذا التطور عمداً، مستهينين بالأولى كما بالثاني.

وقد اتبعت قضايا أخرى منوالاً مشابهاً، مثل قضية حقوق المرأة التي لم تتوقف، مثلها مثل قضية حقوق المثليين، عن المضي قدماً في الغرب طوال القرن العشرين. حتى أن المرء ليظن أنّ المجتمع توصّل بالفعل إلى ما يشبه الوفاق في هاتين القضيتين. وما إن بدا أن القطار على وشك الوصول إلى وجهته المعلنة، حتى زاد من سرعته فجأة وخرج عن السكة محدثاً رعداً مدويّاً ومتحطماً بعيداً عن وجهته. وما كان حتى البارحة محلّ إجماع لا خلاف فيه، أصبح اليوم سبباً كافياً لتدمير حياة الأفراد. دُمّرت حيوات مهنية كاملة وسحقت وتناثرت أجزاؤها في جميع الأرجاء، في حين كان القطار يمضي في طريقه غير آبه بما يحدث.

خير مثال على ذلك الدمار الذي لحق بالمسيرة المهنية للبروفيسور تيم هانت Tim Hunt، ذي الأعوام الاثنين وسبعين والحائز على جائزة نوبل، بعد نكتة مؤسفة في مؤتمر منعقد في كوريا الجنوبية، عن رجال ونساء وقعوا في الحب في المختبرات[12]. أضف إلى ذلك عبارات دخلت إلى القاموس وأصبحت شائعة، مثل «الذكورة السامة». أيّ طائل من زعزعة العلاقة بين الجنسين، وجعلها محفوفة بالمخاطر حدَّ النظر إلى النصف الذكوري كما لو كان سرطانياً؟ ما سبب فرض

(12) ورد التصريح الذي أوقع تيم هانت في المشاكل في مقابلة أجراها معه روبن ماكي Robin McKie ونشرت في *The Observer* بتاريخ 13 حزيران 2015 بعنوان "لقد تخلوا عني وتركت وحيداً"، قال فيها: "دعني أخبرك عن مشكلتي مع الفتيات. ثلاثة أشياء تحدث عندما يكنّ في المختبر: تقع في حبهن، يقعن في حبك، ويبكين عندما تنتقدهن."

فكرة مفادها أن لا حق للرجال في الكلام على الجنس الأنثوي؟ لماذا، عندما نجحت المرأة، أكثر من أي وقت مضى، في خرق المزيد من السقوف الزجاجية، تسلل الخطاب في شأن «النظام الأبوي» و«وصاية الرجل التفسيرية»(13) من المجموعات النسوية إلى محافل مثل مجلس الشيوخ الأسترالي(14)؟

ما تقدّم ينطبق أيضاً على حركة الحقوق المدنية في الولايات المتحدّة، التي نشأت أصلاً بغية تصويب أكثر الأخطار التاريخية فظاعة، وبدت كأنها تمضي بعزم نحو الحل المأمول؛ وما إن اقتربت من لحظة الانتصار، حتى انعطفت هي الأخرى انعطافاً عنيفاً. بدا الوضع في البداية وكأنه يتحسن تحسّناً لا سابق له، لكن خطاب هذه الحركة أخذ يُعلمُنا بغتةً بخلاف ذلك: بأن الوضع أسوأ من أي وقت مضى. بعد أن كان معظمنا يحدوه الأمل بأن المشكلة قد وجدت حلّها، عادت المسألة العرقية فجأة وأصبحت قضية ساخنة من جديد. في هذه القضية كما في جميع القضايا الملغَّمة الأخرى، وحده أحمق أو مجنون يجرؤ على التفكير أو حتى التكهّن بهذه الانعطافات التي اتخذتها المسارات، ناهيك بدحضها.

وأخيراً وليس آخراً، سقطنا وقد اعترانا الذهول في منطقة متفرّدة في وعورتها والتباسها. قيل لنا إن بيننا عددٌ معتبرٌ من الأفراد حبيسي جسد خاطئ، وعليه فإنّ ما تبقّى من يقين في مجتمعاتنا (بما في ذلك اليقين المتجذّر في العلم واللغة) يحتاج إلى إعادة تأطير. كانت قضية العابرين جندرياً من بين أكثر القضايا إيحاءً. ومع أن قضية حقوقهم مسّت أقل عدد من الأفراد، إلا أنها كانت موضوع معركة بلغت من الضراوة والشراسة حدّاً لا سابق له. فرأينا نساءً وجدن أنفسهن في الجانب الخاطئ، يُلاحَقن مِن نساء كنّ حتى وقت قريب رجالاً؛ وآباء تجرؤوا على التعبير عن رأي كان لا يزال مهيمناً حتى وقت قريب، يُشكَّك في أهليتهم في أن يكونوا

(13) مصطلح ازدرائي يعني تنصيب الرجل نفسه للتعليق على شيء ما أو شرحه للمرأة بطريقة متعالية ومفرطة في الثقة وغالباً ما تكون غير دقيقة أو مفرطة في التبسيط. (م)

(14) انظر السجال بين السناتور كاتي غالاغر Katy Gallagher والسناتور ميتش فيفيلد Mitch Fifield في مجلس الشيوخ الأسترالي في 11 فبراير 2016.

آباء. رأينا أيضاً في المملكة المتحدة وأماكن أخرى، الشرطة وهي توبّخ المواطنين الرافضين بأن يعترفوا أن الرجال يمكن أن يكونوا نساءً (والعكس صحيح)[15].

تشترك جميع هذه القضايا في نقطة واحدة، وهي أنها بدأت كحملات مشروعة لحقوق الإنسان. هذا هو سبب تقدّمها حتى الآن. ولكن في مرحلة معينة، فلتت جميعها من عقالها. لم يكفِ هذه الحركات ما نالته من مساواة، فراحت تدافع عن مواقف لا يمكن دعمها وتطالب بـ«الأكثر». قد يجادل بعضهم بأن هدفها كان ببساطة التلذذ بهذا الـ«الأكثر» والمكوث فيه بعض الوقت بغية الوصول إلى ما يُشبه التوازن التاريخي. أصبح هذا النوع من الآراء شائعاً في أعقاب حركة MeeToo#. خيرُ مثال على ذلك ما قاله أحد مذيعي محطة CNN: «قد ينطوي التصويب على بعض المغالاة، ولا ضير في ذلك، فالتصويب لا مراء فيه»[16]. إلا أنّ أحداً لم يُشر في ذلك الحين متى تعلَن نهاية التصويب هذا، ومَن المؤهَّل للبتّ في الأمر.

يعلم جميعنا كمّ الصفات التي سيُلصق على الأشخاص إن وقعت أقدامهم في هذه الفخاخ المنصوبة حديثاً: «متعصّب»، «كاره للمثلية»، «متحيّز جنسياً»، «معادٍ للمرأة»، «عنصريّ»، «كاره للعابرين». وهذه الصفات غيض من فيض. تركّز النضال من أجل الحقوق في عصرنا على هذه القضايا السامة والمتفجّرة. والمشكلات الحقوقية التي كانت في البداية نتاجاً للمنظومة، أصبحت في اللاحق أسساً لمنظومة جديدة. وبات على من يريد من الناس أن يؤكّد انتماءه إلى هذه المنظومة أن يقدّم أوراق اعتماده ويثبت ولاءه. لكن كيف ذلك؟ كيف لشخص أن يؤكّد ولاءه في هذا العالم الجديد؟ بأن يكون «مناهضاً للعنصرية»، طبعاً، و«حليفاً» لحقوق الـ«LGBT»، بكل تأكيد، وأن يُشهر رغبته المحمومة في إسقاط النظام

---

(15) انظر على سبيل المثال الموضوع:
https://twitter.com/HarryTheOwl/status/1088144870991114241

(16) من مقابلة مع النائب ديبي دينغل Debbie Dingell على الـ*CNN*، بتاريخ 17 نوفمبر 2017.

الأبوي، رجلاً كان أم امرأة.

يُفضي ما تقدّم إلى خلق حالة تضجّ بالمزايدات الصاخبة، وتضاعف في أعداد الولاءات المقدّمة إلى المنظومة. تزداد هذه الولاءات بلاغة مع الوقت، وتُقدَّم عفو الخاطر، أكان ثمة حاجة إليها أم لا. نعثر هنا على استطالةٍ لإعاقة معروفة في الليبرالية، وقد رُصِدت حتى بين أولئك الذين خاضوا ذات مرة معارك نبيلة. أعطى الفيلسوف السياسي الأسترالي كينيث مينوغ Kenneth Minogue هذه الإعاقة اسم **«متلازمة القديس جورج المتقاعد»**. فبعد أن صرع المحاربُ المقدام التنينَ، طاف الأرجاء بحثاً عن تنانين أخرى بغية صنع مفاخر جديدة، الأمر الذي أرهقهُ بعد معارك واجه فيها تنانين أصغر فأصغر، فراح يلوّح بسيفه في الهواء الذي خُيِّل إليه أنه مزدحم بتنانين تأتيه من كل حدب وصوب[17].

وقع القديس جورج الفعلي في هذا الإغواء، فتخيّل سلوك مَن ليس بقديس، ولا فرس معه أو رمح، وليس فيه ما يلفت الانتباه. هنا يأتي السؤال الأهم: ما السبيل إلى إقناع الجمهور بأنه كان ليُردي التنين إن سنحت له الفرصة التاريخية بذلك؟

في عدد من التصريحات والاستدلالات المقتبسة في هذا الكتاب ما يُصوِّر هذه المتلازمة. فعلى الرغم من أنّ الثورة انتهت منذ وقت طويل، تزخر حياتنا العمومية بأفراد على استعداد تام للقيام بأيّ شيء بغية تشييد مزيد ومزيد من المتاريس، إمّا لأنه هُيئ لهم أن هذه المتاريس هي في الواقع منازلهم، وإمّا لأنه ما من منزل آخر لديهم يذهبون إليه. في كلتا الحالتين، من الضروري النظر إلى هذه القضايا بعدسات محدبة إن نحن أردنا البرهنة على خطورتها، الأمر الذي سيؤدي بلا ريب إلى تضخيمها.

نجمت عن هذا الوضع الجديد قضايا أخرى عديدة، ما دفعني إلى فحص أسس

(17) Kenneth Minogue, *The Liberal Mind*, Liberty Fund, Indianapolis edn, 2000, p. 1.

هذه الميتافيزيقا الجديدة الواحد تلو الآخر، مع كل ما يتطلبه ذلك من صرامة منهجية. يزداد عدد الناس ممن يملكون القانون إلى جانبهم، فيزعمون أن قضيتهم وجميع القضايا الأخرى قد وجَدت حلها وغدت موضع اتفاق وإجماع. لكن الوضع أبعد ما يكون من ذلك. فطبيعة ما ينبغي الاتفاق عليه لا يمكن في الواقع أن تكون هي نفسها موضع اتفاق وإجماع. أضف إلى ذلك أن جميع هذه القضايا هي على درجة كبيرة من التبدّل والتغيّر، بما يتجاوز قدرة مجتمعاتنا الحالية على الاعتراف بها. ولهذا السبب تقود هذه القضايا، التي فُرِضت بوصفها اللبنات الأساسية لأخلاق وميتافيزيقا جديدة، إلى إرساء أسس جنون معمَّم. وفي حقيقة الأمر، يصعب تخيّل ركيزة للوئام الاجتماعي أشدّ تقلقلاً من هذه الميتافيزيقا.

فلئن كانت المساواة العرقية وحقوق الأقليات وحقوق المرأة تشكّل أثمن مكتسبات الليبرالية، إلا أنها تشكِّل في الوقت نفسه أكثر أُسسها قلقلة. ومَثَلُ مَن يحاول تقوية هذه الأسس كمَثَلِ من يضع مقعد الحانة بالمقلوب، ثم يحاول التوازن فوقه. فمكتسبات هذه المنظومة عاجزة حتى عن إعادة توليد استقرار المنظومة التي أنتجتها. كلّ واحدة من القضايا المذكورة في هذا الكتاب هي في ذاتها عنصر متقلقل للغاية. ومع أنّ كلّ واحدة منها تمثُل بوصفها موضوع اتفاق عام ومشكلة محلولة؛ إلا أنها تنطوي جميعاً على ما لا يُعد ولا يحصى من التناقضات والافتراءات والخيالات التي، وإن كانت مرئية للجميع، فإن تعرّف الجمهور إليها وتحديدها يغدو موضوع تثبيط ونهي وضبط بالمعنى الحرفي للكلمة، وبعد ذلك يُطلب إلينا تبني آراء لا يمكننا تصديقها.

نضع أيدينا هنا على السبب الرئيس لقباحة النقاشات الدائرة في الإنترنت وفي الحياة الواقعية. يُطلب منّا القيام بخطوات عملاقة عصيّة على الإنجاز، وقد يكون من الحصافة عدم القيام بها. يُفرض علينا أيضاً تصديق أمور لا تصدّق، وعدم الاعتراض على ممارسات تثير عند غالبية البشر تحفظات كبيرة (مثل إعطاء الأطفال أدوية تمنعهم من البلوغ). كذلك نُلحق بالناس ألماً هائلاً عبر مطالبتهم

بالصمت حيال بعض الأمور الجوهرية والتصرف بلامبالاة حيال أخرى. وهو الأمر المستحيل، بسبب جسامتها أولاً، ثمّ بسبب تناقضاتها الداخلية. كلّ مَن عاش في ظلّ نظام حكم شمولي، يشهد على مقدار المهانة والدمار الذي يلمّ بالنفس نتيجة الاضطرار إلى تبني مواقف لا يعتقد بصحتها ولا يقوى على تحملها.

لو كان المطلوب هو الاعتقاد بأن جميع الناس متساوون في الحقوق، ويتمتعون بكرامة واحدة، لكان الأمر واضحاً وضوحَ الشمس في وضح النهار، ولا يسعنا إلا التسليم به. لكن المطلوب هو الإقرار بعدم وجود أي اختلاف بين المثلية والغيرية الجنسيتين، وبين الرجل والمرأة، وبين العنصرية ومناهضة العنصرية. إن من شأن مطلب كهذا أن يودي بنا لا محالة إلى الخبل، عاجلاً أم آجلاً. وهذا الخبل، أو جنون الحشود، هو ظاهرة تُحيط بنا من كل حدب وصوب. لا شك أن علينا اجتثاث هذه الظاهرة، اليوم قبل الغد. فإن نحن أخفقنا في ذلك، ترصدت بنا عواقب وخيمة. إن نحن أخفقنا، سنواجه مستقبلاً ملؤه الانقسام والسخط، فضلاً عن ازدياد احتمال ردود الفعل العنيفة ضد كل ما حصل من تطوّر على الصعيد الحقوقي، بما في ذلك الجيد منه. إنه مستقبلٌ يُردّ فيه على العنصرية بالعنصرية، ويعمّ التحقير على أساس الجندر. وما إن يبلغ الإذلال درجة معينة، لن تجد مجموعات الأغلبية ما يحول بينها وبين اللجوء إلى مكائد برهنت على نجاحها حين مورست عليها.

يقترح هذا الكتاب مجموعة من الوسائل لتلافي ذلك كلّه. تفترض أفضل وسيلة للبدء فهم الإرهاصات الأولى لتكوّن هذا الوضع، إلى جانب إتاحة الحرية لمناقشته. في أثناء تأليف هذا الكتاب، اكتشفت أن الجيش البريطاني يملك جهازاً لنزع الألغام يُسمى اليوم «البايثون»، لكن التصميم الأول له كان يُعرَف باسم «الأفعى العملاقة».

يُثبّت هذا الجهاز على مقطورة، وما إن يُشغّل حتى يُرسِل إلى حقل الألغام صاروخاً يجرّ وراءه شريطاً طويلاً يحمل معه عبوات متفجّرة، ويمتد إلى مئات

الأمتار. ما إن يستلقي هذا الشريط على حقل الألغام (يمكنك مشاهدة مقاطع فيديو عنه على الإنترنت، ككل شيء آخر) حتى يتسبب بها يُسمى «التفجيرات الوديّة». ما يعني أن انفجار الشريط يؤدي إلى اندلاع حقل الألغام على مدى نصف قطر كبير حول الشريط. هكذا، قد يعجز هذا الشريط عن تطهير حقل الألغام بالكامل، إلا أنه يرسم مساراً يجتاز هذا الحقل، وهذا من شأنه أن يتيح لوسائل أخرى، مثل الأشخاص أو الشاحنات أو حتى الدبابات، التقدّم بأمان داخل أرضٍ كانت في السابقة غير سالكة.

بطريقتي المتواضعة أودّ لهذا الكتاب أن يكون جهاز الأفعى الخاص بي. لا أروم تطهير حقل الألغام بكامله، ولن أستطيع ذلك حتى لو رجوته. لكنني آمل أن يسهم هذا الكتاب في إبطال مفعول ما يكفي من الألغام، ما يتيح للناس المضي داخل هذه الأرض بأمان وسلام تامين.

1

المثليون الجنسيون

في ليلة لندنية قارسة من شهر فبراير عام 2018، نُظّمت مظاهرة صغيرة أمام سينما قريبة من ميدان بيكاديللي. رفع المتظاهرون المتدثرون الصامتون لوحات كتب عليها بالخط العريض: «أُسكتنا». المارّة من اللندنيين الذين يحاولون الوصول إلى محطات حافلاتهم أو يعبرون الساحة للوصول إلى حانات سوهو، يرونهم بالكاد. يلاحظ زوج من المارة أن هذه المجموعة مؤلَّفة أساساً من أناس في متصف عمرهم ومن كبار السن. يتمتم أحدهما في أذن الآخر: «لا بد أنها مظاهرة لحزب استقلال المملكة المتحدة (UKIP)[18]». لكن لا، الأمر ليس كذلك. فهؤلاء العشرات الذين أتوا واجتمعوا هنا، إنما أرادوا مشاهدة فيلم بعنوان Voices of the Silenced [صوت من لا صوت لهم]. ولكن كما تشير لافتاتهم، أسكِت «صوت من لا صوت لهم» ومُنع من العرض.

أكّد المنظّمون أنهم كانوا قد حجزوا الصالة قبل ثلاثة شهور، والتزموا بمطالب الإدارة المتعلّقة بالعروض الخاصة، بما في ذلك الشرط القاضي بالاطلاع على الفيلم قبل عرضه. لكن قبل العرض بيوم، اكتشفت صحيفة PinkNews – صحيفة إلكترونية من بقايا الصحافة المثلية البريطانية – العرض وطالبت بإلغائه فوراً. امتثلت سينما Vue لهذا المطلب وقررت أن تحتاط ضد أي دعاية سلبية في

(18) حزب شعبوي بريطاني، وصاحب مواقف مشكّكة من أوروبا. (م)

حقها بالإعلان السريع عن حقّها في عدم الإيفاء بعرض الأفلام الخصوصية إن كانت «في تعارض مباشر» مع «قيمها». إضافة إلى ذلك، نبّهت الإدارةُ المجموعةَ التي استأجرت الصالة أن الإصرار على عرض الفيلم قد يُشكل «تهديداً للنظام العمومي»، وحتى «للأمن».

هكذا، كان على المنظمين، عندما حان العرض مع وجود 126 شخصاً أتوا من أماكن بعيدة لحضور هذا العرض – ومنهم من أتى من هولندا –، الركض في جميع الاتجاهات للعثور على حلّ بديل يتيح للمتظاهرين مشاهدة الفيلم. المنظّم الأساسي للأمسية هو الدكتور مايكل ديفيدسون Michael Davidson، من منظمة «الثقة في القضايا الأساسية». ليس ديفيدسون طبيباً، وإنما دكتور في علوم التربية. لكن، شأنه شأن بعض الشخصيات العامة التي تستخدم هذه البادئة، نشعر أن ديفيدسون لن يستاء إن عانى البعض من سوء فهمٍ بشأن الطبيعة الدقيقة لهذه الصفة.

كان ديفيدسون قد لفت انتباه جميع البريطانيين قبل ذلك بستة شهور، عندما دُعيَ ضيفاً إلى برنامج «صباح الخير بريطانيا» على قناة ITV، والذي شارك في استضافته بيرس مورغان Piers Morgan. سئل ديفيدسون حينها عن المثلية الجنسية وما يسمى بـ«علاجات التحويل». اعترف ديفيدسون أنه كان هو نفسه مثلياً – أو على الأقل خاض «تجارب مثلية». ثمّ في يوم من الأيام، قرر أن عليه اتباع طريق آخر، فتزوج بزوجته منذ خمسة وثلاثين عاماً، ورزق منها بطفلين. قدّر ديفيدسون أن آخرين يستطيعون السير على خطاه، لذا فهو يقدم في إطار هذه المجموعة نصائح تطوّعية موجّهة إلى أفراد يودّون أن يسلكوا دربه وينتقلون من المثلية إلى الغيرية. اعترف ديفيدسون أنه ما زال يشعر ببعض «الحفزات»، من دون أن يستسلم لها بالطبع.

وعندما دخل الآخرون في سجال معه حول هذه المسائل على التلفزيون الوطني، أوضح ديفيدسون بهدوء واتزان **أنه يرى في المثلية الجنسية «انحرافاً»**، وبدقة أكبر

«**سلوكاً مكتسباً**». وعن السؤال هل يستطيع المرء نبذ طباع هذا السلوك، أجاب: «في حالات معينة، يمكن الرجوع عنه عند الأشخاص الذين يرغبون في إعادة توجيه مسار حياتهم». ما إن تمكّن ديفيدسون من التعبير عن هذا الرأي وتوضيحه حتى توجّه إليه مستضيفه الرئيس بيرس مورغان بأصبع الاتهام أمام بقية الضيوف في البرنامج قائلاً: «هل تعلم ماذا نسمي الناس [مثلك]، دكتور مايكل؟ نسميهم صغار المتعصبين الفظيعين، في العالم الحديث. متطرفون متشددون يتشدقون بترهات، وبرأيي إنهم يشكلون جزءًا خبيثًا وخطيرًا في مجتمعنا. ما مشكلتك؟ كيف تجرؤ على القول بأن لا أحد يولد مثليًّا، وبأن المثليين جميعهم منحرفون ويمكن لهم التعافي من مرضهم؟ من أنت لتتلفظ بمثل هذه الحماقات؟».

بعد ذلك، استجمع ديفيدسون قواه وطلب من مورغان أن يزوّده بما لديه من براهين على أن المثليين يولدون مثليين، خصوصاً أنَّ «الجمعية النفسية الأميركية» و«الكلية الملكية للأطباء النفسيين» لا تعتقدان بأن المثلية فطرية ودائمة. عند هذه النقطة أمره محاوره «بالتوقف عن الكلام للحظة وعدم ذكر هؤلاء العلماء الأميركيين الحمقى». ثم استمر مورغان بكيل الشتائم على ضيفه: «أغلق فمك، أيها المتعصب العجوز!» قبل أن يُنهي المقابلة بالعبارة: «لقد اكتفيت منه. دكتور مايكل، فلتخرس!»[19]. أي أن محطة ITV أرسلت سيارة إلى مكان إقامة الضيف في الصباح الباكر، لكي تصحبه إلى أستديو التلفزيون الوطني، لغرض واحد وحيد، وهو أن تلزمه بالسكوت خلال المقابلة الخاصة به.

بعد ستة شهور من هذا الحادثة، ما زال ديفيدسون على إصراره غير آبه بهذه الضوضاء الإعلامية. وبعد حديث خاضه على الهاتف المحمول أمام الصالة الملغيّة في بيكاديللي، ظهرت أمارات الارتياح على وجهه وصار بمقدوره أن يعلن لجمهوره أنه عثر أخيراً على مكان لعرض الفيلم. هكذا توجّهت المجموعة رجالاً

---

(19) *Good Morning Britain, ITV,* 5 September 2017.

ونساءً إلى مركز إيمانويل في وستمنستر، بالقرب من مجلسي البرلمان.

كانت أبواب المكان مغلقة بإحكام شديد، وللدخول يجب طرق باب جانبي وذكر الاسم والانتظار حتى التحقق من وجود الاسم في القائمة ليفتح الباب ويؤذن لك بالدخول. بمجرد الدخول ترى أمارات الاحتفال في الداخل. ثم حصلنا جميعاً على كأس من بروسيكو وكيس من الفشار لنأخذها معنا إلى العرض. استقبلتني امرأة مسنة وشكرتني على قدومي، وأضافت: «أعرف بالطبع خلفيتك». فهمت أنها لا تتكلّم على المكان الذي نشأتُ فيه، ثم استدركت قائلة: «لأنك تتحدث عنها في أغلب الأحيان». لكنها بيّنت لي أنها بذلك إنما تريد فقط أن تعبّر لي عن مدى سرورها برؤيتي هنا. والحقيقة أنني قد أكون المثلي الوحيد الذي يحضر علانية عرضاً في شأن تعافي المثليين. ومع ذلك انتابني شعور أكيد بأنني لست المثلي الوحيد الحاضر في الصالة.

أمّا الفيلم، فلم يكن على القدر المأمول من الاتساق. فكرته الأساسية (كما يشرحها ديفيدسون في البداية) هي «التقاء الأيديولوجيات القديمة والأيديولوجيات الحديثة». لا نفهم البتة كيف ذلك، ويحدونا إحساس قويٌّ بأنَّ فيلمين مختلفين قد اندمجا بصورة سيئة في مرحلة متقدمة من المونتاج. يُعيد الأول إلى الأذهان العالم القديم على هيئة صور أبوكالبتية مريعة. أما الثاني فيتألف من شهادات مفصَّلة جداً من أطباء ومرضى يتحدثون كيف كانوا مثليين، ثم كيف ما عادوا كذلك. وبالإضافة إلى الدكتور ديفيدسون، نسمع الدكتور ستيفن باسكرفيل Stephen Baskerville وخبير من تكساس يُدعى (لا يمكنني إخفاء ضحكتي) ديفيد بيك أب David Pickup[20].

وفي كل مرة يذكر فيها تدمير الهيكل عام 70 بعد الميلاد وتشييد قوس تيتوس، نعود إلى المثليين مرة أخرى أو إلى المثليين الذين شفوا. يُشرح لنا أن «العقيدة

---

(20)Pick-up = مغازلة. (م)

الجديدة للدولة تحتفي بالمثلية». ثم نستمع إلى شهادات، إلى جانب سلسلة من «الخبراء» الأميركيين على نحو خاص. لم يتوضّح البتة الرابط المفترض بين ذلك كله وبين قوس تيتوس. هل المقصود أن المثلية تتسبب بانهيار هذه الحضارة؟ قد يكون الأمر كذلك، لكن الاتهام لا يُعبّر عنه بصريح العبارة. نسمع مثلية سابقة قد تزوجت اليوم وأم لخمسة أطفال، وتشرح لنا كيف أن «هشاشتها» عادت إلى الواجهة منذ عشرة أعوام، لكنها تلقت المساعدة على يد قس. يتحدّث عدد من الشهود عن أفكار انتحارية وتعاطي الكحول و«التمركز حول الذات». ذكر أحدهم (جون John) أن أمه كانت «يهودية»، وهي عبارة ما عدنا نسمعها كثيراً في أيامنا. نسمع كذلك ألمانياً يبلغ 29 عاماً ويدعى مارسيل Marcel وهو يصف لنا المحن التي مر بها بالتفصيل الممل. يحكي لنا كيف كانت أمّه تضربه عندما كان صغيراً، عارياً أمام أخته، الأمر الذي قد يُفسّر جزئياً – كما هو مقترح – انجذابه السابق للرجال. يتحدّر بعض الأشخاص المستجيبين من أسر شهدت طلاق الوالدين. وبعضهم لا. بدا العديد ممن يقدمون الشهادات مقرّباً من أمه. وآخرون لا.

تقدّم الدكتور جوزيف نيكولوسي Joseph Nicolosi - أحد نجوم الفيلم - بطرح فكرة مفادها أن كثيراً من «المرضى» يكره في الواقع أمه، ولا يعرف كيف يتعامل مع الرجال، الأمر الذي يدفعه إلى تطوير هوامات معينة. ثم يقترح دواء لكل فرد شوّشته الإغراءات المثلية الشبقية: أن يكرّس نفسه لنشاط صحي، مثل ارتياد «صالة ألعاب رياضية». الأمر الذي يشي بأنّ قَدم الدكتور نيكولوسي لم تطأ يوماً صالة رياضية.

من السهل طبعاً السخرية من ذلك كله، وقد يستسهل البعض السخط والغضب. لكننا أمام قصص إنسانية. منها ما رواه جون John وليندسي Lindsay ومعاناتهما من الانجذاب إلى الجنس نفسه، وكيف نجحا في تخطي الأمر معاً. وهما الآن يعملان معاً ويشكلان زوجاً غيرياً ناجحاً، ورزقا بخمسة أطفال. «السنا

الوحيدين»، تُطمئن ليندسي قائلة، «نعرف العديد [ممن خاضوا علاقات مع أفراد من الجنس نفسه] وهم اليوم سعيدون في زواجهم». ثم تضيف: «إنه عمل شاق». يجلس جون مضجعاً إلى جانبها، ويردف قائلاً: «سيشقّ الأمر على الحائرين. أعتقد بأن علينا المضي بالأمر إلى نهايته. لا سيما في الوقت الحالي، إذا ما أخذنا في الاعتبار وسائل الإعلام وجميع الضغوطات الثقافية التي تحملنا على الانحراف عن المسار».

أظن أن الشخصيات المستجيبة التي كانت مثلية في السابق لكنها تظهر هنا مخفية الوجه، هي الأكثر مدعاة للأسى. لا أستطيع أن أمنع نفسي – ولعلّي أبالغ في الإشفاق هنا – من ملاحظة أن ضرورة إخفاء الوجوه أو تصويرها من الخلف كانت حتى وقت قصير تُطبّق في الاتجاه المعاكس.

يقترب الفيلم من نهايته، فيظهر قس إيرلندي ليوجز جزئيًّا طرحه. يشرح القس أنه ليس ضد أن يتمسك أحدهم بالحجة القائلة بأن المثلية الجنسية فطرية ودائمة، لكنه يطلب في المقابل أن نسمح له بالتعبير عن وجهة نظره هو الآخر. وكما يكرر الدكتور باسكرفيل، يبدو أن موقفاً واحداً فقط من هذه المسألة يُقبل اتخاذه في الأوساط الأكاديمية ووسائل الإعلام، وهو «الترويج» للمثلية الجنسية. يقال لنا في لحظات الفيلم الأخيرة: «الجنسانية قد سُيِّست». وبعد ذلك، بعد إشارة أخرى غير مفهومة إلى اليهود القدماء، ينتهي الفيلم بالعبارة الدرامية والحذرة: «لقد حان وقت قبول الاختلاف».

لاقى الجمهور الفيلم بترحيب حار، كما كنت أتوقع بالضبط. بعد ذلك جاء فصل شاق ومضنٍ. فقد دعيت شخصيات عدة ممن ظهرت في الفيلم للصعود إلى الخشبة لتنال المزيد والمزيد من التصفيق. بين هؤلاء شاب بريطاني يُدعى مايكل Michael. بدا عليه بعض التوتر والارتجاف والضيق. على جبهته تجاعيد أكثر مما نتوقعه من شخص في عمره. كان قد شرح في الفيلم أن أسباباً متعددة دفعته إلى عدم الرغبة في الاستمرار كمثلي وإلى اختيار درب مضنٍ داخليًّا، بهدف محاولة

العيش كغيري وأن يصبح (أسوة بالدكتور ديفيدسون) مثلياً سابقاً. لعلّه تمنّى هو أيضاً أن يذوق مع الوقت المسرّات نفسها: أن يكون لديه زوجة وأطفال. ثم انتهت الأمسية بالصلاة.

في طريق العودة والأيام التالية، تساءلت عن أمسيتي هذه مع معالجي للتحويل الطوعي. كان السؤال الأساس الذي طرحته على نفسي هو: لماذا لم تَستثر لدي هذه المسألة قدراً كبيراً من الازعاج؟

أولاً، لا بد من القول إنني لا أخشى هؤلاء الأشخاص، وأشعر بعجز عن إبداء المستوى نفسه من السخط الذي قررت الصحافة المثلية تداوله في لحظة كانت تفقد فيها بوصلتها. وإذا كان لا بد من ذكر سبب لذلك، فهو أنني لا أرى أن الحوادث تسير في الاتجاه الذي تمنّاه الجمهور المجتمِع في مركز إيمانويل في تلك الليلة. فهم يقفون في الجانب الخاسر، اليوم وفي المستقبل القريب.

يُعامل هؤلاء بازدراء عندما يظهرون على الشاشة – ازدراء لا مبرر له ربما. ويبدون عاجزين عن صناعة أفلام وثائقية يمكن مشاهدتها، ناهيك بعرضها. ويضطرون إلى الاختباء في أماكن سرية، لا يبدو أن مسألة خروجهم منها قد تحدث في وقت قريب.

لا شك في أنني لو كنت شاباً مثلياً ترعرع في منطقة ريفية من أميركا أو بريطانيا – حتى اليوم – لكان لي ربما رأيّ آخر. لو أمضيت طفولتي في بعض من مناطق «الحزام الإنجيلي[21]» الأميركي، ولو عشت أو كنت عرضة لمعالجَة تحويلية إجبارية كتلك التي كنّا نمارسها في السابق – وهي معالجة ما زالت تمارَس في مناطق معينة من العالم اليوم –، لكنت نظرت إلى الدكتور ديفيدسون وأصدقائه نظرة أخرى مختلفة.

(21) وهي الولايات الجنوبية للولايات المتحدة، والتي كانت انفصالية في السابق، ويغلب عليها الطابع المسيحي الأصولي. (م)

لكنهم، هنا، في هذا المساء، هم القوم الخاسرون. ومع وعيي بالإثارة الانتقامية التي يسمح لنا تبدّل الأدوار التلذّذ بمذاقها، فإنني أنفر من فكرة التعامل معهم، في ساعة النصر، كما كان من الممكن لبعض رفاقهم الأيديولوجيين أن يُعاملني لو تقابلنا من قبل وفي ملابسات مختلفة. ذلك أن الطريقة التي يتصرّف بها الأشخاص والحركات ما إن يُحققوا الانتصار، إنما هي علامة كاشفة للغاية. هل عليّ السماح لحجج استخدمت ضدي ذات مرة أن تستخدم ضد آخرين؟ هل مبادئ المعاملة بالمثل والتسامح أوراق نستر بها عورتنا؟ وهل على من تعرّض للرقابة أن يُخضع لها الآخرين ما إن يتبوأ السلطة؟ اليوم، اختارت سينما Vue معسكرها. كان من الممكن أن تنضمّ للمعسكر المضاد منذ بضعة عقود. أمّا PinkNews وأولئك الذين يحتفون بنصرهم عبر حظر صوت من لا صوت لهم في إحدى ليالي فبراير، يبدو لي أنهم قرروا ممارسة سلطتهم على حدث خصوصي. إلا أنهم بذلك يُناقضون مطالب النشطاء من أجل حقوق المثليين منذ بداية النضال من أجل المساواة، والتي مفادها أنه لا ينبغي أن يعني الآخرين ما يفعله بالغون متراضون في الفضاء الخصوصي. فإن كان ذلك يُطبّق على حقوق المثليين، من المؤكد أنه يجب أن يُطبق على حقوق الأصوليين المسيحيين والجماعات الأخرى أيضاً.

ثمة أمران آخران. الأول، لكي تخشى مما كان يحدث في ذلك المساء، عليك أن تنتقل إلى الاستنباط. عليك أن تشك في أن تأكيد ديفيدسون أنه لا يريد إلا التعامل مع الأشخاص الذين يأتون إليه طلباً للمساعدة، ليس سوى كذبة بيضاء. عليك أن توقن أن هذا ليس في الحقيقة سوى واجهة، أي مرحلة من مخطط أوسع يهدف إلى تحويل خيار طوعي إلى انتساب إلزامي، ومن ثم تحويل الانتساب الإلزامي والمحدود إلى تجنيد معمَّم. نحن هنا أمام محاكمة للنوايا من شأنها أن تدوس على جميع أسس التسامح السياسي، إذ فيها ينسب المرء لنفسه الحق في استخلاص ما شاء من النتائج في شأن الآخرين، إلى جانب حقه في أن يسند إليهم دوافع لا تقوم على معاينة، وإنما على مجرد ارتياب. يدفعنا ما تقدّم إلى طرح سؤال، على كلّ فرد

في مجتمع يراعي بحق التنوع والتعددية أن يطرحه في لحظة معينة: «هل ننظر إلى أقوال الآخرين بحرفيتها، أم علينا أن نحاول قراءة ما وراء الأقوال والأفعال وما في القلوب، ونعثر فيها على الدوافع الحقة التي لم تكشفها بعد أقوالهم وأفعالهم؟».

إن كان علينا أن نتصرف على هذا النحو في حالات مشابهة، ماذا نحن فاعلون؟ هل نصرّ على أن لدى الطرف الآخر أحلك الدوافع الممكنة، ما لم يقنعنا إقناعاً تاماً أن دوافعه من طبيعة أخرى؟ أم علينا أن نتحلّى بدرجة معينة من الأناة والثقة؟ حتى الإجابة عن هذه الأسئلة ليست ثابتة، وتتنوع بتنوع التاريخ والمكان والملابسات والحظ. لنأخذ شخصاً في السبعين من عمره، وخضع لعلاج تحويلي إجباري (وبخاصة إذا استخدم هذا العلاج الطريق «التنفيري»)، فإن هذا الشخص سيكون لديه سبب للريبة أكثر من أيّ شخص آخر من جميع الأجيال التالية التي كانت أوفر حظاً في هذا المجال. ينطلق جرس الإنذار بسرعة كلما كان ضبطه مبكراً وفي أوقات عصيبة.

قد تخفّ حدة هذه التباينات بين الأجيال والجغرافية مع مرور الوقت، وقد يكون لشبكات التواصل الاجتماعي آثار تجانسية من شأنها أن تجعلنا جميعاً على قدر واحد من التفاؤل. أو قد يكون لجميع هذه الأدوات الأثر المعاكس، فتقنع مثلياً من أمستردام عام 2019 بأنه مُعرّض بصورة دائمة لخطر العيش في ألاباما الخمسينيات. كل شيء ممكن. ففي هذا العالم الذي نعيش فيه، جميع المخاوف والتهديدات والآمال التي يمكن للإنسان تخيّلها، هي أدوات ممكنة قد يُستعان بها.

غير أن تجنّب المواجهة الدائمة أمر ممكن في هذا العالم، وذلك عن طريق القدرة على الاصغاء إلى كلمات الناس وإبداء بعض الثقة فيما يقولوه. لا شك في أن هناك بعض الحالات الحديّة حيث يجب أن نحفر في ما وراء الكلمات، عندما نتنبّه إلى أن شيئاً ما غريب يحدث، لكي نتأكد من أن ليس هناك ما يدعو إلى القلق. لكن إن حفرنا ولم نعثر على شيء، يجب حينئذ أن نثق بكلام الآخر. وبالمناسبة، فإن أي من

الصحف التي سعت إلى إسكات صوت من لا صوت لهم، لم تستطع أن تظهر أن ديفيدسون أو زملائه كانوا يجبِرون المشاركين المعاندين على الخضوع لنظام التحوّل الجنسي الغيري. بل إن صحيفة من هذه الصحف لم تحسب أن عليها الاستعلام عن المضمون الدقيق للفيلم ولا عن طرائق «الاستشارة النفسية» الموصى بها. بدلاً من ذلك وُضعت سلسلة من الافتراضات بخصوص هذه المجموعة، وأوّلت أقوال ديفيدسون تأويلاً وتبعاً للمقاصد التي خُلعت عليها. وفق هذه الشبكة التأويلية، «طوعي» تحوّلت إلى «إجباري»، و«استشارة» إلى «اضطهاد»، وكل من قصد هذه الشخصية هو مثلي بشكل لا رجوع فيه وعصي على التغيير.

يُثير هذا الافتراض الأخير التحدي الكبير الوحيد الذي يُمثّله ديفيدسون وزملاؤه. في كتابه الموسوم On Liberty [عن الحرية]، الذي نُشر لأول مرة في عام 1859، وضع جون ستيوارت ميل John Stuart Mill أربعة أسباب تبيّن ضرورة حرية التعبير في مجتمع حر. السبب الأول والثاني، هو أن الرأي المخالف قد يكون صائباً، أو صائباً جزئياً، لذا قد يكون من الضروري الإصغاء إليه لتصويب آراءنا الخاطئة. السبب الثالث والرابع، هو أن الرأي المخالف، حتى لو كان خاطئاً، فإن قوله قد يساعد في تذكير الناس بالحقيقة ويمنع انزلاقها وتحوّلها إلى عقيدة جاهلة قد تضيع بمرور الوقت - إذا لم يعترض عليها أحد[22].

يبدو أن الالتزام بمبادئ ستيوارت ميل يشقّ على كثير من الناس اليوم. وهو أصعب بالفعل من مجرد تغيير العقيدة. في السنوات الأخيرة، تحول الرأي المقبول بشأن حقوق المثليين في أمريكا وبريطانيا ومعظم الديمقراطيات الغربية الأخرى بشكل لا يمكن تخيله، وإلى الأفضل. لكن هذا التطوّر حدث بسرعة كبيرة، لدرجة أنه شهد أيضاً استبدال عقيدة بأخرى. فانتقلنا من موقف الازدراء الأخلاقي إلى موقف التعبير عن الازدراء حيال أي شخص يُجاهر بآراء تبتعد ولو

(22) John Stuart Mill, *On Liberty*, Penguin, 2006, pp. 60 – 1.

قليلاً عن نطاق الموقف المسموح حديثاً. لذا فإن المشكلة ليست في أننا قد نكون عاجزين عن الإصغاء إلى وجهات النظر الخاطئة فحسب، بل في أننا قد نكون عاجزين أيضاً عن الإصغاء إلى الحجج التي قد تتضمن قسطاً من الحقيقة.

مهما كانت حبكة الفيلم مشوَّشة، ومهما كانت رؤيتهم للعالم منغِّصة في جوهرها، فإن ديفيدسون وزملائه يستفهمون بشأن طبيعة الانجذاب الجنسي. وهنا ندخل في مياه عميقة وسامة. غير أن العقم، كل العقم، يكمن في الإقرار بوجود مثل هذه المياه والامتناع عن الغوص فيها.

في ما يخص الجنسانية، يكشف المشهد الأيديولوجي الجديد عن دوغمائية تضاهي دوغمائية المشهد الذي حلّ محلّه. في يونيو 2015، أعلن وزير التربية البريطاني المحافظ آنذاك أن الآراء المعادية للمثليين كانت دليلاً على «التطرف» المحتمل لدى تلاميذ المدارس في بريطانيا. كذلك نقلت محطة BBC عن نيكي مورغان Nicky Morgan قولها إن «مهاجمة القيم البريطانية الأساسية أو التعصب الشديد ضد المثلية الجنسية هي أمثلة على السلوكات التي يمكن أن تدق ناقوس الخطر». كانت هناك دلائل عن تلميذ ربما جرى «إعداده» على يد «متطرفين»، وقد يكون من الضروري إبلاغ الشرطة عن تلميذ وصف المثلية بـ«الشر»[23]. المثير للاهتمام أن مورغان، في مايو 2013، صوّتت ضد قانون إدخال زواج المثليين في المملكة المتحدة. بعد عام واحد، في 2014، قالت إنها تدعم الآن زواج المثليين وستصوت لصالحه إذا لم يكن قد أصبح قانوناً بالفعل. ثم بعد عام آخر، في 2015، أعلنت أن وجهات نظر مثل تلك التي جاهرت بها، هي نفسها، قبل عامين، ليست دليلاً على «التطرف»، ولكنها في العمق ليست بريطانية.

في التسعينيات، دعمت هيلاري كلينتون Hillary Clinton «قانون حول الدفاع عن الزواج»، بمبادرة من زوجها، والذي سعى إلى منع زواج المثليين من أن يصبح

(23) 'Nicky Morgan says homophobia may be sign of extremism', *BBC News*, 30 June 2015.

ممكناً في الولايات المتحدة. ولم تحتج عندما دعم بيل كلينتون Bill Clinton سياسة «لا تسأل، لا تخبر» المتعلقة بالمثليين في الجيش الأمريكي، والتي تهدد بالتسريح الفوري من القوات المسلحة لكل جندي يخبر شخصاً آخر عن مثليته. وكما كتب روبرت صامويلز Robert Samuels في صحيفة Washington Post، فإن «هيلاري كلينتون حظيت بفرصة جعل حقوق المثليين من الماضي. لكنها رفضت[24]». ومع ذلك، في عام 2016، عندما كانت تقوم بحملتها الانتخابية للرئاسة للمرة الثانية وتغيرت آراء المجتمع الأوسع بشكل ملحوظ، كان مجتمع LGBT (وهي التسمية الجديدة للمثليين حينها) واحدًا من القطاعات المخصوصة في البلاد التي راحت كلينتون تقصدها بغلواء خاص. أن يُغيّر السياسيون مواقفهم لهو أمر ليس بالنادر. لكن السرعة التي تغيرت بها الأعراف أحدثت بعض التغييرات الحادة في المواقع، كانت ملحوظة بشدة لدى الطبقة السياسية.

حدث هذا التغير في الموقف لدى شعوب وبلدان أخرى بسرعة أكبر وضوضاء أكثر. فبعد أن أصبح الزواج المثلي قانونياً في ألمانيا، صار القبول به شرطاً للجنسية في ولاية بادن فورتمبيرغ. **البارحة كان هناك عقيدة، تبرأنا منها اليوم واستبدلنا بها عقيدة أخرى.**

لم يقتصر هذا التبرؤ الفظ في السنوات الأخيرة على السياسيين والشخصيات العامة. فالصحف التي كانت حتى وقت قريب تبدي بعض النفور بشأن المثليين، تغطي اليوم حفلات زواج المثليين بوصفه خبراً مثل أي خبر آخر في المجتمع. وكتّاب الأعمدة الذين كانوا، منذ ما لا يتجاوز بضعة سنوات، يدينون السن القانوني للموافقة[25]، ها هم اليوم يوبخون المواطنين الذين لا يقبلون قبولاً مطلقاً زواج المثليين. خير مثال على ذلك ما حدث مع المنشّطة التلفزيونية في محطة

---

(24) Robert Samuels, *Washington Post*, 29 August 2016.

(25) في بريطانيا، عُدِّل سن الرشد الجنسي (سن الموافقة) للمثليين جنسياً تدريجاً ليتماشى مع سن الموافقة لدى الغيريين جنسياً. (م)

MSNBC، جوي ريد Joy Reid، التي أهينت علناً وأجبرت على الاعتذار بعد اكتشاف تعليقات لها تعود إلى أكثر من عشر سنوات تنتقد فيها زواج المثليين، وذلك في زمن كان فيه الجميع تقريباً لا يدعمه. عندما يحدث تطوّر بمثل هذه السرعة، لا ندخر جهداً لتعويض الزمن الضائع، مع بعض من الشفقة إزاء من يتأخر باللحاق بركب هذا التطوّر.

جعل كل شيء مثلياً

هكذا يعتقد بعض الأفراد والحكومات والشركات بأن وظيفته هي تعويض الوقت الضائع، فيفرض في النقاشات المتعلقة بمشكلات المثليين خطأً يتجاوز مجرّد القبول، ويندرج بالأحرى في سجل «سيكون هذا مفيداً لك».

بحلوم عام 2018، بدا أن محطة BBC قد قررت وجوب نقل الأخبار المتعلقة بالمثلين، علاوةً على تقديمها بوصفها أخباراً رئيسة. في شهر سبتمبر من هذا العام، كان أحد أهم عناوين اليوم على موقع المحطة هو أن «بطل الغطس توم دالي Tom Daley كان قد شعر بـ«الدونية» بسبب جنسانيته، لكنه استمد من هذه العقدة الدافع الضروري لنجاحه»[26]. نُشرت المقالة بعد خمس سنوات من تصريح دالي عن ميوله الجنسية. ولم يكن الرجل متحفظاً بشأن الحديث عن حياته الخصوصية خلال هذه الفترة. ومع ذلك، شكّلت هذه الرواية عن تجربةٍ معيشة موضوع مقالة تعبّر عن رأي الصحيفة على موقع BBC الإلكتروني، وجاء عرضها مباشرةً بعد أنباءٍ عن زلزالٍ وتسونامي في إندونيسيا أودى بحياة أكثر من 800 شخص. بعد ذلك بيوم واحد، نشرَ هذا الموقع نفسه على صفحته الرئيسة خبراً عن أولي لوك Ollie Locke، وهو نجم صغير من نجوم تلفزيون الواقع، أعلن زواجه الوشيك من خطيبه غاريث لوك Gareth Locke ليشكلا الزوج الذي

(26) 'Desert Island Discs: Tom Daley felt "inferior" over sexuality', *BBC News website*, 30 September 2018.

يجب تسميته إذاً: آل لوك لوك.[27] في عناوين الأخبار الأخرى، ارتفع عدد ضحايا الزلزال الإندونيسي ارتفاعاً كبيراً بين عشية وضحاها.

لعل الأمر يتطلّب شخصاً مثلياً ليستطيع قول الآتي: إنّ مِن التقارير «الإخبارية» ما لا يمتّ إلى التقارير الإخبارية بصلة، بل هي أشبه برسائل موجهة إما إلى الجمهور وإما إلى الأشخاص الذين تقدّر وسائل الإعلام أنهم في مواقع السلطة. يتجاوز ما تقدّم الخط («سيكون هذا مفيداً لك»)، ويصبح أقرب إلى («**ما رأيكم بذلك أيها المتعصبون؟**»). نسأل أنفسنا أحياناً ما هو شعور الغيريين وهم يرون الإصرار المتزايد على فرض المقالات بشأن المثليين بسبب ومن دون سبب، وفي جميع ميادين الأخبار.

لنأخذ عدداً عادياً من أعداد صحيفة The New York Times. في 16 أكتوبر 2017، إذا ما قرر قارئ الإصدار الدولي من الصحيفة أن يأخذ استراحة من صفحات الرأي ويتجه نحو وجبات أدسم منتقلاً إلى صفحات «الأعمال»، فإنه سيقع على مقالة رئيسة بعنوان: Gay in Japan and No Longer Invisible [«المثليون في اليابان، لا اختباء بعد اليوم»]. لعل القارئ العادي لصفحات الأعمال في هذه الصحيفة لم يفكر كثيراً بمنظورية المثليين في اليابان، وأصبحت الفرصة سانحة أمامه الآن ليتعلم بعضاً مما كان يجهله. بتحديد أكبر، تدور القصة حول شونسوكي ناكامورا Shunsuke Nakamura الذي استغل مؤخراً اجتماعاً صباحياً مع زملائه الموظفين في شركة التأمين الخاصة به ليصرّح أمامهم أنه مثلي الجنس. يجري ذلك في بلد تميل فيه المواقف حيال المثلية الجنسية (نقلاً عن قولٍ ورد في المقالة لأستاذ في إحدى جامعات طوكيو) إلى «اللامبالاة أكثر مما إلى الكراهية». لذا اختارت هذه الصحيفة أن تفرد لهذا الحدث مقالةً من صفحتين، على رأس ملف «الأعمال»، تروي طريقة تصريح الرجل عن ميله المثلي في الشركة،

(27) 'Made in Chelsea's Ollie Locke to become Ollie Locke-Locke', *BBC News website*, 1 October 2018.

ومن دون أي تبعات، في بلد لم يسجل أي مشكلة خاصة مع المثليين. لا بد أن الأسواق كانت هادئة جداً لكي تقدّم هذه المقالة وجبةً أساسية في هذا الملف.

اقلبوا الصفحة وستستمر الحكاية، هذه المرة تحت عنوان: ‘Companies in Japan More Welcoming to Gays’ [«الشركات اليابانية أكثر ترحيباً بالمثليين»]. في هذه اللحظة، قد يقرر القارئ، بعد أن قدّر أنه اكتفى من الاطلاع والاطمئنان على حالة المثليين في الشركات اليابانية، أن يختلس نظرة مذنبة على الصفحة المقابلة، على قسم «الثقافة» بالتحديد. لكن ما هي المقالة والعنوان الرئيس في هذا القسم؟ ‘A Broader Stage for Love’ [«اتساع رقعة الحب»].

لا تدع الصورة المرافقة للمقالة التي تشغل نصف الصفحة (عن راقصين تتشابك أذرعهما وأجسادهما) مجالاً للشك حول مضمون المقالة. يُعلن الصحفي لقرّائه أن «الباليه أبطأ من معظم أشكال الفن الأخرى في هذا الصدد». ثم يتابع مفعماً بالحماس ويقول: «ولكن في غضون أسبوعين فقط، قدّمت فرقة باليه مدينة نيويورك، وهي إحدى الشركات الرائدة في العالم، عرضي باليه يتضمنان ثنائيات مهمة بين أشخاص من الجنس نفسه».

سبب هذه الجلبة الكبيرة هو عرض باليه بعنوان The Times Are Racing [وتتسابق الأزمنة]، عَهِد فيه مصمم الرقصات في فرقة باليه مدينة نيويورك، إلى رجلٍ، دوراً مصمَّماً في الأصل لامرأة. من ناحيتها تشرح صحيفة The New York Times كيف أن عالَم الرقص الكلاسيكي، الذي ظلّ حتى الآن غيريّاً في مجمله، «قد استجاب أخيراً لمتطلبات العالم المعاصر واضعاً إياه على خشبة الباليه». كذلك وعد مصمّم رقصات آخر بـ«استكشاف حياد الجندر» في عمله، في منشور على Instagram مع هاشتاغات «الحب هو الحب»، و«حياد الجندر»، و«المساواة» و«التنوع والجمال»، و«الفخر». وانتقِد مصمم رقصات واحد وحيد، ووصف بالهرطقي والمتطرف، بسبب اعتقاده المعلَن بأن هنالك «أدواراً محدَّدة للجنسين في الباليه التقليدي»، وبأنه لئن «كان للرجال والنساء القيمة نفسها»، إلا أن «مهامهم

مختلفة». لكن هذا طبعاً لم يكن رأي نجوم فرقة باليه مدينة نيويورك وصحيفة The New York Times.

نكتشف، من دون مفاجأة كبيرة، أن العديد من نجوم الفرقة هم أنفسهم مثليون. يشرح للصحيفة أن شريكه التفت إليه منذ بداية التدريبات، فيقول: «لا تتخيل فرحتي بأن أستطيع تأدية دور أشعر فيه أنني قد أقع في حبّ الشخص الذي أرقص معه، بدلاً من أن ألعب دور الأمير الذي يقع في حب الأميرة...». الأمر الذي قد يُردّ عليه بأن الشخص الذي ينتابه الملل في المشاهد التي يقع فيها الأمراء في حب الأميرات، عليه أن يبحث عن مكان آخر غير الباليه. لكن في حال لم يكن هذا التفجّر للتنوع على خشبة الباليه كافياً، فإن في جعبة المقالة المزيد مما يصبّ في مسار هذا التفكير الصائب، فتُضيف أن هذا الإنتاج «لا يكتفي باستكشاف العلاقة الجنسية فحسب، بل قضايا تتعلق بالعرق أيضاً». يصف مصمم الرقصات انطباعه المتأتي من مشهد رجلين يرقصان معاً قائلاً بأنه «يحبس الأنفاس»، ويختتم المقالة بالقول: «فجأة، أصبح بإمكانهما على سجيتهما». والآن أصبح بمقدور قارئ الصحيفة أن يتوجّه إلى الصفحة «الثقافية» الكبيرة التالية، ليرى: مقالة حول كيف استطاعت القصص المصوّرة النسوية التي تتندّر بشأن الحمل والأمومة، أن تفرض نفسها في نهاية الأمر[28].

لا ضير في أن تقرر صحيفة مرجعية تخصيصَ صفحاتها الخاصة بالأعمال والثقافة، بالإضافة إلى كثير من صفحات الرأي والأخبار، لموضوعات خاصة بالمثلية الجنسية. لكن في بعض الأحيان يتملكنا انطباع بأن الغرض من ذلك كلّه مختلف عما تشي به الأمور لأول وهلة. أي أن هذه المقالات بشأن المثلية تمتثل لغرض آخر غير تقديم المعلومة والخبر. قد يتعلق الأمر بزمان ضائع يتعيّن تعويضه، أو ببساطة بغرس الآراء الصحيحة في أذهان الذين ما زالوا متأخرين عن ركب الأعراف الجديدة لعصرنا. مهما يكن الأمر، ثمة ما هو غريب ويحمل

(28) *The New York Times* (International Edition), 16 October 2017, pp. 15 – 17.

طابعاً انتقامياً يلوح في الأفق.

لا شك في أن التغيير من طبيعة البشر. الناس تتغير وتتعلم وتبدّل مواقفها في أغلب الأوقات. يفعل معظمهم ذلك بهدوء، ويفعلون ذلك عموماً بعد قيام آخرين بالعمل الأصعب. لكن إحدى مشكلات تغيير المواقف المجتمعية بسرعة كبيرة هي أن القضايا والسجالات التي لم تأخذ وقتها في التفحّص الدقيق، أو حتى تلك التي لم تندلع بعد، تُهمَل وتترك على أثر ذلك. عندما سأل بيرس مورغان ضيفه: «كيف يمكنك الاعتقاد بأن أحداً لم يولد مثلي الجنس؟»، فجواب ذلك في الواقع هو أن كثيراً من الناس يتشارك وجهة النظر هذه، وربما كانوا على حق، جزئياً على الأقل. لكن اليقين ليس من نصيب أحد في هذا الموضوع. فضلاً عن ذلك فإن كون المرء مثلياً منذ الولادة أو لا، أو كون جميع المثليين قد ولدوا مثليين، لا يعني على الإطلاق أنّ المثلية طريق بلا رجعة.

طريق بلا رجعة؟

هذه الفكرة هي واحدة من المحطات الغريبة التي قادتنا إليها ثقافتنا. في المجتمع عموماً، عندما يُعلِن الناس أنهم مثليون، نهنئهم على وصولهم إلى نقطة الوصول الطبيعية. يعني ذلك لدى الأكثرية الكاثرة أن المجتمع يمنحهم اعترافاً لائقاً ويقبل بهم كما هم، أي، يُنظر إلى نقطة الوصول هذه بوصفها طبيعية وصائبة بالنسبة إليهم. لكن من عجائب هذا الموقف أن كل مثلي قرر في نهاية المطاف أنه غيري الجنس، لن يتعرض إلى الاستبعاد والارتياب فحسب، بل سيُشكك على نطاق واسع بنزاهته وصدقه حيال نفسه. في المقابل، الغيري الذي يُصبح مثلياً، إنما وجد حلّاً لمشكلته. أمّا المثلي الذي يُصبح غيرياً، فسيكون موضوع ارتياب دائم. هكذا رجحت الكفّة في ثقافتنا لصالح حكم مسبق ميّال إلى المثلية الجنسية، بعد زمن من تفضيل قوي وصريح لصالح الغيرية.

بعد توقيع كاتب السيناريو راسل تي ديفيز Russell T. Davies على مسلسل

Queer as Folk [أحرار الجنس مثل الناس] في أواخر التسعينيات، والذي وسم انعطافة حاسمة، تابع راسل بمسلسل تلفزيوني أخر بعنوان Bob & Rose [بوب وروز] (2001). يحكي المسلسل قصة رجل مثلي يقع في حب امرأة. أَسرّ ديفيز للصحافة حينئذ أن ما أوحى إليه فكرة المسلسل هو إدراكه أنّ الرجال المثليين الذين يصبحون غيريين، غالباً ما يواجهون استياءً من دائرة الأصدقاء المحيطين بهم، أكثر بكثير من الاستياء الذي يواجهه غيريّ صرّح بميله المثلي[29].

لعلّ هذا أحد الأسباب التي جعلت من مقاربة مسألة «ذهاب وإياب محتمل» أمراً نادراً. فبالنسبة إلى كثير من الرجال والنساء المثليين، تُعدّ فكرة أن الجنسانية سائلة، وأن مَن يذهب في اتجاه قادرٌ على الانعطاف واتخاذ وجهة أخرى، تهجّماً على شخصهم. وهو خوف مبرّر: يسمع كثير من المثليين في هذه العكوسية المقترحة صدى إدانة يثير الخشية لديهم. وكأنهم يسمعون أن يُقال لهم: «ما أنتم فيه ليس سوى مرحلة». وهي فكرة مبطّنة يرى فيها المثليون حكماً جارحاً للغاية، ومزعزعاً لعلاقاتهم مع أقربائهم ومع الآخر عموماً. وبما أن عبارة «ما أنتم فيه ليس سوى مرحلة» جارحة لدى بعضهم، تصير فكرة أن هذه العبارة قد تكون بالفعل صحيحة لدى بعضهم، فكرٌ لا ينبغي التلفّظ بها.

من جهتهم، حاول جيل الألفية[30] و«جيل Z»[31] الالتفاف على هذه الصعوبة بطريقتهم الخاصة من خلال التشديد على الجنسانية السائلة. تُظهر استطلاعات الرأي أن هؤلاء، الذين هم الآن في أواخر مرحلة المراهقة، يبتعدون عن فكرة المعالم الجنسية الثابتة. بيّنت دراسة أجريت عام 2018 أن ثلثي المنتمين إلى الجيل

---

(29) انظر، على سبيل المثال:
Russell T. Davies, 'A Rose by any other name', *The Observer*, 2 September 2001.

(30) مصطلح مستخدم لوصف الفئات السكانية المؤلّفة من الأشخاص الذين ولدوا في الفترة ما بين 1981 و1996. (م)

(31) وهو الجيل الذي يلي جيل الألفية. (م)

Z فقط يدعون أنهم «مغايرون بصورة حصرية[32]». وعلى الرغم من أن الأمر يتعلق بأغلبية في هذه الدراسة، فإن ذلك يُشير إلى تغيّر واضح قياساً بالأجيال السابقة.

أمّا في ما يتعلق بالأجيال الأكبر من جيل الألفية، تبقى مسألة «السيلان» معقدّة ومؤلمة في كثير من الأحيان. فبالنسبة إلى كثير منهم، مَن ينضم إلى المجموعة ثمّ يغادرها، هو أكثر عرضة للشتم ممَّن لم ينضم إليها على الإطلاق. قد لا يظهر هؤلاء في استطلاعات الرأي، ومن المؤكّد أن ليس لديهم «قادة» أو متحدثون بلسانهم على الصعيد الوطني، لكن كثيراً من المثليين يعرف حالات كهذه؛ يعرف أصدقاء لا يندمجون كلياً في عالم المثليين، ولا يحبون «المشهد»، من دون أن ينجحوا في العثور على مشهد آخر. أناس خرجوا ثانية من هذا العالم بعد أن انغمسوا فيه. كانوا يفتشون عن شيء آخر غير الذي قدِّم إليهم. لعلّهم رغبوا في الأمان الذي تكفله الأسرة، أو حتى في أبناء، فرغبوا عن المثلية أو ببساطة همّشوا مثليتهم بغية خوض تجربة التحوّل. أو قد يتعلق الأمر بأناس (لا أحد يعرف نسبة الأشخاص الذين قد يشملهم هذا الكلام) خاضوا علاقات مع شركاء من الجنس نفسه جلّ حياتهم، وفجأة – مثلما ما حدث مع الشخصية الرئيسة في [بوب وروز] – التقوا بفرد من الجنس الآخر ووقعوا في حبه.

هل سيتراجع هذا النوع من السلوك اليوم مع وجود أشكال الشراكة المدنية وزواج للمثليين، ناهيك بإمكان التبني وحتى إمكان الأبوة والأمومة للمثليين؟ هل سيتبنى الناس بصورة متزايدة الهويات الجنسية الأكثر مرونة التي للجيل Z؟ ربما. أو ربما لا. إذ يعرف الجميع أيضاً أناساً لم يكن ذلك ميلهم، أي أناساً خاضوا تجربة قبلة غير مألوفة مع فرد من جنسهم، أو حتى أكثر من ذلك، لكنهم عادوا وأصبحوا غيريين لاحقاً. ومع ذلك، لئن كانت الأجيال السابقة تعدّ إجمالاً القبلة

(32) 'Generation Z – beyond binary: new insights into the next generation', *Ipsos Mori*, 6 July 2018.

المثلية انحرافاً – انتهاكاً للمعيار السائد – فإن الاتجاه الحالي يرى بالأحرى في هذه القبلة لحظة تجلي الحقيقة.

فاليوم، يُتَّهم بالكذب الشخص الذي لم يترك نفسه سوى مرة واحدة للانجذاب نحو شخص من الجنس نفسه. إذ شاع اعتقاد بأن مَن يكتشف نفسه مثلياً، إنما يجد طبيعته الحقّة، في حين أن مَن يكتشف في نفسه الغيرية الجنسية بصورة ثابتة بعد تجربة مثلية، إنما يحيد عن طبيعته. المسألة هنا مختلفة عن ادّعاء ازدواجية التوجه الجنسي. إننا أمام افتراض بأن ميزان الجنسانية ليس متوازناً ومتساوي الرجحان، بل ترجح الكفة لصالح المثلية الجنسية. نعيش في عصر قرّر أن يغيّر وجهة رجحان هذا الميزان بعد عصر كانت الكفّة راجحة فيها لصالح الغيرية. لعل ذلك تمّ بهدف تقويم اعوجاج مضى (على أمل أن تتوازن الكفتان في يوم ما). المشكلة أنه من المستحيل معرفة اللحظة التي سيُقدَّر فيها أن الميزان قد وجد الوضعية الصحيحة. لأننا، كما في جميع القضايا الأخرى، نتدبّر أمرنا مع ذلك كله بالتزامن مع سيرورة عيشنا له.

في الوقت الحالي، تتفق الأجيال السابقة على جيل الألفية – وكذلك الأكثرية الكاثرة بين الجيل الأخير – حول بعض النقاط الثابتة بخصوص الهوية الجنسانية. لعلّ معرفة أين يتموضع الآخرون تفرض على الأقل بعض الوضوح بشأن الروابط الحالية والمحتملة التي يمكننا عقدها معهم. لكن أن يكون بمقدور كل فرد أن ينقلب من هوية ثابتة إلى أخرى، أو حتى إلى سيولة هوياتية، إنما يكشف عن أكثر من مجرد استبدال معتقد بآخر. إن هذه الظاهرة تشير إلى عدم يقين عميق بشأن واقعة مضمرة ونادراً ما تُذكر، وهي أننا ما زلنا لا نملك كثيراً من المعرفة عن سبب كون بعض الناس مثليّون، أو أننا لا نملك أدنى فكرة عن ذلك. فرغم عقود من البحث، ما زال عدم اليقين الذي يلف المسألة الهوياتية هذه – التي تبوأت مركز الصدارة بين قيمنا المزعومة – مشكلة كبيرة ومن المحتمل أن تكون مشكلة باعثة على عدم الاستقرار.

إن بعض الدقة والحساسية حيال هذا الموضوع برمته أمرٌ مفهوم بالطبع. ففي نهاية المطاف، لم تقرر «الجمعية الأميركية للطب النفسي» عدم وجود دليل علمي يتيح الاستمرار في علاج المثلية بوصفها مرضاً إلا عام 1973. في هذا العام، أزالت الجمعيةُ المثليةَ من مسردها للاضطرابات العقلية (وهو مثال نادر على إزالة المفردة من هذا الكتاب الذي لا يني يميل إلى التضخّم). وحذت «منظمة الصحة العالمية» حذوها عام 1992. وكما نرى، فإن ذلك كلّه ليس بقديم، ويُقدّم تفسيراً وجيهاً للاستمرار في حالة الارتياب بالخطاب والممارسة الطبية أو الطبنفسية، والتي تجد لها مكاناً في كلّ نقاش بشأن المثلية الجنسية.

ومع ذلك، لا يعني رفضُ تصنيف المثلية بين الاضطرابات النفسية الاعترافَ بها كمكون فطري وثابت من مكونات الشخصية. عام 2014، نشرت «الكلية الملكية للأطباء النفسيين في لندن» إعلاناً آسراً في شأن التوجه الجنسي. والجدير بالثناء أنها كانت حازمة في إدانتها وصم الأشخاص الذين يقولون إنهم مثليون. وأوضحت «الكلية» أنها بجميع الأحوال لم تكن تعتقد بأن العلاجات التي تستهدف تعديل التوجه الجنسي لأي كان يمكن أن تنجح، وفي الاتجاهين. هكذا ما عاد بإمكان خبراء هذه «الكلية» تحويل مثلي إلى غيري أو العكس. نعثر أيضاً في هذا النص على توضيح مهم: «إن "الكلية الملكية للأطباء النفسيين" تعدّ أن التوجه الجنسي محدَّد من خلال مزيج من العوامل البيولوجية وعوامل ما بعد الولادة مرتبطة بالبيئة». وبعد الاستشهاد بمصادر عدّة لدعم هذا التأكيد[33]، تبعته بتأكيد ثانٍ مفاده أنه «لا يوجد أي دليل يسمح بالذهاب أبعد من ذلك

(33) B. S. Mustanski, M. G. Dupree, C. M. Nievergelt et al., 'A genome-wide scan of male sexual orientation', *Human Genetics*, 116 (2005), pp. 272 – 8; R. Blanchard, J. M. Cantor, A. F. Bogaert et al., 'Interaction of fraternal birth order and handedness in the development of male homosexuality', *Hormones and Behavior*, 49 (2006), pp. 405 – 14; J. M. Bailey, M. P. Dunne and N. G. Martin, 'Genetic and environmental in fluences on sexual orientation and its correlates in an Australian twin sample', *Journal of Personality and Social Psychology*, 78 (2000), pp. 524 – 36.

وإدراج أي ضرب من ضروب الاختيار ليكون في أصل نشأة التوجه الجنسي»[34].

وعلى الرغم من إبداء «الكلية الملكية» تحفظاتٍ حيال «علاجات التحويل» المزعومة باعتبارها تخلق بيئة «تنتعش فيها الأحكام المسبقة وأشكال التمييز»، وتقوم على مزاعم بعلاج ما هو «ليس اضطراباً»، وهي مزاعم «منافية للأخلاق كلياً»، تُضيف «الكلية» قائلة مع ذلك:

من غير الصحيح القول بأن التوجه الجنسي ثابت أو أنه غير قابل للتبدّل إلى حد ما في مجرى الحياة. مع ذلك، يبدو أن التوجه الجنسي لغالبية الناس متثبّت حول نواة تكون إلى حدّ كبير غيرية أو مثلية. قد يكون لدى مزدوجي التوجّه الجنسي درجة من الاختيار في ما يتعلق بالتعبير الجنسي، إذ يمكنهم التركيز إما على جانبهم الغيري وإما على الجانب المثلي.

من الصحيح أيضاً أننا نستطيع استكشاف خيارات علاجية بحيث تكون مفيدة لمساعدة المرضى غير الراضين عن توجههم الجنسي على العيش معه براحة تامة - أكانوا غيريين أم مثليين أم مزدوجين. نستطيع التخفيف من آلامهم ومساعدتهم على القبول بأنفسهم على نحو أفضل»[35].

تبدو «الجمعية الأميركية لعلم النفس» متناغمةً مع هذا الخطاب. إذ تقول إحدى أحدث نصائحها في هذا الشأن:

لا يوجد إجماع بين العلماء على الأسباب الدقيقة التي تحمل الفرد على تطوير توجّه جنسي غيري أو مزدوج أو مثلي. ورغمَ أنَّ بحوثاً عدّة قد فحصت التأثيرات الممكنة، الوراثية والهرمونية والنمائية والاجتماعية والثقافية، في شأن التوجّه الجنسي، إلا أنه ما من خلاصة تسمح للعلماء بالاستنتاج أن التوجّه الجنسي يُحدَّد

---

(34) بيان الكلية الملكية للأطباء النفسيين حول التوجه الجنسي، بيان الموقف 2014/02PS، أبريل 2014، على الرابط:
https://www.rcpsych.ac.uk/pdf/PS02_2014.pdf

(35) المرجع نفسه.

بعامل أو بعدة عوامل خاصة. فمن جهة، يعتقد كثيرون أن الطبيعة والتربية تلعبان دوراً معقّداً في هذا الصدد، ومن جهة أخرى، لا ينتاب معظم الناس إحساس بأنهم أمام شريحة واسعة من الخيارات لجهة توجههم الجنسي[36].

ما تقدّم كلّه مثير للإعجاب لجهة محاولة التقليل من أشكال التمييز أو المواقف الملتوية والفاشلة التي تستهدف «تقويم اعوجاج الناس». لكنّ هذه الأفكار تشي أيضاً بأن السؤال المتعلق بمعرفة ما يحسم الأمر في شأن المثلية الجنسية يبقى من دون إجابة. قد يكون القانون قد تغيّر، لكننا لا نعلم اليوم حول نشأة التوجّه المثلي أو حول طابعه الفطري أو المختار، بأكثر مما كنّا نعرف في الماضي.

لا يعني ما تقدّم عدم جود بعض الاكتشافات العلمية المفيدة في هذا الخصوص. في الأربعينيات من القرن العشرين، أجرى عالم الجنس ألفريد كينزي Alfred Kinsey البحث الميداني الأكثر تعقيداً واتساعاً حينئذ في شأن التفضيلات الجنسية البشرية. وعلى الرغم من المراوغات المنهجية، عدت نتائجه دقيقة إلى حدّ ما خلال سنوات. في الكتب التي سبقت هذه البحوث (Sexual Behaviour in the Human Male [السلوك الجنسي لدى الذكر البشري] (1948)؛ and Sexual Behaviour in the Human Female [السلوك الجنسي لدى الأنثى البشرية] (1953)، بيّن كينزي وزملاؤه أنهم توصّلوا إلى أن 13 في المئة من الرجال كانوا في «الغالب مثليين» لمدة أقلّها ثلاث سنوات، في الفترة الممتدة بين سنّ 16 و55 عاماً من أعمارهم، وأن حوالي 20 في المئة من النساء خضن تجربة مثلية. ستتداول الصحف هذا «المقياس» الشهير للتجربة الجنسية البشرية الذي ابتكره كينزي، الأمر الذي سيُفضي إلى الزعم بأن حوالي 10 في المئة من مجمل السكان هم من المثليين. على امتداد السنوات اللاحقة على كينزي، شكّلت هذه الأرقام – مثلها مثل جميع ما يتعلق بهذا المجال – موضوع سجالات محمومة. من جهتها،

---

(36) من موقع "الجمعية الأميركية لعلم النفس" (الدخول في شهر أغسطس 2018)، على الرابط:
http://www.apa.org/topics/lgbt/orientation.aspx

استقبلت المجموعات الدينية بالتصفيق جميع الاستطلاعات التي اقترحت نسبة للمثليين أقل من هذا الرقم، وهللت للدراسة الاستقصائية الوطنية الأمريكية للرجال لعام 1991، والتي ادعت أن 1.1 في المئة فقط من الرجال كانوا «مثليين جنسياً بشكل حصري»؛ وكذلك مكتب بريطانيا للإحصاءات الوطنية الذي وصل إلى الرقم نفسه بعد عقدين من ذلك. في عام 1993، توصل استطلاع قائم على المقابلات وجهاً لوجه أجراه معهد آلن غاتماكر في أمريكا إلى أن نسب السكان المثليين هي 1 في المئة فقط من السكان. وهذه أدنى قيمة جرى التوصل إليها حتى الآن. وبالطبع فقد استقبلتها الجماعات الدينية نفسها استقبلته بالتهليل والتصفيق. لذلك سارع رئيس «تحالف القيم التقليدية» إلى الإعلان بالقول: «أخيراً، ظهر الحق». وأعلن منشّط إذاعي يميني: «لقد بُرّئت ساحتنا»[37].

لكن، مثلما يوجد من يرحّب بجميع الإحصائيات التي تقلل من عدد المثليين في عموم السكان، هناك بالطبع من يرمي إلى تضخيم الأرقام إلى أقصى حدّ ممكن. وصفت مجموعة حقوق المثليين ستونوول (Stonewall) الإحصائيةَ التي تقول بوجود من 5 إلى 7 في المئة من المثليين في مجمل السكان، بأنها «تقدير معقول»، وإن كنّا ما زلنا بعيدين جداً عن كينزي. تسمح التكنولوجيات الجديدة بإنهاء جزء من النقاش في هذا الموضوع، أو على الأقل توضيحه. لهذه التكنولوجيات مشكلاتها المنهجية الخاصة بها، تماماً كحال الأسئلة التي طرحها «مكتب بريطانيا للإحصائيات الوطنية» على الأسر (في حالات تسببها صعوبات مثل كيفية التعامل مع المثليين الكتومين). ولكن نظراً لأن عدد الأشخاص الذي يكذب في محركات البحث بصورة آلية قليل جداً، فإن المعلومات المستقاة عن المثلية الجنسية من البيانات الضخمة تعتبر ذات أهمية كبرى. هكذا، كشف المختص السابق بالبيانات في Google، سيث ستيفنس دافيدويتز Seth Stephens-Davidowitz،

(37) Bruce Bawer, *A Place at the Table: The Gay Individual in American Society*, Touchstone, 1994, p. 82.

أن حوالي 2.5 في المئة من مستخدمي Facebook الذكور يبدون اهتماماً بأفراد من الجنس نفسه.

وبإحصاء عمليات البحث عن المواد الإباحية على الإنترنت، توصّل ستيفنس دافيدويتز إلى رقم يتضمن أشخاصاً ليسوا منفتحين جداً بشأن جنسانيتهم. اللافت في هذه الأرقام هو ثباتها النسبي من ولاية أميركية إلى أخرى. على سبيل المثال، في حين يبلغ عدد مستخدمي Facebook المثليين في رود آيلاند ضعف عددهم في ولاية ميسيسيبي (وهي حقيقة يمكن تفسيرها جزئياً بهجرة المثليين)، فإن عمليات البحث عن المواد الإباحية على الإنترنت مماثلة بصورة ملحوظة. لذلك في حين أن حوالي 4.8 في المئة من عمليات البحث عن المواد الإباحية في ولاية ميسيسيبي هي لمثليي الجنس، فإن النسبة في رود آيلاند هي 5.2 في المئة. مع كل التحفظات الضرورية (الأشخاص الذين يشاهدون هذه المواد بدافع الفضول، على سبيل المثال) توصل ستيفنس دافيدويتز إلى استنتاج مفاده أن التقدير العادل لعدد السكان المثليين في أمريكا يبلغ حوالي 5 في المئة[38].

مع ذلك، وكما حدث مع جميع الإحصائيات الأخرى، شكّلت الأخيرة موضوع دحض دائم. في عام 2017، قال «مكتب الإحصاء الوطني في المملكة المتحدة» إن عدد المثليين والمثليات ومزدوجي التوجّه الجنسي والعابرين جندرياً في بريطانيا العظمى قد وصل إلى مليون شخص للمرة الأولى. وصفت PinKNews في المملكة المتحدة هذا الرقم بـ«المعلَم بالنسبة إلى هذه الفئات»، مضيفة أنه مع كونخ رقماً «مرتفعاً، إلا أنه ليس مرتفعاً بما فيه الكفاية»[39]. السؤال الذي يطرح نفسه هنا: ما هو الرقم الذي من الممكن أن ينال رضاكم؟

على الرغم من ذلك كلّه، توصّل الجمهور في العقود الأخيرة إلى وجهة نظر

(38) Seth Stephens-Davidowitz, *Everybody Lies: What the Internet Can Tell Us About Who We Really Are*, Bloomsbury, 2017, pp. 112–16.
(39) 'This is why straight men watch porn', *Pink News*, 19 March 2018.

خاصة به في هذا الخصوص. وقد تغيرت وجهة النظر هذه بصورة كبيرة. في عام 1977، بلغت نسبة الأميركيين التي اعتقدت أن المثليين يولدون كذلك أكثر من 10 في المئة بقليل. في عام 2015، بلغت النسبة التي اعتقدت ذلك حوالي نصف السكان الأميركيين. في الفترة نفسها، انخفض عدد الأميركيين الذي وافق على إرجاع المثلية الجنسية إلى «التربية والبيئة» إلى النصف مقارنةً بعام 1977 حين سجّلت نسبة من وافقوا على هذه الإرجاع 60 في المئة. ليس من قبيل المصادفة أن تكون المواقف الأخلاقية للأميركيين تجاه المثلية الجنسية قد تغيرت بصورة ملحوظة في الفترة نفسها. أظهرت استطلاعات رأي أجراها غالوب (Gallup) بين عامي 2001 و2015، أن 40 في المئة من الأميركيين عام 2011 و63 في المئة منهم عام 2015 اعتبروا أن علاقات المثليين والمثليات «مقبولة أخلاقياً». أمّا الذين عدّوا هذه العلاقات «سيِّئة أخلاقيًّا»، فقد انخفضت نسبتهم من 53 في المئة إلى 34 في المئة خلال الفترة نفسها[40]. العامل الأساسي الذي قدّرت هذه الاستطلاعات أنه لعب دوراً في تطوّر الرأي العام في هذا الموضوع هو معرفة المستجيبين بشخص مثلي الجنس – أحد أفراد الأسرة أو صديق أو زميل في العمل. لهذا العامل آثار كبيرة على الحركات الحقوقية الأخرى. العامل الثاني الواضح في هذا التغيّر في الموقف هو زيادة ظهور المثلبين في الحياة العمومية.

لكن الباعث الأخلاقي الذي لعب دوراً حاسماً في تطوّر المواقف تجاه المثلية هو التحوّل من فكرة أن المثلية الجنسية هي سلوك مكتسب إلى الاعتقاد بأنها فطرية وغير مكتسبة. كان للاعتراف بمدى أهمية هذا المؤشر في حالة المثليين تبعات جمّة على الحملات الحقوقية الأخرى. يمكننا هنا أن نلحظ أحد أهم العناصر في الأخلاق المعاصرة: الإدراك الأساسي بأن من الخطأ معاقبة البشر أو تحقيرهم أو النظر إليهم بازدراء بسبب ملامح من شخصيتهم لا مسؤولية لهم عنها. قد يبدو هذا المبدأ الأخلاقي بديهياً، لكنه كان موضوع تجاهل خلال فترة زمنية طويلة من

(40) 'Majority in U.S. Now Say Gays and Lesbians Born, Not Made', *Gallup*, 20 May 2015.

تاريخ البشرية، عندما كانت خصائص البشر غير القابلة للتغيير تُستخدم ضدّهم في أغلب الأوقات.

الأجهزة مقابل البرمجيات، وضرورة أن نكون «قد ولدنا كذلك»

ومع ذلك، فقد بدأ العالم المعاصر في الاستقرار على الأخلاق التي نحتها هذا السجال. يُشبه هذا الأخير بعض الشيء اختصاماً بين «الجهازي» و«البرمجي».

الجهازي هو كل ما ليس في وسع البشر تغييره، وليس عليهم (وفق المنطق نفسه) أن يحاكموا عليه. في المقابل، البرمجي، القابل للتعديل والتغيير، يمكن أن يُعرّض الفرد إلى أحكام – بما في ذلك الأخلاقية منها. تولّد هذه الثنائية ضغطاً يُمارَس بغية إعادة وصف بعض المشكلات المحتمل أنها برمجية كمشكلات جهازية، وبخاصة من أجل استمالة تعاطف متزايد تجاه أولئك الذين قد تكون مشكلاتهم برمجية أكثر منها جهازية.

لنأخذ مثال مدمن على الكحول أو المخدرات. نفترض أن على هذا الشخص أن يكون قادراً على ضبط إدمانه. وسنرى في فشله نتيجةً لضعفه ولعجزه عن حسم أمره أو للتراخي الأخلاقي. في المقابل، إن لم يكن قادراً على التحكم بسلوكه، فلا ينبغي مؤاخذته، وإنما النظر إليه بوصفه ضحية للظروف وتفهّمه بالاستناد إلى ذلك. قد يُشكّل المدمن على الكحول، المتعنّت، باعثَ ألم لمحيطه، لكن إن قدّرنا أنه وُلِد مع نزعة إدمان على الكحول – أو حتى مع «مورثّة كحولية» –، فقد يُنظر إليه حينئذ نظرة مختلفة كلياً. وبدلاً من القسوة عليه بالنقد، قد ينال منّا بعض التعاطف. لكن إذا اعتُبر إدمانه الكحول سلوكاً مكتسباً، فقد يحكم عليه بالضعف، أو حتى بالسوء. بصورة إجمالية، نبدي نحن المعاصرين المزيد من الإشفاق حيال السلوكات التي لا يمكن تغييرها، في حين أننا نميل إلى انتقاد نمط العيش الذي يبدو لنا مندرجاً ضمن إطار حرية الاختيار أو التشكيك فيه، لا سيما إذا كان هذا السلوك مصدر عدم راحة للآخرين. قد يرى المجتمع أن المثلية (من

منظور التكاثر، مثلاً) مصدر إزعاج بالنسبة إليه، لذا فإن السؤال المتعلق بمعرفة مما يتشكّل قوامها واقعياً هو سؤال مشروع على التمام من وجهة النظر هذه، ويقتضي انخراط المجتمع فيه.

العامل الذي أسهم بوضوح في تطوّر الرأي العام بشأن المثلية الجنسية في الغرب هو القرار بأن هذه الأخيرة تنتمي إلى سجل الجهازي وليس إلى سجل البرمجي. مازال البعض – لا سيما من المحافظين المتدينين – يحاول بخبث فرض قناعتهم المناقضة في هذه النقطة. على سبيل المثال، يُصرّ بعضهم على وصف المثلية كـ«خيار نمط عيش» – وهي صياغة تُلمّح إلى أن المثليين قد اختاروا البرمجة الخاصة بهم.

تميل البلدان والعصور التي يسود فيها هذا الموقف إلى إفراز فترات من القمع القانوني للسلوكات المثلية. لذا من المفهوم أن ينشأ ميل إلى رفض حجة «خيار نمط العيش» وتشجيع الاعتراف بأن المثلية هي مسألة جهازية، أو كما قالت ليدي غاغا Lady Gaga، إنّ المثليين «يولدون مثليين».

والواقع أن القبول الأخلاقي بالمثلية مسألة حديثة العهد، ولم تسرِ إلا في عدد قليل من البلدان. إنها من الندر بمكان حدّ عدم إمكان استخلاص نتائج على المدى الطويل، ناهيك بتأسيس نظرية أخلاقية في شأن هذا التطوّر. لا شك في أن للسؤال المتعلق بمعرفة هل هي فطرية أو تندرج ضمن خيار – الجهازي مقابل البرمجي – أثر ملحوظ في التعاطف الذي قد يبديه الناس بالمعنيين. فإن «اخترنا» أن نكون مثليين – أو إن كانت المسألة مسألة «سلوك مكتسب» – فإن من الممكن إلى حدّ ما التخلي عن هذه المثلية، أو حتى تقديمها بصور لا تجعل أحداً يرغب في اختيارها.

لا ريب أن الفكرة القائلة بأن الناس «قد ولدوا كذلك» – بدل القول بـ«اختيار نمط العيش» – قد تلقت دفعاً غير علمي في السنوات الأخيرة. يُشير الحضور المتزايد للأشخاص المثليين في حياتنا اليومية إلى تراجع خيار «إخفاء» المثلية أكثر

من أي وقت مضى. من ذلك استنتج كثيرون أن لا أحد يمكن أن يختار طريقاً كهذا بكامل إرادته، ناهيك بما عرف من قصص مشاهير المثليين (لا سيما التنمّر والتمييز الذي عانى منه كثيرون). مَن الطفل الذي يودّ أن يكون هدفاً للاستهزاء والتنمّر لأنه مثلي؟ من الشاب في مقتبل عمره الذي يودّ أن يضيف طبقة إضافية من التعقيد إلى حياة معقدّة مسبقاً؟

لذا يبدو أن روح العصر قد تبنّى نظرية «قد ولد كذلك»، مع تجنّب أيّ نظر إلى الحقيقة المزعزعة بأن العلم لا يزال عاجزاً عن دعم نظرية الليدي غاغا.

أُنجزت أعمالٌ رائعة في علم التخلّق بغية تحديد موقع التباين الجيني الذي قد يكون مسؤولاً عن المثلية. ركّزت الأعمال الأخيرة على مجموعات الميثيل التي تُدمج في جزيئيات الجينات. عام 2015، أعلن العلماء من جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلس اكتشافهم تعديلاً للحمض النووي في أجزاء من الجينوم والتي تختلف بين أخوة مثليين وغيريين. إلا أن هذه الدراسة التي اعتمدت على عينات محدودة كانت محلّ خلاف شديد على الرغم من الآمال والعناوين الكبيرة التي أوحت بها. كان هناك عدد من الدراسات الأخرى المماثلة، وثبت أن جميعها لم يكن حاسماً.

في الوقت الحالي، لا تزال «مورثة المثلية» بعيدة المنال. لا يعني ذلك أنها لن تُكتَشف في يوم من الأيام. وإنما الحرب التي تدور رحاها في شأنها حبلى بالأمارات. بصورة عامة، يعارض الأصوليون المسيحيون وغيرهم تحديد «مورثة مثلية»، لأن اكتشافها من شأنه أن يمسّ بأحد أركان رؤيتهم الخاصة للعالم («لا يخلق الله مثليين»)، وأن يقوّض موقفهم من هذه المسألة. في المقابل، ينطلق المثليون من حكم مسبق صريح بخصوص اكتشاف هذه المورثة، لما لذلك من أثر يجعلهم بمنأى عن أي اتهام «برمجي». هكذا فإن البحوث ما زالت قائمة، وتركّز على توائم الذكور المتطابقة، والتي تبدو جنسانيتها متطابقة تطابقاً مثيراً للاهتمام عندما تكون هي متطابقة.

ربما ينبغي إيلاء المزيد من الاهتمام لمسألة ما الذي يمكن أن يحدث إذا حصل أولئك الذين يرغبون في اكتشاف «المورثة المثلية» على مبتغاهم. الإشارات في هذا الصدد غير مشجعة. في بداية هذا العقد، نشر باحث في علوم الأعصاب يُدعى تشاك روزيلي Chuck Roselli، من جامعة أوريغون للصحة والعلوم، دراسة عن الكُبوش التي يبدو أنها تفضل ممارسة الجنس مع كبوش أخرى على النعاج. عندما أصبح عمله معروفاً للجمهور (بفضل جمعية خيرية لحقوق الحيوان تحاول استمالة الناشطين المثليين لقضيتها)، زُعم أن عمل روزيلي كان سيُستخدم أساساً لجهود تحسين النسل الرامية إلى منع البشر من أن يولدوا مثليين.

تدفقت عشرات الآلاف من رسائل البريد الإلكتروني ورسائل الشكوى إلى مكتب صاحب عمل روزيلي مطالبةً بإقالته، وهاجم مثليون ومثليات بارزون، بمن فيهم نجمة التنس مارتينا نافراتيلوفا Martina Navratilova، روزيلي وصاحب عمله في وسائل الإعلام. لم يكن الغرض من دراسات الأغنام تسهيل أي شيء من هذا القبيل[41]. ولكن إذا ما تفاعل الناس مع شخص ما يبحث عن المثلية الشبقية بين الأغنام بهذه الطريقة، فكيف سيكون رد فعلهم على اكتشاف المورثة المثلية لدى البشر؟ وإذا حدث واكتشِفت «المورثة المثلية»، فهل سيسمح للآباء في الوقت المناسب بتعديل الأنماط في الحمض النووي لأطفالهم لتفادي تبعات ذلك؟ ماذا ستكون مبررات منعهم من هذا الضرب من التدخل؟

الاحتدام الذي يُحيط بكل جانب من جوانب فرضيات علم الوراثة في هذه المسألة هو أحد أسباب قلة عدد الدراسات التي أجريت على جوانب أخرى من المثلية. على سبيل المثال، تطرّق عدد قليل جداً من الأعمال إلى الدور الذي من الممكن أن تكون المثلية قد لعبته من الناحية التطورية. في عام 1995-1996، جرى

(41) للإطلاع على النقاش الذي دار في هذا الشأن، أنظر:
Alice Dreger, *Galileo's Middle Finger: Heretics, Activists, and One Scholar's Search for Justice*, Penguin, 2016, pp. 182–3.

حوار أكاديمي أمريكي بريطاني حول هذا الموضوع[42] جمع كلّاً من غوردون جي غالوب Gordon G. Gallup من جامعة ولاية نيويورك في ألباني، وجون آرتشر John Archer من جامعة سنترال لانكشاير. ركّز الحوار الذي نشر في مجلة علمية، على معرفة ما إذا كانت المواقف السلبية تجاه المثليين موروثة بوصفها جزءاً من سيرورة الانتقاء الطبيعي، أم جزءاً من حكم مسبق انتقل من خلال الثقافة. تمحور النقاش الرائع حول اقتراح غالوب الذي مفاده ما يلي: «في أبسط أشكاله، ربما يكون الآباء الذين أبدوا اهتماماً بالتوجه الجنسي لأبنائهم قد تركوا أحفاداً أكثر من أولئك الذين كانوا غير مبالين». يؤكد غالوب أيضاً أن ما أصبح يُعرف باسم «رهاب المثلية الجنسية» ينتج من قلق الوالدين من أن تكون الجنسانية الناشئة لأبنائهم قابلة للتأثر. تتجلى هذه الظاهرة بطريقتين. أولاً، عبر القلق المتزايد حيال المثليين الذين تضعهم وظائفهم في اتصال منتظم مع الأطفال. وثانياً، حيال فكرة أن أطفالهم سيكبرون ليصيروا أكثر استرخاءً في حضور المثليين.

قد يكون ذلك كله صحيحاً، أو جزءاً منه، أو قد لا يكون كذلك البتة. مضت عقود على بيانات الرأي التي استند إليها غالوب في عمله، وكانت المواقف حينها تجاه المثلية الجنسية – كما رأينا – مختلفة تماماً عما هي عليه اليوم. الأمر المثير للاهتمام هو أن الدراسات في شأن الدور التطوري الذي قد تكون لعبته المثلية الجنسية، أو لا، وفي شأن التبرير التطوري للمثلية، وفي شأن التبرير التطوري لبعض الشكوك حول المثلية الجنسية؛ قد تبخرت في نقاش بيولوجي جدير بالاحترام. بعض البيولوجيين على استعداد للاعتراف سراً بأن تخصصهم قد أخفق في هذا الشأن. لكن هذا الموضوع بات اليوم موضوعاً شائكاً ومحفوفاً بالمخاطر إلى درجة أن الأكاديميين الذين يسعون للحصول على منصب غير مستعدين للمجازفة

---

(42) 'Attitudes towards homosexuals and evolutionary theory', in *Ethology and Sociobiology*.

للإطلاع على ملخّص عن هذه النقاش بين غالوب وآرتشر، بقلم جيسي بيرنغ Jesse Bering، أنظر: *Scientific American*, 9 March 2011.

بالانخراط فيه. ثمّ إن نحن قررنا ما الإجابات التي ينبغي تجنّبها – أو ما الإجابات التي لا يسعنا التعامل معها – فإنَّ الفائدة التي يمكن أن نجنيها من طرح هذه الأسئلة، بخلاف الولع بالحقيقة، ستكون ضئيلة.

الارتباك الفلسفي

إذا ما كان العلماء غير قادرين أو غير راغبين في الإجابة عن الأسئلة المتعلقة بأصول المثلية الجنسية، فإن مسؤولية النقاش في هذه المسألة يجب أن تنتقل إلى مكان آخر. والحال فقد كان ينبغي أن تقع على عاتق الفلسفة. ولكن، لسنوات عدة، لم يحدث أي تقدم يُذكر في شأن هذه المسألة. لم يحدث أي تقدم لألفي سنة مضت في أحسن الأحوال.

لا يُشير أرسطو إلا إشارةً عابرة إلى المثلية الجنسية في كتابه Nicomachean Ethics [علم الأخلاق إلى نيقوماخوس]. ثم إنه أدرج هذا الاستعداد في قائمة لن ترضي كثيراً من الناس اليوم. في مناقشته للحالات «السقيمة» و«المرضية» في الكتاب السابع من هذا الكتاب، يسوق أرسطو أمثلة شائعة عن نساء يأكلن أجنة الحوامل بعد بقر بطونهن؛ وعن رجل يقتل أمه ثم يأكلها؛ وعن عبد أكل كبد عبد آخر. يرى أرسطو أن هذه التصرفات السيئة نتاج «المرض»، وبدقة أكبر نتاج «الجنون». لكن ثمة حالات أخرى تتحدّر من «العادة» أو «العرف»، بما في ذلك نتف الشعر ومضغ الأظافر والمثلية الجنسية. أو الجنس الشرجي. أو ربما الجنس مع الأطفال... تتباين الآراء حول القضية الدقيقة التي يعالجها أرسطو هنا (نظراً للارتباك الذي تُفضي إليه آراؤه المتناقضة حول طبيعة العلاقات المثلية). ولكن إن نحن اتفقنا على أن نعتبر أن أرسطو يستهدف بصورة خاصة موضوع المثلية الجنسية، فاللافت أنه يبدي في القرن الثالث قبل الميلاد، الموقف نفسه الذي تبديه «الجمعية الأميركية لعلم النفس» و«الكلية الملكية للأطباء النفسيين» في القرن الواحد والعشرين. فهو يرى أنها صفة وجدت لدى بعضهم بحكم الطبيعة،

ونتيجة لـ«الاعتياد» لدى بعضهم الآخر. نقطة الاختلاف الوحيدة الجديرة بالاعتبار **هي** أنه من غير المرجح أن يعطي مصدر ذائع الصيت من القرن الحادي والعشرين، المثالَ الذي ساقه أرسطو عمّا قد يتسبب في مثل هذا «الاعتياد». إذ عند هذا الأخير، المعنيون به بصورة رئيسة هم «أولئك الذين تعرضوا للعنف منذ **الطفولة**»[43].

ليس **الفلاسفة الحديثون** أكثر وضوحاً من أرسطو حول أصل المشكلة. يُعدّ **ميشيل فوكو** Michel Foucault اليوم من أكثر الفلاسفة الذين يُستشهد بهم في **العلوم الاجتماعية في الغرب**[44]. ورغمَ ما يكتسيهِ من سُلطة، بل القداسة التي **تحيط به، فإن الأفكار في شأن** المثلية الجنسية التي يُطوّرها في واحد من أشهر أعماله **وأكثرها تأثيراً** – History of Sexuality **[تاريخ الجنسانية]** (1976) – تعكس **ارتباكاً عميقاً. يصف** فوكو الكلام على المثليين كما لو كانوا مجموعة محددة، بالأمّية **التاريخية**. فالأفراد الذين اتُهموا بممارسات مثلية في الماضي لم يشكّلوا فئة مميزة. ولم يبدأ اعتبارهم كذلك إلا بحلول القرن التاسع عشر. يصف فوكو التغيير الذي حدث في أواخر القرن التاسع عشر على النحو الآتي: «**لقد كان مُضاجع الذكور مرتدّاً، أما اللوطي فهو الآن نوع**»[45].

إن كلّ ما يعتقده فوكو في شأن المثلية الجنسية قابل للنقاش إلى حد كبير، فضلاً عن أنه كان يستغل الفرصة في هذا الموضوع لتطوير نظرياته حول السلطة والجنس. في بعض الأحيان بدا وكأنه يراها تدخُّلًا في نطاق الهوية. وفي أحيان

---

(43) Aristotle, *Nicomachean Ethics*, Book 7, chs 5–6.
وبالمناسبة، من بين الترجمات الحديثة، تتحدّث طبعة جامعة كامبريدج (2014) عن "لواطة"، بينما تتحدث طبعة جامعة أكسفورد (2009) عن "جنس مع الأطفال".

(44) أنظر على سبيل المثال:
'What are the most cited publications in the social sciences (according to Google Scholar)?', Elliott Green, *LSE blogs*, 12 May 2016.

(45) Michael Foucault, *The History of Sexuality, Volume 1 – The Will to Knowledge*, trans. Robert Hurley, Penguin, 1998, p. 43.

أخرى (في الكتاب نفسه) عدّها ثانوية. أمّا من أتى بعده واقتبسه أو حذا حذوه، فرأى في الجنسانية – كما في جميع الموضوعات الأخرى – وسيلة لإنجاز التماهي بالمجموعة، تتعارض مع معيار الغيرية الجنسية. اشتهر تلميذ فوكو في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، ديفيد هالبرين David Halperin، بالقول إنه «لا توجد نشوة جنسية من دون أيديولوجيا[46]». إن هذا التأكيد، إلى جانب أنه يُفضي بالمؤمن به إلى الملل في السرير، يُذكرنا بأنَّ مَن يرغب في فهم المثلية الجنسية من خلال هذا المنظور، سينتهي به الأمر إلى تكديس الأسس الهشة الواحد فوق الآخر.

ثمة فكرة واحدة من الأفكار النادرة في وضوحها في أعمال فوكو. إذ يبدو أنه اعترف بأن الهوية الجنسية ليست أساساً حصيفاً لبناء أي هوية رسمية. والحقيقة أنه في نهاية المجلّد الأول من [تاريخ الجنسانية]، عبّر عن رضاه عن الطريقة التي أصبح وفقها ما كان يُنظر إليه بوصفه «جنوناً»، الحجر الأساس في «مدروكيتنا»، وأن «هويتنا» ترتكز الآن على «ما كان يُدرَك بوصفه دافعًا غامضًا ومجهول الاسم». ويضيف أن الجنس أصبح «أهم من نفسنا، وأهم تقريباً من حياتنا». «إن الميثاق الفاوستي الذي رسم مركب الجنسانية فينا إغراءه هو منذ الآن كالآتي: «إبدال الحياة كلها بالجنس نفسه، بحقيقة الجنس وسيادته. فالجنس يساوي الموت»[47]. يبدو أن فوكو قد لاحظ إلى أي حد يكون الجنس، أو الجنسانية أساساً مشكوكاً فيه لبناء الهوية، على الرغم من أن تلامذته قرروا خلاف ذلك، ومن أن فوكو نفسه لم يتعمق في هذه المسألة.

---

(46) David Halperin, 'Historicising the sexual body: sexual preferences and erotic identities in the pseudo-Lucianic Erotes', in Domna C. Stanton (ed.), Discourses of Sexuality: From Aristotle to AIDS, University of Michigan Press, 1992, p. 261.

أنظر أيضاً:

Andrew Sullivan, Virtually Normal: An Argument about Homosexuality, Picador, 1996.

(47) Foucault, *The History of Sexuality*, p. 156.

المثليون مقابل أحرار الجنس

على الرغم من كل ما تقدّم، غدت المثلية الجنسية اليوم إحدى اللبنات الأساسية للهوية والسياسة و«سياسات الهوية». وأصبحت مجموعة LGBT إحدى المجموعات التي يتكلّم عنها السياسيون المشهورون بصورة روتينية، ويتوجهون إليها بالكلام كما لو كانت جماعة عرقية أو دينية. **ذلك كلّه عبثي**. لأن هذا الخلط يكشف بمصطلحاته الخاصة عن سمته المتناقضة والعصية على التأييد. فالمثليون والمثليات لا يجمع بينهم شيء تقريباً. وعلى الرغم من السمة المبتذلة لما سأقوله، إلا أنه ليس بين المثليين والمثليات علاقات دافئة دائماً. وهو أمر يعرفه جميعنا. غالباً ما يقول المثليون عن المثليات إنهن محبطات ومملات. وبدورهن تقدّر المثليات أن المثليين أغبياء ويبدون مقاومة متعنتة ضد النضج. هم غير مفيدين لبعضهم البعض، ولا يلتقون تقريباً البتة في أماكن «مشتركة». ثمة أماكن يلتقي فيها المثليون، وأخرى تلتقي فيها المثليات، لكن ما من أماكن، منذ تحرّر المثليين، ينظّم فيها المثليون والمثليات أنفسهم أو يجتمعون فيها ليتحاوروا ولو على أساس قليل الانتظام.

فضلاً عن ذلك، يرتاب المثليون والمثليات ارتياباً شديداً بالأشخاص الذين يقولون إنهم «مزدوجي التوجه الجنسي». فالحرف B الدال عليهم في الصديرة LGBT مصدر قلق عرضي في وسائل الإعلام المثلية. لا يُنظر إلى مزدوجي التوجّه الجنسي باعتبارهم جزءاً من «الجماعة» مثل المثليين، بل هم أشبه بالخيانة التي انبثقت في عقرها. يميل المثليون إلى الاعتقاد بأن الرجال الذين يدعون أنهم «مزدوجين» هم في حقيقة الأمر مثليون لا يستطيعون التحرر من شكل من أشكال الإنكار («مزدوج الآن، مثلي لاحقًا»). وفي حين أن المرأة التي من الممكن أن تنام مع امرأة أخرى ستجد في الغالب من يفهمها من الغيرين الرجال، قليل من النساء يتفاعل بإيجابية عندما يعلم أن شريكه الرجل نام مع رجال آخرين. سنتطرق في فصل لاحق إلى العلاقات التي تجمع هؤلاء – المثليون والمثليات

ومزدوجي التوجّه الجنسي – بأولئك الذين أو اللواتي قرروا تغيير جندرهم.

يجدر بنا أن نضع هذه المناوشات والتناقضات الداخلية في حسباننا عندما نتكلم على مجتمع LGBT، أو عندما نحاول استمالته لأغراض سياسية. لا يُشكّل هذا المجتمع كلّاً متجانساً، ولا حتى في كل حرف من الحروف المؤلِّفة له. وقليلٌ من النقاط المشتركة يجمع بينه. كانت الأوضاع مختلفة بعض الشيء في الستينيات من القرن العشرين، أي قبل إباحة المثلية الجنسية. لكن اليوم، لا مجتمع الـ L بحاجة إلى مجتمع الـG ، ولا هذا الأخير يهتم كثيراً بالأولين، والجميع تقريباً يتحّد في الارتياب لأمر مجتمع الـ B. من دون أن ننسى طبعاً النزاع الأسطوري لمعرفة هل مجتمع الـ T مشابه للفئات الأخرى أم أن حضوره مهين لها. وفي جميع الأحوال لا أحد منهم يتمايز بقوّة تأملاته في شأن أصل هذه الحالة التي تظلّ، مع ذلك، المنظور الذي يُنطلق منه لمحاولة تحديد فئات واسعة من السكان، وبناء واحدة من التبريرات والقواعد الأساسية المحدِّدة للمجتمع الليبرالي.

كما أنه ليس من المستغرب أن تكون هناك توترات جسيمة في كل مكوّن من مكوّنات هذا الخليط الذي يجمع أناساً على هذا القدر من التناقض في المواقف والنشأة. من أصول حراك المثليين إلى الوقت الحاضر، تنازعت مطالب الحركة عداءات متعددة. الأمر الذي يعود بنا إلى التساؤل المستعصي هل المثليون هم تماماً مثل أي شخص آخر بخلاف خاصية واحدة، أم أن هذه الفرادة تجعلهم مختلفين كلياً عن بقية المجتمع. يتسع هذا التباين ويُفضي إجمالاً إلى تشكّل معسكرين عريضين.

ينتمي إلى المعسكر الأول أولئك الذين يقدّرون أن المثليين مثلهم مثل الجميع وعليهم أن يكونوا كذلك، وأنهم سيربحون جميع نضالاتهم المستقبلية بالبرهنة أن ليس ثمة ما يمايزهم عن أصدقائهم وجيرانهم الغيريين. وشأنهم شأن الغيريين، يستطيع المثليون العيش في منازل محاطة بسياجات جميلة، والزواج، وإقامة علاقات مع شريك واحد فقط، وفي النهاية إنجاب أطفال وتربيتهم كما يربي

الجميع أبناءه. ولا يوجد ما يحول بينهم وبين حقهم في الاحترام. يبقى أن هذا خيار، وقد قدِّم في مؤلفات متعددة، مثل عمل هانتر مادسن Hunter Madsen ومارشال كيرك Marshall Kirk في عام 1989[48]. لكن مثل هذه الأعمال التي بشّرت بطريقٍ لقبول المثليين قوامه التطبيع مع بقية المجتمع، لاقت دائماً رفض فئة أخرى معارضة من «المجتمع» المزعوم نفسه.

يمكن وصف المعسكر الثاني (أو كما يصف هو نفسه) بأنه من «أحرار الجنس»، وليس مجتمعاً مثلياً. شكّل أحرار الجنس، وما زالوا، حركة تحمّل الانجذاب إلى الجنس نفسه دلالة أوسع بكثير من مجرّد الرغبة الجنسية. فالانجذاب نحو الجنس نفسه لا ينبغي عندهم أن يكون سوى الخطوة الأولى في مغامرة تشذّ عن المألوف. وليست هي الخطوة الأولى على درب الحياة فحسب، وإنما من أجل تجاوز أنماط العيش «السويّة». وفي حين يرغب المثليون في أن يُقبلوا مثلي ومثلك، يريد أحرار الجنس أن يُعترف بهم بوصفهم مختلفون كلياً، ويستخدمون هذا الاختلاف لتقويض النظام الاجتماعي الذي يحاول المثليون الاندماج فيه. نادراً ما يُشار إلى هذا الانقسام، على الرغم من مركزيته، وهو موجود منذ أن أشارت مفردة «مثلي» إلى هوية قائمة بذاتها. لم يحدث أن جرى التطرق إلى هذا التباين بوضوح.

في بداية ثورة المثليين، دفع البعض باتجاه «جبهة تحرير مثلية» موحدة مستوحاة من حركات التحرر المثلية الموجودة في الساحة. كما دفع نشطاء، مثل جيم فورات Jim Fouratt، هذه التحالفات نحو التوسع لتشمل حركات أميركية مثل Black Panthers [الفهود السود] وحركات أجنبية مثل Viet Cong [فيت كونغ] ونظام حكم ماو Mao في الصين وكوبا كاسترو Castro وغيرها. وواقع أن أنظمة الحكم هذه كانت صريحة في معارضتها للمثليين (أعلنت صين ماو، على سبيل المثال، استعدادها للإخصاء العلني لما دعتهم «المنحطون جنسياً») ليس سوى تناقض من

(48) Hunter Madsen and Marshall Kirk, *After the Ball: How America Will Conquer its Fear and Hatred of Gays in the '90s*, Doubleday, 1989.

التناقضات التي يجب التغلب عليها[49]. استمر الحراك من أجل حقوق المثليين بالتماهي مع حركات هي، إلى جانب ثوريتها، على تعارض مع المجتمع نفسه الذي كان الحراك يسعى إلى الاندماج فيه. وفي كل عقد، منذ الستينيات، انعكس هذا الانقسام في عالم المثليين.

خلال أزمة الإيدز في الثمانينيات، انتشر تطرف كبير (ومفهوم) بين المثليين في أوروبا وأميركا. اتهمت مجموعات مثل Act Up ممثليها المنتخبين بأنهم لم يبدوا حساسية كافية إزاء أشكال المعاناة التي سببها تفشي «الوباء». اكتسى رد فعل هذه المجموعات طابعاً مشهدياً، لكن التيارات المثلية الأخرى رأت في هذه المشهدية طابعاً غير مفيد للقضية ككل. في كتاب مهم صدر في أوائل التسعينيات للتصدي لاستيلاء «أحرار الجنس» على النضال من أجل حقوق المثليين، تطرّق المؤلف الأمريكي بروس باور Bruce Bawer إلى مواقف مجموعات مثل Act Up واصفاً إياها بـ«المتعنّتة». في هذا الكتاب، الموسوم بـA Place at the Table [مكان حول الطاولة]، أورد باور رداً تلقاه على رسالة تنتقد أساليب المجموعة في جريدة QW الأسبوعية المثلية التي توقّف إصدارها وما عادت موجودة اليوم: «أيها الحقير، والكاره نفسَه، والمنافق، والمضلَّل» – قال أحد القراء متمرّداً. «أنت وصمة عار على أمة أحرار الجنس»[50]. لكن ما هي «أمة أحرار الجنس» هذه؟ أكانت تعني الكلام بصوت واحد واتخاذ مجموعة واحدة من الأهداف؟ أم كانت سعياً إلى حياة متفرّدة، أم إلى حياة مثل أي حياة أخرى؟ في ذلك الوقت، كما هو الحال اليوم، لم يُطرح هذا السؤال ولم يُبتّ في أمره. هل كان المثليون مثل سائر البشر، أم تراهم يشكلون مجموعة من الأشخاص المختلفين الذين أرادوا فصل أنفسهم، عن سابق قصد ومعرفة، داخل غيتو هو أشبه بالمدينة الدولة، لا بل داخل أمة مثلية كاملة

---

(49) أنظر:
Paul Berman, A Tale of Two Utopias: The Political Journey of the Generation of 1968, W. W. Norton & Company Ltd, 1996, pp. 154–5

(50) أنظر:
Bawer, *A Place at the Table*, p. 191

الأركان؟

استمر صراع «المثليين» و«أحرار الجنس» على امتداد سنوات التسعينيات. في بريطانيا، أولئك الذين كانوا يسعون إلى إرساء القبول والاحترام على المدى الطويل، هالهم الرعب من تصرفات مجموعات مثل «الغضب» (Outrage). في أحد الفصح من عام 1998، اقتحم بيتر تاتشيل Peter Tatchell وأعضاء آخرون من مجموعته المنبر في كاتدرائية كانتربري، وقاطعوا رئيس أساقفة كانتربري خلال عظة عيد الفصح، مشهرين لافتات تُندّد بموقف كنيسة إنكلترا حيال حقوق المثليين. هل كانت هذه طريقة حصيفة لدعم حقوق المثليين وتسليط الضوء عليها، أم أنها تخاطر بتنفير المواطنين الذين قد يخافون من «الأصولية» الظاهرة على هؤلاء المثليين؟ دار النقاش نفسه (وما زال يدور وإن بحدة أقل) في أماكن أخرى. ففي ولاية نيويورك، كان على مشروع قانون يعارض التمييز ضد المثليين أن ينتظر 21 عاماً لكي يُتبنّى. وصف أحد المشاركين فيه في عام 1992 كيف حدثت «احتكاكات عديدة لمشرعين بمجموعات مثليين في أثناء الاشتباكات المحتدمة»، مثل تلك التي قامت فيها المجموعة الراديكالية Queer Nation [أمة أحرار الجنس] «بالتجوال مع دمية لزعيم الأغلبية في مجلس الشيوخ رالف ج. مارينو Ralph J. Marino»، ثمّ أحرقتها. مارست مجموعات أخرى ضغوطاً أكثر نجاعة، وتبنّت ما وُصف بأنه نهج أكثر «تهذيباً»[51].

لكن الراديكاليين تعنتوا في نهجهم، واستمرت الهوّة بين المثليين المطالبين بالمساواة وأولئك الذين أرادوا استخدام المثلية الجنسية مجرّد أداة تعينهم في هدم النظام القائم أو إحداث شكل جديد من المجتمع. نادراً ما جرى التلويح بهذا الشكل الجديد بصورة صريحة مثلما حدث خلال «المسير نحو واشنطن» في 25 أبريل 1993. كان مسعى هذا المسير هو أن تحقق، لأجل حقوق المثليين، م كان قد حقّقه مسير مارتن لوثر كينغ Martin Luther King لحركة الحقوق المدنية قبل

(51) المرجع نفسه، ص 193.

ثلاثة عقود. غير أن مسير عام 1993 كان نكبة وفوضى، بكل تلك «الرسومات البذيئة» وكل أولئك «المسعورين الراديكاليين المتحدّثين باسم فصيل صغير جداً من شريحة المثليين». وكما قال باور: «كان الأمر كما لو أن منظمي المسير أرادوا تأكيد جميع الصور النمطية حول المثليين»:

لم أكفّ عن مقارنة الحدث بمسير عام 1963 نحو واشنطن في سبيل الحقوق المدنية للسود. في تلك المناسبة، ألقى مارتن لوثر كينغ خطاب حياته. لم يُغرس هذا الخطاب في أذهان أتباعه فحسب، بل وفي أذهان جميع الأميركيين المرتابين بجدية مهمّته وصدق قضيته أيضاً. هو لم يدعو إلى الثورة أو يندد بالديمقراطية الأميركية، ولم يتشارك المنبر مع هزليين... في هذا اليوم من عام 1963، طالب لوثر بنظرة للمساواة العرقية أصابت ضمير أميركا، وحمل أتباعه على إخراج أفضل ما لديهم، وخاطب الغرائز الأشد سمواً لدى خصومه.[52]

نعثر هنا على ملمح آخر من الحركة في سبيل حقوق المثليين، وهو ملمح لم يتوقف عن التضخّم منذ ذلك الحين. أشار إلى هذا الملمح الكاتب المثلي أندرو سوليفان Andrew Sullivan في التسعينيات من القرن العشرين: «اذهب إلى أي مسيرة من أجل حقوق المثليين وسترى استحالة تنظيمها في جماعة ضغط متماسكة. ذلك أن هذه المحاولات دائماً ما تقوضها السخرية والاستعراضية واللامسؤولية»[53].

اذهب إلى أيّ مظاهرة تقريباً من أجل حقوق المثليين اليوم – وأبرزها مسيرات «الاستعراض الفخري للمثليين» التي تحدث في جميع أنحاء العالم – وسترى كيف تختلط الدعوة إلى المساواة القانونية (التي تحققت الآن في معظم البلدان الغربية) بأشياء من شأنها أن تسبب الخجل للعديد من المثليين والمغايرين. لا حرج في أن

---

(52) المرجع نفسه، ص 220-221.
(53) Andrew Sullivan, *Virtually Normal: An Argument about Homosexuality*, Picador, 1996, p. 204.

يستمتع الناس بما يحلو لهم في خصوصية منازلهم. لكن لا يتعين عليك أن تكون شديد الحشمة والتكلّف لكي تشعر أن المتظاهرين المرتدين ملابس فيتشية من الجلد أو غير ذلك، يضرون في مثل هذه الاحتجاجات بالقضية التي يدّعون نصرتها. هب أن الحراك في سبيل الحقوق المدنية للسود ضمّ بين صفوفه مجموعة فيتيشية، لكان من السهل جداً الإعراض عن قوته الأخلاقية.

إلا أن المثليين يرفضون الدخول في إطار كلي، ويرفضون أكثر أن يُدخلهم آخرون في مثل هذا الإطار. هكذا، من بين الذين ينادون بالمساواة، سنعثر دائماً على عدد معين يخلط بين الحراك والاستعراضية، مدعيّاً أن أحداً ليس له الحق في القول عن نفسه حراً أو مساوياً للآخرين ما لم يكن من حقه التنكّر في جرو يقوده «سيّده» على أربعة في كل مكان من الشارع العام.

يتذكر **المفكر الليبرالي بول بيرمان** Paul Berman احتفالات «العيد المقدس» لإحياء ذكرى ستونوول في التسعينيات. فيتكلّم على أولئك «المثليين القساة المسيّسين» الذين كانوا يمشون مطالبين بالحقوق المدنية، يليهم «شبان عراة الصدر» يرقصون بخلاعة، ونساء بأثداء عارية، وفتشيون يرتدون الجلود، وساديون مازوخيون يجلد بعضهم البعض في الشارع على مرأى الجميع، من دون أن ننسى الشعارات: «الفخر المستقيمي»، «الفخر المهبلي». كان التبرير (الذي قدمته الباحث في مجال السوسيولوجيا التقاطعية أرلين شتاين Arlene Stein، من بين آخرين) هو أن المثليين، إذا بدوا مثل أي شخص آخر فسوف يختفون. كان عليهم إذاً أن يتمايزوا بصورة سافرة ومرئية ليتأكدوا أنهم لن يختفوا. انتهى الأمر بشتاين إلى وصف نفسها، من بين أمور أخرى، بأنها «خبيرة جنسية». وهو لقب، يقول بيرمان، «يودّ أياً كان أن يتقلّده، وإن ليس على مدار الساعة»[54]. إن الذين يدفعون بوجهة نظر للمثلية قريبة من وجهة نظر «أحرار الجنس»، يميلون إلى تقديم الشرط المثلي بوصفه مهنة بدوام كامل. أمّا المثليون أنفسهم، فيميلون إلى

(54) Berman, *A Tale of Two Utopias*, pp. 160–1

عدم استساغة الفريق الأول.

مساوٍ أم أفضل؟

حتى في المطالب المحافظة جداً لحركات حقوق المثليين، ثمة أسئلة غير معالجة ومحفوفة بالمخاطر. على سبيل المثال، إذا نال المثليون الحقوق نفسها التي للمواطنين الآخرين، فهل يجب أن يخضعوا للمعايير نفسها التي يخضع لها الجميع؟ أم أن مساواة المثليين تنطوي على ما يستثنيها من ذلك؟ سؤال آخر: الآن وبعد أن أصبح زواج المثليين موجوداً، فهل من المتوقع أن يكون الأزواج المثليون أحاديو الزواج أسوةً بالأزواج الغيريين؟ وإذا لم يكن لديهم أطفال لتحصين زواجهم، فهل من المنطقي أن نتوقع من رجلين أو امرأتين يلتقيان في أوائل العشرينيات من العمر، ثم يتزوجان، أن يحافظا على علاقات جنسية حصرية مع بعضهما البعض خلال العقود الستة المقبلة أو أكثر؟ وهل يودنن هما ذلك؟ وما التبعات الاجتماعية في حال لم يرغبا في ذلك؟ لكل شيء تبعاته، أليس كذلك؟ من بين الأزواج الأوائل الذين تزوجوا في الولايات المتحدة، اعترف أحدهما على الفور في مقابلة أن الشريكين كانا يعيشان في علاقة مفتوحة. ما الذي ستكونه نظرة الآخرين – بما في ذلك الغيريين – إلى زواج المثليين في مثل هذه الحالة؟ سؤال يتردد صداه، لكن لا أحد يجرؤ على مواجهته. في بريطانيا، بذل زوج مثلي بارز جهوداً هائلة لإخفاء حقيقة أنهما في علاقة مفتوحة. ربما لأنهما أدركا الضرر الذي يمكن أن يحدثه اكتشاف الأغلبية الغيرية «خيانة» زوجين مثليين رفيعي المستوى.

إلا أن هذا المد الكبير من الخطابات «المساواتية» لا يجعلنا متيقنين من أن غالبية المثليين ترغب فعلياً في مساواة كاملة. قد يبدو أن الكثيرين يريدون أن يكونوا متساوين بصورة كاملة، ولكن مع شيء من الزيادة للمثليين، تضمن لهم ميزات حصرية. خاطرت نجمة التلفاز الأمريكية إلين ديجينيرز Ellen DeGeneres مخاطرة كبيرة عندما ظهرت وصرحت عن ميلها المثلي في عام 1997. لكن واقع

أن هذه المخاطرة أتت أكلها وزادت بشكل ملحوظ من منظورية المثليات جعلتها موضع احترام. أهو رأس المال الاجتماعي المستدام الناتج من هذا الفعل، أم هي ميزة خاصة بالمثليات منحتها خيارات ليست في متناول الغيري؟ مثل لعبة «من تفضل؟»، حيث تدعو إلين الضيوف في عرضها (ذكوراً وإناثاً) لمشاهدة صور شخصين مشهورين في وقت واحد وتسألهم: «من تفضل؟».

في بداية فضيحة «MeToo#» في عام 2017، لم تَطل المشكلات الرجال الذين تقرّبوا من امرأة بطريقة غير لائقة فحسب، بل أولئك أيضاً الذين عاملوها بوصفها مجرّد شيء. لكن يبدو أن ديجينيرز لم تكن مضطرة للخضوع إلى القواعد نفسها. ففي أواخر أكتوبر من العام نفسه، أي في الشهر الذي فقد فيه هارفي وينشتاين Harvey Weinstein مكانته، نشرت ديجينيرز على وسائل التواصل الاجتماعي صورة لها مع كاتي بيري Katy Perry. كانت نجمة البوب ترتدي فستاناً ضيقاً جداً، أظهر ثدييها بشكل ملحوظ. أظهرت الصورة ديجينيرز وهي تضع ذراعاً واحداً حول بيري، وتميل رأسها نحو ثدييها وتحدّق بهما بفمها المفتوح. نقرأ على الصورة التي نشرتها ديجينيرز في حسابها الرسمي على tweeter: «عيد ميلاد سعيد كاتي بيري! حان الوقت لإخراج البالونات الكبيرة!»[55] فعلى الرغم من وجود إجماع واسع في ذلك الوقت على أن لا حق للرجال في تشيئة النساء، بدا أن المثليات من المشاهير يتمتعن بشرط إعفاء في هذا الخصوص.

الوالدية المثلية

لاقى نجاح حركة الدفاع عن حقوق المثليين ترحيباً مفهوماً في جميع الديمقراطيات الليبرالية الغربية. لكن كان لهذا النجاح مقابل تجلّى في الابتزاز الأخلاقي الذي مارسته الحركة على قضايا أخرى. ما القضايا المكافئة اليوم لقضية المثليين والتي سننظر إليها مستقبلاً نظرة الخزي ذاتها التي نرمق بها في وقتنا الحاضر

(55) @TheEllenShow, Twitter, 25 October 2017, 5.53 p.m.

تجريم المثليين الذي كان في الماضي؟ عدد القضايا المرشّحة لملء هذه الساحة ليس بقليل. من ناحية أخرى، هناك أثر تداخلي لهذا النجاح على حقوق مثليي الجنس الأخرى. فتعويضاً عن تجريم بات يُنظر إليه بوصفه خطأ رئيساً، راح المجتمع يقبل بتنازلات أخرى من دون أدنى اعتراض.

أدى تبنّي زواج المثليين في الولايات المتحدة والمملكة المتحدة إلى تصاعد الطلب على الحقوق المرتبطة به، ابتداءً بالحق في الأبوة والأمومة المثليين. لم يقتصر الأمر على المطالبة بالحق في تبني الأطفال، ولكن في إنجابهم. أزواج مثليون من المشاهير مثل إلتون جون Elton John وديفيد فورنيش David Furnish وتوم دالي Tom Daley وداستن لانس بلاك Dustin Lance Black يقدّمون هذا المشروع في كثير من الأحيان كما لو كان أكثر الأشياء اعتيادية: «قررنا أن نؤسس عائلة». في فبراير 2018، نشر دالي وبلاك صورة لهما وهما يحملان صورة إيكوغرافية. وجاء في عناوين الصحف: «توم دالي يعلن أنه وزوجه سينجبان طفلاً»(56). كانت نكتة المثليين القديمة تقول: «لم ننجب طفلاً بعد، لكن هذا لا يعني أنه لا يمكننا الاستمرار في المحاولة». لكن تلك القصة أوحت بأننا نعيش اختراقاً مثلياً. وسرعان ما أصبح من البديهي أن يُقال لأي شخص يُشكك في إمكان أن يُنجب رجلان طفلاً: «لم لا؟ يا لك من متعصب أحمق!».

من الطبيعي أن يُبادر كاتب عمود في صحيفة Daily Mail فيتجرأ على المحظور ويطرح السؤال: «لكن كيف؟». لا سيما أن لهذا السؤال ما يبرره. ذلك أن السنوات السابق كانت قد عرفت إجماعاً على أن استبعاد النساء من أي شيء إنما هو خطأ جسيم يصعب تقويمه. وها نحن نرى رجلين مثليين يستبعدان امرأة واحدة على الأقل، وهي المرأة التي سبق ولعبت دوراً في مكان ما بالضرورة من القصص برمتها. والحال إن هذا الاستبعاد يطرأ الآن في الحدث الذي يُعدّ الأبرز من بين ما يمكن لإنسان أن يعيشه.

(56) *Daily Telegraph*, 14 February 2018.

السبب الثاني الذي يستدعي التفكير بروية هو أن قصة الطفل دالي-بلاك، التي حبكت حبكة متقنة، كانت تكذب على جيل كامل من الشباب المثلي. والحقيقة هي أن إنجاب طفل بيولوجي سهلٌ على امرأتين مثليتين، لكنه صعب للغاية على رجلين مثليين. وحتى إن فعللا ذلك، فإنه سيحمل البصمة البيولوجية لأحدهما فحسب. وفي ذلك كلّه مصدر أسئلة وتوترات محتملة قد تتفجر في أي لحظة. الجزء الأكثر وضوحاً في هذه الكذبة هو أنه حتى هذه الحالة – أي عندما ينجب رجلان مثليان طفلاً يحمل الحمض النووي لأحدهما – غير متاحة لمعظم المثليين، وإنما للأكثر غنىً من بينهم فحسب. فإجراءات التلقيح الاصطناعي وتأجير الأرحام ليست زهيدة. ولكن حتى تاريخ رد الفعل المعتدل للغاية الذي جاء ضد تأطير الحمل الذي أعلنه دالي-بلاك، لم يكن أي من هذا مطروحاً للنقاش. نشرت مجموعة تُدعى «أوقفوا تمويل الكراهية قائمةً بالشركات التي تنشر عادةً إعلانات عنها في صحيفة Daily Mail محاولةً بذلك حث الناس على الضغط عليها لوقف نشر إعلاناتها في صحيفة قالت المجموعة إنها تنفصل بصورة متزايدة عن وجهات النظر السائدة في المجتمع البريطاني»[57]. والسبب في ذلك أن الصحيفة تجرأت وكتبت معترضةً «تمهّلوا لحظة» على الادعاء بأن رجلين يمكنهما إنجاب طفل.

لكن الموقف «ليس مساوياً فحسب، بل أفضل قليلاً» ما زال حاضراً في النقاش الدائر حول المثليين وفي العديد من النقاشات الأخرى. في عام 2014، أجرى باحثون في جامعة ملبورن دراسة قالوا إنها برهنت أن أطفال الأزواج من الجنس نفسه يتمتعون بصحة أفضل وأكثر سعادة من الأطفال الذين نشأوا على يد أزواج من جنسين مختلفين. زعم الباحث الأساس في المشروع، الدكتور سيمون كراوتش Simon Crouch، أن أحد أسباب هذه السعادة المتفوقة هو أن الأزواج من الجنس نفسه لم يقعوا في «الصور النمطية الجندرية» التقليدية، ما أدى إلى «وحدة عائلية

(57) Stop Funding Hate, *Twitter*, 16 February 2018.

أكثر انسجاماً»[58]. وهو تأكيد ليس بالنادر. في عام 2010، بثت محطة BBC فيلماً قصيراً للقسة شارون فيرغسون Sharon Ferguson (التي كانت أيضاً الرئيسة التنفيذية لحركة المثليات والمثليين المسيحيين) ادعت فيه أن مثليات مثلها لا يتساوين مع الأزواج من جنسين مختلفين لجهة الكفاءات الوالدية. وفقا لها، إن المثليات يبدون في واقع الأمر أكفأ من الأزواج من جنسين مختلفين[59]. نسمع بانتظام المجاهرة بادعاءات مماثلة تستند إلى إحصائيات مشكوك فيها والتي تندرج دائماً ضمن إطار الدعاية أكثر منها ضمن إطار التحليل.

على سبيل المثال، في مارس 2018، نشر باحثون من معهد ويليام في كلية الحقوق بجامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس، نتائجهم بعد دراسة 515 زوجاً في فيرمونت على مدار 12 عاماً. وفقاً لهذا البحث، من المرجح أن يظل الأزواج المثليون من الذكور معاً أكثر من الأزواج المثليات أو الأزواج من جنسين مختلفين[60]. تناقلت الصحافة المثلية ووسائل أخرى على الفور هذا التقرير تحت عنوان: «دراسة تكشف أن الأزواج المثليين ينفصلون بنسبة أقل من الأزواج الغيريين»[61].

قد نحسب أن الوالدية المثلية تنحصر في الجانب المثلي فحسب من الانقسام بين المثليين وأحرار الجنس، لكن سرعان ما نلحظ خلف بعض التورية صدىً لأحد أبشع أشكال الضوضاء التي كانت موجودة دائماً على هامش حركة حقوق المثليين. إنه الادعاء بأن المساواة ليست كافية، لأن المثليين هم بمعنى ما «أفضل» من الغيريين. صُوِّر الناشط الأمريكي المثلي المتطرف روبرت رافسكي Robert Rafsky ذات مرة وهو يصرخ في زملائه النشطاء المثليين خلال مظاهرة: «نحن

(58) 'Children of same-sex couples happier and healthier than peers, research shows', *Washington Post*, 7 July 2014.
(59) Sunday Morning Live, *BBC1*, 27 October 2010.
(60) 'Study identifies predictors of relationship dissolution among same-sex and heterosexual couples', *The Williams Institute*, UCLA School of Law, 1 March 2018.
(61) *Pink News*, 25 March 2018.

أهم منهم!». كتب بروس باور، «هذا الموقف ليس أقل بشاعة من سلوك الغيريين جنسياً الذين يعتبرون أفضليتهم على المثليين جنسياً أمراً مفروغاً منه»[62]. يبقى الإرباك هو سيد الموقف هنا، كما في جوانب أخرى من الموضوع.

من بين أوجه الإرباك الأخيرة في هذا الشأن والجدير بالذكر، سنتطرق إلى أكثر المسائل صعوبة على الإطلاق؛ والتي تتعلق بمعنى كونك مثلياً، هل يعني ذلك أنك تنجذب إلى أفراد من جنسك، أم أنك جزء من مشروع سياسي كبير.

هل المثلية الجنسية سياسية؟

قبل استفتاء خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي عام 2016 في المملكة المتحدة، أجريت مقابلة مع الممثل السير إيان ماكيلين Sir Ian McKellen في شأن نواياه في التصويت. عنونت المقابلة من اقتباس من ماكلين: «لا معنى لخروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي إذا كنت مثلياً». في المقالة، صرّح السير إيان – الذي بذل نفسه بسخاء لتعزيز حقوق المثليين الأساسية على مدى العقود الأخيرة – أنه بالنظر إلى التصويت من منظور مثلي، «ليس ثمة سوى خيار واحد، وهو البقاء. إذا كنت شخصاً مثلياً، فأنت أممي»[63].

هكذا فإن الأشخاص الذين يحسبون أنفسهم مثليين وقدروا انهم سيصوّتون لصالح الخروج من الاتحاد الأوروبي، لعلهم ضلّوا طريقهم طوال هذه السنوات. وكما هو الحال في كثير من الأحيان، اندلعت حروب أسوأ بكثير على هذه الأرضية نفسها في أميركا.

كان يجب أن يكون تاريخ 21 يوليو 2016 لحظة رائعة لمؤيدي حقوق المثليين في الولايات المتحدة. في ذلك اليوم، صعد بيتر ثيل Peter Thiel إلى خشبة المؤتمر الوطني للحزب الجمهوري في كليفلاند بأوهايو، وألقى كلمة في القاعة الرئيسة.

(62) Bawer, *A Place at the Table*, p. 188.

(63) 'Sir Ian McKellen: Brexit makes no sense if you're gay', *Daily Telegraph*, 10 June 2016.

كان قد ظهر رجل مثلي على منصة جمهورية قبل بيتر، ولكن ليس بمفرده ولم يُفصح أنه مثلي علناً. خلافاً لذلك، عرّج المؤسس المشارك لـ PayPal وأحد أوائل المستثمرين في Facebook، بصورة مباشرة وصريحة إلى جنسانيته، ثم أيّد دونالد ترامب Donald Trump المرشح الجمهوري لمنصب الرئيس. قال ثيل في خطابه: «أنا فخور بكوني مثلي. أنا فخور بكوني جمهوري. لكن الأهم من ذلك كله أنني فخور بكوني أميركياً». قوبلت كلماته بهتافات مدويّة في القاعة. ما كان يمكن تخيل وضعٍ كهذا الوضع قبل دورات انتخابية قليلة. كانت محطة NBC من بين وسائل الإعلام المنتشرة التي نقلت هذا الحدث بصورة إيجابية، بعنوان: «بيتر ثيل يصنع تاريخ المؤتمر الوطني للحزب الجمهوري».

من جانبها، لم تكن صحافة المثليين إيجابية. هاجمت مجلة Advocate – وهي أهم مجلة للمثليين في أميركا – ثيل في مقالة طويلة ومثيرة للفضول، أخذت شكل حرمان من كنيسة المثليين، وحملت العنوان الآتي: «بيتر ثيل يوضح لنا أن هناك اختلافاً بين الجنس المثلي ومثلي الجنس». يتساءل العنوان الفرعي للمقالة المطولة التي كتبها جيم داونز Jim Downs (أستاذ التاريخ المشارك في كلية كونيتيكت) والمؤلَّفة من 1300 كلمة: «عندما تتخلى عن عديد من جوانب هوية أحرار الجنس، هل ما زلت LGBT؟»

وفي حين أقرّ دونز أن ثيل «رجل خاض علاقات جنسية مع رجال آخرين»، تساءل في المقابل هل هو «مثلي» بالفعل على المستويات الأخرى. ثم يتابع دونز: «قد يبدو هذا سؤالاً ضيق الأفق، إلا أنه [كذا في الأصل] يسلط الضوء على تمييز واسع وحاسم علينا تطبيقه على مفهومات الجنسانية والهوية والمجتمع». ثم بعد استهزائه بأولئك الذين أشادوا بخطاب ثيل معتبرين أنه لحظة فاصلة، إلى جانب كونه «تقدماً»، ألقى دونز لعنته قائلاً: «إن ثيل مثال لرجل خاض علاقات جنسية مع رجال آخرين، لكنه ليس رجلاً مثلياً. فهو لم يلتحق بنضال الأفراد وإذ ذلك لم يتمثَّل هويتهم المميّزة لهم».

المستند الأول الذي اعتمد عليه هذا المطارد للهرطقات المثلية، هو أن ثيل، في خطابه أمام المؤتمر، استبعد المشاحنات رفيعة المستوى والتي لا نهاية لها في شأن دخول العابرين إلى الحمامات، ومَن عليه أن يستخدم أي حمام، وأي تجهيزات يجب تشييدها. ومع أن ثيل أعرب عن رفضه «لكلّ مكونات برنامج الحزب»، إلا أنه صرّح أيضاً بالقول: «ما من نتيجة أخرى للحروب الثقافية المزيفة غير صرف انتباهنا عن تدهورنا الاقتصادي». ويتابع: «عندما كنت طفلاً، كان النقاش الكبير يدور حول طريقة دحر الاتحاد السوفياتي. وقد انتصرنا. الآن، يقولون لنا إن على النقاش الكبير أن يتمحور حول معرفة من يستطيع استخدام أي حمامات. إن من شأن ذلك أن يصرفنا عن مشكلاتنا الحقيقية. من قد يهتم بذلك كلّه؟» لاقى هذا التصريح الترحيب في كليفلاند. وإن صدّقنا استطلاعات الرأي، فإنه لاقى الترحيب في أميركا برمتها. فمن البديهي أن أعداداً أكبر من الأشخاص قلقة بشأن الاقتصاد، مقارنة بالأعداد المنشغلة بمسألة الحمامات. لكن بالنسبة إلى مجلة Advocate، مثّل ذلك انحرافاً غير مقبول عن المسار.

فعلى الرغم من أن ثيل أكد «خياراته الجنسية»، يظل مذنباً لأنه «انفصل عن الهوية المثلية». فهو بما قدّمه من آراء في شأن السمة العابرة للإشكالية الغالبة الخاصة بحمامات العابرين جندرياً إنما يرفض فعلياً مفهوم LGBT بوصفه هوية ثقافية تتطلّب نضالاً سياسياً للدفاع عنها». ثيل متهم بالانتماء إلى حركة، منذ السبعينيات، لم «تستثمر في بناء هوية ثقافية بالقدر الذي فعله أسلافها». يبدو أن نجاح تحرر المثليين قد أعاقها عن متابعة هذا «العمل الثقافي». وهو عمل خطر، علاوة على ذلك، الأمر الذي تظهره المذبحة الأخيرة في ملهى ليلي مثلي، من دون أن يكون هناك رابط بين الاثنين طبعاً. ثم يتابع المؤلّف مذكّراً قرّاءه بـ«الموروث الهائل الذي خلّفته لنا حركة تحرر المثليين، ولكي نحمي هذا الموروث، يجب أن نفهم معنى كلمة "مثلي" وألا نستخدمها مجرّد مرادف للرغبة والعلاقة الحميمة

بين أشخاص من الجنس نفسه»[64].

نُفّذت مذبحة ملهى بالس الليلي في أورلاندو في يونيو 2016 على يد شاب مسلم أقسم بالولاء لتنظيم الدولة الإسلامية (داعش). ومع ذلك، فإن هذا التفصيل لم يستوقف مجلة Advocate أو «الاستعراض الفخري للمثليين» في نيويورك في وقت لاحق من نفس الشهر. ففي تلك المناسبة، حمل الاستعراض لافتة ضخمة بألوان قوس قزح مزينة بعبارة «الكراهية الجمهورية تقتل!»، متناسياً بوضوح أن عمر متين Omar Mateen، مرتكب المذبحة، لم يكن عضواً في الحزب الجمهوري.

لا تقتصر المسألة على أن لدى المنظمين الذين نصّبوا أنفسهم حماة «المجتمع المثلي» وجهة نظر معينة عن السياسة. بل لديهم أيضاً رؤية محددة عن المسؤوليات المزعومة التي يقتضيها كون الإنسان مثلي الجنس. في عام 2013، وُبّخ الروائي بريت إيستون إليس Bret Easton Ellis واستُبعد من حفل عشاء جوائز وسائل الإعلام السنوية الذي تقيمه منظمة مثليي الجنس GLAAD. فقد أدين بتغريد آرائه حول بلاهة الشخصيات المثلية في المسلسلات التلفزيونية، الأمر الذي «لاقى استجابة سلبية من المجتمع المثلي» – وفق GLAAD[65]. نعثر على هذه النبرة الرقابية – نبرة مدير المدرسة الابتدائية – لدى PinkNews في عام 2018 مع قائمتها التي تضم عشرة «أشياء مسموحة وممنوعة» للغيريين و«كيف يجب أن يتصرفوا في ملاهي المثليين»[66]. في جميع هذه الحالات السابقة، تدفعك غريزتك الطبيعية للقول: «من تظنون أنفسكم بحق الجحيم؟» لكن بعد توبيخه على تفكيره الخاطئ، تمكن إليس من تلخيص ما أصبح ملمحاً مهماً من المسألة المثلية بحلتها

(64) Jim Downs, 'Peter Thiel shows us there's a difference between gay sex and gay', *Advocate*, 14 October 2016.

(65) 'Bret Easton Ellis goes on Twitter rampage after GLAAD media awards ban', *Entertainment Weekly*, 22 April 2013.

(66) 'How straight people should behave in gay bars', *Pink News*, 30 November 2018.

الجديدة. وفق كلماته الخاصة، إننا نعيش في «مملكة الرجل المثلي الذي تحوّل إلى جني سحري يظهر أمام كل إنسان يُفصحُ عن ميله الجنسي المثلي مثل كائن فضائي بهالة مقدّسة، هدفه الوحيد هو أن يُذكّرنا بالتسامح ولا شيء غير التسامح، وبأحكامنا المسبقة، وبشعورنا بالرضا عن أنفسنا وأن نكون رمزاً».

والحقيقة أن الجني المثلي السحري قد تربّع على العرش وبات يُجسّد واحداً من الرموز المجمع عليها والتي بفضلها تصالحَ المجتمع مع المثلية الجنسية. ويستطيع المثليون الآن أن يتزوجوا مثل الجميع، وأن يتصرفوا كما لو كان لديهم أطفال، تماماً مثل الجميع، وأن يثبتوا، أسوةً بداستن ولانس بلاك وقناتهما على YouTube، أنهم مسالمون ويمضون حياتهم في البرهنة على لطفهم وكياستهم وفي صنع الكعك المحلّي. وكما كتب إليس: «إنه المثلي اللطيف والخفيف، وغير المهدِّد جنسياً ونجح نجاحاً مبهراً ومن المفترض به أن يحوّل الغيريين إلى نبلاء مدافعين ومحبين للمثليين، ما دام المثلي المعني ليس فوضوياً أو داعراً أو معقّداً»[67]. يوجز «الطفل المزعج» في القصة الخيالية الأميركية الحالةَ بصورة أخاذة.

ما هي الأسباب الوجيهة لـ«رهاب المثلية»؟

لا شيء مما تقدّم يبرر الكراهية أو العنف تجاه أفرادٍ بعينهم، ناهيك عن مجموعات كاملة من الناس. لكن هناك فرق شاسع بين الرصانة المطلقة والإشفاق والعطف على الناس، وبين الرغبة في مهاجمتهم بعنف. والواقع أن بعض الغيريين جنسياً يشعرون بالتوتر تجاه المثليين. ربما يشعر كثير من الغيريين، أو حتى جميعهم، بشيء من هذا القبيل. هذا الشعور بعيد جداً عن الكراهية، هو أقرب إلى الضيق. وفي حين أن كثيراً من النصوص والدراسات في شأن ما أصبح يُعرف باسم «رهاب المثلية» قد ركز على التبريرات المخادعة لهذه الظاهرة، أُهملت الأسباب الوجيهة المؤسِّسة لها. ينطبق هذا الحال على المثلية الجنسية للذكور أكثر من مثلية

---

(67) 'In the reign of the magical gay elves', Bret Easton Ellis, *Out*, 13 May 2013.

النساء. لأسباب تاريخية واجتماعية شتى، نادراً ما يُنظر إلى مثلية النساء على أنها جبهة مفتوحة ضد النظام الاجتماعي بالطريقة التي ينظر بها إلى مثلية الذكور. وقد يكون ذلك بسبب وجود شيء ما في طبيعة المثلية الجنسية الذكورية يُحيل إلى أساس أحد الجوانب الأكثر أهمية لجنسانية الجميع: ليس البعض، بل الجميع.

نجد في جذر جميع أشكال الانجذاب الأنثوي والذكوري تجاه الجنس الآخر أسئلة شتى لم تجد إجابة لها ولن تجدها يوماً ربما. ثمة ألغاز وحوادث غامضة تطرأ على مستويات طقوس اللقاء. وقد مثّلت هذه الألغاز والحوادث العنصرَ الأساس في جميع أنواع الكوميديا والتراجيديا تقريباً منذ العصور الأولى وحتى الوقت الحاضر. لكن الأسئلة الأكبر والأكثر ديمومة إنما تتخطى طقوس الغزل والتعارف ولا تجد التعبير الكامل عنها في كثير من الأحيان إلا في مرحلة طقوس التزاوج. تريد النساء معرفة ما الذي يبحث عنه الرجال، وماذا يريدون، وبصورة خاصة بماذا يشعرون في أثناء ممارسة الجنس. تعتبر هذه الأسئلة مكوّناً أساسياً في المحادثة التي تدور بين الأصدقاء ومصدر انزعاج وقلق خصوصيين وهائلين في طورٍ معين (وأحياناً في جميع الأطوار) من حياة معظم الناس منذ المراهقة.

إذا كان هناك شيء واحد في المجتمع يُشبه إلى حد كبير ارتباك النساء وقلقهنَّ تجاه الرجال، فهو بالطبع قائمة الأسئلة التي يطرحها الرجال في شأن النساء. يُشكل عجز الرجال عن فهم النساء موضوع جزء كبير من الآثار الفنية والأدبية الكلاسيكية للعالم برمته، وكذلك لجميع أشكال الكوميديا الدرامية. بماذا يفكرن؟ ماذا يردن؟ لماذا هذه الصعوبة الجمة في فك رموز سلوكاتهن؟ لماذا يتوقع كل جنس أن يكون الآخر قادراً على فك تشفير كلماته وأفعاله وصمته، في حين لم يُمنح أي فرد من الجنس الآخر دليل فك تشفير؟

ثمة في أصل مجموعة انشغالات وأسئلة الرجل الغيري السؤال نفسه الذي تطرحه النساء في شأن الرجال. ماذا يشبه فعل ممارسة الجنس؟ بماذا يشعر الشخص الآخر؟ وماذا يستخلص من هذا الشعور؟ وكيف يلتقي الجنسان معاً؟

لقد فكر القدماء في هذه الأسئلة طبعاً. طُرحت عند أفلاطون Plato بصورة مضمرة، وصيغت صياغة لا تُنسى في خطاب أرسطوفان Aristophanes في محاورة Symposium [المأدبة]. لكن لا إجابة، واللغز مستمر، وربما يظلّ كذلك إلى الأبد.

في هذا النقطة كان دخول المثلية الجنسية – للذكور بصورة خاصة – دخولاً محيّراً. إذ حتى ظهور الجراحة المعقولة للأشخاص الذين قدّروا أنهم ولدوا في الجسد الخطأ (سأعود إلى هذا الموضوع لاحقاً)، كان أكثر المسافرين عبر الجنسين إزعاجاً هم المثليون الذكور. ليس بسبب جزء أنثوي قوي في طبيعتهم، ولكن لأنهم يعرفون شيئاً عن السر الذي تحتفظ به النساء في ممارسة الجنس. إنها مسألةٌ – ومصدر انشغال – موجودة منذ آلاف السنين.

لنتأمل في أسطورة تيريسياس Tiresias كما سُرِدت في Metamorphoses [التحولات]. يروي أوفيد Ovid قصة جوف Jove وجونو Juno، اللذين كانا يمزحان يوماً ما في شأن ممارسة الجنس. يقول جوف لجونو: «إنكن، أيتها النساء، تحصلن على متعة من ممارسة الجنس أكبر من الرجال، أنا متأكد». لا توافق جونو على هذا الرأي، ولذلك قررا استشارة تيريسياس: «ذاك الذي يعرف وجهي الجنس». قصة تيريسياس معقدة. يخبرنا أوفيد أن تيريسياس صادف ذات مرة زوجاً من الثعابين الضخمة تتزاوج في أيكة خضراء. هاجمهما بعصاه فتحوّل على الفور من رجل إلى امرأة. بعد قضاء سبع سنوات كامرأة، وبحلول السنة الثامنة، صادف الثعبانين مرة أخرى وضربهما مرة أخرى. قال لهما: «إذا كان لضربكما قوة سحرية/ قوّة تُحوّل المهاجم إلى الجنس الآخر/ سأضربكما الآن مرة أخرى». يضرب الأفعى مع انتهائه من الكلام، ثم يتحوّل إلى رجل.

يستدعي جوف وجونو تيريسياس للبت في مسألة مَن يستمتع بممارسة الحب أكثر، الرجال أم النساء. يعلن المسافر عبر الجنسين أن جوف على حق: تستمتع النساء بممارسة الحب أكثر. فيثير قوله امتعاض جونو، التي تحكم إذاً على

تيريسياس بالعمى. لتعويضه عن عماه، ولأن ليس بمقدور إله أن يُبطل عمل إله آخر، وهب زيوس تيريسياس هبة النبوة – وهي الهبة التي ستسمح لاحقاً لتيريسياس بالتنبؤ بمصير نرسيس Narcissus[68]. إذا ما وضعنا قصة الآلهة والثعابين والعصي جانباً، فإن أسطورة تيريسياس تقترح إجابة عن سؤالٍ يتسم بعمق كبير. وهو سؤال يلعب فيه الرجال المثليون أيضاً دوراً مهماً.

ما يثير الدهشة هو أن قليلاً من الناس قد طرحوا على أنفسهم هذا السؤال. واحد من القلائل الذين فعلوا ذلك في السنوات الأخيرة هو الكاتب والبروفيسور (ليس من قبيل المصادفة) دانييل مندلسون Daniel Mendelsohn. في عمله الموسوم The Elusive Embrace: Desire and the Riddle of Identity [العناق المراوغ: الرغبة ولغز الهوية] (1999) – وهو كتاب سيرة تاريخية وعائلية –، يسطر الكاتب تأملات عميقة في هذا الموضوع، ويسأل ماذا يُشبه إحساس رجلين يمارسان الجنس، فيكتب:

يُشبه تجربة تيريسياس نوعاً ما، وهنا يكمن السبب الحقيقي في كون الرجال المثليين غريبين، وفي الإرباك والإزعاج اللذين يكتنفان فكرة الرجل المثلي. يعرف جميع الرجال الغيريين الذين خاضوا تجربة الجنس ما يكونه ولوج الشريك خلال الفعل الجنسي، وما الذي يعنيه أن نكون في داخل الآخر؛ وتعرف جميع النساء اللواتي خضن علاقات جنسية ما هو الإيلاج، وماذا يعني أن يكون الآخر في داخلهن. لكن الرجل المثلي، في اللحظة التي يلج فيها إلى شريكه أو يتعرض إلى إيلاج، يعرف بالضبط ما يشعر به شريكه ويختبره في حين يخوض هو نفسه التجربة المعاكسة، أي الفعل المتمم. إنّ الجنس بين الرجال يذيب الآخرية في التشابه في تعطيل تام: ليس ثمة ما يجهله الواحد عن الآخر. إذا كان الهدف العاطفي من العلاقة الجنسية هو معرفة تامة بالآخر، فقد يكون الجنس المثلي، بطريقته، مثالياً، لأنه يجعل من هذه المعرفة التامة بما يختبره الآخر معرفة ممكنة. ولكن بما أن موضوع

(68) Ovid, *Metamorphoses*, trans. A. D. Melville, Oxford University Press, 1998, pp. 60–1.

تلك المعرفة معروف بالفعل تماماً من طرف الشريكين، فإن الفعل أيضاً، بطريقة ما، زائد عن الحاجة. لعله السبب الذي يدفعنا جميعاً إلى البحث عن التكرار، كما لو كان العمق مستحيلاً.

يتابع مندلسون عبر قصيدة كتبها صديق عن شاب مثلي يشاهد رجالاً يلعبون كرة القدم، ويراقبهم برغبة صامتة وغيور. تتداخل القصيدة مع وصف شهواني وتخيلي للاعبين وهم يمارسون الجنس مع صديقاتهم، وبوصفها رجلاً، «يقع من خلال هذا الوصف في شغفه الخاص». يصف مندلسون تجاربه الغيرية السابقة، وفي حينَ اعترف بأنه لم يكن هناك شيء مزعج فيها، إلا أنها كانت، وفق تعبيره، «مثل المشاركة في رياضة تكون فيها في المكان الخاطئ بدنياً». لكنه يضيف:

من تلك الروابط غير المتقاربة أتذكر ما يلي: عندما يمارس الرجال الجنس مع النساء، فإنهم يقعون في حب المرأة. إنها الشيء الذي يرغبون فيه، أو يخشونه أحياناً، لكنها على أي حال هي نقطة النهاية، المكان الذي يذهبون إليه. هي الوجهة. أمّا الرجال المثليون، أثناء ممارسة الجنس، فيعودون إلى أنفسهم من خلال شركائهم، مرة بعد مرة.

ويتابع بالقول:

لقد مارست الجنس مع كثير من الرجال، يشترك كعظمهم بسمات محدَّدة: متوسطو الطول وعيونهم زرقاء في معظمهم ومظهرهم أميل إلى الحلاوة. وعندما يُنظر إليهم من الشارع أو من الطرف الآخر للغرفة، يلوح في وجوههم شيء من الهيبة. وعندما كنت آخذ أحدهم بين ذراعي، كان الأمر كما لو أنني أقع على رغبتي من خلال انعكاس لي، وكما لو أنني أقع على ما يُعرّفني، أي على أناي[69].

يُقدّم لنا مندلسون لمحة لافتة، لكنها مزعجة أيضاً. فهي تشي بأنه سيكون هناك

(69) Daniel Mendelsohn, *The Elusive Embrace: Desire and the Riddle of Identity*, Alfred A. Knopf, 1999, pp. 73–5.

على الدوام شيء غريب وربما مهدِّد لدى المثليين – والمثليين الرجال على الخصوص. لا يقتصر هذه التهديد على أن كون المرء مثلياً يُشكّل مكوّناً متقلقلاً تُبنى عليه هوية فردية وطريقة متلوّنة تلوناً شنيعاً لمحاولة تأسيس أي شكل من أشكال المجموعة، لكن أيضاً لأن المثليين سيُمثّلون على الدوام تحدياً للجزء الفطري للمجموعة التي تُشكّل الأغلبية في المجتمع.

لدى جميع النساء ما يشتهيه الرجال الغيريون ويرغبون فيه. يحوز جميع النساء شيئاً أقرب إلى السحر، ويُحسنّ التصرف به. لكن المشكلة تكمن في الآتي: يبدو أن المثليين مطّلعون على السرّ إلى حد ما. قد يأخذ ذلك لدى البعض مفعولاً محرّراً. فبعض النساء يُحب التكلّم مع الرجال المثليين عن مشكلات الرجال، بما في ذلك الجنسية منها. شأنهن في ذلك شأن بعض الغيريين الذين سيثمّنون وجود هذا الصديق ثنائي اللغة الذي يستطيع مساعدتهم في تعلم لغة أخرى. لكن الأمر ليس كذلك لدى البعض الآخر، بل هو بالأحرى مدعاةٌ للقلق. من منظور هؤلاء، المثليون، والرجال منهم على الخصوص، هم أشخاص يعرفون أشياء ليس من المفترض أن يكونوا على علم بها.

فاصل

(الأساسات الماركسية)

«أؤمن لأن هذا عبثي»

مسندة إلى ترتليان Tertullian

في عام 1911، ظهر ملصق شهير بعنوان: «عمال الصناعة في العالم»، يُصوّر ما يزعم أنه «هرم المنظومة الرأسمالية». في أسفل الهرم، نرى الرجال والنساء والأطفال وشجعان الطبقة العاملة. على أكتافهم الشامخة والصلبة، يحملون الصرح كله بعناء جهيد. تُرافق الجزء الأدنى والأهم من المنظومة، عباراتٌ توضيحية: «نحن نعمل من أجل المجتمع»، و«نحن نُطعم الجميع». على الطابق الذي يعلوهم مباشرة، نرى رجالاً بربطات عنق سوداء ونساءً يرتدين فساتين سهرة، وها هي الطبقات المالكة تحتسي النبيذ وتأكل الطعام، مرفوعة على أكتف العمال الذين لولا عملهم لما استطاعت هذه الطبقات التلهّي والاستمتاع. «نحن نأكل من أجلكم» – يقول هذا المستوى. ثم يأتي الجيش فوق هذا الأخير («نحن نطلق النار عليكم»). وفوقهم رجال الدين («نحن نخدعكم»). ثم الملك («نحن نحكمكم»). وأخيراً، يتربع فوق الملك، في أعلى الهرم، كيس كبير من النقود، ممهور برمز الدولار. و«الرأسمالية» هي التسمية لهذا المستوى الأخير والأعلى من الدولة.

اليوم، شقّت نسخة جديدة لهذه الصورة القديمة طريقها إلى مركز أيديولوجيا

العدالة الاجتماعية. تتربع الرأسمالية في هذه النسخة الجديدة أيضاً على قمة هرم الاضطهاد والاستغلال – الأمر الذي يدلّ على الأسس الماركسية لهذا البنيان الجديد. في المقابل، تسكن الطبقات العليا من هذا الهرم التراتبي فئاتٌ أخرى من البشر. في أعلى هذه التراتبية، نجد البيض والذكور والغيريين جنسياً. لا حاجة بهم لأن يكونوا أثرياء، لكن إن كانوا كذلك، فمن شأن ذلك أن يفاقم وضع الآخرين جميعاً. تحت هؤلاء السادة الذكور الطغاة، توجد الأقليات كافة: المثليون الجنسيون والملونون والنساء والعابرون جندريًّا. هؤلاء مستبعدون إلى أسفل الهرم، ومضطهدون ومهمّشون، وتبرأت منهم المنظومة البيضاء الأبوية الغيرية. ومثلما كان من المفترض على الماركسية أن تُحرّر العمال وتعيد توزيع الثروات، كذلك في النسخة الجديدة من هذا المطلب القديم، يجب انتزاع السلطة من الذكور البيض الأبويين وإعادة توزيعها على نحو أكثر إنصافاً على المجموعات الأقلية الموجودة في الهرم.

في البداية، لم تؤخذ هذه الأيديولوجيا الجديدة على محمل الجد من طرف خصومها. بدت بعض مطالبها مضحكة للغاية، وتناقضاتها متأصلة وصارخة جداً، حتى أنها كانت لا تستحقّ أي نقد متماسك. كان ذلك خطأً. فلئن كانت هذه أيديولوجيا بإرهاصات واضحة للغاية، لكنها ومهما عبّر عُنها، توفر منظوراً لفهم العالم وغاية لأفعال الفرد ولوجود وحياته في هذا العالم.

ليس من المستغرب على الإطلاق أن يكون لدى الأكاديميين الذي أمضوا سنوات في اجترار أفكار هذه النظرية حول تقاطع مجموعات لها مصالح محدَّدة، المصالح التاريخية نفسها. لا يوجد أكاديمي واحد منخرط في الترويج لسياسات الهوية ولسياسات تقاطع أشكال التمييز من اليمين المحافظ.

ليس الأمر مستغرباً لعدة أسباب. يتلخّص السبب الأول في النزعة الأيديولوجية المهيمنة في الأوساط الأكاديمية. كشفت دراسة أجريت عام 2006 في الجامعات الأميركية أن 18 في المئة من أساتذة العلوم الاجتماعية يصرّحون عفو

الخاطر بأنهم «ماركسيون». وعلى الرغم من وجود عدد قليل نسبياً من الماركسيين في الأقسام الأخرى، فإن أي حقل يضمّ ما نسبتهم الخُمس من بين جميع الأساتذة ممن يؤمنون بعقيدة مثيرة للجدل (وهذا أقل ما يمكن أن يُقال) قد يُثير الأسئلة. وكشف الاستطلاع نفسه أيضاً أن 21 في المئة من الأساتذة في العلوم الاجتماعية لا يُمانعون في تعريفهم على أنهم «ناشطون»، و24 في المئة على أنهم من اليسار المتطرّف[70]. هذه الأعداد أعلى بكثير من عدد الأساتذة المستعدين للاعتراف بأنهم «من اليمين» في أي حقل معرفي كان.

وحتى عندما لا يُعرّف عن نفسه بصفته كذلك، يُمكن دائماً التعرّف على الميل الماركسي وما بعد الماركسي في اليسار السياسي عبر اللجوء إلى عدد قليل من المفكرين الذين يقتبس منهم ويوقّرهم، ويحاول تطبيق نظرياتهم في جميع الفروع المعرفية وعلى حقول الحياة كافة. فمن ميشيل فوكو Michel Foucault، ورث هؤلاء تصورهم عن المجتمع، ليس بوصفه منظومة في غاية التعقيد ومؤلّفة من الثقة والتقاليد التي تطورت على الزمن، وإنما تحت مجهر لا يرحم إذ لا ينظر إلى الواقع إلا من منظور «السلطة». إن من شأن النظر إلى جملة العلاقات الإنسانية من زاوية النظر هذه، أن يُشوهها بدلاً من أن يُوضحها، وذلك من خلال تقديم تأويل غير أمين لوجودنا. لا شكّ في أن السلطة هي قوة في العالم، لكن الإحسان والصفح والمحبة هي قوى أيضاً. اِسأل معظم الناس عما يهمّ في حياتهم، وستُجيبك القلة القليلة منهم بأنها «السلطة». لا يعني ذلك أنهم لم يستوعبوا فوكو الخاص بهم، بل لأنه من الانحراف رؤية كل شيء في الحياة من خلال مثل هذه العدسة الهوسية.

ومع ذلك، وبالنظر إلى وجود صنف من الناس عازم على العثور في هذا العالم على أسباب للملامة بدلاً من الصفح، فإن فوكو يُعيننا على تفسير كلّ شيء في هذا

(70) 'The social and political views of American professors', a working paper by Neil Gross (Harvard) and Solon Simmons (George Mason), 24 September 2007.

الخصوص. إلا أن ما يسعى إلى تفسيره فوكو والمعجبون به داخل العلاقات الشخصية، إنما يطبقونه على مستوى سياسي أوسع نطاقاً. فهم يرون أن كل ما في الحياة على الإطلاق يُدرج في فئة الخيار والعمل السياسيين.

لم يكتف ما بعد الماركسيين الساعين إلى تفسير العالم المحيط بنا اليوم باستدماج المنظور الفوكوي والماركسي المشوِّه، بل استخلصوا أيضاً من أنطونيو غرامشي Antonio Gramsci مفهومهم للثقافة على أنها «قوة مهيمنة»، لا يقلّ ضبطها أهميةً عن أهمية الطبقة العاملة. وكذلك أخذوا من جيل دولوز Gilles Deleuze – المعاصر لميشيل فوكو – فكرة مفادها أن قوام دور الفرد إنما يتشكل من الكشف عن شبكة الدلالات التي نسجتها من حوله ثقافة منشئه، وفكّ عقدتها. لقد أخذوا من النظرية النقدية الفرنسية «تفكيك» كلّ شيء، دائماً وفي كلّ موضع. «التفكيك» فعالية مهمة في الأوساط الأكاديمية بقدر أهمية «البناء» في بقية المجتمع. والواقع أن الغريب والشاذ في هذه الأوساط الأكاديمية في العقود الأخيرة، أنها لم تجد ما لم ترغب في تفكيكه – باستثناء نفسها.

طاولت سيرورة التفكيك عدداً من الحقول، لكنها لم تكن بالسرعة والاكتمال التي كانت عليهما في الاستطالات الأبدية للعلوم الاجتماعية وتفرّعاتها. برامج مثل «دراسات المثلية» و«الدراسات النسوية» و«دراسات سواد البشر» وغيرها، وكلّ في مجال تخصّصه، رمت دائماً وفي كل مكان إلى تحقيق أهداف واحدة، مع عودة دائمة وإحالة مستمرة على هؤلاء المفكرين أنفسهم، والذين على ما يبدو لا غنى عنهم. أمّا أولى أولويات أهداف هذا القطاع من العالم الأكاديمي على مدار العقود الأخيرة، فكانت بمثابة مشروع لـ«نقض النسيج»، يتشكّل قوامه من مهاجمة وتقويض وضعضعة كل ما كان يبدو في ما مضى يقيناً راسخاً، بما في ذلك اليقينيات البيولوجية. هكذا، تحوّل الإقرار بوجود جنسين مختلفين إلى فرضية وجود جندرين مختلفين. ثمّ، وانطلاقاً من هنا، وُجّه النقاش بعناية إلى ما تضح أنه استنتاج حصد عدداً كبيراً من الأصوات، في الجامعات على الأقل. مفاد هذا

الاستنتاج أنه لا وجود على أرض الواقع لشيء اسمه جندر. ليس للجندر أي واقع يكن، وهو ليس سوى «بناء اجتماعي». أسهمت أعمال جوديث بتلر Judith Butler، من جامعة بيركلي، في الانتشار الشعبي لهذا التصور إلى حد كبير. من وجه نظر بتلر (خاصة في Gender Trouble: Feminism and the Subversion of Identity [**قلق الجندر. النسوية وتخريب الهوية**]، الصادر في عام 1990)، ارتكبت النسوية خطأً إذ اعتقدت بوجد فئات مثل الذكر والأنثى. وما الذكر والأنثى سوى «مفترضتين ثقافيتين». حتى الجندر نفسه ما هو إلا «أداء اجتماعي مُكرَّر»، وليس البتة نتيجة من «واقع سابق الوجود». وبالتوازي مع ذلك، بُدِأ عملٌ مشابه في «دراسات سواد البشرة» – وبالإحالة على مجموعات المفكرين نفسها – للتأكيد أن العرق، شأنه شأن الجندر، هو في الواقع «بناء اجتماعي» و«مفترض ثقافي»، ولا يُشير سوى إلى «أداء اجتماعي مُكرَّر».

بعد «نقض النسيج» هذا، صار من الممكن البدء بعمل نسيج جديد. في هذا الموضع تدخلت النصوص المؤسسة للعدالة الاجتماعية وتقاطع أشكال التمييز. ثم تبيّن لاحقاً أنها أخلت الساحة لكي تفرض نظرياتها وحدها.

في عام 1988، نشرت بيجي ماكينتوش Peggy McIntosh من كلية ويلسلي (المتخصصة في «الدراسات النسوية») كتاباً بعنوان White Privilege: Unpacking the Invisible Knapsack [امتياز البيض: إفراغ محتوى الحقيقة اللامرئية]. لم يكن العمل في ذاته مقالةً بمقدار ما كان قائمة ادعاءات ممتدة على بضع صفحات. تسرد ماكينتوش في هذه القائمة خمسين بنداً رأت فيها «التأثيرات اليومية لامتياز البيض». تتضمن هذه القائمة عبارات مثل: «أستطيع، إن أردتُ، تدبير أمري لمرافقة أشخاص من عرقي معظم الأوقات»، أو «أستطيع التسوّق وحدي في معظم الأوقات، وأنا متأكدة من أنني لن أتعرض للتتبع أو المضايقة»[71]. عدد من هذه العبارات التي سردتها ماكينتوش عام 1988، يبدو

(71) انظر: https://www.racialequitytools.org/resourcefi les/mcintosh.pdf

اليوم سخيفاً وقديماً. أضف إلى ذلك أن معظم هذه العبارات غير مقتصر على البيض، ولا يُشكّل أي منها دليلاً ولو بالحد الأدنى على نسقية يبدو أن ماكينتوش عدّتها أمراً بديهياً. لكن «امتياز البيض» كُتب بوضوح لا مثيل له، وأبدت الورقة مطلباً صريحاً مفاده أنّ على الناس الاعتراف بالامتيازات التي يتمتعون بها في حياتهم الخاصة. وتقول الورقة كذلك إن الأشخاص المستفيدين من البنيات القائمة للسلطة لم «يستحقوها». والأهم من ذلك أنها تؤكد وجود مجموعات متنوعة (بما في ذلك الأشخاص ذوي التوجهات الجنسية والمنتمين إلى أعراق مختلفة) تعاني من «اضطهادات متواشجة». بدا الأمر كما لو أن جميع أقسام دراسات المظالم قد اجتمعت معاً في مدارسة كبيرة.

من وجهة نظر ماكينتوش، وكيمبرلي كرينشو Kimberlé Crenshaw، وآخرين ممن طرحوا تأملات مماثلة، كان من الضروري تحديد طبيعة هذه الاضطهادات المتواشجة. ثمة شعور دائم بأنه بمجرد إلغاء هذه الاضطهادات، فإننا سنعيش في حالة من النعيم الرائع، مع أن خريطة اليوتوبيا، كما هو الأمر غالباً مع القائلين بها، غير متضمنة في البرنامج. غير أن ماكينتوش تهيب بالناس «رفع وعيهم اليومي» بشأن طبيعة الامتيازات ومحاولة استخدام «السلطة الممنوحة لنا اعتباطياً بغية إعادة بناء منظومات السلطة على أساس أوسع». إذاً، ما تقترحه ماكينتوش ليس ضد السلطة، بل في سبيل إعادة توزيعها على أسس مختلفة فحسب. وذلك كله يغوص في تحديد غير واضح المعالم إلى حد أن قائمة كتلك التي وضعتها ماكينتوش، ما كانت للتتجاوز أسوار ويلسلي في الأوقات العادية. والواقع أنها لم تتجاوز حدود العالم الأكاديمي عموماً لسنوات عديدة. لكن [امتياز البيض] نجى في أوقات غير عادية للغاية – أوقات اتسمت باندفاع كبير لإعادة تفسير الأمور من رأسها إلى أخمص قدميها. ثم اتضح أن هذا النداء إلى الوعي بالذات وإعادة التوزيع – على تبسيطيته – كان ناجعاً وفعالاً للغاية في هذه المرحلة من الفوضى الفكرية.

كان آخرون يُنجزون في الوقت نفسه العمل ذاته بتبني منظور مختلف بعض الشيء. أمضى أحد أبرز المفكرين ما بعد الماركسيين – الأرجنتيني المولد إرنستو لاكلاو Ernesto Laclau (الذي توفي عام 2014) – ثمانينات القرن الماضي في محاولة حل سلسلة من المشكلات التي، على حد اعترافه، قد تبدو جديدة. ووضع مع شريكته شانتال موف Chantal Mouffe اللبنات الأولى لما سيُعرف بسياسات الهوية. في كتابيهما الموسوم Hegemony and Socialist Strategy [الهيمنة والاستراتيجية الاشتراكية] الصادر في عام 1985، بدأ بإقرار نبيل بأن الاشتراكية باتت في ورطة بسبب «ظهور تناقضات جديدة». ثم ألحقاه بالقول: «إن الخطاب التقليدي للماركسية كان متمحوراً حول الصراع الطبقي والتناقضات الرأسمالية». لذا فإن فكرة «صراع الطبقات» بحاجة إلى التعديل. وطرحا المسألة على النحو الآتي:

إلى أي مدى أصبح من الضروري تعديل الصراع الطبقي، بغية التمكن من حل الموضوعات السياسية الجديدة – المرأة، والأقليات القومية والعرقية والجنسية، والحركات المناهضة للأسلحة النووية وللمؤسسات، إلخ – التي تتسم بوضوح بمناهضتها للرأسمالية، لكن هويتها لم تُبنَ حول «مصالح طبقية» محددة؟[72]

لا بد من التذكير بأن هذا العمل لم يبق مغموراً، بل اقتبِس بصورة منتظمة: أكثر من 16000 مرة وفق google سكولر. في **[الهيمنة والاستراتيجية الاشتراكية]**، وأعمال أخرى مثل Socialist Strategy: Where Next? [الاستراتيجية الاشتراكية: ماذا بعد؟]، كان لاكلاو وموف صريحين صراحة كاملة بشأن ما يعتقدان أنهما قادران على تحقيقه، وكيف.

ليس واقع أن المنظومة الرأسمالية لم تنهر بعد دليلاً على أنها لن تنهار أبداً. ويضع إخفاق المشروع حتى الآن كلّاً من لاكلاو وموف أمام المزيد من المتناقضات

(72) Ernesto Laclau and Chantal Mouffe, 'Socialist strategy: Where next?, *Marxism Today,* January 198.

الواجب تذليلها. من بينها واقع أن «شروط النضال السياسي في الرأسمالية الناضجة تبتعد بصورة متزايدة عن القرن التاسع عشر»[73]. وعلى النضال السياسي في هذا العصر أن يشمل فئات اجتماعية أخرى.

لا يفوت مفكرانا الاعتراف بأن هذه الحركات قد تولّد تناقضاتها الخاصة. على سبيل المثال، قد تكون «الذاتية السياسية لطبقة العمال البيض مُحدَّدة تحديداً فائقاً بالمواقف العنصرية والمناهضة للعنصرية... المُهمة طبعاً لنضال العمّال الوافدين»[74]. يُسهب المؤلفان بإطناب كبير واستغلاق كامل في الطريقة التي يقترحانها للتغلب على تعقيدات كهذه. ويتحدثان باستمرار عن «نشاطات معينة» و«أشكال تنظيمية»، ويُسرفان في استخدام مفردة «جزئياً»[75]. وعلى الرغم من الغموض الذي يكتنف سلسلة كاملة من الاستنتاجات، بدا أنهما واضحان بشأن شيء واحد وحيد، وهو: فائدة «الحركات الاجتماعية الجديدة» للنضال الاشتراكي، مثل الحركة النسوية.

إن فائدة مثل هذه المجموعات واضحة: «في نضالاتها شديدة التنوع: الحضرية والبيئية والمناهضة للاستبداد والمؤسسات والنسوية والمناهضة للعنصرية والعرقية والإقليمية، أو تلك الخاصة بالأقليات الجنسية»، إنما تُعطي هدفاً للحركة الاشتراكية التي تبحث عن طاقة جديدة ودفعاً جديداً لها. والأكثر من ذلك، ما لم تتّحد هذه المجموعات، فقد تكتفي بتحقيق أجنداتها واحتياجاتها الخاصة. ما يجب فعله حينئذ، هو جمعها تحت مظلة واحدة، أي: مظلة النضال الاشتراكي. كتب لاكلاو وموف مطوّلاً عمّا «يعنينا في هذه الحركات الاجتماعية الجديدة» وأوضحا كيف يقودنا «تصوّر هذه الحركات بوصفها امتداداً للثورة الديمقراطية نحو سلسلة جديدة كاملة من العلاقات الاجتماعية. أمّا هذه الجدة، فقد مُنحت

(73) Ernesto Laclau and Chantal Mouffe, *Hegemony and Socialist Strategy* (second edition), Verso, 2001, p. 133.

(74) المرجع نفسه، ص 141.
(75) المرجع نفسه.

لها لكونها تطرح تساؤلات في شأن أشكال جديدة من التبعية»[76].

في مقالتهما المنشور في مجلة Marxism Today، كتب لاكلاو وموف تقديماً لكتابهما، كانا فيه أكثر وضوحاً بشأن الفائدة المرجوّة من هذه الحركات. فإذا تمكّنت هذه «الذوات السياسية الجديدة» («النساء والطلاب والشباب والأقليات العرقية والجنسية والإقليمية، وكذلك مختلف النضالات البيئية والمناهضة للمؤسسات») من معارضة القوى نفسها التي يُعارضها الاشتراكيون، فإنها ستحصل على ميّزة واضحة وفورية:

يتحدّد عدوها ليس تبعاً للاستغلال الذي يُمارسه، وإنما وفقاً لمزاولة سلطة معيّنة. وهذه السلطة، بدورها، لا تنبثق من مكان داخل علاقات الإنتاج، لكنها نتيجة لشكل من التنظيم الاجتماعي المميّز للمجتمع الحالي. والواقع أن هذا المجتمع رأسمالي، لكن ليست هذه خاصيته الوحيدة، فهو أيضاً متحيّز جنسياً وأبويٌّ، ناهيك بعنصريته[77].

سعى لاكلاو وموف صراحةً إلى العثور على فئة جديدة من الأشخاص «المستغَلين» أو إنشائها. قد تكون الطبقات العاملة مستغَلة، لكنها لم تتمكن من تبيّن ذلك، فخذلت منظريها وأخفقت في اتباع مسار التقدم الذي رُسم لها. بالنسبة إلى لاكلاو وموف، الأممية الثانية، والخرق اللينيني، والأممية الثالثة، وأنطونيو غرامشي، وبالميرو توغلياتي Palmiro Togliatti، وتعقيدات الشيوعية الأوروبية، تشهد على هذا التقدّم الواضح. إلا أن الجماهير لم تمش على خطاهم. على أي حال، أصبح بالإمكان الآن إتمام العمّال المخيبين للآمال، أو - لم لا - إبدالهم.

في المرحلة التي كانا يكتبان فيها، كان لاكلاو وموف على وعي بالإحباط الذي نال من جزء كبير من اليسار. زعزع إرث بودابست وبراغ وكمبوديا (على سبيل الذكر لا الحصر) كثيراً من الاشتراكيين. لكن أمام هذه «السلسلة من الظواهر

(76) المرجع نفسه، ص 159-160

(77) Laclau and Mouffe, 'Socialist strategy: Where next?'

الإيجابية الجديدة»، يمكن استثمار طاقة جديدة. مع أن الأولوية في نظر لاكلاو وموف تتمثّل في ضرورة القيام بـ «مراجعة نظرية» عاجلة:

إن صعود الحركة النسوية الجديدة، والحركات الاحتجاجية للأقليات العرقية والقومية والجنسية، والنضالات البيئية المناهضة للمؤسسات التي تقودها الطبقات المهمَّشة من السكان، والحركة المناهضة للنووي، والأشكال غير النمطية للنضال الاجتماعي في البلدان الواقعة على الأطراف الرأسمالية – كلها تستتبع امتداداً للصراعية الاجتماعية إلى مجموعة واسعة من المجالات، الأمر الذي يخلق إمكان التقدّم نحو مجتمعات أكثر حرية وديمقراطية ومساواتية، إمكاناً ليس إلا»[78].

المغزى هو أن هذه الفئات الجديدة يمكن أن تكون مفيدة.

بطبيعة الحال، مَن أخذ بهذه النصيحة وحاول توحيد جميع هذه المجموعات، اصطدم بعدد من العراقيل. إلى جانب العنصرية المفترضة للطبقة العاملة، ولّد ممارسو التفكيك في الثمانينيات والتسعينيات من القرن الماضي توترات جديدة خاصة بهم. على سبيل المثال، بعد أعمال النظرية النقدية للعرق ودراسات الجندر، ألم يكن من الصعب تفسير لماذا أصبحت خصائص معينة كانت تبدو ثابتة (خاصة الجنس والعرق) بناءات اجتماعية، في حين أن خصائص أخرى كان من الممكن أن تبدو أكثر مرونة (لا سيما الجنسانية) صار يُنظر إليها على أنها ثابتة كلياً؟

قد تكون هذه الأسئلة استوقفت هذا أو ذاك، لكنها لم تفعل ذلك لوقت طويل. إذ طالما كانت إحدى سمات المفكرين الماركسين عدم تعثّرهم بالمتناقضات، كما قد يحدث مع أي باحث أصيل عن الحقيقة. بخلاف ذلك، فقد مارست المتناقضات سحراً لا يُقاوم على الماركسيين. فالتناقض هو محرك الديالكتيك الهيغلي، لذا فإن جميع التعقيدات – يمكن أن نقول أيضاً: السخافات – التي تُصادَف على طول

(78) Laclau and Mouffe, *Hegemony and Socialist Strategy*, p. 1.

الطريق، يُرحّب بها بل ويُحتفى بها تقريباً كما لو كانت مفيدة للقضية، وليست منغّصة. وأيّ شخص يأمل في أن يرى تلاشي تقاطع أشكال التمييز في وسط هذه التناقضات المتأصلة، هو شخص ما أمكنه قط تصوّر العدد الذي لا يُحصى للتناقضات التي يستطيع الماركسي جعلها تتعايش في رأسه.

يبدو أن المشتقات الأيديولوجية لسياسات الهوية وتقاطع أشكال التمييز لا تجد حرجاً في العيش في فضاء فكري مترع بالتناقضات والسخافات والنفاق. على سبيل المثال، كان من بين المواقف الأساسية للدراسات حول المرأة والدراسات النسوية أنه يجب تصديق ضحايا الاعتداء الجنسي. فالنقاش حول الاغتصاب وسوء المعاملة والعنف المنزلي وعلاقات القوة غير المتوازنة، هو في أساس جميع الدراسات حول المرأة والدراسات النسوية. مع ذلك، عندما قدّم طالب من طلاب أفيتال رونيل Avital Ronell – أستاذة في جامعة نيويورك – في عام 2017 شكوى بموجب القانون التاسع ضد أستاذته، متهماً إياها بالتحرش الجنسي، وجدت المتحرّشة المفترضة زملاءها الأكاديميين إلى جانبها ويوفّرون لها الدعم. وكان من بين الموقعين على رسالة تدين التحقيق مع رونيل كل من سلافوي جيجك Slavoj Žižek وجوديث بتلر وآخرون، هؤلاء شهدوا على شخصيتها («الأناقة والذكاء الشديد»)، ووجهوا نحو سمعة المشتكي الذكر ما يُعادل صليات مدفع رشاش. وفوق ذلك، طالبوا أن «تُمنح رونيل الكرامة التي يستحقها بحق شخصٌ يتمتع بمكانتها وسمعتها الدولية»[79]. يعني ذلك أن مزاعم سوء المعاملة يجب أن تؤخذ دائماً على محمل الجد، شرط ألا تكون الضحية رجلاً، أو ألا تكون المتهمة أستاذة في النظرية النقدية النسوية. مهما يكن الأمر، يجب تذليل هذه التناقضات بمنتهى البساطة.

وعلى النقيض من ذلك، كلّ مَن اعترض طريق هذا التطور، اجتثّ من جذوره

(79) 'What happens to #MeToo when a feminist is the accused?', *The New York Times*, 13 August 2018.

بعنفوان كبير؛ وذلك باستخدام أسلحة (اتهامات بالعنصرية والتحيّز الجنسي وبكراهية المثلية الجنسية، وأخيراً وليس آخراً، بكراهية المتحولين جنسياً) يسهل اللجوء إليها وإشهارها من دون أي خشية من عقوبة في حال الاستخدام المسرف أو غير الشرعي أو الطائش. واتهمت الانتقادات الموجّهة إلى هذه العقيدة الناشئة، حتى لو كانت علمية، بأنها مدفوعة بأكثر الدوافع دناءة. وكما كتب ستيفن بينكر Steven Pinker في عام 2002: «بلغ شره عديد من الكتاب لتشويه سمعة أي اقتراح بشأن التكوين البشري الفطري، حدّ أنهم رموا المنطق والكياسة من النافذة... وقد استُبدل غالباً بتحليل الأفكار افتراءات سياسة وتهجمات شخصية... انتشر نفي الطبيعة البشرية إلى ما وراء نطاق الجامعة وأسفر عن انفصال بين الحياة الفكرية والفطرة السليمة»[80].

وبالطبع، هذا ما حدث. ما عاد الغرض لقطاعات واسعة من الأوساط الأكاديمية البحث عن الحقيقة واكتشافها ونشرها، بل أصبح هدفها إنشاء أو تطوير مشروع سياسي من نوع معين ونشره. ما عاد الهدف أكاديمياً، بل حراكياً.

تخون كثير من المؤشرات مشروعاً كهذا. أولها هو القول، على ما يورد مفكرونا، بأن ليس هناك ما هو أكثر علمية من هذه المطالبات السياسية الأكاديمية. في العقود التي كانت فيها العلوم الاجتماعية ترسي أسس تقاطع أشكال التمييز، قدّمت هذه الأخيرة ادعاءاتها عن طريق حجب صفة «الاجتماعي» في عبارة «العلوم الاجتماعية» والتأكيد على قوامها «العلمي». في هذا الموضع أيضاً، كانت هذه العلوم تتبع تقليداً يعود إلى ماركس ويمر من خلال نيكولاي بوخارين Nikolai Bukharin وجورجي بليخانوف Georgi Plekhanov والأممية الثانية. وفي جميع هذه الحالات، قُدّمت الادعاءات كما لو كانت علمية، بينما لم تكن في الواقع سياسية حتى، بل كانت أشبه بالسحر. كانت متنكّرة بلبوس العلم.

(80) Steven Pinker, *The Blank Slate: The Modern Denial of Human Nature*, Penguin, 2003, p. x.

ثمة أمر غريب آخر لدى هذه الحركة التقاطعية، وهو لجوؤها إلى التعمية. فباستثناء ورقة ماكينتوش الأكثر شعبية، فإن القاسم المشترك الوحيد بين مروجي أيديولوجيات العدالة الاجتماعية وتقاطع أشكال التمييز هو استغلاق أعمالهم على القراءة. تتسم كتاباتهم بأسلوب معرقل متعمّد، غالباً ما يجري اللجوء إليه عندما لا يكون لدى الشخص ما يقوله أو يحتاج إلى إخفاء حقيقة أن ما يقوله ليس صحيحاً. إليكم مقطعاً واحداً كتبته جوديث بتلر في أوج طفرتها النظرية:

إن الانتقال من سردية بنيوية يُفهم فيها رأس المال بوصفه ما يُهيكل العلاقات الاجتماعية بطريقة متجانسة نسبياً، إلى تصوّر عن الهيمنة تخضع فيه علاقات السلطة إلى التكرار والتقارب وإلى تمفصل جديد، قد أدخل سؤال الزمانية إلى صلب فكر البنية، ووسم الانتقال من شكل من أشكال النظرية الألتوسيرية التي تأخذ الملامح البنيوية بوصفها موضوعات نظرية، إلى شكلٍ تدشّن فيه معاينات الإمكان العرضي للبنية تصوراً متجدداً عن الهيمنة بوصفها مرتبطة بالمواقع والاستراتيجيات العرضية لإعادة تمفصل السلطة[81].

لا يمكن أن يصدر هذا الكلام غير الموزون والذي يُرثى له إلا عن إرادة الكاتب إخفاء شيء ما.

لا يستطيع عالم فيزياء مثل شيلدون لي غلاشو Sheldon Lee Glashow أن يبيح لنفسه أن يكتب بمثل هذه الرطانة المستغلقة على القراءة التي تكتب بها العلوم الاجتماعية. إن عليه إيصال الحقائق المعقّدة تعقيداً استثنائياً بلغة بسيطة وواضحة قدر الإمكان. هكذا، عندما تفحّص غلاشو آخر الفرضيات حول نظرية الأوتار، استنتج أنها «لا تعالج أياً من أسئلتنا، ولا تُقدّم أي تنبؤ، ولا يمكن تكذيبها». وكذلك لاحظ بيتر ويت Peter Woit بشيء من الحزم: «إن لم تستطع النظرية أن

(81) Judith Butler, 'Further reflections on conversations of our time', *Diacritics*, vol. 27, no. 1, Spring 1997.

تتنبأ بشيء، يعني ذلك أنها خاطئة وعلينا أن نجرّب شيئاً آخر»[82]. قد يكون هذا الوضوح والصدق ما زالا موجودين في العلوم «الصلبة»، لكنهما ماتا في العلوم الاجتماعية – هذا في حال وجدا يوماً. بالإضافة إلى ذلك، لو أن خبراء الدراسات حول المرأة والمثليين والعرق حاولوا تجربة شيء آخر بعد ملاحظتهم أن نظرياتهم لا تستطيع التنبؤ بشيء، لغادرهم الطلاب أفواجاً.

مع ذلك، يبدو أن مبتكري النظريات حول العدالة الاجتماعية قد أنجزوا عملهم بتوفير مكتبة للمؤلفات (حتى لو كانت غير مقروءة) تقدم إطاراً فكرياً نستطيع الانطلاق منه لتبني مواقف سياسية وصياغة مطالب مسيّسة. في متاح كلّ شخص يجد أنه من المفيد التأكيد أن الجنس أو العرق هي بناءات اجتماعية، مكتبة كاملة من الأوراق من شأنها أن تدعم ادعاءاته، وسلسلة طويلة من الأكاديميين المرخصين القادرين على «التدليل» على ذلك. يكتب زيد من الناس عملاً نابغاً، ثمّ سرعان ما يتناوله آخر بالدراسة، ليأتي ثالث ويُتحفنا بمقالة عن إعادة تمفصل الزمانية التي بُرهن عليها بمقارنة ألتوسيرية لأعمالهم. وكل طالب يسأل إن كان العالم يشتغل حقاً على هذا النحو، تُقدّم له على الفور مكتبة من الأدلة المروعة والمقدَّمة برطانة لا سبيل إلى فهمها. لكن إن لم يفهم هذه الأدلة، فهذا خطؤه وليس خطأ كاتب الرطانة.

وبالطبع، عندما يكاد يستحيل شرح ما يُقال، يصير بالإمكان قول أي شيء تقريباً وتقديم حجج غير نزيهة تحت ستار التعقيد. لهذا السبب تكتب بتلر وآخرون بطريقة سيئة. فإن كتبوا بوضوح، سيثيرون المزيد من الغضب والسخرية. ولهذا السبب أيضاً يجد هذه الحقل المعرفي صعوبة في الفرز بين الخطاب الصادق والترهات الهزلية. باتت الخطابات التي تُصدرها العلوم الاجتماعية في السنوات الأخيرة على درجة كبيرة من الانفصال عن الواقع، لدرجة أنه عندما

---

(82) انظر، على سبيل المثال:
Sheldon Lee Glashow, 'The standard mode', *Inference: International Review of Science*, vol. 4, no. 1, Spring 2018.

تعرضت تحصيناتها إلى اختراقات من متسللين حقيقيين، اتضح عدم امتلاكها أي دفاعات لكشفهم أو صدّهم. إحدى أجمل الاكتشافات في السنوات الأخيرة، ورقة أكاديمية نُشرت عام 2017 بعنوان: «القضيب المفاهيمي بوصفه بناءً اجتماعياً». جاء فيها ما يلي:

بالنظر إلى الذكورة، القضيب هو بناء غير متماسك. نحن ندّعي من جهتنا أن القضيب المفاهيمي يُفهم على نحو أفضل، ليس بوصفه عضواً تشريحياً، بل بوصفه بناءً اجتماعياً إنجازيًا للجندر يتسم بمرونة كبيرة[83].

خضعت هذه المقالة لتحكيم علمي ونُشرت في مجلة أكاديمية تدعى Cogent Social Sciences. المشكلة الوحيدة أنها كانت خدعة قام بها اثنان من الأكاديميين – بيتر بوغوسيان Peter Boghossian وجيمس ليندسي James Lindsay – بعد أن خاضا رحلة في الأدبيات الأكاديمية في عصرنا. بمجرد أن اعترف المؤلفان بخدعتهما، حذفت المجلة المذكورة المقالة من منشوراتها. لكن الجانيين نجحا في تكرار الأمر مع مجلات أكاديمية أخرى في السنوات التي تلت ذلك.

في عام 2018، وبمؤازرة من هيلين بلوكروز Helen Pluckrose هذه المرة، تمكّن نفس الأكاديميين من نشر مقالة في مجلة عن «الجغرافية النسوية» بعنوان: «ردود الفعل البشرية على ثقافة الاغتصاب وأدائية أحرار الجنس في منتزهات الكلاب في بورتلاند، أوريغون». أكدت هذه المقالة أن تزاوج الكلاب داخل منتزهات بوتلاند دليلٌ إضافيٌّ على «ثقافة الاغتصاب» التي بدأ العديد من الأكاديميين والطلاب حينها في اتخاذها المنظور الأكثر سداداً للقراءة في مجتمعاتنا. ونُشرت مقالة أخرى في مجلة عن «العمل الاجتماعي النسوي» بعنوان: «كفاحنا هو كفاحي». في المقالة الأخيرة، نجح المخادعان في دمج مقتطفات من كتاب هتلر

---

(83) https://www.skeptic.com/reading_room/conceptual-penis-socialcontruct-sokal-style-hoax-on-gender-studies

[كفاحي] مع محاكاة تهكمية لمصطلحات النظرية النسوية حول العدالة الاجتماعية، ونجحا بتمريرها بوصفها دراسة أكاديمية. في مقالة ثالثة نُشرت في مجلة Sex Roles، أكد الكاتبان أنهما استخدما «التحليل الموضوعاتي لحوارات المائدة»، لإجراء دراسة لمدة عامين حول سبب رغبة الذكور الغيريين في تناول الطعام في سلسلة مطاعم Hooters[84]. باستثناء بعض عمليات إزالة النشر السريعة، كان رد الفعل الأساسي لأقران كاتبينا، ما إن تبيّن أمر التسلل الناجح، هو مهاجمتهما ومحاولة طرد بوغوسيان من منصبه الجامعي.

أتاحت هذه الخدائع التي نفّذها بوغوسيان وزملاؤه الالتفات إلى عدد المعاينات التي لا تُسرّ أحداً، لا سيما أن حقول الدراسات الجامعية هذه قد أصبحت ملاعب للاحتيال، وأن لا شيء على الإطلاق إلا ويمكن قوله أو دراسته أو تأكيده فيها، ما دام يلائم النظريات والافتراضات الموجودة مسبقاً في المجالات ذات الصلة ويستخدم لغتها الكارثية. ما دام الناس على استعداد للقول بأننا نعيش في مجتمع أبوي، وتحت نير «ثقافة الاغتصاب» ورهاب المثلية الجنسية ورهاب العبور الجندرية والعنصرية؛ وما داموا على استعداد لكيل الاتهامات لمجتمعاتهم وزرع الشكوك التي تحول دون الاعجاب بأي مجتمع آخر (وفق قائمة معتمدة)، فبإمكانهم إذاً قول كلّ شيء تقريباً. وما دمنا نؤمن بهرم الاضطهاد ونقوم بترديده، يمكن لأي فكرة أن تشق طريقها داخل هذه المدونة من الأعمال الأكاديمية العصية على القراءة والمتجاهَلة على نطاق واسع.

مع ذلك، فإن الخطأ الأكبر لم يكن في السماح لهذا الإنتاج الفكري بغزو مؤسسات ممولة من القطاع العام لعقود، بل في عدم استشفاف أن هذه الأفكار ستكتسح يوماً بقية المجتمع. في إرشاداتها لعام 2018 حول الطريقة التي على أعضائها التعامل وفقها مع «الذكورة التقليدية» لدى الصبيان والرجال، كتبت

(84) 'Hoaxers slip breastaurants and dog-park sex into journals', *The New York Times*, 4 October 2018.

«الجمعية الأميركية لعلم النفس»:

لقد أُثبت أن الوعي بالامتيازات وبالآثار الضارة للمعتقدات والسلوكات التي تؤمّن استمرار السلطة الأبوية، إنما يُقلّل من المواقف المتحيّزة ضد المرأة لدى الرجال ويقترن بمشاركة في نشاط العدالة الاجتماعية.[85]

أصبح الأمر واضحاً: إذا استطاع الصبيان الانتباه إلى أن عضوهم الجنسي هو «إنجازي» وليس طبيعياً، سيتمكنون ما إن يكبروا، من لعب دورٍ متنامٍ في نشاط العدالة الاجتماعية، بغية تحقيق مآرب لطالما حلم بها لاكلاو وموف، وجيل من اليساريين المتطرفين.

(85) 'American Psychological Association guidelines for psychological practice with boys and men', *APA*, August 2018, p. 10

2

النســـــاء

أشار **ستيفن بينكر** Stephen Pinker، في كتابه الصادر عام 2002 والموسوم بـ The Blank Slate [الصفحة البيضاء]، إلى أن الجنس قد أصبح بالفعل واحداً من القضايا «الساخنة» في عالمنا اليوم. بيد أنه بدا واثقاً مع ذلك من أن وجهة النظر العلمية ستنتصر في نهاية المطاف. وعمد على امتداد صفحات عديدة إلى إدراج بعض الفروقات البيولوجية القائمة بين الرجل والمرأة، كمثل حقيقة أنّ للرجال «أدمغة أكبر بها عدد أكبر من الخلايا العصبية (حتى بعد تصحيح الفرق في حجم الجسم)»، في حين تكون لدى النساء «نسبة أعلى من المادة الرمادية»؛ وأنّ الاختلافات النفسية بين الجنسين تتوافق بالتمام مع ما يمكن أن يتوقعه عالم الأحياء التطوري (يكون الذكور في المتوسط أكثر ضخامةً من الإناث بفعل تاريخ تطوري حافل بالمنافسة العنيفة على شركاء التزاوج)[86]. ثم وفي خطوة تقارِب مسألةً سرعان ما ستتحول إلى قضية أخرى مغايرة تماماً، أشار إلى الاختلاف في تطور أدمغة الأولاد والبنات، وتأثيرات هرمونَي التستوستيرون والأندروجين فيها. وفي هذا ردّ علمي مثير على أولئك الذين يدّعون عدم وجود فروقات بيولوجية بين الجنسين. ومثلما ذكر بيكر: «لا يبدو سير الأمور متجّهاً بما يوافق النظرية القائلة بأن الأولاد والبنات يولدون متطابقين في كلّ شيء ما خلا الأعضاء

(86) Steven Pinker, *The Blank Slate: The Modern Denial of Human Nature*, Penguin, 2003, pp. 346–50.

التناسلية، وأن جميع الاختلافات الأخرى تنتج من طريقة تعامل المجتمع معهم»[87].

لكن بعد مرور أقل من عقدين من الزمن على قول بينكر هذا، بدا وعلى العكس، أنّ الأمور تسير بالضبط بما يلائم هذه النظرية. صحيح أن الحقائق بالتأكيد في صفِّ بينكر، غير أن الأصوات الصاخبة ليست كذلك. وبالنتيجة، فقد ضاعفت مجتمعاتنا، منذ تاريخ كتابة بينكر [الصفحة البيضاء] وحتى اليوم، من حجم الوهم القائل بأن بالإمكان تنحية الاختلاف البيولوجي – بما في ذلك التباين في الاستعدادات – أو إنكاره أو تجاهله. وحدثت عملية مماثلة في ما يخص الفروقات الاجتماعية. قد يلاحظ أيٌّ من الوالدين الفروقات القائمة بين أبنائه وبناته، غير أن الثقافة تخبره بأن ما من فروقات، أو أن تلك الموجودة بالفعل هي مجرد مسائل «أدائية» ليس إلا.

لواقع الحال هذا تداعيات سامّة. معظم الناس ليسوا مثليين، وينبغي على الرجال والنساء أن يجدوا بعض الطرائق للانسجام معاً. مع ذلك، ليس خداع الذات المجتمعي هذا في شأن الحقيقة البيولوجية سوى واحد من بين سلسلة كاملة من أشكال خداع الذات التي قررت مجتمعاتنا الانخراط فيها. والأسوأ من ذلك أننا بدأنا في محاولة إعادة ترتيب مجتمعاتنا، لا بما يتماشى مع الحقائق التي نعرفها من العلم، بل بالاستناد إلى أكاذيب سياسية يروّج لها ناشطون في العلوم الاجتماعية. من بين مجمل الأمور التي تُكدِّر مجتمعاتنا، لعلّ كلّ ما يتعلق بالجنس – والعلاقات بين الجنسين خاصةً – هو الأكثر تكديراً على الإطلاق. ذلك أن الحقائق موجودة هنا أمام ناظرينا طوال الوقت، لكن من المفترض بنا ألا نلاحظها، وإن نحن فعلنا، فيُنتظر منّا أن نبقى صامتين.

ها نحن في العام 2011 وفي توقيت حفل توزيع «جائزة الروح المستقلة» في سانتا

---

(87) المرجع نفسه، ص 350.

مونيكا. بعد انقضاء شوط طويل من أمسية اتسمت بالإسهاب في تهنئة الذات، صعد كلٌّ من **بول رود** Paul Rudd وإيفا مينديز Eva Mendes خشبةَ المسرح لتقديم جائزة أفضل سيناريو. تشرح مينديز (والتي تبلغ من العمر حينها ستةً وثلاثين عاماً) أنها ورود (البالغ واحداً وأربعين عاماً) كانا قد تجهَّزَا للقيامَ ببعض الأمور المضحكة على خشبة المسرح، لكن العرض تأخر عن موعده. وكما أوضحت مينديز للجمهور: «كان بول سيمسك ثدييّ بشكل خاطف، الأمر الذي كان سيصيبكم يا رفاق بالصدمة، والرعب، وكنتم لتضحكوا بشكل هستيري، لكن يبدو أننا لم نعد قادرين على فعل ذلك الآن، لأن الوقت قد فاتنا وتأخرنا، لذلك...».

أخذ رود حينها يحدِّق في صدر مينديز بنظرة واضحة المغزى، ودفع يده نحو ثديها الأيمن والتقطه بقوة قبل أن يقول من دون أن يرفّ له جفن: «المرشحون لأفضل سيناريو هم...». يضحك الجمهور، ويشهق بقوة، ويصيح ويهلل. تُظهر مينديز تعبير صدمة مفتعلة. وفيما يمسك رود بثديها الأيمن، تستخدم مينديز يدها الأخرى لتردّ شعرها إلى الخلف بحركة سريعة. إذ من الضروري في نهاية المطاف الظهور بمظهر جيد.

بعدما استمرّ كلّ هذا لبعض الوقت، انضمت امرأة أخرى إليهما على خشبة المسرح. قفزت الممثلة روزاريو داوسون Rosario Dawson (31 عاماً) إلى منصّة التتويج وها هي تمسك برود بين فخذيه، وبقوة. يعود الجمهور من جديد إلى الصياح والتهليل والضحك بقوة. «يا إلهي، ما الذي يحدث»، هذا ما تقوله مينديز ولمرات عدة، مظهرةً ملامح حيرة وارتباك غير مقنعة إزاء المشهد الذي تشكّل هي جزءاً منه. ثم تفتح مغلّف الجائزة. طوال هذا الوقت، تبقي داوسون يدها ملتصقة بقوة بين فخذي رود بينما تلوّح بيدها الأخرى في الهواء في إشارة إلى السلطة أو الانتصار. ومع أنّ رود لم يعد يمسك بأيٍّ من ثديي مينديز، تستمر داوسون بالإمساك به بين فخذيه. ويستمر الجمهور بالضحك والصراخ بسرور، إذ ها نحن

في العام 2011، وما يزال التحرش الجنسي مثيراً للضحك.

في مقابلة أجريت معها لاحقاً خلف الكواليس، أوضحت داوسون الدافع وراء تكافؤ فرص التحرش في ما قامت به قائلة:

أحب بول، ولقد كنت من أشد المعجبين به منذ أمدٍ بعيد في زمن فيلمه Clueless [جاهل] وغيره من الأفلام الأخرى. لكنه كان يقف هناك وقبضته المعيبة تمسك ثديها. ففكرت للحظة لأول وهلة «لا بأس، هذا مضحك، وليكن إذاً». لكن ما حدث بعد ذلك هو أنّ الأمر استمر على هذا النحو، ثم انطفأت الأنوار وبدأ عرضٌ لمقطع فيديو وهو ما يزال ممسكاً بها بهذه الطريقة المعيبة... وهنا بدأت أفكّر أن «حسناً، سألتقط أنا ما لديه هو»، ولمَ لا؟ كان الأمر لطيفاً نوعاً ما. لم يكن سيئاً. كانت لديه «بضاعة» جيدة جداً. ولطالما كنت فضولية تجاه هذا منذ مراهقتي حين شاهدت فيلمه «جاهل». لكن حسناً، ما لبث أن توقف هو... لست أكثر من ناشطة في مجال حقوق المرأة وقد بدأ يتعبني نوعاً ما مشهد إمساكه ثديَها على خشبة المسرح لمدة نصف ساعة. ما من شيء سيء حدث، كان الأمر طريفاً.

يطمئنها محاورها الذكر قائلاً: «لقد كانت واحدة من تلك اللقطات الـ.... وحظيت بردود فعل رائعة». فتجيب: «حسنٌ إذاً، هذا جيد»، وتضيف:

لقد أمسكت «بضاعته» على المسرح. كان أمراً رائعاً نوعاً ما. لماذا يحصل الرجال على بعض الإثارة دائماً؟ للنساء أن يحصلن على بعض الإثارة أيضاً. أنت تفهم ما أقصد. أنا أقول فحسب بضرورة الحفاظ على فرصٍ متكافئة[88].

هذا ما كانت عليه الحال في ذلك الحين. لم يكن «مهرجان الملامسة» هذا في مهرجان جوائز الروح المستقلة غريباً تماماً أو ملفتاً بشكل خاص في تلك المرحلة.

(88) AccessOnline.com video, 'Rosario Dawson talks grabbing Paul Rudd's "package" onstage at the 2011 Independent Spirit Awards', 27 February 2011.

لعل المجتمع الأوسع كان ينظر، وعلى امتداد سنوات عديدة، ببعض الازدراء إلى فكرة التحرّش أو الملامسة أو أن يعرض المرء نفسه أمام الجنس الآخر. لكن كل هذا كان في المقابل جزءاً من الترفيه المعتاد في هوليوود. في مهنة يكون فيها العري أمراً عادياً ولأجلها صُنعت «أريكة تجربة الأداء»، لم يكن من السهل يوماً ترسيم حدود واضحة متمايزة في هذا الشأن. وهنا يكمن أحد الأسباب التي تجعل من هوليوود مكاناً غير ملائم للتأسيس لمجموعة أخلاقيات مبتغاة، أو لمجموعة أخلاقيات ينبغي النظر إليها باعتبارها تعبيراً رمزياً عما يتجاوز حدود صناعة الترفيه.

تختلف المعايير الفاعلة في هوليوود عن سواها. فقد كانت الصناعةَ الوحيدة في القرن الحادي والعشرين التي يشهد فيها شخصٌ ما يزال ملاحقاً بتهمة اغتصاب أطفال إشادةً وتكريماً، لا بل وتعاملاً على أنه ضحية نوعاً ما من طرف بعض زملائه. إذ لو أنّ محاسباً أو أخصائياً اجتماعياً أو حتى كاهناً في الأربعينيات من عمره كان قد اغتصب شرجياً فتاة تبلغ من العمر ثلاثة عشر عاماً، فلربما تمكن من الإفلات بفعلته هذه مثلما فعل رومان بولانسكي Roman Polanski. ولعله قد يجد أصدقاءَ حوله للتستّر على ما قام به. لكن لن يكون من الوارد مطلقاً – حتى في الكنيسة الكاثوليكية – الإشادةُ بشخص ما على شاشة التلفزيون، وفي ساعة الذروة، باعتباره في موضع القمة في مهنته، في حين أنه ما يزال في الواقع فارّاً من العدالة. لم يكن لدى هوليوود، وجمهور زملاء بولانسكي في حفل توزيع جوائز الأوسكار لعام 2003 على وجه الخصوص، أي شعور يدفعها إلى تقييد من هذا النوع.

لطالما كانت هوليود عالماً مستقلّاً بذاته إلى حدٍّ ما – كحال مراكز الفنون والترفيه على الدوام – وبالتالي مكاناً غير صالح على الإطلاق لننطلق منه في تحديدنا للمعايير الاجتماعية. وخصوصاً حين يتعلق الأمر بمعايير على درجة عالية من التعقيد كمثل العلاقات بين الجنسين. فقط في هوليوود، ينفصل مخرج شهير

كوودي آلن Woody Allen عن زوجته بعد أن ضُبِط في علاقة مع ابنتها بالتبني، وينجو بفعلته. لكن أليست هذه أيضاً مدينة، ومجال أعمال، أطلقا غلوريا غراهام Gloria Grahame في أربعينيات القرن العشرين. كان الرابع من بين أزواجها الأربعة (وهو توني راي Tony Ray) ابناً لزوجها الثاني (نيكولاس راي Nicholas Ray) من زوجته الأولى. كشِفت علاقة غراهام وتوني راي لأول مرة عندما عثِر عليها معه في الفراش (وكانت حينها في أواخر العشرينيات من عمرها، في حين لم يتجاوز عمر راي ثلاثة عشر عاماً).

لذا فقد يكون من الخطأ، وفي أيّ حقبة من الزمن، اتخاذ هوليوود أو العاملين في مجال الأفلام كنماذج أخلاقية. بيد أن محاولة من هذا النوع جرت بالفعل لدى اندلاع فضيحة هارفي واينشتاين Harvey Weinstein سنة 2017. ومع ذلك فإن الغرابة التي تسم صناعة الترفيه تعمل بطريقتها الخاصة عمل المرآة. وهي وإن كانت لا تقدم على الإطلاق نموذجاً لما يجب أن يكون عليه السلوك، غير أنها وبكل تأكيد مرآةٌ تبرز التشويش الذي يسم العصر. وخصوصاً التشويش في ما يخص الأدوار التي بإمكان النساء تأديتها – في مقابل الأدوار التي يعرف الجميع أنها قادرة بالفعل على أدائها – في حقبة يبدو أنها تتأرجح بين الإباحية والاحتشام، من دون الوصول إلى حدّ أدنى من التوازن.

لنتأمل في حالة الولع التي ينظر بها الناس إلى ما حدث حين ظهور الممثلة درو باريمور Drew Barrymore في برنامج «عرض ديفيد ليترمان David Letterman» في شهر نيسان/ أبريل من عام 1995: كان الثاني عشر من أبريل تاريخ عيد ميلاد ليترمان، وفي ذات التاريخ استضاف باريمور في العرض، وأخذت تصِف – من بين عدة أمور أخرى – شغفها مؤخّراً بالرقص عارية. ومع أن عمرها لم يتجاوز العشرين عاماً في ذلك الحين، إلا أن باريمور أمضت المقابلة تراوح في تأدية الأدوار بين امرأة مثيرة وواثقة من نفسها، وتلميذة صغيرة مشاغبة.

في النهاية، وبتقديمها إياها على أنها هدية عيد ميلاد، وأمام جمهور البث الحي

(الذي يهلل ويضحك ويصيح بلا توقّف)؛ سألت باريمور عما إذا كان ليترمان يرغب في مشاركتها رقصةً. ومن دون أن تنتظر جواباً، دعت الفرقة الموسيقية في الأستوديو للبدء بالعزف، وصعدت إلى مكتب مقدِّم العرض، وأدت رقصة طاولة لليترمان، وهو رجل متزوج يبلغ من العمر ضعف عمرها، منزلقة بجسدها لأعلى وأسفل، بيدين فوق رأسها وبوسطٍ مكشوف. وبلغ أداء باريمور ذروته في الختام بمزيد من الإثارة، إذ رفعت بلوزتها القصيرة عارضةً ثدييها العاريين أمام ليترمان الذي بدا مصدوماً بشكل واضح. لم يتمكّن الجمهور من رؤية الثديين العاريين، وإن تكن الكاميرا التقطت ما سيطلق عليه «الشريط الجانبي لأخبار العار» على الموقع الإلكتروني لصحيفة Daily Mail، تسميةَ الثدي-الجانبي. لكن يبقى أن الجمهور كان يرغب في المزيد. فقد أحبّ الأمر برمّته، واستمر بالضحك والتهليل طوال الوقت، مع إطلاق هدير استحسان كبير حين عرضت باريمور نفسها أمام المضيف.

بعد قيامها بذلك مباشرةً، استدارت باريمور ورفعت ذراعيها عالياً لتتلقى إعجاب الجمهور، ثم نزلت عن المكتب مستندة على يديها وركبتيها، وزاحفةً باتجاه ليترمان. طبعت قبلةً على خده وداعبت مؤخَرة رأسه. وعندما عادت إلى مقعدها، تخلت على الفور عن سلوك المرأة السليطة ونكصت من جديد، فسحبت ساقيها فوق كرسيّها، ودسّت ركبتيها تحت رأسها كفتاة صغيرة أدركت أنها سلكت للتو سلوكاً سيئاً للغاية.

بالطبع، يمكن تعليل الأمر بصورة معقولة بالقول إنّ عام 1995 كان حقبة زمنية مغايرة. لكن الأمر ليس كذلك حقيقةً. إذ أعيد النظر في هذه الحلقة بكثيرٍ من الشغف لدى عودة باريمور في شهر مارس من عام 2018 – هذه المرة للمشاركة في برنامج «عرض آخر الليل مع ستيفن كولبيرت Stephen Colbert. ها نحن ذا أمام باريمور، وقد تقدّمت في العمر، هذا إن لم نقل إنها باتت أكثر حكمةً؛ وهي تقلّب النظر في ما اتّسمت به من سماتٍ في ما مضى، حين كانت «عفوية، ومحبَّة،

وخفيفة الظل». وأعطت مثالاً على ذلك في تلك الحلقة مع ليترمان، قائلة: «على هذا المسرح ذاته، قمت بأمر خاص مع السيد ليترمان». سرعان ما انضمّ إليها الجمهور بضحكة حنين مولعة بهذه الذكرى. أما كولبير، الذي تبنى نهجاً صارماً أثناء حركة احتجاجات MeToo[89] التي ظهرت قبل شهور قليلة، كانت ما تزال مستمرة في حينه؛ فما كان منه إلا أنّ عمل على تحفيز ذكريات باريمور: «في عيد ميلاده. في عيد ميلاده»، ردّد قائلاً وتابع: «كما هو معروف». فما كان من باريمور إلا أن التقطت موضوع الذاكرة هذا قائلة: «كنت حرفياً في حالة دهشة، أتساءل ما هذا!». وانطلقت متابعةً:

أفكِّر أحياناً في الأمر. كأنما لم أكن أنا نفسي. تبدو كذكرى بعيدة لا تشبهني. لكنها أنا مع ذلك. وهذا أمر ظريف نوعاً ما. أنا متصالحة مع ما حدث. أنا اليوم أم لطفلين، وفي حالةٍ أدرك معها أنني لا أعرف كل شيء تماماً. أصبحت اليوم شخصاً مختلفاً إلى درجة لم أعد أحس بأنني تلك الفتاة ذاتها، لكنني مع ذلك ما زلت معجبةً بما حدث.

قوبل كل هذا بضحك الجمهور واستحسانه، وبتشجيع كولبير الذي سرعان ما انتقل إلى الحديث عن واقع أنّ باريمور هي أول امرأة شهيرة في هوليوود تنشئ شركة إنتاج خاصة بها. مستغلّاً الفرصة للتساؤل عمّا يمكن أن نتعلّمه من كل هذا عن تمكين المرأة في هوليوود وعن «هذه اللحظة التي نحن فيها الآن»[90]. ما كانت النظرة يوماً إلى ما حدث عام 1995 سوى نظرة إعجاب فحسب.

ولِمَ قد يُنظر إليها بخلاف ذلك؟ فكرة كشف النساء أنفسهن على الرجال، وجعل هؤلاء يشعرون بعدم الراحة؛ أو أن يقدمن أنفسهن بوجه خاص على أنهن «نسويات» لملامسة الرجال أو مضايقتهم؛ هي فكرة مجازية ظلّت غير معرّضة

---

(89) هاشتاغ انتشر على وسائل التواصل الاجتماعي خلال شهر تشرين الأول/أكتوبر من العام 2017، لإدانة الاعتداء والتحرش الجنسي، على خلفية الفضيحة الجنسية للمنتج البارز في هوليوود هارفي وايلشتاين، والذي وجهت إليه تهم التحرش من طرف العشرات من النساء. (م)

(90) The Late Show with Stephen Colbert, *CBS*, 20 March 2018.

لأي تدخل أو تعديل لسنوات طويلة. كان ستيفن كولبير على علم بذلك من خلال تجربته الخاصة.

كان مجرّد نجم تلفزيوني مبتدئ حين أجرى مقابلة مع جين فوندا Jane Fonda في شهر مايو من عام 2007. وحدث ذلك بعد مرور نحو عامين على انتعاش مسيرة فوندا التمثيلية بلعبها دور حماة جينيفر لوبيز في فيلم Monster-in-law [حماتي وحش كاسر] الذي حقق نجاحاً كبيراً. لكنّ حضور فوندا عرضَ كولبير إنما كان بغرض الترويج لفيلمها الجديد الذي سينتهي إلى الفشل، والذي كان سيصدر قريباً في ذلك الحين تحت عنوان Georgia Rule [حكم جورجيا]. في سنّ التاسعة والستين، بدت فوندا حريصة بشكل واضح على أن تثبت للجمهور أنها ما تزال «تمتلك زمام الأمور». وبذلك قدمت خلال المقابلة عرضاً يقوم على ملاحقة مُضيفها جنسياً. ومع أنّ الفيلم الذي تروّج له كان يدور حول الاعتداء الجنسي، لم يبدُ أن هذه الحقيقة أوحت إليها على الإطلاق بأن الوقت لم يكن ملائماً للقيام بما قامت به.

مع بدء المقابلة مباشرةً، صعدت إلى حِجر كولبير، وبقيت جالسة كذلك طوال الوقت. وفي إحدى المراحل، شرعت في إعطائه ملء فمها قبلة على شفتيه، قائلةً له إنها تعلم أنه يعيش هوامات في شأنها. «ليست هذه هي تماماً السيرورة التي توقعتها للمقابلة»، هذا ما قاله المُضيف. حاول كولبير تغيير الموضوع مرات عدّة، بما في ذلك بالحديث عن الاحتجاج على الحرب. لكن ما كان بالإمكان تحويل انتباه «هانوي جين»[91]. إذ ظلّت تداعب كولبير، وتقبِّل خدّه وتلاطفه. ثم بدأت تتحدث عن القذف المبكر. واستمر الأمر كذلك بلا نهاية.

لم يبدُ أنّ وسائل الإعلام في حينها قد رأت في المشهد ما هو غير لائق أو مقلق

(91)Hanoi Jane لقب أطلق على جين فوندا عام 1972 بعد التقاط صورة لها جالسة على بندقية مضادة للطائرات في هانوي بفيتنام إبان الحرب الأمريكية عليها. أثارت الصورة غضباً لأنها أعطت انطباعاً مناهضاً لأمريكا، بأن فوندا كانت تعارض الحرب لدرجة أنها ستسقط طائرات بلدها. (م)

بأي حال من الأحوال. لا بل وظهرت في الواقع وكأنها لا تملّ من تكراره. «نعم، ما زالت جين فوندا تمسك بزمام الأمور» هكذا عنون موقع Huffington Post الإخباري خبره الرئيس، حيث نقرأ: «...كما قدّم تقرير كولبير ليوم الأربعاء ذاك المقطع المضحك جداً – والشهواني، لكي نسمي الأمور بمسمياتها – حيث بدت جين فوندا عازمة على أن تشرك في العرض، حسنٌ، الجزء الحسي لستيفن كولبير («هل هذا جزء شهواني يقبع هنا في جيبك، أم أنك سعيد برؤيتي فحسب؟»).
استفاض موقع هافينغتون بوست Huffington Post في تناول الحادثة على امتداد هذه الأسطر، وربط بينها وبين مقالة كانت قد نُشِرت على موقع Salon الإلكتروني الإخباري وظفرت – برأي Huffington Post – بتغطية الحادثة بأفضل ما يمكن، «واضعةً على روعة فوندا في سياقٍ ملائم»[92]. ذلك أنه في العام 2007، لم تكن محاولات التحرش الجنسي غير المرغوبة مضحكة وشهوانية فحسب، بل كانت رائعة أيضاً.

بعد ذلك بسنوات عديدة، وفي العام 2014 تحديداً، سيحكي كولبير عن مدى شعوره بـ«عدم الارتياح بالمطلق» أثناء ذلك كله. بيد أنه سينقل مشاعره هذه، بما فيها من تفاصيل عن استياء زوجته الواضح بخصوص هذه المقابلة، إلى قاعة مليئة بالمزيد من الأشخاص الضاحكين، والمصفقين بابتهاج[93]. إذ في عام 2014 كذلك، ما تزال محاولات التحرش الجنسي غير المرغوبة جذابة ومحببة.

تغير كل هذا بالطبع بحلول عام 2017، مع أولى دعاوى حركة «أنا أيضاً» ضد هارفي واينشتاين. في تلك المرحلة، بدا أن هنالك إجماعاً سريعاً على اعتبار أي وكلّ تحرش جنسي تجاه الآخرين أمراً غير مقبول، وما من عذر أياً يكن لهذا السلوك. بدا أنّ الأسس الجديدة حُفِرت بعمق وسرعة كبيرين. بيد أنها أغفلت كثيراً من الأمور البغيضة التي كانت قد حدثت في ماضٍ قريب جدًّا. فبعد قضية

(92) *Huffington Post*, 11 May 2007.
(93) RSA Conference, 28 February 2014.

واينشتاين، صارت الصحافة تعرض كل ما يخصّ التفاعل بين الجنسين في هوليوود وفي العالم الأوسع، باعتباره أمراً يسيراً وواضحاً للغاية. في حين أنه لم يكن كذلك مطلقاً، لا في هوليوود ولا في أيّ مكان آخر.

كانت الممثلة مايبم بياليك Mayim Bialik واحدةً من بين القلّة من الأشخاص في عالم صناعة الترفيه التي عارضت بعض الشيء المعالم المحددة التي حُفِرت أسسها في ذلك الحين. ففي شهر أكتوبر من عام 2017، عندما انطلقت حركة «أنا أيضاً»، تلقّت بياليك كمّاً من ردود الفعل العنيفة على رأيٍ أدلت به إلى صحيفة The New York Times حين تحدّثت بصراحة عن الصناعة التي أدخلتها أوّل مرة بوصفها (على حدّ تعبيرها): «الفتاة ذات الأنف البارز، والخرقاء، وغريبة الأطوار، واليهودية ذات الأعوام الأحد عشر». ووصفت شعورها الدائم «بعدم الارتياح بالعمل في صناعة تحقق أرباحاً من تشييء النساء». كما وصفت كيف أنها اتخذت خياراتٍ «محافظة» في طور شبابها، واتسمت علاقاتها بالأشخاص في هذه الصناعة بالحذر، وذلك بتوجيه من والديها الأمريكيين من الجيل الأول. كل هذا، إلى جانب التزامها الديني، جعلها – كما أوضحت – من ذلك النوع من الأشخاص غير المعتادين في أوساط النساء في هوليوود.

كان مسار بياليك غير عاديّ بكل تأكيد. حتى أنها تركت بالفعل مجال التمثيل لسنوات عدة من أجل الحصول على شهادة الدكتوراه في علم الأعصاب. ثم لعبت، بعد عودتها إلى الصناعة، دور البطولة في المسلسل الكوميدي The Big Bang Theory [**نظرية الانفجار العظيم**]. وصرحت في العام 2017 قائلةً: «ما زلت أتخذ قراراتي كل يوم بوصفي ممثلة تبلغ من العمر واحداً وأربعين عاماً، وتتصّف على ما أعتقد بالحكمة وحماية الذات. لقد اتخذت قراري بأن أعتبر أنّ أفضل خيار لجنسانيتي هو حفظها للمواقف الخاصة، أي مع أولئك الذين تجمعني بهم علاقة حميمة. أرتدي ملابس محتشمة، ولا أتّخذ من مغازلةِ الرجال سياسةً في

تصرفاتي»[94].

أوقع كلّ هذا بياليك في جملة من المشكلات مع نساء أخريات في هوليوود ممن زعمن أنها كانت «تلوم الضحايا» – وتلوم على وجه الخصوص طريقة ارتداء النساء لباسهن باعتبارها سبب سلوك الرجال. اضطرت بياليك إلى الاعتذار والتعبير عن أسفها لبعض ما أفضت إليها مقالتها من تفسيرات. لكنّ الأغرب من كل ذلك هو أنّ كثيراً مما قالته بياليك في مقالتها يقع على تعارضٍ مباشر مع ما فعلته قبل عام واحد فقط.

في شهر فبراير من عام 2016، كانت بياليك ضيفة برنامج «العرض المتأخر جداً» مع جيمس كوردن James Corden، الذي استضاف في الحلقة ذاتها بيرس مورغان Piers Morgan. في إحدى مراحل العرض، طلب كوردن من زميله البريطاني أن يشرح مقصد الهاشتاغ الأخير Cleavagegate. فأجاب مورغان أنّ خلافاً وقع مؤخّراً بينه وبين سوزان ساراندون Susan Sarandon بشأن تغريدة له. في حفل توزيع جوائز «نقابة ممثلي الشاشة» Actors Guild Awards الأخيرة، قدّمت ساراندون البالغة من العمر تسعة وستين عاماً فقرة «إحياءً لذكرى...» في الحفل، وهي ترتدي قميصاً متدلياً يُظهِر الشق بين ثدييها. اشتكى مورغان على وسائل التواصل الاجتماعي معتبراً أنّ من غير اللائق أن يجري تكريم أصدقاء وزملاء متوفين مع ارتداء مثل هذه الملابس الكاشفة. في ردّ فعلها العنيف – والذي ما كان باستطاعة مورغان توقعه، وقام على تحويل الأنظار بعيداً عن مقصده متسبباً له بألم بالغ – غرّدت ساراندون إلى حساب مورغان بصورتها الشخصية مرتديةً حمالة الصدر، ومشيرة بإصبعها إلى منحوتة ديفيد، ذي القضيب الصغير، لمايكل أنجلو Michelangelo. أوضح مورغان للجمهور الحاضر على الهواء مباشرة في عرض كوردن، أن الآلاف ممن يعرّفن عن أنفسهن بوصفهن

(94) Mayim Bialik, 'Being a feminist in Harvey Weinstein's world', *The New York Times*, 13 October 2017.

«نسويات»، استجبن بدورهن بالاحتجاج من خلال إرسال صور لهن يظهرن فيها الشق بين الثديين.

طوال فترة تقديم مورغان لشروحاته هذه، كانت بياليك تجلس بين الرّجلَين، مرتديةً ثوباً أخضر اللون يكشف عن صدرها. وبوصوله بالحديث إلى هذه النقطة، وضعت بياليك يدها على ذراع مورغان وتمكنت بالفعل من مقاطعته. «أتعلم، أنا أعرَّف بوصفي نسوية. وسأقوم بالأمر بهذه الطريقة». ثمّ وقفت مديرةً ظهرها إلى الجمهور، وباعدت فتحتي ثوبها كاشفةً لمورغان عن ثدييها. اهتاج جمهور الأستوديو ضحكاً وتصفيقاً. وكذلك صفّق كلّ من مضيف بياليك وزميلها الضيف، وضحكا بأعلى ما يمكن. هنالك أمر يمكن تلمّسه حقيقةً وهو أنّ مورغان بدا في الواقع وكأنه يحمر خجلاً، وظهر محرجاً لوهلة. لم تنسحب بياليك وتعُد إلى مكانها إلا حين عاد إلى التأكيد مجدّداً على أنه يحب فتحات الصدور، لكنه يعتقد بأن من غير الملائم عرضها أثناء تكريم زملاء متوفين، لكنه يحبها. «أتحتاج لأن تراها مجدّداً؟»، وللمرة الثانية (لوقت أقصر هذه المرة)، كشفت له عن صدرها من جديد(95).

لم يتسبب أيّ من كل ما تقدّم بنفور أو انقباض، وتلقّفه باستمتاع جمهور الحاضرين في الاستديو وفي المنازل. هكذا في العام 2016، كان كشف الثديين فعلاً «نسوياً». وكشفهما أمام رجل لم يطلب رؤيتهما فعلاً «نسوياً» خالصاً. حتى أنّ امرأة ادعت «الحشمة» لأسباب دينية واجتماعية، أمكن لها عن طيب خاطر وبسهولة أن تُبهج جمهور الأستوديو بعرض لمحة من ثدييها على رجلٍ – لم يطلب منها ذلك.

ليس المقصود من كل هذا القول إنّ النساء لا ينبغي أن يكن قادرات على فعل ما يشأن بأجسادهن، أو القول إنه ليس باستطاعة المشاهير من بينهن عرض لمحة

(95) The Late Late Show with James Corden, *CBS*, 8 February 2016.

من أثدائهن على الناس لإضحاكهم أو للفت الانتباه، أو حتى الإشارة إلى أن عرض امرأة للمحة من ثدييها يكافئ تماماً عرض رجل لمحةً من عضوه على امرأة. غير أنّ من العدل القول إن النساء – أو بالأحرى أولئك الأكثر شهرة وتمجيداً من بينهن على وجه الخصوص – يرسلن رسائل مربكة للغاية، وأقل ما يقال في وصفها هو أنها «غامضة». علاوة على ذلك فإن هذه الرسائل الأكثر من مختلطة توجد حتى لدى شخص كمثل بياليك، والتي قد تبدو من كلّ النواحي قادرة على التماسك في خضمّ هذه الدوامة.

أحبـــك

أحد أسباب شعور أي شخص بالارتباك من الرسائل التي تضخّها صناعة الترفيه في كل أنحاء العالم هو كون هذه الرسائل في حدّ ذاتها ملتبسة للغاية في شأن كل ما يجري. حتى ما قبل عقدين من الزمن، كنا ما نزال نتلمّس وجود بعض الوعي بتعقيد العلاقات بين الذكر والأنثى. هنالك مشهد شهير في فيلم Indiana Jones and the Last Crusade [إنديانا جونز والحروب الصليبية الأخيرة] الصادر عام 1989. نرى في بدايات الفيلم إنديانا جونز، ويلعب دوره هاريسون فورد Harrison Ford، وهو يدرِّس أساسيات علم الآثار لصفٍّ مليء بالشابات. بدا وكأن الحاضرات في الصف في معظمهن يحدّقن فيه بنظرة حالمة. واحدة من بين هؤلاء استطاعت أن تشتت أفكار البروفسور جونز إذ كتبت كلمةَ «أحب» على أحد جفنيها، و«أنت» على الجفن الآخر. وواظبت على الرَّمش له بجفنيها، ببطء وبحركة ذات دلالة واضحة، لكي يتمكن من قراءة الكلمتين، عساه يدرك النية الكامنة وراءهما.

ينطوي هذا المشهد على نوعين من الميمات التي كانت مألوفة تماماً إلى أن بتنا نتظاهر مؤخّراً أنها ليست كذلك. أولاهما أن من الوارد أن يعتمل تيار جنسي مكبوت في إطار علاقة المعلّم-الطالب ضمن عملية التعلّم. أدرك الإغريق

القدماء ذلك، مع أنه كان من المعروف في ذلك الوقت، مثلما هو معروف اليوم، أن من الضروري دائماً مقاومة أي تيار جنسي من هذا النوع، من دون أن ينفي ذلك إمكان حدوثه. أما ثاني الميمات – وهي الأكثر أهمية بالنسبة إلى هدفنا هنا – فهو تربُّص المرأة الكاسرة، لا بل وحتى المرأة الشابة المغوية، بالذكر الأكبر سنّاً، والأضعف، أو العاجز أحياناً. كانت هذه فكرة معترفاً بها على امتداد معظم التاريخ، وحتى وقت ليس ببعيد أبداً كعام 1989 على أقل تقدير. وهي تقوم على إدراك أن التحرش ليس فعلاً باتجاه واحد يمكن أن يقوم به الرجال تجاه النساء فحسب، بل قد يكون الرجال أيضاً عرضة للتحرش من طرف النساء. يعرف كلّ رجل شيئاً عن هذه التجربة حتى وإن لم يعشها بنفسه، وإن يكن معظم الرجال سيعيش تجربة من هذا النوع في مرحلة ما. تجربةٌ تأخذ في صيغتها المُلطّفة هيئة سلوك درو باريمور بنكوصها إلى وضع الفتاة الصغيرة المشاغبة، حيث مضمون الرسالة هو: «لقد كنت ساذجة، وشقيّة ربما»؛ لكنّ لها صيغاً أخرى أشدّ قسوة، كأن تلاحق امرأةٌ رجلاً صراحةً لتنتزع منه ما تريد.

لو لم تكن كل الحكاية أنّ النساء متمرّسات بالفعل في ضروب السلوك هذه، فكيف سنفهم إذاً حالة أسواق الملابس والإكسسوارات النسائية، والتي تسعى إلى تقديم النساء إلى الرجال بإطلالة جنسية تتجاوز بكثير ما قد يظهرن عليه في الحالة العامة؟ وكيف سنفهم رواج الحلمات المزيفة؟ غالباً ما تقدّم شركات مثل «مجرّد حلمات» (Just Nips) هذه السلع على موقعها الإلكتروني باعتبارها موجّهةً أساساً إلى النساء اللواتي خضعن لعمليات استئصال الثدي. غير أنّ التسويق الأوسع نطاقاً، والوعي العام في شأن هذا التوجه الدّارج، إنما يقوم على أنّهُ من المعروف أنّ الإطلالة بمظهر «بلا حمالة صدر» تثير الرجال بشكل هائل. في سنوات التسعينيات، وفي إحدى حلقات المسلسل التلفزيوني Sex and the City [الجنس والمدينة]، ارتدت ميراندا في إحدى الحفلات حلمات مُثبَّتة، وحظيت بما أرادته تماماً من اهتمام الرجال الحاضرين الذين رأوا الحلمتين تندفعان ظاهرتين

تحت فستانها، فانجذبت أعينهم نحوها. قدّم المشاهير مظهرًا «بلا حمالة صدر» هذا باعتباره مرغوباً بشدة، فما كان من المصنِّعين إلا أن اتجهوا إلى تصنيع حلمات قابلة للّصق بأسعار مقبولة. في العام 2017، عرَضت شركة «مجرّد حلمات من أجل الجميع» إعلاناتٍ لمنتجات كان من بينها مقاسات «باردة» و«أصغر قليلاً»، هي بمثابة «مزيّة مثالية» للحلمات التي «تشعر بالإحباط». وبحسب الموقع الإلكتروني: «عندما يحتاج مظهرك إلى لمسة صغير «لست قادر على تحديدها تماما»[96]، أكمليه باستخدام زوجٍ من هذه! تجدين في الحلمات الباردة كل ما تحتاجين من مواصفات الحلمة المزيفة... لا بل وأكثر من ذلك! أتتساءلين ما الأكثر من ذلك؟ إنها «غير ملحوظة»، و«مثيرة»، و"لطيفة للغاية"»!

يمكن بطبيعة الحال تقديم الأمر برمّته من منظور يركّز على الإناث. أي باعتبار أنّ المسألة تتعلق بمنح النساء شعوراً أكبر بالرضا تجاه أنفسهنّ: لا علاقة للرجال بذلك كله بتاتاً؛ إذ حتى من دون وجود الرجال، ستظل النساء تتجول مرتديات حلمات باردة كالثلج، مزيفة، وملتصقة بأجسادهن. بيد أنّ تسويق مثل هذه المنتجات لا يخفي مطلقاً الغرض منها، ولماذا – ولمن – تتوجّه حقاً. ويروِّج المصنِّعون لخيار «التجميد» بالقول:

هؤلاء الأزواج الصغيرة أرخص من عمليات الزرع، لا شك في ذلك! كيف نضع هذه الحلمات... إنّ الحلمات المتجمدة هي أسلحة دمار شامل لانتصاب الحلمة. إنها قويّة، إنها مُهلكة، وهي قادرة على أن تمرّ قاطعةً عبر الزجاج والفولاذ والسليكون، أطلقي عليها التسمية التي تشائين – بينما تمنحين كل من هو حاضر في الحفل موضوعاً ليتناوله ما إن تغيبي عن نظره – ولكن على نحوٍ إيجابي بالطبع، إنهم بكل تأكيد (يشعرون بغيرة شديدة). ارتديها مع بلوزتك القطنية المفضلة ذات النقوش، لتمتلكي دون أي عناء موجات مثيرة كتلك التي تطلقها عارضات الأزياء على الدوام، لكن لنكن واقعيين، عليك ارتداءها تحت واحدة من بلوزاتك

(96) بالفرنسية في الأصل (Je ne sais quoi). (م)

الشديدة الضيق، لتحصلي على المظهر البارد الأشدّ حرارة في السهرة[97].

أجل، لمَ قد ترغب النساء في أسلحة دمار شامل لانتصاب الحلمة، ما لم يكن لغرض أن يشعرن بحال أفضل عموماً؟ هل من سبب آخر؟

ومع أنهن لا يحصلن على انتباه الرجال كثيراً، أو أنهن لا يسعين إليه، نجد الأسواق مليئة بمنتجات من هذا القبيل. من بين أكثرها شيوعاً على سبيل المثال حمالة الصدر الرافعة. لكنّ إمكانيات السوق المستقبلية لا حدود لها، إذ لا حدود للمدى الذي يمكن أن تصله النساء إن هنّ رغبن في لفت الأنظار إليهن. أنشئ في السنوات الأخيرة سوق لـ«ملابس خُف الجمل الداخلية»، وكما كتبت إحدى الصحفيات:

أحد أعظم انشغالات الموضة التي تواجه كل امرأة هو الخوف من ألا يظهر فرجها ممتلئاً بما يكفي، ألا يكون مرئياً كفاية للآخرين. قد تمتلكين مؤخرة جميلة وثديين ملفتين... ودماغاً، لكن إن لم تكن لديك شفرات فرج منتفخة، فما الفائدة من كلّ هذا؟ لكن إليكنّ بشرى سارةً يا أخواتي ذوات الشفرات المسطّحة. إن كانت لديكن أيّ مخاوف من عدم بروز فروجكن بما يكفي من خلال سراويلكن القصيرة أو سراويل اليوغا، فلا داعي للقلق بعد الآن.

والحال فقد جرى في العام 2017 اكتشاف «حمالة صدر رافعة لشفريكِ». إنها قطعة من الملابس الداخلية المتوافرة في مجموعة من مختلف ألوان البشرة، «وهي تعطيكِ مظهراً وكأن سروالك يصل إلى شفريكِ الكبيرين»[98]. يمكن الادعاء من جديد هنا أنّ الأمر برمته لا علاقة له بالرجال، وأنه ليس أكثر من مجرد إكسسوار قد ترغب المرأة في ارتدائه سواء في البيت تحت ثوب النوم، أو تحت أيِّ زوج

(97) أنظر:

'Loud and proud! Brand releases sets of $9.99 plastic stick-on NIPPLES that are sold in two sizes – "cold" and "freezing", *Mail Online (FeMail)*, 4 April 2017.

(98) 'The hottest new trend is camel toe underwear and we're all over it', *Metro*, 24 February 2017.

سراويل أو تنورة فضفاضة تلبسها في العمل. إنه أمر يخص شعور المرأة تجاه ذاتها. لكن هنالك أسبابٌ أخرى أكثر وضوحاً قد تدفع ببعض النساء لأن يرغبن في مظهر يوحي ببروز شفراتهن الكبيرة من تحت سراويلهن.

بدا في السنوات الأخيرة أنّ مجرد التطرق إلى هذه النقطة كفيل بأن يتعرض هذا أو ذاك من الأشخاص لخطر تدمير حياته المهنية بالكامل. في شهر فبراير من عام 2018، أجرى جاي كاسبيان كانغ Jay Caspian Kang مقابلة لقناة Vice News مع الأكاديمي والمؤلف والطبيب النفسي الكندي جوردان بيترسون Jordan Peterson. في مرحلة ما من المقابلة، قدَّم كانغ عددًا من التأكيدات التي عارضها بيترسون بقوله إنّ الأسئلة الحرجة لم تطرح بالفعل. وتابع بسؤال محاوره: «هل بإمكان الرجال والنساء التعاون معاً في مجال العمل؟». بدا المحاوِر مندهشاً لمجرد إمكان طرح مثل هذا السؤال، وسارع إلى الردّ معترضاً أن نعم، لديه إجابة عن هذا السؤال، والإجابة هي: أجل بإمكانهم ذلك، لأنني «أعمل مع كثير من النساء». لكنّ بيترسون أشار إلى أنّ واقع الحال هذا يعود إلى أربعين سنة مضت فحسب، وهو إذاً وضع حديث العهد نسبياً ما زلنا نعمل اليوم على تأسيس قواعد تحكمه. «هل من تحرش جنسي يحدث في ميدان العمل؟ نعم. وهل ينبغي أن يتوقف؟ نرجو ذلك. هل سيتوقف بالفعل؟ حسنٌ، ليس في الوقت الحاضر لأننا لا نعرف بعدُ أيّ قواعد تحكمه». ومن هنا بدأ بيترسون مغامرته في أرض محفوفة بالمخاطر بالفعل.

بدأ بيترسون بتقديم الاقتراح التالي: «إليك قاعدة. ماذا عن عدم وضع مساحيق تجميل في مكان العمل؟». بدأ جاي كانغ بالضحك وأجاب: «لماذا قد نختار قاعدةً كهذه؟». فأردف بيترسون بسؤال بدوره: «لمَ ينبغي وضع مساحيق تجميل في مكان العمل، أليس في الأمر استثارة جنسية؟». رفض كانغ الموافقة على هذه القول، فسأله **بيترسون** من جديد: «ما هدف وضع مساحيق التجميل إذاً؟». أجاب كانغ: «الأمر هو كذلك، قد يرغب البعض في وضع مساحيق التجميل

وحسب، لست أدري لماذا». عند هذه النقطة أوضح له بيترسون أنّ هدف وضع أحمر الشفاه ومسحوق الخدود هو تحفيز الإثارة الجنسية. ثم أشار لكي يزيد الطين بلّة إلى أن الكعب العالي هو بدوره وسيلة لتدعيم الجاذبية الجنسية. أوضح بيترسون أن قوله هذا لا يعني على الإطلاق أنّ على النساء عدم ارتداء الكعب العالي أو وضع مساحيق التجميل في أماكن العمل. بل ما يقصده هو أننا ينبغي أن نخرج من الأوهام في شأن ردود الفعل التي يحاولن الوصول إليها بفعلهنّ هذا. هذه هي اللعبة التي تلعبها النساء اللواتي يضعن مساحيق التجميل ويرتدين الكعب العالي[99]. بدا كانغ على امتداد المقابلة واقعاً في حالة من الحيرة حيناً، وفي حالة من الملل حيناً آخر؛ كما لو أن تقديم إجابات عن الأسئلة التي يطرحها بيترسون كان أمراً يسيراً وبديهياً إلى حدٍّ لا يُصدَّق. الأمر الوحيد الذي لم يحاول حقاً فعله هو السعي إلى التعامل مع صندوق باندورا المرعب الذي فتحه الضيف أمامه.

ربما كانت هذه مناورة من طرف المحاوِر. ذلك أنّ ردود الفعل على المقابلة بلغت في نهاية المطاف ذروة استثنائية في شدّتها، حتى لدى مقارنتها بردود الفعل المعتادة على أي مقابلة لبيترسون. امتلأت منتديات الدردشة المباشرة على الإنترنت بأشخاص يزعمون أنه قال إنّ النساء اللواتي يرتدين الكعب العالي ويضعن مساحيق التجميل في أوساط العمل إنما يلتمسن بذلك التحرّش الجنسي. وحذت بعض وسائل الإعلام حذو هؤلاء في ادعاءاتهم. هذه في الواقع لحظات مثيرة للاهتمام. فإذا ما خرج أحدهم ليقول إنّ فتح باب النقاش في هذه القضية لا يعني أن ليس للنساء أن يلبسنَ كما يردن، ثم وجدنا مع ذلك أن الكثيرين يتلقون هذا الكلام (أو يزعمون أنهم يتلقونه) على أنه كلام مطابق تماماً لما قاله بيترسون، وأنه فوق ذلك يبرر الاعتداء الجنسي؛ فلا ريب في أنّ شيئاً ما في كل هذا النقاش لا يسير على ما يرام بتاتاً. لا يتعلّق الأمر بسوء تلقٍّ أو بسوء فهم، بل هو أقرب لأن

(99) من مقابلة *VICE News* مع الدكتور جوردان بيترسون، بتاريخ 7 فبراير 2018.

يكون مثالاً على تبني الأشخاص، عن عمدٍ وبكثير من الكسل، تحريفاتٍ مبسَّطة لما يقوله الآخرون، بغرض تجنُّب المناقشة الصعبة التي كان ينبغي الخوض فيها.

ما من نهاية للمناقشات الصعبة والضرورية في هذا الشأن. فإذا ما استقرت ثقافة ما على فكرة أن من الواجب دائماً تصديق النساء، ليس في حالات الاعتداء الجنسي فحسب، بل وحتى في ما يخصّ الإيماءات الجنسية غير المرغوبة؛ فستُنتج هذه الفكرة بلا ريب بعض الارتباك في المجتمع. إذ كيف ينبغي أن يفكر الناس أمام تجربة امرأة تمارس الإغواء، وما ردة الفعل المنتظرة منهم؟ كيف سيكون بإمكانهم التوفيق بين المعلومة القائلة إن من الواجب دوماً تصديق النساء، وبين حقيقة تكريس صناعات كاملة لمساعدة النساء على الإيقاع بالرجال، أو — إن نحن أردنا تقديم الأمر بصورة أكثر إيجابيّةً — على إغوائهم؟ ما الذي تعنيه كل هذه الحملات الإعلانية الصيفية التي تدعو النساء إلى «لفت الأنظار إليهن هذا الصيف»؟ أي أنظار هذه التي ستلتفت إليهن؟ أهي أنظار نساء عابرات، يأملن في شراء الفستان ذاته أو ملابس السباحة ذاتها؟ أم هي... نظرات الرجال؟

اجعلي لعابه يسيل

تسمح الطريقة التي يتوجه بها التسويق إلى النساء باستطلاع الكثير عن الدوافع التي تحفِّزهن بالفعل، حين يعتقدن بأنهن بمنأى من ملاحظة الرجال. لنأخذ في الاعتبار الأعداد اللامتناهية من الحملات الإعلانية ومن المقاطع الصحفية في المجلات النسائية؛ والتي تدور حول فكرة «اجعلي لعابه يسيل». لو أنّ إعلانات السيارات أو منتجات الحلاقة قررت الترويج لمنتجاتها بناء على الإيحاء بأن المنتج، لدى اقتنائه، سيسيِّل لعاب النساء؛ فإنها لن تكون عُرضة للاستنكار فحسب، لا بل وقد تفشل تماماً في جذب الرجال. يقدّم لنا google خزينة مساعدة غنية جداً في هذا الصدد. تؤدي كتابة «اجعلي لعابه يسيل» في محرّك البحث إلى ظهور مجموعة كبيرة من المقالات والإعلانات والمناقشات المباشرة عبر الإنترنت. أما كتابة

«اجعل لعابها يسيل» فتضعنا في المقابل أمام مجموعة من المقالات التي تراوح بين كيفية وقف سيلان اللعاب أثناء النوم، وشروحات عن سبب سيلان اللعاب من أفواه بعض القطط.

يشير كلّ هذا إلى درجة الإنكار، الصناعي على ما يبدو، التي وصلت إليها مجتمعاتنا. وكأننا قررنا أن ننسى سلوكات كنا ندرك تماماً صلاحيتها ونعترف بها في الماضي القريب جداً، أو أن نعيد تعديلها بشكل جذري. يبدو كذلك أننا قررنا أنّهُ بالإمكان بكل ببساطة تنحية التعقيدات الفردية القائمة في العلاقات ليس بين الرجال والنساء فحسب، بل بين الأفراد من الجنس الواحد كذلك؛ كما لو أننا تغلَّبنا عليها جميعاً بالفعل.

أو لعلّنا بنينا هذا التظاهر كلّه على حقل هائل من الألغام. ففي نهاية المطاف، نستطيع في يومنا هذا أن نغفر ارتباك رجلٍ في محاولاته معرفة ما تريده المرأة. ففي الوقت الحاضر، يجد الشاب نفسه في أولى محاولاته لفهم الجنس الآخر في مواجهة عالمٍ يلزمه بحضور فصول دراسية في المدرسة، وفي الجامعة، تتناول مسألة القبول، وتملي عليه قواعد محددة بغاية الدقة عن ماهية السلوك اللائق وغير اللائق في هذا الصدد. بيد أنّ بإمكان هذا الشاب ذاته أن يبحث على شبكة الإنترنت أو أن يذهب في زيارة إلى المكتبة المحلية في منطقته – إن هو وجد واحدةً – ليكتشف أنّ أكثر الكتب مبيعاً في أوساط النساء مؤخَّراً (بما في ذلك نساء بعمر والدته) هي تلك التي تتمحور حول هوامات اغتصاب النساء. وهي هوامات لا يُسمح بمناقشتها أو محاولة التوصل إلى فهمٍ لما تنطوي عليه من معانٍ، غير أنها شائعة جداً إلى درجة تحويل الكتب التي تتناولها إلى أفلام سينمائية حققت أرباحاً إجمالية تصل حتى يومنا هذا إلى ما يقارب نصف مليار دولار. أهي مجموعاتٌ من الرجال تلك التي تتجه إلى السينما لتشاهد كريستيان غراي Christian Grey يربط صاحبته ليمارس معها الجنس، ثم يحصل بعد ذلك على غفرانها؟ أم أنّ الغلبة هي للحضور الأنثوي؟

تختصر أغنية لنيكي ميناج Nicki Minaj، من دون قصد منها، درجة الالتباس الكبيرة التي تخيّم على وضعنا اليوم. صدرت الأغنية عام 2014 وتحمل اسم «أناكوندا» (Anaconda). يمكن لمن لم يشاهد الأغنية على شبكة الإنترنت بعد أن ينضم إلى مئات ملايين الأشخاص الذين شاهدوها. يتصّف الفيديو الذي تقدِّمه ميناج بالإثارة الجنسية بقدر ما تقوم الأغنية على كلمات مبتذلة، تبدأ في مطلعها بـ«لا تريد الأناكوندا خاصتي، لا تريد الأناكوندا خاصتي، لا تريد الأناكوندا خاصتي... أيّ شيء ما لم تكن لديكِ مؤخرة buns، عزيزتي». وإن كان لأحد أن يتردد في تفسير المقصود بكلمة buns في الأغنية، أكانت تقصد المؤخرة أم معنىً آخر[100] فسيتكمن من استخلاص الأمر من حقيقة أنّ الدقائق الثلاث الأولى من الفيديو الموسيقي تتضمن مشاهد شبه حصرية لنيكي مانيجا وهي ترتدي البيكيني في وسط ديكور لغابة، وهي تؤرجح مؤخّرتها أمام الكاميرا. نجد معها أحياناً مجموعة من النساء اللواتي يرتدين ملابس مماثلة لها ويؤرجحن مؤخراتهن للمشاهدين كذلك. ويستمر هز المؤخرات طويلاً. فإن لم تكن الفكرة قد وصلت للبعض بهذا الشكل بعد، بالإمكان استيضاحها صراحةً من غناء المجموعة في اللازمة:

يا للهول، انظر إلى مؤخِّرتها
يا للهول، انظر إلى مؤخِّرتها
يا للهول، انظر إلى مؤخِّرتها
(انظر إلى مؤخرتها)
انظر، انظر، انظر،
انظر، إلى مؤخّرتها

ما خلا هز ميناج مؤخِّرتها إلى جانب رفيقاتها اللواتي يؤرجحن مؤخراتهن بدورهن، وقد تلعب إحداهن أحياناً بمؤخّرة الأخرى، لا يحدث خلال الدقائق

(100) كلمة buns الإنكليزية تعني أيضاً الكعكة. (م)

الثلاثة الأولى من الفيديو شيء آخر يذكر، سوى مشهد نيكي ميناج وهي تأكل موزة بطريقة لا تخلو من الإيحاء، ثم ترش علبة كريمة القشدة على فتحة صدرها، وتمسح أصابعها على ثدييها ثم تعاود لعقها، في مشهد صريح لا حاجة به إلى أي تفسير.

لكنّ هذا الجزء ليس هو الأكثر أهمية في فيديو «أناكوندا». فكل ما ورد أعلاه إنما يمثّل تصويراً عادياً ومبتذلاً تماماً في عالم فيديوهات موسيقى البوب، حيث تميل النجمات إلى ارتداء ملابس عارضات التعرّي، والرقص على طريقتهن. الجزء الأكثر أهمية هو ذاك الذي يظهر آخر دقيقة ونصف من الفيديو، ويبدأ بلقطة لميناج وهي تزحف على أربع في غرفة معتمة تتسلل إليها إضاءة موحية جنسياً. تزحف باتجاه شاب حسن المظهر جالسٍ على كرسي. تبدأ كلمات هذا المشهد بالتالي: «هذه لأجل عاهراتي ذوات المؤخرات السمينة في الملهى الليلي / ملهى ممارسة الجنس. لقد قُلت، أين عاهراتي الممتلئات بمؤخراتهن السمينة في الملهى الليلي؟». مرتديةً حمالة صدر وطماقاً نسائيّاً من الدانتيل المخرَّم، تدور ميناج حول الرجل وحول نفسها بحركة حلزونية، ثم ترفع ساقاً فوق أحد كتفيه، وتنحني بعدها إلى الأمام دافعةً مؤخّرتها الشهيرة في وجهه ومؤرجحةً إياها نحو الأعلى والأسفل. تأخذ وضعية راقصة العمود، وتنزلق أمامه إلى أعلى وأسفل. في هذه الأثناء، يبقى الرجل جالساً كزبونٍ مهذب يستمتع بعرض في أحد أندية الرقص الإباحي. في النهاية، وبينما هي تلوّح بمؤخرتها في وجهه للمرة الألف، بدا واضحاً أنه أخذ يشعر بإحباط جنسي. يمرر أخيراً يده على فمه لمسحه، وببعض التردد يضع إحدى يديه برفق على أردافها. ينتهي كلّ شيء في هذه اللحظة، فنسمع صوتاً يقول «مهلاً يا أنت!»، تُبعِد ميناج يدَ الرجل بضربة خشنة، وتخرج مبتعدةً وهي تنفض شعرها إلى الخلف بحركة سريعة. بخروجها ينحني الرجل إلى الأمام على الكرسي، مغطياً وجهه بيديه، وعلى ملامحه علامات ذعرٍ بادية جرّاء سلوكه الذي لا يغتفر.

تمثّل حالة الارتباك التي تجسدها هنا ممارسةُ ميناج مجموعةً كبيرة من عناصر

الخلل في ثقافتنا. فهي تعكس تحدياً غير قابل للحل، ومطلباً مستحيلاً. المطلب هو أن تكون المرأة قادرةً على تقديم رقصة العمود، ملتفّة حول نفسها ومؤرجحةً مؤخرتها، في وجه أي رجل يعجبها. يمكن لها أن تجعل لعابه يسيل. لكن في المقابل، إن هو قام بلمسها ولو بيد واحدة ليس إلا، فبوسعها تغيير مسار اللعبة تماماً. فتتحول بلمح البصر من عارضة تعرٍّ، إلى راهبة رئيسة بالغة التشدد، وتنتقل من حالة «انظر إلى مؤخرتي المتأرجحة أمامك»، إلى «كيف تجرؤ على التفكير في لمس المؤخرة التي كنت ألوح بها في وجهك طوال هذا الوقت؟». وسيكون عليه هو أن يتعلم أنه ارتكب خطأً. أي مطلب ينطوي عليه هذا الحال؟ أليس هو المطلب المستحيل الذي فرضته الأعراف المعاصرة والذي لا يمكن تلبيته؟ مطلب السماح للمرأة بأن تكون مغرية ومثيرة جنسياً كما تشاء، لكن من دون إضفاء طابع جنسي عليها. مثيرة جنسياً لكن بلا أي طابع جنسي.

إن هذا لمطلب مستحيل. هو ليس مطلباً غير معقول فحسب، بل مطلب من شأنه أن يشوِّش الرجال تماماً. لكن لا أحدَ يرغب في عرضِ هذه المسألة على النقاش، لأن استكشاف هذا الميدان سيفضي إلى الكشف عن عالم بالغ التعقيد، لا علاج له ولا حلول أمامه.

مثل الرجل، أم أفضل منه؟

لا يعكس هذا الاعتقاد أن بإمكان المرأة أن تكون مثيرة جنسياً لكن بلا أي طابع جنسي، سوى واحد من بين أمثلة كثيرة على الأوضاع المتناقضة التي وصلنا إليها. وما زالت هناك أمثلة أخرى كثيرة تسم روح هذا العصر. منها على سبيل المثال ذاك التأكيد بإلحاح شديد على أن النساء مثل الرجال تماماً بكل ما في الكلمة من معنى، إذ لهنّ السمات والكفاءات ذاتها، وهنّ بالتالي قادرات على تحدي الرجال في كلّ مضمار وفي أي وقت. لكنهن مع ذلك، وبقدرة قادر، أفضل من الرجال. أو أفضل منهم في نواحٍ محددة على الأقل. مع ما فيها من تناقض صريح، نجد أنّ

بإمكان شخص واحد أن يحمل هذه الأفكار معاً في ذهنه. بحيث أصبحت النظرة المقبولة إلى النساء اليوم هي كالتالي: إنهن مثل الرجال، لكن مختلفات عنهم حين يكون هذا الاختلاف مفيداً وجذّاباً.

تقدِّم لنا كريستين لاغارد Christine Lagarde، التي ترأست صندوق النقد الدولي طوال القسم الأكبر من هذا العقد، مثالاً جلياً عن هذه المفارقة. في العام 2018، وبمناسبة الذكرى السنوية العاشرة للانهيار المالي، عرَضت لاغارد على موقع الإنترنت FMI بعضاً من الدروس المستفادة من انهيار عام 2008، متفكِّرة في ما جرى إصلاحه خلال العقد الممتد بين 2008 و2018 – وفي الأمور التي ما تزال بحاجة إلى إصلاح. اغتنمت لاغارد الفرصة للتأكيد على ضرورة تواجد أعداد أكبر من النساء في مجالس إدارة المصارف وفي المنظمات التي تشرف على المؤسسات المالية. كما اغتنمت الفرصة كذلك لتعيد تكرار واحدٍ من شعاراتها المفضلة، وهو شعار ورد على لسانها مراراً وتكراراً خلال العقد السابق. كتبت: مثلما ذكرتُ ولمرات عدّة، لو كان لدينا مصرف «الأخوات ليمان» Lehman Sisters بدلاً من «الأخوة ليمان» Lehman Brothers[101]، لبدا العالم مختلفاً كثيراً اليوم[102]. لم يكن الأمر يتعلَّق بمجرد مراجعةٍ لمفارقات التفكير الجمعي الذي أسهم بشكل كبير في حوادث عام 2008. بل أرادت لاغارد أن تشير إلى نقطة أكثر أهمية. لا تقف الملاحظة عند ضرورة حضور المرأة بشكل أكبر في المؤسسات المالية، وهو أمر يكاد يحظى بإجماع تام؛ بل تتعداها إلى فكرة أن تزايد حضور لنساء في عالم الأعمال – لا بل وأكثر من ذلك، ترؤسهن لهذه المؤسسات – من شأنه أن يقود في المحصلة إلى نتائج مغايرة. لم تكن لاغارد وحيدة في تبنيها هذه القناعة، إذ نجد لها انتشاراً وفق صور متنوعة على امتداد العقد التالي للأزمة المالية. ولم تقتصر

---

(101) في إشارة إلى مصرف ليمان براذرز الذي أعلن إفلاسه عام 2008 في ذروة أزمة الرهن العقاري، ومثّل أكبر إفلاس في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية بقيمة 600 مليون دولار. (م)

(102) Christine Lagarde, 'Ten years after Lehman – lessons learned and challenges ahead', IMF blog, 5 September 2018. 13 *BBC* Question Time, 19 March 2009.

على مجال التمويل بل تعدته إلى مختلف مجالات الحياة العامة.

بعد فترة وجيزة من وقوع الانهيار المالي، استضاف برنامج Question Time، وهو برنامج النقاش السياسي الرئيس في قناة BBC، مقدمةَ البرامج التلفزيونية فيرن بريتون Fern Britton. وفي معرض تعقيبها على الأزمة، حظيت بتصفيق حار من جمهور الحاضرين لقولها: «يبدو أن كثيراً من الرجال انخرط في هذا المجال المالي، فأفسده تماماً. ولو أنّ هذا المجال ضمّ بعضاً من النساء ليقمن بشيء من أعمال التدبير المنزلي على الطراز القديم، إذ معلوم أنّ النساء يمتلكن تقليدياً موهبة تدبّر الأمور المالية في كلّ الأحوال فيحرصن على التأكد من أنّ قدراً معيّناً من الأموال يوضع جانباً لدفع تكاليف الكهرباء والغاز والهاتف والطعام؛ لما انتهى بنا الأمر إلى نهب الأموال وسرقتها والمراهنة عليها جميعاً في لعبة مقامرة على أمل استرجاعها لاحقاً»[103]. كانت لين فيذرستون Lynne Featherstone، الديموقراطية الليبرالية ووزيرة المساواة في الحكومة الائتلافية في بريطانيا للفترة بين عامي 2010 و2015، من دعاة هذه النظرية ذاتها. في مؤتمر حزبها للعام 2011، ألقت باللائمة على الرجال في ما يخص «القرارات الفظيعة» التي اتُّخِذت في الاقتصاد العالمي، قائلة إن الرجال ككل هم السبب الرئيس في «حالة الفوضى التي يعيشها العالم».

تكمن هنا المعضلة الأولى للحكم المسبق القائم اليوم حول وضع المرأة في مقابل الرجل في مجتمعاتنا. النساء مثل الرجال تماماً – إذ يمتلكن القدرات والكفاءات ذاتها، وقادرات على القيام بمجموعة المهام ذاتها. لكنهن أيضاً أفضل من الرجال. كيف لنا بالضبط أن نوفّق بين هذه المزاعم، نحن هنا أمام مسألة سيئة التحديد لأن التفكير فيها بني على أساس سيء. ومع ذلك، ها نحن قررنا قدرَ استطاعتنا أن نستدمج عدم الاتساق هذا في أعمق أعماق مجتمعاتنا.

(103) 'When women thrive' report, *Mercer*, October 2016.

نساء في مجال الأعمال

في نهار جميل بمدينة لندن، وفي فندق فخم جنوب نهر التاميز، يجتمع أكثر من أربعمئة امرأة يتصفن بذكاء بالغ، وعلى مختلف المستويات. ليست الحاضرات جميعاً من رائدات الأعمال اللواتي يتصدّرن مجالهن المهني فحسب، لا بل وفي كلّ مرة ينفتح الباب لتصل إحداهن، نحسب أنفسنا في عرضٍ للأزياء. كعوب عالية، وأوشحة رقبة حريرية، وملابس تحمل طابع سلطة نخب عالم الأعمال على المستوى الدولي: لا نجد أي واحدة منهن – ولا واحدة على الإطلاق – أغفلت عن انتمائها لهذه الطبقة. ويبدو واضحاً منذ البداية أن اللقاء يجمع طبقةً بالتأكيد.

جرى تنظيم مؤتمر «نساء في مجال الأعمال» من طرف صحيفة Daily Telegraph، وكان من بين رعاته الرئيسيين مصرف ناشيونال ويستمنستر (ناتويست) NatWest وشركة BT القابضة للاتصالات. افتتحت المناقشاتِ وزيرةُ شؤون المرأة والمساواة، وتلا الافتتاح انعقاد حلقة نقاش تحت عنوان: «كيف ينبغي أن يبدأ مجال العمل بالعمل لصالح المرأة». ضمّت الجلسة العديد من سيدات الأعمال الأكثر نجاحاً وشهرةً، إلى جانب عدد من أشهر المذيعات في البلاد. ثم جرت «دردشة ودية» بين أحد مدراء المشاريع في ناتويست وأول امرأة تحتل مركز رقيب في السلاح في مجلس العموم البريطاني. تلتها من جديد حلقات نقاش أخرى تحت عناوين عدة: «ما هي العوائق الحقيقية التي تحول دون نجاح المرأة؟»؛ «سد الفجوة الجندرية»؛ «هل تحتل النساء موضعاً غير مؤاتٍ في عالم استثمار يهيمن عليه الذكور؟». أما الندوات التي تتناول النصف الذكر من النوع البشري فتحمل عناوين على شاكلة: «هاشتاغ أنا أيضاً (#MeToo): دور الرجال الحاسم كحلفاء للنساء».

ينبغي القول مع ذلك إنّ مسألة التركيز على النساء بدت أمراً لا مفر منه في سياق هذا المؤتمر، ما دام يستهدف النساء أصلاً، وما دامت جميع الحاضرات، ما خلا شخصاً أو اثنين، هنّ من النساء. ما من مفرٍّ كذلك من أن تتمحور معظم

النقاشات حول موضوعات تخص المرأة في مجال العمل، بما فيها القضايا المتعلقة برعاية الأطفال. لكن يضاف إلى كلّ هذا حضورٌ لأجواء تحالف صريحة في الصالة. تحالف أشخاص واقعين تحت ضغط الاستغلال. كلما أرادت إحدى الحاضرات أن تحظى بموجة دافئة من إيماءات التأييد وتصفيق الحضور، كانت تلجأ إلى التأكيد على مدى حاجتنا إلى «نساء واثقات». والطريقة الموثوقة لكسب ردود أفعال الصالة إنما تقتضي سرد حكاية عن السلوك السيء لرجل ألفا (Alpha male)[104]. ومن أمثلة سلوك الرجل ألفا حكاياتٌ عن رجال ذوي نزعة تسلطية تأخذ شكل الإكثار من الكلام. بدا أن هنالك إجماعاً في صالة الاجتماع على أنّ الحاجة إلى «نساء أكثر ثقة» تتزامن مع الحاجة إلى «رجال أقل ثقة». كما لو أنّ تبنّي صيغة كهذه سيؤدي إلى التقاء الجنسين معاً في منطقة وسط في الوقت المناسب.

توجد طريقة أخرى مؤكّدة للحصول على تأييد الحشد كاملاً، وهي أن تعبّر إحدى النساء المتحدثات عن قلقٍ وتوتر، أو تحكي عن إصابتها بمتلازمة المحتال (Imposter Syndrome). هكذا اختارت امرأة شابة، مثيرة للإعجاب وذكية وأخاذة، وتترأس شركة ناشئة؛ أن تبدأ مداخلتها. قالت إنها متوترة، وتكاد تحس بأنه ما كان عليها أن توجَدَ هنا في هذه القاعة، مع كل هؤلاء النساء المذهلات اللواتي أنجزن الكثير. فصفقت الحاضرات لها بحرارة، مهنئات إياها على شجاعتها في قولها هذا. ينبغي أن تكون النساء واثقات في أنفسهن، نعم، لكن يبدو في المقابل أن إحدى الاستراتيجيات الناجحة لجذب النساء الأخريات إلى صفّك تكمن في تقديم نفسك على أنك لا تمتلكين أي ثقة في النفس. كما لو أنك مذعورة من أن يُقضى عليكِ، على أيدي النسوة الأخريات خصوصاً. عندما تبدأ فقرة الأسئلة والأجوبة بعد المداخلة، ترسل إحدى الحاضرات سؤالاً يستفهم عما إذا كانت أيّ من النساء الأخريات الحاضرات في القاعة قد تبيّنّ بدورهن أنّ النساء الأخريات يمثلن التحدي الأكبر الذي يواجههن في مجال العمل. ولم يعلَن عن

(104) مطلح يشير عموماً إلى الرجل الفحل، أو الرجل ذي الطابع المسيطر وقوي الشخصية والهنية. (م)

هوية الأنثى التي طرحت السؤال.

لكوني واحداً من الرجال القلائل الذين طُلب إليهم التحدث، وجدت نفسي مدعوّاً إلى حلقة نقاش تحت عنوان: «هل يقود التركيز على تشجيع النساء إلى تراجع الرجال؟»، وتولّت إدارة الجلسة صحفية من Daily Telegraph. ضمت الجلسة عدداً آخر من المشاركين هم برلماني بريطاني يدعى كرايغ تريسي Craig Tracey، وهو يترأس مجموعة برلمانية لدعم النساء؛ ومسؤولة «إدارة الموارد البشرية» في صحيفة Daily Telegraph؛ و«مديرة استراتيجية العميل الأنثوي في المملكة المتحدة» لدى مصرف جي بي مورغان J. P. Morgan. شهدت الجلسة حالة إجماع مماثلة تماماً لما حدث تقريباً في كل المناقشات العامة، ومن الواضح أنّ هنالك ضرورة لتقويضها.

أكثر ما يلفت النظر هو وجود ما يبدو أنه مجموعة من الالتباسات التي تتمحور حور قضية «السلطة». تركّز جميع النقاشات حتى الآن على فرضية أنّ الغالبية العظمى من العلاقات في مجال العمل كما في أي مجال آخر، إنما تدور حول ممارسة السلطة. تشربت هؤلاء النساء جميعاً، عن وعي أو بشكلٍ غير واعٍ، النظرة الفوكوية إلى العالم والتي تكون «السلطة» وفقاً لها هي المنظور الأكثر ملاءمة لفهم العلاقات الإنسانية. ليس اللافت للنظر هو تشدّق الجميع بذلك فحسب، بل وأكثر من ذلك هو تركيز هؤلاء النساء على نوع واحد من السلطة. وهو نوع السلطة الذي استحوذ عليه تاريخياً وبشكل حصري – على ما يُفترض – رجالٌ كبار في السن في معظمهم، وأثرياء في معظمهم، ومن ذوي البشرة البيضاء جميعاً. الأمر الذي يفسِّر الترحاب الذي يجري به تلقي المزاح والتهكم في شأن ذكور ألفا. يبدو أن هنالك افتراضٌ ما بأن عصر كلٍّ من الألفا، والذكورية من هؤلاء الذكور، باستخدام نوعٍ من جهاز خلاطٍ للعدالة الاجتماعية كبير ومهيب، سيعطي عصارةً تشربها نساءٌ كالمجتمعات في هذا المؤتمر. وستستخدم هذه العصارة في تغذية أولئك اللواتي يستحققن السلطة أكثر من الآخرين، وفي تحقيق نمائهن.

ها نحن ذا في مواجهة تساؤلات عصيبة. بيد أنني أطرح في مداخلتي فكرة مفادها أن ما يحدّ من حواراتنا هو سوء الفهم هذا. فحتى وإن سلّمنا – وهو أمر ينبغي علينا في الحقيقة تجنّبه – بأن السلطة (بدلاً من الحب على سبيل المثال) هي القوة الموجِّهة الأهم لشؤون البشر، لماذا نركِّز جلّ اهتمامنا على نوع واحد من السلطة؟ لا شك في وجود أنواع من السلطة – مثل الاغتصاب – تنطوي على فرض الرجل سطوةً على المرأة. كما يوجد أيضاً نوع من السلطة يمارسه الرجال الأكبر سنّاً، من ذوي البشرة البيضاء عادةً، على من هم أقلّ نجاحاً منهم، بما في ذلك النساء. لكن توجد في هذا العالم أنماط أخرى من السلطة، إذ ليست سلطة الرجل الأبيض الأكبر سنّاً مصدرا وحيداً للسلطة على الإطلاق. ألا توجد في المحصلة بعض أشكال السلطة التي لا يمكن إلا للمرأة أن تمارسها. هنا يُطرح عليَّ السؤال: «مثل ماذا؟». والحال فإنني بوصولي بالحديث إلى هذه النقطة، وجدت أن من المنطقي تماماً الاستمرار في الخوض في أعماق المسالة.

من بين ضروب السلطة الأخرى الأكثر وضوحاً، والتي تتمتع بها المرأة بشكل شبه حصري، هي أن النساء – ليس جميعهن وإنما العديد من بينهن – يمتلكن قدرة ليست بحوزة الرجال، وهي القدرة على دفع أعضاء الجنس الآخر لأن يفقدوا صوابهم، أي القدرة على تشويشهم تماماً. لا يتعلّق الأمر بالقدرة على تدميرهم فحسب، بل أكثر من ذلك على دفعهم إلى تدمير أنفسهم. يسمح هذا النوع من السلطة لفتاة في أواخر مرحلة المراهقة أو في العشرينيات من عمرها أن تستحوذ على رجل بكل ما يملك، رجلٍ في ذروة إنجازاته. فتعذِّبُهُ، وتدفعه للتصرف كأحمق، وتدمّر حياته، من أجل بضع لحظات عابرة ليس إلا.

كنا قبل هذا بقليل قد استمعنا إلى تلك المرأة الشابة الجذابة، والتي تترأس شركة ناشئة، قائلة إنها كانت، في أثناء مسعاها للحصول على تمويل، قد تلقت عروضاً غير لائقة من رجال مرشَّحين لتقديم التمويل. آنذاك، شهدت الصالة ردّ فعل مستنكر محق تماماً. إذ إن في سلوكٍ كهذا بالتأكيد إساءةُ استخدامٍ للسلطة. غير أن

هذا الاستنكار يخفي خلفه في الواقع معرفة مسكوتاً عنها – ونفاقاً غير معلن. هل كانت جميع الحاضرات في الصالة – بما في ذلك أولئك المستنكرات – على يقين تام من أن المرأة المعنية لم تمارس بدورها أي نوع من السلطة؟ هل كُنَّ على يقين من أنها كانت لتتمكن من جمع مبلغ مالي كبير إلى هذا الحدّ لو أن ملامحها كانت أكثر شبهاً بشخصية جابا ذا هوت[105] (Jabba the Hutt) من مظهر عارضة الأزياء الدولية (والتي لا تقل عنها ذكاءً وفطنة) اللافت الذي ظهرت عليه؟ أو لو كان لها شكل رجل عجوز أصلع أبيض البشرة؟ ليس من الإساءة إلى قدرات المرأة المعنية في شيء (وليس تساهلاً تجاه أي رجل يسيء التصرف) قولُنا إنّ مجرد وجود احتمال لإمكان التعامل مع هذا الشخص في المستقبل القريب لم يلعب دوراً سلبياً ولم يكن ضد هذه المرأة تماماً. تظهر الدراسات مراراً وتكراراً أنّه – ولدى تكافؤ كل العوامل الأخرى – يتمكّن الأشخاص ذوو المظهر الجذاب من تحقيق النجاحات والوصول إلى أعلى المستويات في المجالات المهنية التي يختارونها، مقارنةً بأقرانهم الأقل جاذبيةً. هل بالإمكان حقاً تجاهل ميزات كمثل الجاذبية الجسدية والشباب والأنوثة؟ أليس وارداً أن يكون واحد أو أكثر من بين الرجال المستثمرين لديها قد فكّر في لحظة ما بأنه حتى لو لم يكن بالإمكان أن يحدث أي شيء، أو حتى إن كان يجب بالفعل ألا يحدث شيء في العلاقة معها؛ فعلى الأقل سيكون حضور اجتماعات المستثمرين معها مرغوباً أكثر مما لو كان مع ذكر كبير في السن من ذوي البشرة البيضاء؟ أوليس هذا – مهما بلغت عدم رغبتنا في الاعتراف بالأمر – شكل من أشكال السلطة؟ سلطةٌ إما جرى إنكارها، أو أقصِر استخدامها على حدود تقع خارج العوالم المُستَهدفة اليوم، لكنها سلطة حاضرة في العالم مع ذلك؟

لم يلقَ هذا العرض ترحاباً في القاعة، إذ لم يتوافق بكل تأكيد مع ما أراد الحضور سماعه. وقبل أن أتمكّن من الانتقال إلى مناقشة فكرة أخرى من أفكاري التي لا

(105) شخصية خيالية من سلسلة أفلام حرب النجوم. (م)

تحظى بشعبية، قررت مسؤولة «إدارة الموارد البشرية» في صحيفة Daily Telegraph أن تتولى المهمة بنفسها. فأكّدت ضرورةَ التركيز على مشكلة السلوك غير اللائق في مجال العمل، مشيرة إلى أنّ كثيراً من النساء يروي حكايات مروّعة في هذا الشأن، ولا شك في أن لدى العديد من النساء الحاضرات في هذه الغرفة الآن تجاربهن الخاصة في هذا الصدد أيضاً. ثم قدّمت شروحات من قبيل أنّ قضية العلاقة بين الجنسين هي في حقيقتها مسألة يسهل حلها ببساطة وبشكل مباشر. خصوصاً في أعقاب حركة «أنا أيضاً»، والتي صار معها كل شيء غايةً في الوضوح. ينبغي أن يدرك الرجال أنّ هنالك نوعان من السلوك، أحدهما لائق والآخر غير لائق. ومع الإقرار بأن الحد الفاصل بين ضربي السلوك شهِد تغيرات مؤخّراً، جرى التأكيد أيضاً على أن الأعراف في حدّ ذاتها تصلح لكل زمان، وهي واضحة تماماً على الدوام.

أعتقد تماماً أن بمقدور أي شخص عمِل يوماً في مكتب أن يعرف أنّ الأمور ليست بهذه البساطة مطلقاً. تساءلت بصوت عالٍ: «هل من الجائز دعوة أحد الزملاء إلى الخارج لتناول فنجان قهوة؟». بدت هذه حالة غير محسومة. لو جرت الدعوة لأكثر من مرة فالأمر ينطوي على مشكلة واضحة، إذ «على الرجال أن يتعلموا أنّ لا، تعني لا»، هكذا أُشير إليّ. ثم طُرِحت عليَّ العبارة الآتية كأساس لمعيار أخلاقي: «لا تقم بأي فعل كنت لتتجنب فعله أمام ناظري والدتك» — وهي عبارة تتجاهل حقيقة وجود كثيرِ الأفعال التي يقوم بها البالغون في حياتهم، وهي أفعال قانونية تماماً ومقبولة لا بل وممتعة جداً، لكنهم ما كانوا ليقوموا بها أمام أمهاتهم. لا تتعدى المسألة حسن التقدير، «ليست بالأمر الصعب على الإطلاق»، هذا ما أعادت التأكيد عليه مسؤولة إدارة الموارد البشرية.

لكن بلى، في الحقيقة هي مسألة صعبة! وتعرف كل امرأة حاضرة في القاعة — وكذلك الأكثرية الكاثرة من النساء خارجها — حجم التعقيد الذي يعتري هذه القضية. على سبيل المثال، يعرفن جميعاً أنّ نسبة كبيرة من الرجال والنساء تلتقي

شريكَ حياتها المستقبلي في أوساط العمل. ومع أن الإنترنت غيّر كثيراً في طبيعة ونماذج المواعدَة، إلا أن معظم الدراسات، حتى في السنوات الأخيرة، يظهر أن نحو 10 إلى 20 في المئة من الناس ما زالوا يلتقون شريكهم المستقبلي في أماكن العمل. وبالنظر إلى أنّ الأشخاص الناجحين في حياتهم المهنية، وإليهم تنتمي الحاضرات في هذا المؤتمر، هم من نموذج الأشخاص الذين يرجِّحون كفة الحياة المهنية على الخصوصية، من ثمّ، فإنهم سيقضون وقتاً أطول مع زملائهم منه في أوساط الحياة الاجتماعية العادية. فهل من الحكمة تماماً تطويق هذا الرافد المهم الذي يمكن من خلاله الوصول إلى شريك حياة؟ أو تضييقه إلى مجرد إمكان محدود جداً ووفق ما يسمح به رئيس شؤون الموظفين في الشركة؟ إن القيام بذلك إنما يعني ما يلي: لن يكون من حق الرجل الاهتمام سوى بامرأة واحدة فقط في حياته العملية. ولن يكون بإمكانه دعوتها لتناول فنجان قهوة إلا في مناسبة واحدة فقط. ومن ثمّ ينبغي أن تحظى هذه المحاولة الوحيدة بفرصة نجاح مطلقة تبلغ مئة في المئة. هل هذه طريقة معقولة أو منطقية أو إنسانية بالفعل لتدبُّر العلاقات بين الجنسين؟ يقابل كل طرح من هذه الطروحات بضحك في القاعة، لأنها بالفعل مضحكة، ومثيرة للسخرية. وهي اليوم تشكّل أساس القانون الذي يحكم قانون العمل.

بحث تحقيق أجرته شبكة Bloomberg التلفزيونية ونشر في شهر ديسمبر من عام 2018 المواقفَ السائدة في أوساط كبار الشخصيات في عالم التمويل، والذي هو قطاع يهمين عليه الذكور بلا أي شك إذ تُسجَّل لهم الأغلبية في جميع أقسام هذا القطاع ما خلا قسم المساعدين/ ات[106]. جاءت مواقف كبار الشخصيات من الرجال ملفتة للنظر. في المقابلات التي أجريت مع ثلاثين من كبار المسؤولين التنفيذيين في عالم التمويل، أقرّ الرجال بأنه لم تعد لديهم رغبة في تناول العشاء مع

(106) 'Wall Street rule for the MeToo era: avoid women at all costs', *Bloomberg*, 3 December 2018.

إحدى زميلاتهم، كما عبروا عن رفضهم الجلوس إلى جانب إحداهن في رحلة طيران، وأصروا على ضرورة حجز غرف الفنادق في طوابق مغايرة لتلك التي تتواجد فيها غرف زميلاتهم، وعلى تجنَّب أي اجتماعات فردية مع النساء.

إن كان هذا هو حقاً موقف الرجال في مكان العمل، فالأمر يشير برمّته إلى أن مجال آداب السلوك في المكتب لا هو بالصريح ولا بالواضح تماماً بشكل عام. فالقواعد المرتجاة حديثة العهد تماماً، والأعراف التي يُفترض بها أن تكون عالمية لم تدخل حيّز الوجود إلا منذ وقت قريب جداً. وأخيراً، يكمن وراء كل هذا وفق ما توصل إليه تقرير بلومبيرغ، شعور لدى الأشخاص ليس بعدم الثقة في أنفسهم بالذات (وإن يكن وارداً ألا يثقوا فيها)، بل بالأخص بعدم الثقة في نزاهة ادعاءات الآخرين تجاههم - بما في ذلك ادعاءات قد ترد من امرأة مل بمجرد تواجدها وحدها مع أحد زملائها الذكور. لو كان فهم آداب مكان العمل سهلاً إلى هذا الحد، فكيف سنفهم إذاً حجم التعقيد البادي في مجمل ما طرح هنا من مواقف؟

بالعودة إلى المؤتمر الذي عُقِد في لندن، فإن من أكثر ما يلفت النظر في ذلك اليوم هو أنّ المناقشة انتهت إلى أن تأخذ طابعاً كان حتى وقت قريب جداً محصوراً في حدود الحرم الجامعي لكليات الآداب والعلوم الإنسانية الليبرالية. وفي مؤتمر «نساء في مجال الأعمال» كان لا بد من الاختتام بمناقشة تتناول «الامتيازات». من ذا الذي يحوزها، ومن ذا الذي ينبغي أن يحوزَها، وكيف يمكن اقتسامها بشكل أكثر إنصافاً؟

أقل ما يقال في غرابة النقاش الذي يتناول هذه المسألة، والتي صار شائعاً جداً في يومنا هذا، هو افتراضه أن الامتياز هو أمر يصعب جداً تعريفه، ويكاد يكون من المستحيل تحديده كمياً. قد يكون «الامتياز» لدى أحد الأشخاص حصيلة وراثة مبالغ مالية، لكنّ هذا الامتياز نفسه ربما يصير لعنةً لشخصٍ آخر، إذ يمنحه مبكّراً أكثر مما يجب، ما يحول دون امتلاكه أي حافز لاحقاً لشق طريقه بنفسه في هذا العالم. هل يكون لشخص ذو ثروة موروثة ولكن به إعاقة طبيعية ما امتيازٌ

أكثر أم أقل من شخص آخر صحيح الجسد لكن لم يرث شيئاً؟ ما الأسس الواجب اعتمادها لحلّ إشكال كهذا؟ وفيمن نضع ثقتنا لحله؟ وكيف لنا أن نصل إلى معايير لهذا النسق تتسم بما يكفي من المرونة لا لتشمل الجميع فحسب، بل وأكثر من ذلك لتأخذ في الاعتبار التغيرات المقارنة إلى الأفضل والأسوأ، والتي يمكن لها أن تحدث على امتداد أي حياة بشرية؟

هنالك مشكلة أخرى ترتبط بالامتياز، فعلى الرغم من قدرتنا على رؤيته في الآخرين، غير أننا قد لا نتمكن من إدراكه في أنفسنا، أو لا نرغب في ذلك. من الواضح تماماً للعيان أن النساء المجتمعات في هذه القاعة إنما يمثّلن بلا أي شك أقلية هي الأكثر امتيازاً على الإطلاق، لا على مستوى البشر على مرّ التاريخ فحسب، بل وحتى مقارنة بكل أولئك الذين ينتمون إلى بلدانها نفسها، ومدنها، بل وحتى جيرانها في الحي. لديهنّ رواتب كبيرة جداً، وشبكة علاقات مهمة، وستنفتح لهن في المتوسط في الشهر الواحد إمكانات وفرص لا يحظى بها معظم الذكور من ذوي البشرة البيضاء على امتداد حياتهم. ومع ذلك ها هن يثرن قضية الامتياز هذه مراراً وتكراراً، مفترضات أنهن مستبعدات منه، وأنه في حظوة الآخرين.

التدريب على التحيزات غير الواعية، وتقاطع أشكال التمييز

لا مفرّ من أن يقودنا كل هذا – وفي التوقيت المناسب تماماً – إلى الوجهة النهائية لهذه السيرورة المستحيلة من التصنيف والاستنتاج الدائمين، أي، أهمية تقاطع أشكال التمييز. وصلت بنا مسؤولة «إدارة الموارد البشرية» في صحيفة Daily Telegraph إلى هذه الوجهة الأخيرة قبل أن أتمكن شخصياً من ذلك. هكذا عمدت إلى التأكيد على ضرورة أن نأخذ في الاعتبار تشابك التقاطعات في أشكال التمييز في كلّ هذا. لأن علينا ألا ننسى أن الحاجة إلى التمكين، وإلى التشجيع على الصعود في سلم التراتبية، لا تقتصر على النساء. إذ توجد مجموعات مُهمَّشة أخرى

تحتاج بدورها إلى الدعم والمساندة. هنا يخرج صوت من بين الحضور ليذكّر أن هنالك أناس هم من اللاجئين الذين ينبغي ألا تضيع أصواتهم في خضمّ كل هذا. وهي محاجّة بالإمكان إثارتها على أوسع نطاق وإلى ما لا نهاية. إذ هنالك أناس من ذوي الاحتياجات الخاصة، وآخرون يعانون من الاكتئاب. لا يحظى جميع البشر بقدرٍ من الجمال، كما يوجد أشخاص من المثليين، وهلمّ جرّا.

تخبرنا المديرة في مصرف جي بي مورغان أن هذا بالتحديد هو واحد من الأسباب التي دفعت بشركتها إلى أن تضع موضع التنفيذ «التدريب الإجباري على التحيزات غير الواعية». وهنالك إجماع في العموم على ضرورة تعميم مثل هذا التدريب مؤسسياً على نطاق واسع. إن أدمغتنا تتصف بدرجة عالية من التشابك والتهيئة المسبقة إلى حدٍّ أننا لا ندرك أحياناً التحيزات والأحكام المسبقة التي قد تكبو كامنةً في تجاويفها الخلفية. يمكن هذه التحيزات المتأصّلة أن تقودنا إلى تفضيل الرجال على النساء (أو بالعكس بطبيعة الحال)، أو إلى تفضيل شخص على آخر تبعاً للون البشرة. قد يرجئ البعض توظيف شخصٍ بسبب دينه أو جنسانيته. لذلك يهدف وجود «التدريب على التحيزات غير الواعية» في مصرف جي بي مورغان، وفي عدد متزايد من المصارف والمؤسسات المالية وغيرها من الشركات الخاصة والعامة، إلى إعادة تشكيل المواقف وإتاحة المجال أمام أولئك الذين يخضعون لمثل هذه التدريبات لتعديل أحكامهم المسبقة العفوية، وضبطها، وتصحيحها.

إحدى الغرائب المذهلة التي تسم هذه المناقشة الجارية هو اليقين بأنّ قراء Daily Telegraph سيكرهون كل هذا حتماً. تعد Daily Telegraph في بريطانيا صحيفةَ اليمين المحافظ. ويمكننا القول إن قراءها يميلون إلى حدٍّ بعيد إلى بقاء الوضع في العالم على ما هو عليه، أكثر من ميلهم إلى التغيير؛ في المقابل، يقع التدريب على التحيز غير الواعي في رأس قائمة الأمور التي من شأنها أن تحول دون بقاء الوضع على حاله. هنا يكمن جوهر هذه العملية ككل، هي تهدف إلى إحداث تحول

جذري. ولقد احتلت موقعاً مركزياً ليس في الصحف المحافظة والشركات الرائدة في وول ستريت كما في مدينة لندن فحسب، بل في قلب الحكومة بذاتها أيضاً. في العام 2016، قال مكتب إدارة الموارد البشرية التابع للحكومة الأمريكية إنه يخطط لإخضاع جميع موظفيها لتدريب التحيز غير الواعي. وهي قوة تعمل تبلغ 2.8 مليون شخص. كما تعهدت الحكومة البريطانية بتولي عمليات مماثلة من التدريب على التحيز والتنوع، تشمل الجميع.

تختلف الخطط التدريبية المتبعة اختلافاً طفيفاً في ما بينها، لكنها تستلهم جميعاً من مشروع هارفارد لاختبار التداعيات الضمنية (Implicit Association Test). منذ تفعيله على الإنترنت عام 1998، أجرى الاختبار على موقع جامعة هارفارد أكثر من ثلاثين مليون شخص، بغرض استكشاف ما إذا كانوا يؤوون في أعماقهم تحيزاً غير مقصود أم لا[107]. يسعى اختبار التداعيات الضمنية إلى تمييز الأشخاص الذين يمكن تصنيفهم باعتبارهم ينتمون إلى «مجموعات تفضيلية داخلية» عن أولئك الذين يمكن تصنيفهم بانتمائهم إلى «مجموعات تفضيلية خارجية». وهو اختبار واسع الحضور في الكتابات الأكاديمية حيث جرى اقتباسه لآلاف المرات، فصار بلا شك مقياس «التحيز غير الواعي» الأكثر تأثيراً على الإطلاق.

أضف إلى ذلك أنّ هذا الاختبار أدى إلى نشوء صناعة كاملة. عام 2015، أعلنت «الجمعية الملكية للفنون» في لندن عن قيامها بدورات تدريبية لأعضاء لجان الانتقاء والتعيين بغرض التصدي لتحيزاتهم غير الواعية ومعالجتها. وأطلقت المنظمة تسجيل فيديو يشرح آليات القيام بذلك، أوصت من خلاله بأربعة إجراءات رئيسة ينبغي اعتمادها وهي: تعمّد إبطاء عملية اتخاذ القرار، وإعادة النظر في الأسباب الدافعة إلى اتخاذ القرار، ووضع الصور النمطية الثقافية

(107) United States Office of Personnel Management, 'Government-wide Inclusive Diversity Strategic Plan', July 2016.

موضع مساءلة، والرصد ومراقبة الأفراد التحيزات غير الواعية لدى بعضهم البعض. كلّ هذا يقتضي ضمناً مجموعة معينة من المآلات. على سبيل المثال، في حال وضع إحدى الصور النمطية الثقافية موضع مساءلة، فهل سيكون متاحاً وممكناً التمسك بها مع ذلك؟ الإجابة هي لا على الأرجح. وفي حال عمد الأشخاص إلى مراقبة بعضهم البعض لتحرّي التحيزات غير الواعية ولم يجدوا منها شيئاً، فهل يُعدّ هذا نجاحاً أم فشلاً؟ أهو علامة على فضيلة تفوق التصور، أم على فشلٍ في كشف علامات التحيز، أم على حالة غش يمارسها الجميع؟ وحين يجري الكلام على «مساءلة» الواقع من خلال دورات التدريب على التحيزات غير الواعية، يبدو أنّ دلالة الأمر لا تقف عند حدود «مساءلة» الأشخاص، بل تتعدى ذلك إلى «تغييرهم».

من ناحية أخرى، يعرف كلّ من اضطر يوماً إلى إجراء مقابلات مع أعداد كبيرة من الأشخاص المتقدمين إلى أي نوع من أنواع الوظائف أنّ جزءاً كبيراً من سيرورة الاختيار هذه يتأثر بقوة بـ «الانطباعات الأولى». نسمع كثيراً شعارات كمثل «لن تحظى أبداً بفرصة ثانية لتكوين انطباعٍ أوّل»، ولعلّ السبب الرئيس وراء وجود عبارات كهذه هو الإجماع على صحّتها وعلى نطاق واسع. لا يقتصر الأمر على مظهر الأشخاص أو كيفية ارتدائهم ملابسهم أو درجة ثبات أيديهم عند المصافحة، بل يتعلق أيضاً بمجموعة كاملة من الإيماءات والانطباعات الأخرى التي تصدر عن الفرد. وتنطوي الاستجابات لها بالفعل على حكم مسبق واتخاذ قرار مستعجل، وهو أمر ليس بالسيء في مطلق الأمر.

على سبيل المثال، يرتاب معظم البشر بشكل عفوي تماماً من ذوي النظرات الخفية المتقافزة والتي لا يبدو أنّ لها القدرة على الثبات في مكان واحد. هل نعتبر هذا التحوط «تحيزاً»، أم أن بالإمكان تبريره على اعتبار أنه مبني على غريزة تطورية قد لا يكون من الحكمة تجاهلها؟ لنأخذ مثالاً آخر أكثر تحديداً، ما الذي ينبغي أن يشعر به أحد أصحاب الشركات الصغيرة في أثناء مقابلة عمل مع امرأة في أواخر

الثلاثينيات من عمرها، وقد تولد لديه انطباع بأن من المحتمل جداً أن تعيش تجربة حمل خلال السنوات القليلة المقبلة؟ جليٌّ أن قانون العمل يمنع القائم على إجراء المقابلة من الخوض في هذا الأمر، لكن بإمكاننا مع ذلك الاقتراض بأن لدى صاحب العمل تحيزّاً غريزياً ضد مرشحة كهذه. قد يطمح القانون إلى تغيير الأمر بمنعه مسبقاً. لكن تحيز صاحب شركة صغيرة ضد توظيف امرأة من المحتمل ألا تعمل إلا لمدة قصيرة ثم تترك العمل في إجازة أمومة، وبالتالي تضع على الشركة عبء تكلفة إجازة الأمومة مقابل عمل قد لا تعود إليه مطلقاً في ما بعد؛ لا يمكن اعتباره تحيزاً غير عقلاني تماماً.

قد يقود اختبار أحكامنا المسبقة غير الواعية إلى اجتثاث بعضٍ من التوجس المتأصل في بعض الأشخاص المنتمين إلى خلفيات بيئية معين، أو في أوساط النساء صاحبات السلطة، أو إلى أمور أخرى عديدة. لكنه قد يؤدي في المقابل إلى حالة من عدم الثقة في فطرتنا الغريزية فحسب. ومثلما يمكن الغريزة أن تقود الأفراد في الاتجاه الخاطئ في بعض الأحيان، كذلك يمكنها في أحيان أخرى أن تكون المؤشر الوحيد الصحيح بحوزتهم.

أضف إلى ذلك أننا عرضة لتغيّر في المزاج بين يوم وآخر، وهو أمر لاحظه بالفعل الأشخاص الذين خضعوا لاختبار التداعيات الضمنية. والحال فإن النقد الذي تعرضت له فكرة التحيزات الضمنية وصل حداً عبّر معه عدد من مصممي اختبار هارفارد، والذي صار فعلياً أداة القياس الرئيسة لهذه التحيزات، عن قلقهم في شأن الأغراض الذي جرى استخدام عملهم لأجلها. منذ نشره في عالم الأعمال والإدارات الحكومية والأوساط الأكاديمية، وفي أماكن أخرى متنوعة تزداد يوماً بعد يوم؛ أقرّ اثنان من بين المبتكرين الثلاثة للاختبار، وبشكل علني، أنه غير قادر على الوصول بدقة كافية إلى المضامين التي يزعم اختبارها. وصرّح واحد من بينهم على الملأ، وهو بريان نوزيك Brian Nosek من جامعة فرجينيا، بحدوث سوء تقدير لدرجة موثوقية التقويمات الناتجة من هذا الاختبار. كما أشار إلى وقوع «خطا

في تفسير عمله». وقال في معرض تعقيبه على محاولات إثبات تحيزات الأفراد: «يوجد بعض الاتساق لكنه ليس اتساقاً كبيراً. ليست أذهاننا على هذه الدرجة من الاستقرار»[108]. علاوة على ذلك، يجري التوصل باستمرار إلى أدلة تؤكد أن لا شيء من كل هذا يبدو فاعلاً حقيقةً على مستوى الممارسة العملية. على سبيل المثال، لا تؤدي زيادة أعداد النساء في لجان الاختيار إلى رفع حظوظ المرأة في الحصول على وظيفة[109].

ها نحن ذا أمام مجال كامل لم يخضع للدراسة بما يكفي بعد، لكن جرى نشره مع ذلك، وعلى نطاق واسع، على مستوى الإدارات الحكومية وفي مجال الأعمال. هل ستكون آثاره محمودة العواقب؟ وهل ستقتصر تكاليفه على النفقات الهائلة لتوظيف خبراء مهمتهم إرشاد العامّة في هذا المجال الذي لا خبرة لهم فيه؟ أم أنّ هذه المحاولات التي تسعى إلى إعادة تشكيل دماغ كل موظف حكومي وكل فرد في مجال الأعمال ستؤدي إلى تداعيات لم يجرؤ أحد بعد على تصورها؟ من يعلم!

إذا ما بدا التدريب على التحيزات الضمنية على هيئة نظرية لم يكتمل إعدادها بعد لكنها تحولت مع ذلك إلى خطة عمل مكتملة الإعداد، فإن العقيدة التي تنطوي عليها أكثر إثارة للجدل بعد. في مؤتمر «نساء في مجال العمل» تولّت مسؤولة «إدارة الموارد البشرية» في صحيفة Daily Telegraph مهمة الترويج لأهمية اتباع مقاربة تقاطع أشكال التمييز في مجال الأعمال كما على مستوى المجتمع ككل. جاء ذلك في معرض ردها على تساؤلات عدد من الحاضرات عن كيفية موضعة الأقليات العرقية واللاجئين وطالبي اللجوء في قائمة المجموعات التي

---

(108) انظر:

https://implicit.harvard.edu/implicit.

(109) أنظر:

'Can we really measure implicit bias? Maybe not', Chronicle of Higher Education, 5 January 2017; 'Unconscious bias: what is it and can it be eliminated?', *The Guardian*, 2 December 2018.

تستحق أن تحصل على بعضٍ مما يمكن تحصيله من امتيازات من أصحاب السلطة.

لعل من الضروري البدء بالإشارة إلى أن مفهوم تقاطع أشكال التمييز، وعلى الرغم من محاولاته تعريف ذاته كمفهوم علمي مكتمل الإعداد – حاله في ذلك كحال التدريب على التحيزات؛ هو وفي واقع الأمر أبعد ما يكون عن ذلك. يؤكد منشؤوه، مثل المؤلفتان والأكاديميتان النسويتان «بيل هوكس» Bell Hooks (وهو الاسم المستعار للكاتبة غلوريا جين واتكينز Gloria Jean Watkins) وبيغي مكينتوش Peggy McIntosh، بكل بساطة على أن الديموقراطيات الغربية تتضمن مجموعة من الفئات (النساء والأقليات العرقية والجنسية وغيرها) الخاضعة لاضطهاد هيكلي في إطار «مصفوفة الاضطهاد». ومن هنا فإن ما يسعى المنادون بتقاطع أشكال التمييز إلى فرضه هو في الحقيقة مشروع سياسي وليس فرعاً معرفياً أكاديمياً. يجري تصوير الأمر على أنّ مصالح أي واحدة من هذه الفئات تلتقي مباشرةً في تقاطع مع مصالح الفئات الأخرى. وعليه فإذا ما توحدت هذه المجموعات المضطهدة ضد العدو المشترك للشعب والقابع في أعلى الهرم زاعماً امتلاك السلطة، فستسير الأمور باتجاه إيجابي. أقل ما يقال في مفهوم تقاطع أشكال التمييز هذا، هو أنه لم يخضع لتفكير معمّق كافٍ. إلى جانب ما ينطوي عليه من عيوب عدة أخرى، فإنه لم يختبر بأي حال من الأحوال بطريقة ذات دلالة في أي مكان وعلى امتداد فترة زمنية كافية. كما أنه يستند إلى أساس فلسفي بالغ الهشاشة ولم يشكل موضوع بحث فكري بأي حال. قد يأتي الرد على هذه الملاحظات بالقول إنّ أموراً كثيرة لم يجر تجريبها بعد وليس لها بنية فكرية مكتملة الإعداد لتقوم عليها. وهذا صحيح، غير أنه من المعتاد في حالات كهذه أن يُنظر إلى محاولة نشر هذا المفهوم في المجتمع بأكمله، بما في ذلك كل مؤسسة تعليمية وكل مؤسسة عمل ربحية، على أنه ضرب من ضروب الغطرسة، ناهيك بما فيه من طيش وانعدام للحكمة.

على الرغم من أنّ هذه النظرية تحظى اليوم بدعم العديد من الأشخاص ممن

يشغلون مناصب مهمة وعالية الأجر، لكن أين بالإمكان القول إن مفهوم تقاطع أشكال التمييز أثبت فاعلية حقيقية؟ وكيف يقدر على ذلك؟ يكفينا في هذا الصدد أن نلقي نظرة على مجموعة القضايا غير القابلة للحل التي يطرحها، وإن يكن على مستوى قاعة اجتماع مؤتمر «نساء في مجال الأعمال» ليس إلا. فجميع النساء هنا استفدن من فرص تقدم وظيفي باهرة لعلها تتجاوز ما قد يأمل به أي شخص آخر. والسؤال هو، هل توجد واحدة من بينهن على استعداد للتخلي عن مكانها هذا لصالح شخص آخر له لون بشرة أو ميول جنسية مغايرة، أو ينتمي لطبقة اجتماعية مختلفة؛ ومتى وكيف ينبغي أن يفعلن ذلك؟ متى وكيف سيكون أي شخص قادراً على تمييز أن من حظي بأولوية عليه، واضطر لأجله أن يتراجع خطوة إلى الوراء لحثّه على التقدم، لم تكن له بدايات انطلاقته في الحياة أسهل بكثير من بداياته هو بالذات؟

في السنوات الأخيرة، ومع تزايد حضور تقاطع أشكال التمييز في مختلف القطاعات، أنتجت أماكن العمل التي سعت إلى تطبيق هذه النظرية أحجيات بالغة الغرابة. قد يختلف تسلسل اكتشافاتها أحياناً لكن الاكتشافات هي واحدة لدى الجميع. سعت الشركات في جميع المدن الكبرى إلى تبني حملات موجهة تهدف إلى ترقية النساء والأشخاص الملونين إلى مناصب أعلى. لكن ومع تزايد أعداد الشركات والدوائر الحكومية التي ينبغي عليها مراعاة الفروق في الأجور بين الجنسين وبين الأشخاص المنتمين إلى أصول عرقية مختلفة؛ تنشأ مشكلات مذهلة. في المملكة المتحدة، تُلزَم جميع الشركات التي تضم أكثر من مئتين وخمسين موظّفاً بنشر متوسط الفروق في الأجور لديها بين الرجال والنساء. في عام 2018، اقترح أعضاء البرلمان قانوناً يقضي بإلزام الشركات التي تضم أكثر من خمسين موظّفاً تقديمَ المعلومات ذاتها[110]، الأمر الذي سيستتبع نتائج عدة، من بينها

(110) Odette Chalaby, 'Your company's plan to close the gender pay gap probably won't work', *Apolitical*, 22 May 2018.

ضرورة إنشاء بيروقراطية كاملة لتنظيم مجموعة جديدة من المشكلات والتعامل معها.

أعرض في ما يأتي مثالاً لقضية تحمل مغزىً واضحاً في هذا الصدد، وهي تخص إحدى معارفي في بريطانيا وإن كنت سأتجنب إيراد اسمه صراحةً. حصل هذا الشخص مؤخَّرا على وظيفة في إحدى الشركات البريطانية الكبرى، وبراتب ممتاز منذ بدء التعيين. بعد مضي وقت قصير من توليه العمل، تلقى هذا الشخص طلباً محرجاً من رؤسائه في العمل، ومضمون الطلب هو تساؤل عما إذا كان مستعداً للقبول براتب أعلى من ذاك الذي عُرض عليه في البداية؟ كانت الشركة تقترب من موعد انتهاء سنتها المالية، وجاء مقترحها هذا في إطار مسعاها لتلبية العدد اللامحدود من الرسوم البيانية وضروب التحليل والتقسيم المتعلقة بالحصص العرقية والجندرية في الشركة؛ إذ اكتشفت المؤسسة بكثير من الاستياء والفزع أن «الفجوة» بين أجور الأشخاص المنتمين إلى الأغلبية العرقية والأشخاص المنتمين إلى الأقليات العرقية في الشركة لم تجرِ سدّها بدرجة كافية. من هنا جاء المقترح بأن يقبل هذا الشخص بالذات رفعَ أجره بشكل كبير جداً بما يكفي لتلبية متطلبات الفروقات في نهاية السنة؟ ولأنه إنسان حكيم وعاقل تماماً، وافق الموظف المعني بكل ترحاب على إعطائه راتباً أعلى ليساعد بذلك رؤساءه على تدبّر هذا الموقف المعقّد.

قد يكون هذا مثالاً مثيراً للسخرية للغاية عما يمكن أن تقود إليه هذه الحالة من الهوس بالمحاصصة. لكننا نجد هنا وهناك في مختلف الشركات والمؤسسات العديد من الأمثلة الأكثر واقعية والتي تعكس الحالة ذاتها. على سبيل المثال، سرعان ما تتوصل كل شركة تبذل جهوداً متضافرة لترقية الملونين أو النساء أو الأقليات الجنسية إلى صيغة ما من الاكتشاف التالي: من المرجح أن يكون أولئك الذين استفادوا من الترقية هم أنفسهم من أصحاب الامتيازات النسبية. ففي حالات كثيرة – وليس في جميع الحالات بطبيعة الحال – يستفيد من هذا النوع من

الترقية أشخاص سبق ومنحهم النظام القائم امتيازات وتفضيلاً في السابق. قد يكون من بينهم نساء من بيئات ميسورة الحال، ممن تلقّين تعليمهن في المدارس الخاصة والتحقن بأفضل الجامعات. هل كنّ بالفعل بحاجة إلى دعم لدفعهن قدماً؟ ربما... لكن على حساب من؟

وبالمثل، تبيَّن أن الموجات الأولى من الأقليات الجنسية والعرقية التي استفادت من «التمييز الإيجابي» الهادف إلى «تنويع» بيئة العمل، لم تشتمل على نساء ورجال من المنتمين إلى أكثر الفئات المضطهدة استهدافاً. وهي ظاهرة تشبه إلى حد بعيد ما يحدث في الأحزاب السياسية. حين سعى الحزب المحافظين البريطاني إلى زيادة عدد نوابه من الأقليات العرقية، تدبّر أمره لتعيين عدد من الأفراد من ذوي الموهبة المتميزة. وكان من بينهم نائب واحد على الأقل أسود البشرة كان قد تلقى تعليمه الثانوي في إيتون[111] Eton، وآخر يرتبط بقرابة لصيقة بنائب رئيس نيجيريا. أما حزب العمال، فقد اختار من بين مرشحيه إلى البرلمان امرأة ترتبط بقرابة لصيقة برئيسة وزراء بنغلادش.

ينطبق حال السياسة هذا على حال الشركات في القطاعين الخاص والعام. قد يؤدي تسريع التنوع من خلال تعقّبه على نحو لصيق إلى تقديم الدعم والتعزيز لأشخاص كانوا قد اقتربوا أساساً من الوصول إلى هدفهم، وغالباً ما يكون هؤلاء من بين الأشخاص الأكثر امتيازاً في أي مجموعة اجتماعية، بما فيها المجموعة التي ينتمون إليها. تشهد مختلف الشركات التي تبنت نهج التوظيف هذا عبر أنحاء أوروبا وأمريكا سيرورة متماثلة للمسألة، وحكاية واحدة مشتركة، وإن يكن الحديث عنها لا يتعدى الهمس غير المعلن. إذ يدرك الأفراد في مثل هذه الشركات تدريجاً حقيقة التكلفة التي تترتب على تبني هذا النهج، والتي تنعكس على الشكل التالي: في حين تمكنت الشركات من زيادة الحركية الوظيفية للنساء والأقليات العرقية، فإن المصعد الاجتماعي من جانبه علق تماماً في حالة استعصاء. كل ما

(111) 'Smaller firms should publish gender pay gap, say MPs', *BBC News*, 2 August 2018.

فعلته في المحصلة إذاً لم يتعدَّ بناء تراتبية هرمية جديدة.

لا تتصف التراتبيات الهرمية بالثبات. فأشكال التراتبية القائمة اليوم لم تكن هي ذاتها في الماضي، وليس من المرجح أن تبقى على حالها في المستقبل. حقق أنصار تقاطع أشكال التمييز والتدريب على التحيز، وإلى ما هنالك من نماذج مشابهة، إنجازات استثنائية في سرعة حدوثها. ولعل أكبر دليل على نشوء نوع جديد من التراتبية الهرمية هو تدفق هذه الأفكار مباشرةً إلى عالم شركات الأعمال. لهذا النوع الجديد من التراتبية – كحال كل أشكال التراتبيات الهرمية – طبقته المضطهِدة وطبقته المضطهَدة، وفيها أولئك الذين يسعون لأن يتصفوا بالفضيلة والاستقامة، وآخرون (رؤساء مكاتب الموارد البشرية) مسؤولون عن تنوير من يلزمه بعض التوجيه. في وقتنا الحاضر، يبدو أن هذه الفئة الكهنوتية الجديدة تحظى بانطلاقة جيدة في شرح رؤيتها للطريقة التي ينبغي أن يسير العالم وفقها.

بيد أنّ هذه النظريات تنطوي على مشكلة كبرى لا تقتصر على واقع أنها استُدمجت في المؤسسات من دون إخضاعها لتفكُّر كافٍ أو لسجلات متابعة حافلة بالنجاحات فحسب، بل تكمن المشكلة الكبرى في استمرار تأسيس هذه المنظومات الجديدة على أسس هويات مجموعات ما زلنا غير قادرين على فهمها ولو في الحدّ الأدنى. هي منظومات منبنية إذاً على أسس لا يوجد أي اتفاق مجمع عليها بأي حال. تماماً كما هو حال قضية العلاقات بين الجنسين، وكذلك القضايا التي اعتدنا في ما مضى أن ندرجها تحت مسمى «النسوية».

هذه الموجة النسوية الأخيرة

ينبع هذا التشويش جزئياً من النجاح الهائل الذي حققته موجتا النسوية الأولى والثانية، ومن كون الموجات اللاحقة عانت بشدة من أعراض «متلازمة القديس جورج المتقاعد».

من الصعوبة بمكان الوصول إلى تحديد دقيق لتوقيت حدوث كل واحدة من

الموجات النسوية، ويرجع ذلك إلى حقيقة أنها حدثت في أوقات وأماكن مختلفة. لكن من المتفق عليه عموماً إرجاع تاريخ حدوث الموجة النسوية الأولى إلى القرن الثامن عشر. واستمرت هذه الموجة حتى تاريخ صدور قانون حق المساواة الانتخابية في بريطانيا[112] في بعض التقديرات، وحتى ستينيات القرن العشرين في تقديرات أخرى. اتّسمت هذه الموجة الأولى بالتحديد الدقيق لما تطمح إليه وبعمق مطالبها. بدءاً من ماري وولستونكرافت Mary Wollstonecraft ومروراً بحملة المطالبة بحق الاقتراع، تحددت مطالب الموجة النسوية الأولى بالدعوة إلى حقوق قانونية متساوية. حق الاقتراع بطبيعة الحال، وإلى جانبه حقوق أخرى كالحق في طلب الطلاق، وحق المساواة في الوصاية على الأطفال وفي الميراث وفي الملكية. استغرق الكفاح من أجل الحصول على هذه الحقوق طويلاً، لكنه كان ناجحاً تماماً.

لاحقاً، تولّت الموجة النسوية التي بدأت في ستينيات القرن العشرين معالجة الأولويات التي كانت قد بقيت من دون حلول في ما يتعلّق بهذه الحقوق الأساسية. فتناولت قضايا كمثل حق المرأة في ممارسة المهنة التي ترغب فيها وفي الحصول على الدعم اللازم لتحقيق أهدافها. في أمريكا، دافعت بيتي فرديان Betty Friedan وحلفاؤها لا عن حق المرأة في التعليم فحسب، بل عن الحق في إجازة الأمومة والدعم في رعاية أطفال المرأة العاملة. جادلت هؤلاء النسويات من أجل الحقوق الإنجابية متمثلة في وسائل منع الحمل والإجهاض، ومن أجل سلامة النساء أكان في إطار العلاقة الزوجية ذاتها أم خارجها في وجودهن عموماً. كان هدف هؤلاء النسويات هو الإسهام في إيصال النساء إلى مرحلة يتمتعن فيها بفرص مكافئة للرجال في حياتهن الشخصية والمهنية.

بعد نجاحها في تنظيم موجتين أو ثلاث (تبعاً لاختلاف أماكن حدوث الموجات

---

(112) Equal franchise act : قانون المساواة في الامتياز، صدر عن برلمان المملكة المتحدة عام 1928 ومنح المرأة المساواة الانتخابية مع الرجل. (م)

وكيفية عدّها) على امتداد قرنين أو ثلاثة، انقسمت الحركة النسوية بحلول الثمانينيات واختلفت في شأن قضايا ثانوية مثل تحديد موقف النسوية من المواد الإباحية. ظهرت هنا مجموعات من النسويات ممن يوصفن غالباً بنسويات الموجة الثالثة، واللواتي تبنّين أسلوباً خطابياً لافتاً بقوته، تماماً كحال نسويات الموجة الرابعة اللواتي تبعنهن بسرعة في العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين. لعله كان من المتوقع من النسويات، بعد تجاوز المعارك الكبرى من أجل المساواة بنجاح، أن يتوصّلن بسهولة إلى حلول لبعض القضايا العالقة المتبقية. وأن تدفع بهن حقيقة وصول واقع المرأة إلى أفضل حالاته على الإطلاق إلى تعديل حدة خطابهن بما يتوافق مع هذا الواقع.

لكنّ شيئاً من هذا لم يحدث. باتت النسوية على مدار العقود الأخيرة مثالاً للحركة التي ما إن نجحت في تحقيق أهدافها، حتى خرجت عن مسارها بعد أن جرفتها سرعة حركة غير منضبطة. بدءاً من سبعينيات القرن الماضي، ترسّخ خطاب جديد في المعسكر النسوي، يرتكز إلى عدد من الموضوعات المتمايزة. أولها هو أن الهزيمة باتت وشيكة الوقوع، تماماً قبل وصول خط فوز النهاية بلحظات.

في عام 1991، نشرت سوزان فالودي Susan Faludi كتابها الموسوم بـ Backlash: The Undeclared War Against American Women [انتكاسة: الحرب غير المعلنة ضد النساء الأمريكيات]. وفي العام التالي، كررت مارلين فرينش Marilyn French (مؤلّفة كتاب The Women's Room [مرحاض النساء] الذي كان على رأس مبيعات الكتب لعام 1977) العملية ذاتها في مؤلَّفها المعنون The War Against Women [الحرب ضد النساء]. ازدهرت هذه الكتب الناجحة للغاية بالاستناد إلى فكرة أساسية مفادها أنّه بالرغم مما تحقق من حقوق، فإن حملة منسقة تجري الآن لتقويض ما أنجِز من تقدم. تجادل كلٌّ من فلودي وفرينش أنّ المساواة لم تتحقق، لكنّ احتمالية تحققها بالفعل ولّدت لدى الذكور استجابةً حتمية تستهدف سلب الحقوق التي تم اكتسابها. من المفيد والجدير

بالملاحظة إعادة النظر في تلك الأعمال على مسافة ربع قرن من الزمن، ذلك أنها باتت وعلى حدٍّ سواء عادية تماماً في حدّة خطابها، ومشوّشة تماماً في ادّعاءاتها.

في كتابها الأكثر مبيعاً عالمياً، بيّنت فالودي أن «الحرب غير المعلنة ضد النساء» موجودة تقريباً في كل مفصل من مفاصل الحياة في المجتمعات الغربية. هكذا لمستها في وسائل الإعلام والأفلام، وفي التلفاز وفي الملابس. ولحِظتها كذلكَ في الأوساط لأكاديمية وفي السياسة، كما في الاقتصاد وعلم النفس الرائج. وأكّدت على أن ما نشهده هو حالة من «الضغط المتزايد لإيقاف السعي إلى تحقيق المساواة، لا بل قل لوقفه». حملت هذه الانتكاسة في طياتها العديد من التناقضات الواضحة. إذ اتسمت بكونها حركة منظمة و«غير منظمة» في آن. والواقع أنّ «الافتقار إلى التنسيق» غيّم على الرؤية فـ«عزز من صعوبة الفهم – ولعله أدى كذلك إلى زيادة الفاعلية». على امتداد العقد الماضي الذي شهد تخفيضات في الإنفاق العام في بلدان مثل المملكة المتحدة، (بتحريض من رئيسة وزراء أنثى بالطبع)، «تحركت الانتكاسة عبر الغرف السرية الشائكة للثقافة، عبر ممرات غير مرئية مجبولة بالإطراء والخوف»[113]. من خلال هذه الوسائل وما يشابهها، بدت الحرب ضد النساء صريحةً واضحة، بقدر ما هي خفية ماكرة؛ ما دفع بـ فلودي لأن تتولى مهمة تبيانها.

من جانبها أعلنت فرينش في بداية كتابها عن «وجود أدلّة» تثبت أنّ النوع البشري عاش على امتداد نحو ثلاث ملايين ونصف مليون من السنوات في حالة من المساواة بين الرجل والمرأة، لا بل كان الوضع يتجاوز مجرد المساواة، إذ يظهر أنّ مكانة المرأة في تلك المراحل كانت أعلى من مكانة الرجل. ثم خلال السنوات العشرة آلاف الأخيرة، عاش نوعنا ظاهرياً حالةً من «التناغم المساواتي والرفاه المادي» الذي اقترن بتكافؤ معقول بين الجنسين. لكن بدءاً من الألفية الرابعة قبل

(113) Susan Faludi, *Backlash: The Undeclared War Against Women*, Vintage, 1992, pp. 16–17.

الميلاد – وفق ما تخبر به فرينش قرّاءها – بدأ الرجال في بناء «النظام الأبوي»، وهو نظام تعرّفه على أن «سيادة ذكورية مستندة إلى القوة». عاشت النساء حالةً من «الانحدار المستمر منذ ذلك الحين». لدينا معلومات عن أنّ النساء شكّلن «على الأرجح» أول مجموعات العبيد، ودخلن منذ ذلك الحين في حالة تزداد حدّتها يوماً بعد يوم من «العجز والتدهور والقهر». وتؤكد فرينش إن هذا الوضع خرج عن السيطرة تماماً خلال القرون الأربعة الماضية، مع محاولات الرجال («في الغرب بشكل رئيس») «إحكام سيطرتهم على الطبيعة وعلى أولئك المرتبطون بالطبيعة – أي الملونون والنساء»[114].

وبعد التأسيس لتعريفها النسويةَ باعتبارها «كل محاولة لتحسين وضع أي مجموعة من النساء من خلال التضامن الأنثوي وعبر المنظور الأنثوي»، تؤكد فرينش أن الرجال «بوصفهم طبقة مغلقة... يواصلون محاولاتهم الهادفة إلى هزيمة النسوية»، فيسعون إلى القضاء على انتصاراتها (وتورد في هذا الصدد مثال «الإجهاض القانوني»)، ويعملون على وضع «سقف زجاجي» يحدّ من الصعود المهني للنساء، وعلى خلق حركات هدفها العودة بالنساء إلى «وضع التبعية الكاملة». هذه بعض المناحي التي توردها باعتبارها ترقى إلى مستوى «حرب شاملة ضد النساء»[115].

ثم تعلن فرينش أنّ «الأساس الوحيد للتضامن الذكوري هو معارضة النساء»[116]، متجاهلةً بذلك قدراً لا بأس به من الأدلة التي تشير إلى عكس ذلك تماماً، ومن دون إظهار أي تردد في ما يخص التثبيت الماهوي أو إطلاق التعميمات على النصف الذكري من النوع البشري. كما أنها تنظر إلى المطالب النسوية باعتبارها أيضاً بالغة الوضوح والبساطة، فتحدي النسويات «النظامَ الأبوي» هو بكل بساطة تعبير عن مطلب «أن تعامل [المرأة] كبشر له حقوق»، مع كل ما

---

(114) Marilyn French, *The War Against Women, Hamish Hamilton*, 1992, pp. 1–2.
(115) المرجع نفسه، ص 5-6.
(116) المرجع نفسه، ص 7.

ينطوي عليه هذا من مطالبات «بألا يشعر الرجال بامتلاك حرية ضرب [النساء] وقتلهن واغتصابهن وتشويههن وقتلهن»[117]. أي نوع من الوحوش يمكن له أن يعارض هذا؟ ومن هم أولاء أعضاء النظام الأبوي الذين يشعرون بأن لهم الحرية في ضرب واغتصاب وتشويه وقتل النساء؟

وفق محاجة فرينش، كيفما نظرنا إلى الأمر فإننا سنجد أنّ المشكلة هي الرجال. إذ مع كل خطوة تقدّم تحققها النساء، يخرج إلى الواجهة رجال «يحشدون كلّ قواهم لهزيمة هذا التحدي». ليس عنف الذكور ضد النساء مجرّد حادثة، أو نتاجاً ثانوياً لبعض العوامل الأخرى (ناهيك بالعديد من العوامل المحتملة). بل إن «كل عنف ذكوري ضد المرأة هو جزء من حملة متفّق عليها»، وهي حملة تنطوي في طياتها على «الضرب والسجن والتشويه والتعذيب والتجويع والاغتصاب والقتل»[118].

إن لمن الخطورة بمكان أن يُدفَع الرجال إلى مثل هذه الأعمال كجزء من حملة مستمرة أكثر اتساعاً تهدف إلى هزيمة النساء، لكن الأخطر من ذلك من وجهة نظر فرينش، هو أن الرجال ينظمون أنفسهم بأساليب أخرى أيضاً، بغرض «ضمان بقاء النساء مستضعفات في كل مجال من مجالات الحياة». يبدو أن الرجال يطبقون ذلك من خلال حروب ممنهجة ضد النساء في كل المجالات التي قد تخطر بالبال، بما في ذلك التعليم والعمل والرعاية الصحية والقانون والجنس والعلوم، بل وقد تأخذ المواجهة شكل «حرب ضدّ النساء والأمهات»[119].

أما الإساءة الأخيرة، بحسب وصف فرينش، فتتمثل في أنّ على النساء الانشغال لا بالحرب ضدهن فحسب، بل بالحرب بشكلٍ عام. فالحرب، بمعناها الحرفي والفعلي وغير المجازي، تشكّل بدورها مشكلةً للمرأة؛ وهي في حدّ ذاتها معادية

(117) المرجع نفسه، ص 9.

(118) المرجع نفسه، ص 14.

(119) المرجع نفسه، ص121-155.

للنساء[120]. تحمل لغة الحرب وأفعالها صفة الفعل الذكوري، وهي بذلك مُصمَّمة لمناهضة النساء. ذلك أن النساء – بحسب ما نتوصل إليه بوضوح في ختام كتاب فرينش – هنّ تجسيد السلام. وفي حين يشن الرجال الحروب، تتولى النساء مجموعة من الحركات من مثل حركة «نساء ضد البنتاغون» لعام 1980 والتي طوّقن فيها البنتاغون معلنات أنّ «النزعة العسكرية هي نزعة متحيّزة ضد المرأة»، و«مخيم السلام للنساء في غرينهام كومون ببريطانيا». إليكم إذاً الأخبار السارّة، تكشف فرينش في الخاتمة المثيرة لكتابها عن أنّ «النساء يقاومن على جميع الجبهات»[121].

يضمّ كتاب فرينش في طيّاته العديد من الادّعاءات المتحيّزة واللاتاريخية. وبمجرّد أن أسست للباراديغم الخاص بها، صارت قادرةً على إدراج ما شاءت تقريباً فيه. لكن أكثر ما يلفت النظر هو إصرارها على هذا التقسيم الثنائي: كلّ جيّد هو أنثى، وكلّ سيء هو ذكر.

نجحت كلٌّ من فرينش وفلودي وأخريات غيرهن، نجاحاً باهراً في ترسيخ هذه الفكرة. كما أرسين دعائم نموذج يقوم على أنّ نجاح المحاجات النسوية بات يرتكز بالضرورة على ادّعاءات يجري تحريفها وتضخيمها. أدى كل هذا شيئاً فشيئاً إلى احتلال المزاعم الأكثر تطرّفاً موضع الصدارة باعتبارها هي القاعدة. ولم يقتصر الأمر على المزاعم الأكثر تطرّفاً في شأن الرجال، بل في ما يخصّ النساء أيضاً. فبتنا نلحظ تلميحاً إلى مثل هذه المزاعم في كلّ جانب من جوانب الادّعاءات التي تبنّتها الموجات الجديدة من النسويات. على سبيل المثال، زعمت نعومي وولف Naomi Wolf في كتابها المعنون The Beauty Myth [أسطورة الجمال]، والذي صدر عام 1990 وحقق نجاحاً باهراً؛ أنّه بالرغم من حقيقة أن

---

(120) المرجع نفسه، ص 159 وما يليها.

(121) المرجع نفسه، ص 210-211. وبالمناسبة، فإن موضوع "المرأة باعتبارها تجسيدًا للسلام" له نسبٌ كبير. أنظر على سبيل المثال:
Olive Schreiner's *Woman and Labour* (1911).

الإنجازات والتحليلات النسوية انطوت على فوائد كان من شأنها تحسين أوضاع النساء مقارنة بكل مراحل الماضي السابقة، بيد أنهن تحطّمن تماماً من مناحٍ أخرى. وحاولت الادّعاء في كتابها هذا أن أمريكا وحدها تسجِّل نحو مئة وخمسين ألف وفاة لامرأة سنوياً بسبب اضطرابات تغذية مرتبطة بمرض فقدان الشهية العصابي Anorexia. أظهر عدد من الباحثين لاحقاً، ومنهم كريستينا هوف سومرز Christina Hoff Sommers، حجم المبالغة الحادة في الرقم الذي أوردته وولف، والذي يتجاوز الأرقام الحقيقية بمئات[122]. صارت المبالغة والنزعة الكارثية علامة فارقة معتادة تماماً في أوساط النسويات اللواتي يلقين تشجيعاً عليها.

أضف إلى كل ما سبق أنّ هذه المرحلة من النسوية استدمجت مسألة أخرى هي عبارة عن شكل من أشكال التحيز وكراهية الرجال. وهي حالة حضرت في أوساط العديد من الأفراد خلال موجات النسوية السابقة، لكنها لم تكن مهيمنة كحالها مؤخّراً، ناهيك بأن تحقق انتصاراً. في مرحلة ما من العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين، شهدنا ما يُعتقد أنه تحول في الموجة النسوية الثالثة انتقل بها إلى موجة رابعة بفعل ظهور وسائل التواصل الاجتماعي. والحال أنَّ الموجة النسوية الرابعة هي الموجة الثالثة ذاتها وقد أضيفت إليها تطبيقات الإنترنت. أظهرت كل هذه الموجات من دون قصد منها الآثار المشوِّشة التي قد تتركها وسائل التواصل الاجتماعي، لا في المناقشات وحدها، وإنما في حركةٍ ما ككل.

لنتأمل قليلاً في المشهد الذي وقع في شهر فبراير من عام 2018، حين ظهرت النسويات في حملة جديدة على tweeter لترويج شعارهن الجديد المفضَّل. «الرجال زبالة» هو الترتيب الأحدث للكلمات الذي خرجن به بغرض إقناع المزيد من الناس بالوقوف إلى جانبهن. تحاول نسويات الموجة الرابعة أن تجعل من عبارة «جميع الرجال زبالة» أو من مجرد القول «الرجال زبالة» ترنداً واسع الانتشار

---

(122) انظر على سبيل المثال:
Christina Hoff Sommers, *Who Stole Feminism? How Women Have Betrayed Women*, Simon & Schuster, 1995, pp. 11–12.

على وسائل التواصل الاجتماعي. من بين أولئك اللواتي أطلقن الحملة الهجومية، الكاتبة البريطانية من الموجة النسوية الرابعة لوري بيني Laurie Penny، ولها عدد من الكتب المجمّعة من كتاباتها في المدوّنات، بما في ذلك كتابها الصادر عام 2017، بعنوان لا يخلو من جاذبية! «مذهب العاهرة». في شهر فبراير من عام 2018، غرّدت بيني على tweeter قائلةً: «الرجال زبالة، هذه عبارة أعشقها، لأن تنطوي على معنى الهدر»[123]. ومضت في شرحها لتوضّح أنّ جمال العبارة يتعلّق بحقيقة أنّ «الذكورة السامة تهدر كثيراً من الإمكانات البشرية... آمل أننا على أعتاب برنامج إعادة تدوير عملاق». وختمت عبارتها هذه بهاشتاغ «أنا أيضاً»، ورمز تعبيري ليدين مرفوعتين تلوحان في الهواء.

كما يحدث كثيراً في حالات كهذه، سرعان ما ظهر واحد من متابعي الإنترنت ليسأل عما إذا كانت قد تعرّضت إلى مشكلات في علاقتها بوالدها لكي يصل بها الأمر حدّ إطلاق عبارات كهذه. هنا، وكما يحدث كثيراً أيضاً، غيرت بيني وجهتها بغمضة عين. «كان والدي في الواقع رجلاً رائعاً، ومصدر إلهام كبيراً. توفي منذ بضع سنوات. كم نفتقده جميعاً». لكنّ القارئ عاد إلى تعزيز طرحه متسائلاً: «أكان سامّاً؟». هنا جاءت ردة فعل بيني على شكل توبيخ للقارئ على «قسوته»، وتابعت بملامة: «من غير اللائق إبداء ملاحظات حيال الوالد المتوفى لأحدٍ ما». ما يدلّ على أنّ مسار الكلام تطور نحو التالي: «كلّ الرجال زبالة باستثناء والدي الراحل، ومن غير المسموح لك أن تأتي على ذكره». ما لبثت سردية الضحية أن تطورت أكثر فأكثر. عادت بيني إلى tweeter لتقول: «ها أنا أواجه الآن وابلاً من الإساءة والتهديدات ومعاداة السامية والهوامات بشأن موتي، وأقوال مقززة تتناول عائلتي. سرعان ما تطور ليصير مخيفاً. كلّ هذا لأنني قلت إن عبارة «الرجال زبالة» تعجبني، فهي تنطوي على إمكانٍ للتغيير. لكنّ الواقع هو أن هذه

(123) Laurie Penny (@PennyRed) on Twitter, 6 February 2018:
https://twitter.com/PennyRed/status/960777342275768320

العبارة ليست ما كتبته تماماً، بل هي عبرت عن مقدار سعادتها باستخدام عبارة تصف نصف الجنس البشري بأنه «زبالة». هي تصرفت إذاً كمتنمّرة، قبل أن تتخفى محتمية بادعاء أنها هي من تعرَّض للتنمّر. كما لو أن شطب نصف الجنس البشري هكذا بجرة قلم، لا يجوز أن يجعلها عرضةً لأي نوع من أنواع الصد.

في الواقع، لو أن بيني انتظرت بعض الوقت، لكانت قد وجدت بيسر زميلةً نسوية على درجة تامة من الجهوزية لتشرح كيف أنه ما من داعٍ بعد الآن لأن تحاول بيني شرح ما استخدمته من كلمات، أكانت ترغب في ذلك أم لا. لأن هذه الكلمات باتت تندرج ضمن قائمة ما فتئت تزداد اتّساعاً، وتضم في طياتها مفردات سحرية لا تعني في حقيقتها ما يبدو أنها تعنيه في ظاهرها.

الحرب ضدّ الرجال

في السطر التعريفي بالكاتب في موقع Huffington Post الإخباري، نجد وصفاً للكاتبة سلمى الورداني Salma El-Wardany بأنها «كاتبة مسلمة نصف مصرية ونصف إيرلندية، تجوب العالم [كذا في المصدر] لتأكل الكعك وتفكك النظام الأبوي». وفي إطار هذا التفكيك، يتبين أنّ الورداني مولعة بعبارة «كلّ الرجال زبالة». غير أنها تشرح في العنوان البارز لعمودها في الصحيفة «ما نعنيه كنساء حين نقول إنّ كل الرجال زبالة»، إذ وفقاً لرؤية هذه النسوية الكاتبة في Huffington Post، يمكن في الواقع ترجمة هذه العبارة بشكل مباشر إلى: «الذكورة تمر بمرحلة تحول، لكن الحركة اللعينة لا تجري بالسرعة الكافية».

تزعم الورداني أنّ عبارة «الرجال زبالة» منتشرة جداً في عالمها، ويمكن سماعها في كل مكان على هيئة «تمتمة هادئة تمتد تردداتها في كل أنحاء العالم... هي دعوة إلى حمل السلاح ونداء حرب». وتدعي أنك إن دخلت «أي غرفة أو مناسبة اجتماعية أو حفل عشاء أو تجمعاً إبداعياً، ستسمع هذه العبارة من أحد أركان المكان على الأقل، وستنجذب بصورة طبيعية تماماً إلى تلك المجموعة من النساء

إذ ستعرف في الحال أنك وجدت قبيلتك. هذه العبارة هي أساساً كلمة السر لنادي الـ«الاستياء من الرجال». نفهم من كل ذلك أن الكلمات هي حصيلة لصورة مكثّفة من «الغضب والإحباط والأذى والألم». وبحسب رؤية الورداني، يأتي هذا الأذى والألم من حقيقة كون النساء عرضة على الدوام لأن يسألن أي نوع من الفتيات أو النساء يرغبن في أن يكنّه، لا يسأل الرجال أبداً في ما يبدو – ولا يتعيَّن عليهم أن يتساءلوا – عن أي نوع من الرجال سيكونون. وفي حين تلقى على عاتق النساء باستمرار مختلف أنواع المطالبات، «تنتقل الذكورة بكل يسر من الأب إلى الابن، وتكاد لا تحيد قيد أنملة عن صيغة الدور النمطي للمعيل والوصي».

في خلاصة الأمر إذاً، حين تقول النساء إنّ «الرجال زبالة»، فإن ما يعنينه في الحقيقة هو «أنّ تصوراتكم عن الرجولة ما عادت تفي بالغرض، وافتقاركم إلى التطور يضرّ بنا جميعاً». هذه العبارة تعني بكلمات أخرى أنّ الرجال هم بمثابة الأطفال الأكثر بطئاً في الصف الدراسي، وعليهم بالتالي، على حدّ تعبير الورداني، «أن يتطوروا أسرع كثيراً لكي يتمكنوا من اللحاق بالركب»[124].

اتّضح في نهاية المطاف أنّ شعاري «كل الرجال زبالة» و«الرجال زبالة» كانا الألطف من بين شعارات الخطاب النسوي في موجته الرابعة. من بين الشعارات الأكثر شعبية التي أطلقتها النسويات على tweeter نجد هاشتاغ «اقتلوا جميع الرجال». لحسن الحظ، كان الصحفي والمعلّق إيزرا كلاين Ezra Klein متاحاً على موقع ڤوكس Vox الإخباري ليفك رموز هذا الشعار. وإذ يُقرّ بدايةً أنه لم يستمتع برؤية هاشتاغ «اقتلوا جميع الرجال» كما لم يستمتع بتلك اللحظة التي تسربت فيها هذه العبارة من العالم الافتراضي إلى العالم الحقيقي، إلا أن الكلمات بحسب قوله لم تعنِ ما بدا أنها تعنيه. يشرح كلاين أنه عندما بدأ أشخاص من معارفه، أو حتى من المقرّبين ممن [كان] يحبهم باستخدام هذا الشعار في محادثات عرضية، ارتدّ في

(124) Sama El-Wardany, 'What women mean when we say "men are trash"', Huffington Post, 2 May 2018.

البداية واتّخذ وضعاً دفاعياً. ثم يوضّح أنه سرعان ما أدرك أن «ليس هذا ما كانوا يقولونه»، وفهم أنّ الأمر لم يكن يعني رغبتهم في قتله أو قتل أي رجل آخر. لا بل وأكثر من ذلك، كان ينطوي على ما هو أفضل من ذلك بكثير. اكتشف كلاين بحسب قوله إنهن «لم يكرهنني، ولم يكرهن الرجال»، بل إنّ عبارة «اقتلوا جميع الرجال» كانت مجرد «طريقة أخرى للقول: سيكون العالم أفضل كثيراً لو كان أقل سوءاً للمرأة». يا لها من طريقة غريبة للتعبير عن ذلك! لكن كلاين استمر في قوله: «إنها تعبير عن الإحباط من انتشار التحيز الجنسي»[125].

قد يكون استخدام عبارة مثل «اقتلوا جميع الرجال» بمثابة طريقة مفرطة في الحماسة للمطالبة بحق التصويت للإناث في زمن افتقارهن لهذا الحق. لو أن نسويات الموجة الأولى استخدمن في حملاتهن شعار «اقتلوا جميع الرجال» كصرخةٍ في نضالهن من أجل المساواة، لأمكن النظر إلى الأمر على أنه أسلوب مضطرب بعض الشيء يهدف إلى اجتذاب الناس إلى جانبهنّ. لكنّ بعد انقضاء قرن من الزمان على الموجة الأولى، بدا الأمر وكأن من الطبيعي، لا بل والمقبول تماماً، أن يأتي حراك النساء اللواتي ولدن وقد اكتسبن مسبقاً كل الحقوق التي كافحت أسلافهن لأجلها، محمّلاً بلغة أكثر عنفاً من اللغة التي سادت في مرحلة الرهانات الأشدّ.

لم تقتصر هذه الحملة على هاشتاغ على موقع tweeter. إذ شهدنا على امتداد العقد الماضي إدراج سلسلة من الشعارات في المناقشات العامة اليومية، منها شعار «امتياز الذكور». وكما هو حال معظم الشعارات، هذا شعار آخر يسهل نطقه وإطلاقه، لكن يصعب إلى حدّ كبير التحقق بدقة كافية مما يعنيه ويشير إليه. قد يقال على سبيل المثال إن غلبة الذكور في منصب المدير التنفيذي هو مثال على «امتياز الذكور». لكنّ أحداً لا يعرف ما دلالة غلَبة حالات انتحار الذكور على

(125) Ezra Klein, 'The problem with Twitter, as shown by the Sarah Jeong fracas', *Vox*, 8 August 2018.

الإناث (وفقاً لمؤسسة سامريون Samaritans الخيرية[126]، فإن الرجال البريطانيين أكثر عرضة للانتحار بثلاث مرات من النساء)، وغلبة وفيات الذكور على الإناث في المهن الخطرة، وكذلك التشرد، وحالات كثيرة أخرى. أتشير هذه المؤشرات إلى ما هو عكس الامتياز الذكوري؟ وهل تتساوى كفتا الميزان بين حالات الامتياز والحالات المعاكسة له فتتوازن المعادلة؟ وإن لم يحدث تساوٍ هنا فما هي المنظومات أو المعايير أو الفترات الزمنية اللازمة للوصول إلى حالة التوازن؟ لا يبدو أن أحداً يعرف الإجابة.

تظهر أشكال أخرى من كره الرجال تقدِّم نفسها على اعتبار أنها أكثر خفّةً. يجري على سبيل المثال تداول مصطلح «الوصاية التفسيرية للرجل» للتنديد بأي مناسبة يظهر فيها خطاب الرجل تجاه المرأة متعاليًا أو متعجرفًا. لدى كلّ واحد منا بالتأكيد أمثلة عن مرات سمع فيها رجالاً يتحدثون بنبرة الغطرسة هذه تماماً. لكن وفي المقابل، بإمكان معظم الناس أن يذكروا أمثلة معاكسة تماماً تكون فيها المرأة هي من تحدّث إلى الرجل بهذه الطريقة ذاتها، أو حتى أمثلة أخرى عن حديث من هذا النوع يوجهه رجل إلى رجل آخر. فما الذي يجعل من الضرورة بمكان إعطاء مصطلح خاص لحالة واحدة فقط من بين هذه الحالات المتعددة؟ لمَ لا يوجد مصطلح – أو حتى استخدام شائع – لتعبير مثل «الوصاية التفسيرية للنساء»؟ ولا توجد أيّ فكرة تتناول إمكان أن يمارس رجل وصاية تفسيرية على رجل آخر؟ ما هي الظروف التي تجعلنا نقول إنّ رجلاً ما يتحدث إلى امرأة بتعالٍ لأنها امرأة بالذات، كنقيض ومقابل لرجل يتحدث إلى امرأة بتعالٍ لأنها هي نفسها خاطبته بنبرة غطرسة مماثلة؟ ليست لدينا في الوقت الحاضر أي آلية لإيضاح مختلف هذه المسائل، يقتصر ما هو متاح على مجرد قذيفة يمكن لامرأة أن تطلقها في أي مرحلة.

ثم هناك مفهوم «النظام الأبوي» – فكرة أنّ الناس (لا سيّما في البلدان الرأسمالية

(126) مؤسسة خيرية تعمل في بريطانيا وإيرلندا هدفها تقديم الدعم العاطفي لمن يعانون من ضغط عاطفي ومعاناة في التأقلم وللوقاية من خطر الانتحار. (م)

الغربية) يعيشون في مجتمع يجري تزويره لصالح الرجال وبغرض قمع النساء ومهاراتهن. ولقد وصل هذا المفهوم من الرسوخ حداً بات معه يمرّ عند ذكره باعتباره بدهية، وكما لو أن فكرة تمحور المجتمعات الغربية الحديثة حول الرجال – وفاعليتها الموجّهة لتحقيق راحتهم حصرياً – ليست موضوع جدل أو اعتراض لدى معظم الناس. في مقالة نشرت عام 2018 في مجلة Grazia النسائية الشهيرة بمناسبة مرور قرن من الزمن على نيل النساء اللواتي تجاوزن الثلاثين من عمرهن حق التصويت في بريطانيا، نقرأ مقطعاً يصرّح بالآتي: «نحن نحيا في مجتمع أبوي، هذه قناعة تامة لدينا». ثم تورد المقالة أسباب هذا القول ودلائله فتذكر «تشييء المرأة» و«معايير الجمال غير الواقعية»؛ كما لو أن الرجال لم يخضعوا لأي تشييء قط، ولم تُفرض عليهم أي معايير تخص مظهرهم مطلقاً (وهو ادعاء قد يعارضه أولئك الرجال الذين كانوا عرضة للتصوير خلسة في القطارات من طرف غرباء بينما هم في غفلة من الأمر، ثم حُمِّلت صورهم على موقع Instagram في صفحة تحمل عنوان «شبان مثيرون يقرأون»). وتتابع مقالة المجلة شرحها: «النظام الأبوي بالنسبة إلينا هو نظام مخفي»، على الرغم من وجود بعض الأعراض المرئية التي تعدد من بينها: «عدم الاحترام الذي يتجلى في فجوة جندرية بين الأجور، وفي انتزاع الفرص الوظيفية»[127]. كما تتبنى المجلات المعنية بالرجال بكثير من الأريحية هذه الافتراضات ذاتها. إذ نجد في تناولها حوادث عام 2018، كيف كان من دواعي سرور مجلة GQ للرجال أن تنشر مقالة افتتاحية توافق على فكرة أنه خلال تلك السنة «جرى استدعاؤنا جميعاً لِنُحاسب على خطايا النظام الأبوي»[128].

أما الأسوأ من بين معجم المفردات المعادية للذكور فهو شعار «الذكورة السامة». مثل غيره من الميمات المشابهة، بدأ شعار «الذكورة السامة» ظهوره الأول

(127) Georgia Aspinall, 'Here are the countries where it's still really difficult for women to vote', *Grazia*, 6 February 2018.

(128) *GQ* magazine foreword by Dylan Jones, December 2018

على الأطراف الهامشية للأوساط الأكاديمية ووسائل التواصل الاجتماعي. لكنه سرعان ما فرض نفسه في قلب المنظمات والكيانات العامة الجادة بحلول عام 2019. ففي شهر يناير من هذا العام، نشرت «الجمعية الأميركية لعلم النفس» أول دليل إرشادي لها على الإطلاق يتناول الآليات الواجب على أعضائها اتباعها في التعامل مع الرجال والفتيان بوجه خاص. وزعمت الجمعية أن حصيلة أربعين عاماً من البحث أظهرت أن «الذكورة التقليدية – التي تتميز برباطة الجأش والتنافسية والسيطرة والعدائية، تقوِّض رفاهية الرجال». ومن أجل معالجة هذه الجوانب «التقليدية» للذكورة، أنتجت الجمعية دليلها الإرشادي الجديد لتساعد الممارسين على «تعرُّف هذه المشكلة لدى الفتية والرجال». لا بل إن الجمعية مضت إلى ما هو أبعد من ذلك فعرّفت الذكورة التقليدية على أنها «مجموعة معينة من المعايير التي تركت تأثيرها في قطاعات كبيرة من السكان، بما فيها: معاداة الأنوثة، والإنجاز، وتجنّب إظهار الضعف، والمغامرة وركوب المخاطر، والعنف»[129]. ولم تكن هذه سوى واحدة فحسب من أوجه التقدم التي حققها مفهوم «الذكورة السامة» في مساره نحو الانتشار لدى جمهور العامة.

حدث هذا التقدم للمفهوم، من جديد، من دون أي إشارة إلى أن أي مشكلة من هذا النوع يمكن لنا أن نراها على الجانب الآخر من المشهد، أي في أوساط النساء. على سبيل المثل، أيوجد شكل من أشكال «الأنوثة السامة»؟ وإن كانت الإجابة هي نعم فما هي هذه الأنوثة السامة وما السبيل لاستئصالها نهائياً من النساء؟ لكن حتى عملية استدماج مفهوم الذكورة السامة وفق تعريفها أعلاه تتطلب أولاً امتحاناً وتحديداً دقيقاً له. فعلى سبيل المثال إذا ما اعتبرنا أن التنافسية هي بالفعل سمة ذكورية – وهو ما تشير إليه «الجمعية الأميركية لعلم النفس» على ما يبدو، فمتى تصير هذه التنافسية سامة أو مضرة، ومتى تكون نافعة؟ أيكون

(129) 'APA issues first ever guidelines for practice with men and boys', *American Psychological Association*, January 2019.

ممكناً السماح للاعب رياضي ذكر أن يستخدم غرائزه التنافسية في مضمار السباق؟ وإذا كانت الإجابة هي نعم، ما الذي ينبغي فعله لمساعدته حتى نتأكد أنه يتصرف بأكبر قدر السلاسة والرفق خارج مضمار السباق؟ وهل يمكن أن ننتقد رجلاً يواجه برباطة جأش إصابته بسرطان غير قابل للشفاء، ونشجعه على التخلي عن هذا الموقف الضار وأن يُظهر ربطة جأش أقل؟ وإذا ما كانت «المغامرة» و«المخاطرة» صفات ذكورية بحق فمتى وأين ينبغي تشجيع الرجال على التخلي عنها؟ أينبغي أن نشجع المستكشف الذكر على أن يكون أقلّ حماساً للمغامرة، وأن ندرّب رجل الإطفاء على أن يتحمّل مخاطر أقل؟ وهل علينا أن نشجع الجنود الذكور على أن يبتعدوا عن «العنف» وأن يكونوا أكثر حرصاً على إظهار ضعفهم؟ وإن كان الجواب هو نعم فمتى؟ وما هي الآليات التي ينبغي علينا تبنيها لنتمكن من برمجة هؤلاء الجنود بما يجعلنا قادرين على الانتفاع بسماتهم ومهاراتهم المفيدة للغاية في ظروف الخطر حين تكون مجتمعاتهم في أمس الحاجة إليهم، لكن على أن ندربهم على طمس هذه السمات تماماً بقية الوقت؟

بالطبع، لو أنّ للذكورة سمات سامة فمن المرجّح أنها متجذرة بعمق (أي أنها موجودة في جميع الثقافات بصرف النظر عن الاختلافات الظرفية) بحيث يتعذر استئصالها. أو قد توجد جوانب معينة في بعض السلوكات الذكورية تتسم بكونها بغيضة وغير مرغوبة، وإن كان الأمر كذلك فهنا يصبح ممكناً بالتأكيد التوصل إلى طرائق محددة لمعالجة المشكلة. لكن في كلتا الحالتين، لن يؤدي اختراع مفاهيم مثل «امتياز الذكور» أو «النظام الأبوي» أو «الوصاية التفسيرية للرجال» أو «الذكورة السامة» إلى أي معالجة للمشكلات المطروحة، ما يعني أن مثل هذه المفاهيم هي إما أقل مما يجب فلا تكفي لتشخيص المشكلة، أو هي تفرط وتغالي فتعجز بالمثل عن التعامل معها. يبدو التفسير الأكثر وضوحاً من وجهة نظر خارجية هو أن المسعى الحقيقي للتحرك إنما هو تحييد الرجال لا تحسينهم، وتحويل أي واحدة من مزاياهم على الإطلاق ضدهم، بحيث تولد لديهم مشاعر الشك في الذات

وتحولهم إلى موضوعات مثيرة للشفقة مشبعة باحتقار الذات. يظهر الأمر إذاً، باختصار ووضوح تام، كنوع من أنواع الانتقام.

لكن ما الدافع إلى مثل هذا الانتقام؟ ما السبب في احتدام الحرب والخطاب إلى هذا الحد في وقت شهدت معايير المساواة تحسناً هائلاً؟ هل لأن الرهانات باتت منخفضة؟ يشعر الناس بالملل فيرغبون في تبني مواقف بطولية وسط حياة من الأمان والراحة النسبية؟ أم أن وسائل التواصل الاجتماعي – تحدي التحدث إلى نفسك، لا بل وإلى العالم ككل – هي بكل بساطة ما يجعل المناقشة غير المتحيزة أمراً مستحيلاً؟

مهما تكن الأسباب، فإن لكل هذا تأثير جليٌّ على سمعة النسوية: كراهية الرجال تضرّ بها. في عام 2016، أجرت جمعية فوسيت[130] Fawcett Society استطلاعاً شمل 8000 شخصاً لمعرفة نسبة من يعرفون أنفسهم على أنهم «نسويون أو نسويات». وجد الاستطلاع أن 9 في المئة فقط من النساء البريطانيات يستخدمن مفردة «نسوية» في وصف أنفسهن، ولا تتعدى النسبة 4 في المئة لدى الرجال. أيّد الغالبية العظمى من الأفراد الذين شملهم الاستطلاع المساواة الجندرية، لا بل ونجد أن أعداد الرجال الذين عبّروا عن تأييد المساواة بين الجنسين تتجاوز أعداد النساء (86 في المئة مقابل 74 في المئة للنساء). غير أنّ الغالبية العظمى من المستجيبين رفضت في الوقت نفسه أن تحمل تسمية «نسويـ/ـة». من جانبها نجحت جمعية فوسيت في إضفاء لمسة إيجابية على نتيجة كان ينبغي أن تحمل طابعاً مخيّباً للآمال في نظر منظمة نسوية. هكذا صرّحت المتحدثة باسم الجمعية أنّ بريطانيا أمة النسوية الخفية، وأوضحت سبب رفض الغالبية العظمى من المستجيبين تعريف أنفسهم بالتسمية النسوية قائلةً: «الحقيقة البسيطة هي أنّك إن أردت مجتمعاً أكثر مساواة بين الرجل والمرأة، فأنت في الواقع نسويـ/ـة»[131].

---

(130) مؤسسة خيرية في المملكة المتحدة تقوم بحملات لدعم حقوق المرأة. (م)

(131) 'We are a nation of hidden feminists', *Fawcett Society press release*, 15 January 2016.

بيد أنه لدى سؤال المستجيبين عن الكلمات التي ترد إلى أذهانهم من دون تفكير فور سماع مفردة «نسوية»، ظهر أنّ أكثر الكلمات شعبيةً من تلك التي وردت إلى أذهانهم – وهي كلمة أوردها أكثر من ربع المستجيبين – هي مفردة «فاجرة»[132].

نجد نتائج مشابهة في الولايات المتحدة الأمريكية. إذ لدى سؤالهم عن ضرورة أن يكون الرجال والنساء «متساوين اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً»، أجابت غالبية الأمريكيين (82 في المئة) بـ"نعم". لكن حين سئلوا عما إذا كانوا يعرّفون أنفسهم باعتبارهم نسويين/ـات، سجّلت النسبة انخفاضاً ملحوظاً. اقتصرت النسبة هنا على 23 في المئة من النساء الأمريكيات و16 في المئة من الرجال الأمريكيين ممن يعتبرون أنفسهم «نسويون/ـات». كما صرّحت أغلبية واضحة (63 في المئة) بأنها ليست نسوية ولا معادية للنسوية[133].

أياً تكن الأسباب، يظل من غير الواضح تماماً كيف يفترض بالرجال أن يتصرفوا حيال هذا الهجوم. لا يبدو أن هنالك احتمالية مرتفعة لإعادة برمجة الغرائز الطبيعية لجميع الرجال وجميع النساء. أجرى أكاديميون في المملكة المتحدة دراسة على امتداد ثلاث سنوات، بين عامي 2014 و2017، تناولت الصورة الجذابة للرجل في أذهان النساء. أفضت النتائج التي نشرتها مجلة Feminist Media Studies [الدراسات الإعلامية النسوية] الأكاديمية إلى اكتشاف توجّه مزعج. وأوجزت مجلة Newsweek النتائج الصادمة تحت عنوان رئيس: «الرجال ذوو العضلات والمال هم الأكثر جاذبية للنساء الغيريّات وللرجال المثليين – يظهر أنّ أدوار الجنسين لم تتقدم»[134]. وبالفعل، لن يتحقق «التقدم» ما لم تنجذب النساء إلى رجال لا يعتقدن حقيقة أنهم جذابون! هل هذا هدف واقعي؟

---

(132) 'Only 7 per cent of Britons consider themselves feminists', *The Telegraph*, 15 January 2016

(133) YouGov/Huffington Post, *Omnibus Poll*, conducted 11–12 April 2013.

(134) 'Men with muscles and money are more attractive to straight women and gay men – showing gender roles aren't progressing', *Newsweek*, 20 November 2017.

في ما يخص الفروقات بين الرجال والنساء – وكيفية تنظيم العلاقات التي تجمعهما – يبقى أمامنا كثيرٌ من المعطيات التي لا نعرفها تماماً. لكن هنالك في المقابل كثير مما نعرفه كذلك، أو كنا قد عرفناه في ما مضى. ومثلما توضح اللقطات المأخوذة من الثقافة الشعبية أعلاه، فإن هذه المعرفة ليست معرفة متخصصة محدودة النطاق، بل إنها واسعة الانتشار كما يجب لأي معرفة أن تكون. بيد أنّ شيئاً ما حدث في مرحلة ما من الزمن، إذ وضع جهاز تشويش فرض نفسه على مسألة العلاقة بين الجنسين برمّتها. ولسبب ما، حدثت هذه الزيادة الهائلة في الغضب والرفض بالتزامن الدقيق مع المرحلة التي كان ينبغي أن تصل بالقضية ككل إلى حالة من الإجماع والتسوية.

لا شك في أنّ جهاز التشويش هذا الذي فُرِض على قضية العلاقة بين الجنسين هو واحد من أكثر جوانب الإرباك في المجتمعات الحديثة على الإطلاق. فهو يتطلّب من أجل استدماجه مجموعةً من الوثبات الذهنية التي لا تُصدَّق، وحتى في هذه الحالة، لن يكون مجرد القيام بها ممكناً من دون أن تتسبب في ألم شخصي ومجتمعي يفوق الوصف.

يتلخّص الأمر في الآتي: أمضى نشطاء المثلية سنوات التسعينيات وما تلاها محاولين إقناع العالم أنّ المثلية هي مشكلة «أجهزة»، وأنها، كما رأينا أعلاه، مسألة لا قرار للفرد فيها. غير أنّ إرادة بيّنة كانت تعمل في الواقع على الدفع نحو اعتبارها كذلك. بدا خيار النظر إلى الأمر باعتباره مسألة تتعلق بالأجهزة خياراً ملائماً لأنه يحمي حالتك. لكن أمراً حدث بالتزامن تماماً مع سيرورة تلك المعركة الدائرة حول حقوق المثليين، وهو أمر مذهل بحقّ. بفضل مبادرة عدد من الأفراد – بمن فيهم من أشخاص اعتقدوا خطأً أنهم من المدافعين عن النسوية – اتخذ مسار في المسيرة من أجل النساء التي تزامن مع حراك المثليين، اتجاهاً معاكساً تماماً.

حتى العقد الماضي على وجه التقريب، كان ينظر إلى الجنس (أو النوع)، وكذلك

إلى الكروموسومات، باعتبارها جزءاً من المشكلات الأكثر جوهرية والمتعلقة بالأجهزة في جنسنا البشري. وشكلت مسألة أن نولد رجالاً أو نساء واحدة من المسائل الوجودية الرئيسة وإحدى القضايا المتعلقة بالأجهزة غير القابلة للتغيير في حياتنا. وبقبولنا هذه الأجهزة، تمكنا جميعاً – رجالاً ونساء – من إيجاد الأدوات والوسائل اللازمة لإدارة الجوانب الرئيسة ذات الصلة في حياتنا. هكذا صار كلّ شيء مشوّشاً تماماً، لا على مستوى هوية كل واحد من الجنسين على حدة، بل على مستوى العلاقات بينهما، بمجرد أن فُرضت فكرة أنّ كلّ ما كنا نفهمه حتى اللحظة باعتباره أمراً يخص الأجهزة، هو في حقيقته مسألة تتعلق بالبرمجيات. طُرِح هذا الادّعاء إذاً، ثم بعد عقدين من الزمن استُدمِج تماماً وبات الجميع مطالباً بأن يعتقد أنّ الجنس ليس ثابتاً بيولوجياً، بل مجرد مسألة تتعلق بـ «أداءات اجتماعية جرى تأكيدها مراراً وتكراراً».

كان من شأن هذا الادعاء أن وضع قنبلةً فخخ بها القضية النسوية مخلِّفاً نتائج متوقعة تماماً في ما يخص مشكلة أخرى سنصل إليها لاحقاً لدى مناقشة «العبور الجندري». ذلك أنّه وضع النسويات في موضع حرج وبلا دفاعات تقريباً إزاء الرجال الذين يجادلون بـأنهم ربما يكونوا نساء. غير أنّ جلّ هذه المحاولة لتحويل الأجهزة إلى برمجيات تسببت في المحصلة – وما زالت تتسبب – بآلام تتجاوز في حدّتها الآلام الناجمة عن أي مشكلة أخرى، لكل من الرجال والنساء على حدٍّ سواء. وفيها يكمن جوهر الجنون الحالي. ذلك أنها تطالبنا جميعاً بتبني الاعتقاد بأن النساء يختلفن عن الكائنات التي لطالما كنّها. وتشير علينا إلى أنّ كل ما رآه الرجال والنساء – وعرفوه – حتى الأمس القريب كان سراباً، وأنّ كل معارفنا المتوارثة عن اختلافاتنا (وعن قواعد التوافق بيننا) هي معارف غير صحيحة. ينبع كل هذا الغضب – بما ينطوي عليه من كراهية الرجال، وازدواجية معايير التفكير، وخداع الذات – من الحقيقة التالية: لا يُطلب منا فحسب، بل يُتوقَّع منا كذلك، أن نجري تحويلاً جذرياً يمس حياتنا ومجتمعاتنا مستندين إلى مزاعم تقودنا غرائزنا إلى تكذيبها بالمطلق.

فاصل

(تأثير التكنولوجيا)

تُضاف ثورة الاتصالات إلى الأسباب التي تخلق شروط جنون الحشود، إلى جانب الأسس المتداعية للميتافيزيقا الجديدة وما يلوح من خطأ متقن في الآراء التي يُطلب إلينا تبنيها. وبينما نمضي مسبقاً في الاتجاه الخاطئ، تُحدث التكنولوجيا تسارعاً أسياً في خطواتنا. إنها العنصر الذي يُعطينا الإحساس بأن جهاز المشي يمضي بصورة أسرع مما يمكن أن تلحق به أقدامنا.

عام 1933، نشر جيمس ثيربر James Thurber رواية بعنوان The Day the Dam Broke [يومَ انهار السد]، يحكي فيها ذكرياته عن يوم 12 مارس 1913. في هذا اليوم، راح جميع سكان بلدته في أوهايو يتدافعون في سباق مجنون. يتذكر ثيربر كيف وُلدت شائعة انهيار السد. قرابة الظهيرة، «راح أحدهم يركض فجأة. قد يكون قد تذكّر ببساطة أنه على موعد مع زوجته، وأنه الآن متأخرٌ جداً عن هذا الموعد». بعد ذلك بقليل، أخذ شخص آخر يركض بسرعة، «لعلّه بائع صحف في حالة معنوية عالية. ثمّ بدأ رجل آخر، محترم وبدين، بتسريع خطواته».

في أقل من عشر دقائق، أخذ بالركض كلّ من كان في الشارع الرئيس الواصل بين مستودع الاتحاد ودار القضاء. ثمّ صدرت تمتمة مزعجة وتبلورت بصورة تدريجية في كلمة مخيفة: «سد». «لقد تحطّم السدّ!» إنه الخوف وقد تحوّل إلى كلمات على لسان سيدة عجوز صغيرة على كرسيها المتحرك، أو على لسان شرطي مرور، أو حتى صبي صغير؛ لا أحد يعلم كيف بدأت القصة بالضبط، وفي جميع

الأحوال، لا أهمية لذلك الآن. أخذ ألفا شخص يجرون في هروب محموم. والجميع يردد صوتاً واحداً: «اذهبوا باتجاه الشرق!» – باتجاه الشرق، أي بعيداً عن النهر، باتجاه الشرق إلى بر الأمان. «اذهبوا باتجاه الشرق! شرقاً! نحو الشرق!».

وبينما تتدافع البلدة بأكملها باتجاه الشرق، لم يخطر ببال أحدٍ أن السدّ على مبعدة من البلدة، ولا يمكنه بأي حال أن يتسبب في تدفّق ولو ببضع قطرات من الماء في الشارع الرئيس. والأنكى من ذلك أن السد لا ماء فيه، الأمر الذي لم يلاحظه أحد من المهرولين. السريعون من السكان وصلوا إلى أميال بعيداً عن البلدة، ثمّ عادوا إلى ديارهم، مثل الجميع. يتابع ثيربر قائلاً:

في اليوم التالي، انصرفت البلدة إلى أشغالها وكأن شيئاً لم يحدث. إلا أن أحداً لم يسمع مزحة تتناول الأمر. كان لا بد من انتظار عامين أو أكثر قبل أن يجرؤ أحدهم على التطرّق إلى الأمر باستخفاف. وحتى اليوم، وبعد عشرين عاماً، ما يزال البعض يلوذ بالصمت فلا ينبس ببنت شفة إن أتى أحدهم على ذكر ظهيرة السباق الكبير(135).

تبدو مجتمعاتنا اليوم غارقة في هروب إلى الأمام شبيه بذاك الهروب، ولا تزال توحي إلينا سلوكاتنا والمعاملة السيئة التي أذقناها الآخرين خزياً لا يُطاق. كل يوم، نحن على موعد مع موضوع كراهية وحكم أخلاقي جديد. قد يكون هذا الموضوع تلامذة مدراس يرتدون القبعات الخطأ في المكان الخطأ، وفي التوقيت الخطأ(136). أو أي شخص آخر. وكما بيّنت أعمال جون رونسون Jon Ronson وآخرون غيره حول «الإذلال العمومي(137)»، فقد أتاح الإنترنت لأشكالٍ جديدة من الحراك والتنمّر أن تتحدث بلسان العصر تحت ذريعة الحراك الاجتماعي. وتشهد الرغبة في النبش عن أفراد يمكن اتهامهم بـ«التفكير الخاطئ»

---

(135) James Thurber, *My Life and Hard Times* (1933), reprinted Prion Books Ltd, 2000, pp. 33 – 44.

(136) انظر حالة التلامذة الذكور في ثانوية كوفينغتون الكاثوليكية، في يناير 2019.

(137) Jon Ronson, *So You've Been Publicly Shamed*, Riverhead Books, 2015.

ازدهاراً، بالنظر إلى الفائدة التي يجنيها من ذلك المتنمرون[138]. لا ترى وسائل التواصل الاجتماعي ما يضير في هذا الضرب من السلوكات، بل تشجّعه، لأنه جزء من النموذج الفاعل في تجارتها. لكن نادراً ما يحاول المشاركون في هذا التدافع فهم أسباب تراكضهم في هذا الاتجاه، لا بل إنهم لا يحاولون البتة.

اختفاء اللغة الخصوصية

ثمة عبارة تُنسب تارةً إلى عالم الكمبيوتر الدنماركي مورتن كينغ Morten Kyng وطوراً إلى المستقبلي الأميركي روي أمارا Roy Amara، تقول إن جلّ ما نملكه من يقين في شأن ظهور التقنيات الجديدة، هو أن الناس يبالغون في تقدير تأثيرها في المدى القصير، ويقللون من تأثيرها في المدى البعيد. ما من شك اليوم، بعد مرحلة الإثارة الأولية، في أننا جميعاً استهنّا إلى حد كبير بتأثير الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي في مجتمعاتنا.

من بين التبعات العديدة التي لم تكن متوقعة ولكننا نلمسها اليوم، ثمة حقيقة مفادها أن الإنترنت، ووسائل التواصل الاجتماعي، قد ألغت المسافة التي كانت موجودة بين اللغة العمومية واللغة الخصوصية. وتبيَّن أن وسائل التواصل الاجتماعي أداة رائعة لغرس معتقدات جديدة وسحق الآراء المخالفة لحظة نكون في أمسّ الحاجة إلى سماعها.

أمضينا السنوات الأولى من هذا القرن ونحن نحاول فهم ثورة الاتصالات التي كانت من الضخامة حدّ جعل اختراع المطبعة حدثاً هامشياً في التاريخ. كان علينا أن نحاول تعلّم كيف نعيش في عالم يكون فيه حديثنا إلى أي شخص آخر، وفي كل لحظة، هو نفسه حديثنا إلى الملايين حول العالم. لقد تآكل الخط الفاصل بين الفضاء العمومي والفضاء الخصوصي، وما يمكن أن نقوله في مكان ما، قد يُنشر في كل

---

(138) يقول باريت ويلسون Barrett Wilson (اسم مستعار): "كنت الغوغاء إلى أن أخذت الغوغاء تطاردني". Quillette, 14 July 2018.

مكان؛ ليس في العالم قاطبة فحسب، بل إلى الأبد. لذا علينا أن نعثر على طريقة للكلام والسلوك عبر الإنترنت كما لو كنّا نتكلّم ونتصرف أمام جميع أقراننا – مع العلم أننا إن هفونا وجنحنا، فسيكون خطؤنا متاحاً وسانحاً في كل مكان وإلى الأبد.

إحدى تبعات هذا الوضع هو أنّ الدفاع في العلن عن مبادئ مجرّدة بات ضرباً من ضروب المستحيل. ففي حال لم يتبيّن أن المبدأ ملائم للجميع وفي الأوقات كافة، فإن هناك مَن سيستفيد منه، وهناك في المقابل مَن ستضرر منه. وبينما كان المتضرّر في ما مضى بعيداً عن الأنظار بما يكفي لتجاهله، بات اليوم يقف أمامك وجهاً إلى وجه. صار الكلام في العلن اليوم يعني العثور على طريقة للتوجّه بالكلام مقبولة من جميع أصناف المحاورين المحتملين، ويفترِض أن نضع في الحسبان النطاق الكامل لمطالبهم المحتملة، لا سيما المطالب الحقوقية. ففي أي لحظة، قد نُسأل عن سبب نسياننا وجود فرد بعينه أو آخرين مثله، أو نزعنا الثقة عنه أو إساءتنا إليه، أو حتى عن سبب نفينا وجوده. لذا نفهم أن تمارس الأجيال التي نشأت اليوم حذراً شديداً في شأن ما تقول في مجتمعاتنا التي تتسم بالاتصال الفائق، وأن تتوقع من الآخرين ممارسة الحذر نفسه. ونفهم أيضاً كيف تبدو محاسبة النفس غير المحدودة أمام النقد المحتمل لعالم بأكمله، وتقدير «الامتيازات» والحقوق، واحدة من المهمات القليلة جداً التي يمكن تجربتها أو تحقيقها بنجاح.

تتطلب القضايا الصعبة والخلافية قدراً كبيراً من التفكير. وغالباً ما يستلزم مثل هذا الجهد الكبير في التفكير الخوض في تجارب وارتكاب أخطاء لا مفر منها. ومع ذلك، بات التفكير بصوت عالٍ في أكثر القضايا إثارة للجدل على درجة عالية من الخطورة إلى الحد الذي يجعل المجازفة به فعلاً بلا جدوى إن نحن أخذنا في الاعتبار نسبة الخطر مقابل الفائدة. هب أن رجلاً قال إنه امرأة، ويودّ منك أن تتوجّه بالكلام إليه بصفته كذلك، فيمكنك تقييم خياراتك. من ناحية، تستطيع

أن تجتاز الاختبار وتواصل حياتك. من ناحية أخرى، قد توصف بـ«الكاره» وترى دمار سمعتك وحياتك المهنية بأم عينيك. كيف تقرر؟

على الرغم من أن مجموعة متنوعة من المفكرين قد أسهمت في خلق مناخ كهذا، إلا أن الزوابع الضروس التي تهبّ اليوم لا تأتي من أقسام الفلسفة أو العلوم الاجتماعية في الجامعات، بل تنبعث من وسائل التواصل الاجتماعي؛ مكان توالد الأحكام المسبقة ونموها وتكاثرها. وكلّ محاولة تروم الموازنة بين الحقائق، ترى نفسها منساقة إلى مصاف الانتهاك الأخلاقي، لا بل إلى مصاف الاعتداء السافر. من الطبيعي أن يجد مطلبا العدالة الاجتماعية وتقاطع أشكال التمييز مكانهما داخل هذه البيئة، إذ مهما كان المطلب مغاليًا والقضية جسيمة، يمكن لمتصفحي الإنترنت الزعم بمعالجته. تشكّل وسائل التواصل الاجتماعي منظومة من الأفكار التي تدّعي القدرة على إيجاد حلّ لكلّ شيء، وأن لكلّ مظلمة المكان اللائق بها. لهذا السبب تحث هذه الوسائل الناسَ على التركيز على أنفسهم تركيزاً غير محدود — وهو أمر لا يحتاج مستخدمو وسائل التواصل الاجتماعي إلى التشجيع على فعله، أبداً. والأنكى من ذلك، إن حدث وشعرتَ في أي وقت أنك لست راضياً مئة في المئة عن حياتك ووضعك، لديك بين يديك منظومة شمولية تفسّر لك كل شيء، مع مخزون هائل من الشروحات حول ما يحول بينك وبين تحقيقك نفسك.

ليس وادي السيليكون محايداً أخلاقياً

يعلمُ جميع مَن عملَ في وادي السيليكون[139] أن مناخه السياسي يقع على مبعدة درجات إلى اليسار من جامعة ليبرالية للعلوم الإنسانية. فالحراك لصالح العدالة الاجتماعية هو الإعداد الافتراضي لجميع الموظفين في الشركات الكبرى. ومعظم هذه الشركات، بما في ذلك google، يُخضع المتقدمين لاختبارات بغية استبعاد أي

(139) منطقة استثمارية تقنية أميركية تُعدّ العاصمة التقنية في العالم لأنها تضمّ المقرّات الرئيسة لآلاف الشركات العملاقة العاملة في مجال التكنولوجيا المتقدّمة. (م)

شخص لديه ميول أيديولوجية خاطئة. أَسرّ الذين خضعوا لهذه الاختبارات أنه كان عليهم الإجابة عن أسئلة متعددة حول قضايا تتعلق بالتنوع – الجنسي والعرقي والثقافي –، وأفادوا أن الإجابات «الصائبة» عن هذه الأسئلة تُشكّل شرطاً مسبقاً للحصول على الوظيفة.

من الممكن أن نرى في ذلك اعتمالاً لشيء من تأنيب الضمير، إذ قلما تكون الشركات التكنولوجية قادرة على تطبيق ما تحرص جداً على الوعظ بها. على سبيل المثال، لا تتضمن العمالة في google على سوى 4 في المئة من أصل لاتيني، و2 في المئة من الأميركيين من أصل إفريقي. وبالنظر إلى أنّ البيض يُسجلون ما نسبته 56 في المئة، فلا يمكن القول بأنهم يمثَلون تمثيلاً زائداً مقارنة بعدد السكان عموماً. أمّا الآسيويون فيمثلون 35 في المئة من موظفي google، والشركة في طريقها إلى تقليص نسبة الموظفين البيض على الرغم من أنهم لا يمثلون سوى 5 في المئة من سكان الولايات المتحدة الأميركية[140].

قد يكون التنافر المعرفي[141] الناجم عن ذلك هو ما يجعل وادي السيليكون راغباً في تصحيح مسار العالم، تعويضاً عن عجزه عن تصحيح مساره بنفسه. توظِّف الشركات التكنولوجية الكبرى اليوم آلاف الأشخاص بأجور سنوية من ستة أرقام. يتألف عمل هؤلاء من محاولة صياغة المحتوى وضبطه بطريقة مألوفة لأي طالب في التاريخ. في أحد المؤتمرات التي عقدت مؤخراً حول «ضمان اعتدال المحتوى»، أشار مسؤولون كبار في كلتا الشركتين إلى أن google يوظّف حالياً حوالي 10000 شخص، وfacebook ما يصل إلى 30000 شخص يشرفون على ضمان اعتدال المحتوى[142]. ومن المرجح أن تسجّل هذه الأرقام مزيداً من الارتفاع. لا شك في أن هذه لم تكن المهمة التي تطلّع كلّ من tweeter وgoogle

---

(140) Tess Townsend, 'Google is still mostly white and male', *Recode*, 29 June 2017.

(141) يُشير المصطلح إلى حالِة مَن يعاني من عدم انسجام في أفكاره ومعتقداته وسلوكاته، فيلجأ إلى سلوكات تعويضية لتخفيف حدّة التناقض والاستقرار في حال من التوازن. (م)

(142) وفق تقرير خاص عن مناقشات شاركت فيها شركة تكنولوجية كبرى في بروكسل، 5 فبراير 2019.

وfacebook وغيرهم، إلى إنجازها لدى بداية تأسيسه. لكن منذ أن وجدوا أنفسهم مضطرين لأداء مثل هذه المهمات، ليس من المستغرب أن تكون قناعات وادي السيليكون قد بدأت تفرض نفسها على بقية العالم المتصل بالإنترنت (بخلاف بلدان مثل الصين، حيث يُدرك وادي السيليكون أن قراراته ظلّت حبراً على ورق). لذا فإن ما يتصدّر المشهد لدى الحديث عن قضايا الساعة الساخنة، ليست العادات المحلية أو حتى القيم الأساسية للمجتمعات القائمة، بل وجهات النظر المحدَّدة والمهيمِنة داخل بضعة الكيلومترات المربعة الأشد هوساً بالعدالة الاجتماعية في العالم.

عن كل قضية من القضايا المثيرة للغضب في عصرنا – النوع الاجتماعي والجنسانية والعرق والمتحولين – يَعرف وادي السيليكون ما هو الصواب، ويكتفي بتشجيع الجميع على اللحاق بركب التقدّم. لهذا السبب يستطيع tweeter منع نساء من منصته لأنهن تجرأن على التغريد «ليس الرجال نساء»، أو، «ما الفارق بين الرجل والمرأة العابرة؟»[143]. فإن «أخطأ» الناس على هذا النحو في قضية العابرين جندرياً، يمكن لوادي السيليكون ضمان ألا يكون لهم صوتٌ على منصاته. وهذا ما فعله tweeter بشأن التغريدتين السابقتين على سبيل المثال، مدعياً أنهما تشكلان «سلوكاً بغيضاً». في هذه الأثناء، أجيز للحسابات التي هاجمت «النسوية الراديكالية العابرة للإقصاء» TERFS الاستمرار بالعمل. وفي وقت كانت الناشطة النسوية ميغان مورفي Meghan Murphy تتلقى أمراً من tweeter بحذف التغريدتين أعلاه، كانت تايلر كواتس Tyler Coates (محررة في مجلة Esquire) تتلقى من دون أي صعوبة آلاف المشاركات لتغريدة لها تقول ببساطة: «تباً لـ TERFS!»[144]. في أواخر العام 2008 جرى تعديل «سياسة السلوك البغيض» التي انتهجها tweeter لكي يتمكن هذا الأخير من حظر

(143) انظر:
'Twitter "bans women against trans ideology", say feminists', *BBC* News, 30 May 2018.

(144) Meghan Murphy, 'Twitter's trans-activist decree', *Quillette*, 28 November 2018.

الأشخاص حظراً دائماً من المنصة إذا تبيّن أنهم وصموا أو رفضوا «ذِكر الجندر» الصائب للعابرين[145]. هكذا، ما إن يقول شخص إنه عابرٌ ويعلن عن تبديل اسمه، يُعلّق حساب كلّ من يناديه باسمه القديم أو يُشير إليه حسب جندره السابق. قرر tweeter – الذي صار معنياً بالبتّ بأمر ما يُشكل سلوكاً بغيضاً أو لا – أن العابرين جندرياً بحاجة إلى الحماية من النسويات، أكثر من حاجة النسويات إلى الحماية من الناشطين العابرين جندرياً.

تُضطر الشركات التكنولوجية على الدوام إلى نحت مصطلح ملائم للدفاع عن قراراتها التي تكتسي دائماً صبغة سياسية وذات اتجاه واحد. على سبيل المثال، يعمل لدى الموقع الإلكتروني للتمويل Patreon فريق يُدعى «فريق الثقة والأمان»، ويوكَل إليه مراقبة وتدقيق ملاءمة «المنشئين» الذين يستخدمون الموقع مصدراً للتمويل التشاركي. جاء على لسان جاك كونتي Jack Conte، الرئيس التنفيذي للشركة:

لا علاقة لسياسة المحتوى وقرار إزالة صفحة منشئ المحتوى بالسياسة والأيديولوجيا على الإطلاق، بل هي تقوم على مفهوم يُدعى «سلوك بيّن وقابل للملاحظة». والغرض من استخدام هذا المفهوم هو إزالة القيم والمعتقدات الشخصية لدى تفحّص الفريق المحتوى. إنه طريقة للمراجعة تتأسس تأسّساً كلياً على وقائع قابلة للملاحظة: ما رأته الكاميرا وسجّله جهاز صوتي. النوايا والدوافع والهوية والإيديولوجيا؛ ذلك كله قليل الأهمية. لا ينظر «فريق الثقة والأمن» إلا إلى «السلوك البينّ والقابل للملاحظة»[146].

«ليست هذه المسؤولية بالهينة»، يقول كونتي، لأن Patreon تعي أن استبعاد فرد من منصتها يعني حرمانه من دخله. لكن الشركة لجأت إلى هذا الإجراء مراراً

---

(145) 'Twitter has banned misgendering or "deadnaming" transgender people', *The Verge*, 27 November 2018.

(146) من مقابلة مع جاك كونتي، أجراها ديف روبن Dave Rubin، ومنشورة على *The Rubin Report*: YouTube, 31 July 2017.

وتكراراً، واتخذته في كلّ واحدة من القضايا المعروفة ضد أشخاص حُكم على سلوكاتهم البيّنة والقابلة للملاحظة بأنها «خاطئة»، بفعلِ تموضع أصحابها في الجانب الخاطئ من وادي السيليكون لجهة العقائد الجديدة السارية. تُشهر الشركات التكنولوجية مثل هذه العقائد إشهاراً منتظماً وبأكثر الطرائق غرابة في معظم الأحيان.

إنصاف التعلّم الآلي

في السنوات الأخيرة، لم يكتف وادي السيليكون بتبني المعتقدات الأيديولوجية للتقاطعيين وجنود العدالة الاجتماعية، بل استدمجها في مستوى بلغ من العمق حدًّا أعطى مسحة من الجنون لكل شركة تشرّبت أفكارها.

بغية تصحيح التحيّز والأحكام المسبقة، لا يكفي اتباع الإجراءات الموضحة في فصل «نساء». إنّ من شأن اتباع تدريب يتناول الأحكام المسبقة غير الواعية أن يقودنا إلى الحذر من غرائزنا وأن يُعلّمنا إعادة النظر في سلوكاتنا وآرائنا الموجودة مسبقًا. وقد يحثنا على الالتفات إلى امتيازاتنا الخاصة، ومقارنتها بامتيازات الآخرين أو عوائقهم؛ ومن ثم على تحديد موضعنا المشروع داخل البنية التراتبية القائمة. ومن شأن الانتباه إلى تقاطعات أشكال التمييز أن يجعل الناس واعين للحظات التي عليهم السكوت أو المسموح لهم الكلام فيها. لكن ذلك لا يبتعد عن كونه إجراءات تقويمية لا تكفي وحدها لتهيئة انطلاقة جديدة على أساس أكثر إنصافاً. بل تكتفي بتقويم مسارنا، ما إن تطأ خطواتنا الدرب المحفوف بالمخاطر.

لهذا السبب تراهن شركات التكنولوجيا كثيراً على الإجراء المسمّى «إنصاف التثقيف الآلي». ذلك أن هذا الأخير لا يكتفي بالتخلص من كامل سيرورة الحكم التي تعتمل داخل كائنات بشرية متشبعة حتى الثمالة بالنقص والتعصب والأحكام المسبقة، بل إنه يعهد بهذه العملية إلى الحواسيب المستغلِقة على أحكامنا

المسبقة. فيُدرج في براجمها مواقفاً وأحكاماً ما كان لها لولا ذلك أن تجتمع لدى إنسان واحد. لذا فإن هذا الضرب من الإنصاف هو خارج متناول البشر. مع ذلك، كان على المستخدمين أن يبدؤوا في ملاحظة ظاهرة غريبة في نتائج بعض محركات البحث لكي تشعر شركات التكنولوجيا بالحاجة إلى شرح ماهية «إنصاف التعلّم الآلي». وقامت بذلك وفق ما بدا لها أنه أقل طريقة مقلقة ممكنة، كما لو أن لا شيء يستدعي الانتباه. في حين أن هناك كثير مما يستدعي الانتباه.

قامت google على نحو متقطّع بنشر ثم إزالة ثم تنقيح ثم إعادة نشر فيديو يحاول شرح إجراء «إنصاف التعلّم الآلي» بأبسط طريقة ممكنة. في أكثر محاولات google نجاحاً لتوضيح هذا الإجراء، يقول لنا صوت شابة ودود: «فلنلعب هذه اللعبة». ثم تدعو المشاهدين لإغلاق أعينهم وتخيل حذاء. يظهر على الشاشة حذاء رياضي وحذاء أنيق وآخر بكعبٍ عالٍ. لا نعلم لماذا، لكن الصوت يشرح لنا أننا جميعاً نفضّل حذاءً على آخر. وإن حاولت تعليم الكمبيوتر كيف يتمثّل حذاءً، فسينتج من ذلك مشكلة. المشكلة هي أنك قد تغرس في الكمبيوتر أحكامك المسبقة الشخصية عن الأحذية. فإذا كان حذاؤك المثالي هو الكعب العالي، فسوف تلقّن الكمبيوتر أن يُفكّر في الكعب العالي متى فكّر في الأحذية. ثمّ تظهر على الشاشة شبكة معقّدة في مسعى لتنبيه القارئ إلى مدى تعقيد المسألة برمتها.

التعلّم الآلي هو أمر يساعدنا على «الانتقال من مكان إلى آخر» عبر الإنترنت. إنه ما يُتيح للبحث عبر الإنترنت أن يوصينا بأشياء ويقدم لنا النصيحة حول كيفية الوصول إلى مكان ما أو حتى حول كيفية ترجمة الكلمات. في ما مضى، كان على بشريين أن يرمّزوا يدوياً حلول المشكلات التي يطرحها مستخدمو الإنترنت. من الآن فصاعداً، يسمح التعلّم الآلي للحواسيب بحلّ المشكلات من خلال «العثور على أنماط داخل البيانات»:

لذا، من السهل الاعتقاد في عدم وجود تحيّز بشري في ذلك. لكن، مجرّد أن يكون

ثمّة شيء مؤسَّسٌ على بيانات، لا يجعله ذلكَ محايداً بصورة تلقائية. حتى وإن انطلقنا من نوايا حسنة، يستحيل علينا أن نتجرّد عن أحكامنا البشرية المسبقة. لذلك فإن تحيّزاتنا البشرية تجبل جزئياً التكنولوجيا التي نبتكرها.

عودة إلى الأحذية. طلبت تجربة حديثة إلى أناس رسم حذاء من أجل الكمبيوتر. ولمّا رسم معظمهم أحذية رياضية مع بعض الاختلافات، فإن الكمبيوتر – الذي يتعلم ببطء – لم يتعرف على الحذاء بكعب عالٍ بوصفه حذاء. تُعرف هذه المشكلة باسم «التحيّز التفاعلي».

لكن «التحيز التفاعلي» ليس الضرب الوحيد من ضروب التحيز التي تُقلق google. ثمة أيضاً «التحيز الكامن». لتوضيح هذا الضرب، فكّر فيما قد يحدث إذا درّبت كمبيوتراً على معرفة كيف يبدو عالم الفيزياء بأن تعرض عليه صوراً رقمية لفيزيائيين من الماضي؟ يعرض الفيديو ثماني فيزيائيين من الذكور البيض، بدءاً بإسحق نيوتن Isaac Newton وانتهاء بماري كوري Marie Curie. تبرهن هذه التجربة أن خوارزمية الكمبيوتر ستتضمن تحيّزاً كامناً عند البحث عن علماء فيزيائيين، والتي في هذه الحالة «تميل نحو الرجال».

التحيز الثالث والأخير (في الوقت الحالي) هو «تحيّز الاختيار». ومثال ذلك تدريب نموذج كمبيوتري من أجل التعرّف على الوجوه. يُطلب إلينا: «سواء اخترت صوراً من الإنترنت أو من مكتبة الصور الخاصة بك، هل أنت بصدد التحقق من اختيار صور تمثّل الجميع؟ يمكننا أن نرى على الصور التي يعرضها google أشخاصاً يضعون وشاحاً على رؤوسهم، وآخرين من دون وشاح، وأفراداً من جميع ألوان البشرة ومن مختلف الأعمار. ونظراً لأن العديد من المنتجات التكنولوجية المتقدمة تستخدم التعلم الآلي، يُطمئننا صوت المعلق بالقول: «لقد عملنا على منع هذه التكنولوجيا من إدامة التحيّز البشري السلبي». نجد في الإعدادات التي عمل عليها مصممو التعليم الآلي إرادة صريحة بمنع «المعلومات الجارحة أو المضلّلة بوضوح» من الظهور في أول نتائج البحث،

وتوفير أداة لتقديم الملاحظات تتيح للناس الإبلاغ عن اقتراحات الإكمال التلقائي «البغيضة أو غير الملائمة».

«إنها مسألة معقدة»، يؤكّدون لنا مطمئنين، ولا وجود لـ«حل سحري». «لكن لا بد من اتخاذ الخطوة الأولى عبر وعي جماعي يتيح للجميع المشاركة في النقاش. لأن على التكنولوجيا أن تعمل من أجل الجميع[147]». والواقع أن عليها ذلك، لكنها تروّج أيضاً لمجموعة متوقَّعة جداً من التحيّزات الخاصة بوادي السيليكون.

على سبيل المثال، إذا بحثت عن مثال google أعلاه («فيزيائيون») عبر نافذة بحث الصور، فليس ثمة الكثير مما يمكن فعله حيال نقص الفيزيائيات. لكن يبدو أن الخوارزمية قد تمكنت من التغلب على هذه المشكلة من خلال التأكيد على ضروب أخرى من التنوع. هكذا، إذا كانت أول صورة تظهر على google لدى البحث عن «فيزيائيين» هي لفيزيائي ذكر أبيض يكتب بالطباشير على سبورة سوداء في جامعة سارلاند، فإن الصورة الثانية هي لمرشح دكتوراه أسود في جوهانسبرغ. في الصورة الرابعة، نجد أينشتاين، وفي الخامسة **ستيفن هوكينغ** Stephen Hawking.

هنا، تجدر الإشارة إلى ملاحظة مهمة. قلة قليلة من الناس تريد لشابة أن تحسب أنها لن تستطيع أن تصبح فيزيائية لمجرّد الغلبة التاريخية للرجال في هذا المجال، مثلما أن قلة قليلة جداً تريد لشاب أو شابة من عرق أو آخر أن يقتنعا بأن مجالاً معيناً مغلقٌ أمامهما لندرة الأشخاص من لون بشرتهما في هذا المجال حتى الآن. ومع ذلك، فإن ما يلوح في جميع عمليات البحث هذه، لا يُمثّل نظرة «عادلة» للأشياء، بل نظرة تحرّف التاريخ بشدة وتعرضه من خلال تحيّز مستمدّ من الحاضر.

لننظر إلى نتائج بحث بسيط كمثل البحث عن «الفن الأوروبي». أي بحث في

(147) Google video at https://developers.google.com/machine-learning/fairnessoverview.

نافذة الصور عن هذه الكلمات سيُظهر مجموعة كبيرة من الصور. قد يتوقع أحدهم أن أُولى الصور ستكون للوحة «الموناليزا»، أو «عباد الشمس» لفان كوخ Van Gogh، أو ما شابه. في الواقع، أول صورة ظهرت هي لوحة لفيلاسكيز Velázquez. قد لا يُثير ذلك الدهشة، إلا أن اللوحة المختارة تفعل ذلك، لأن أول صورة ظهرت عن «الفن الأوروبي» ليست لوحة «الوصيفات»، أو صورة البابا إنوسنت العاشر. أول لوحة لفيلاسكيز تُقدّم لمن يبحث عن «الفن الأوروبي» هي صورة بورتريه لمساعده، خوان دي باريجا Juan de Pareja، الذي كان أسود البشرة.

صورة البورتريه رائعة، لكنها قد تفاجئ إذ تأتي في أول الترتيب. وإن تفحصنا الصف الأول من الصور، نجد الصور الخمس الأخرى تتطابق جميعها مع ما توقعنا الحصول عليه لدى البدء بالبحث، بما في ذلك الموناليزا. ثم تأتي لوحة «العذراء والطفل» (الأولى حتى الآن)، لكنها عذراء سوداء. ثم تأتي صورة بورتريه لامرأة سوداء مجزوءة من شيء يسمى «أشخاص ملونون في تاريخ الفن الأوروبي». ينتهي الصف الذي توجد فيه هذه الصورة بصورة بورتريه لثلاثة رجال سود. ثم صف آخر مع صورتين بورتريه لأشخاص سود. ثمّ لوحة لفنسنت فان كوخ (أول ظهور له حتى الآن). ثم تتوالى الأمثلة على المنوال نفسه. كل صف إنما يُمثّل التاريخ كما لو أنه مؤلَّف في جزء كبير منه من صور بورتريه لأشخاص سود. لا شك في أن ذلك أمر مثير للاهتمام، و«يُمثّل» بالطبع ما يود البعض رؤيته اليوم. لكن ذلك لا يمثّل الماضي بأي حال من الأحوال. ذلك أن تاريخ الفن الأوروبي ليس مصنوعاً بنسبة 20 أو 30 أو 50 في المئة من التمثيلات عن السود. بل إن صور البورتريه عن السود أو التي رسمها سود كانت غير اعتيادية للغاية حتى العقود الأخيرة، أي عندما أخذت شعوب أوروبا تتغير. يُضاف إلى الغرابة في هذا التمثيل للماضي، شعورٌ بالأذية. ذلك أننا نستطيع أن نفهم كيف له أن يُشكّل تمثيلاً مناسباً لمجموعات مختلفة في عقل آلة علّمناها أن

تكون «منصفة». لكن هذا التمثيل ليس بأي حال من الأحوال تمثيلاً أميناً لأوروبا وللفن.

ليس هذا المثال استثناءً لدى google. فالبحث عن صور تتعلق بـ«الغربيين في الفن»، سيقترح لوحة لرجل أسود كأول صورة (مأخوذة من «السود في الفن الغربي في أوروبا»). ومن ثم، تعطي تشكيلة الصور الأرجحيةَ للوحات الأمريكيين الأصليين.

وإن أخبرت google بأنك ترغب في مشاهدة صور لـ«رجال سود»، فإن الصور التي تظهر هي كلها صور بورتريه لرجال سود. ثم عليك أن تتجاوز أكثر من عشرة صفوف من الصور قبل أن يظهر في الصور شخص ليس أسود البشرة. في المقابل، يُعطي البحث عن «رجال بيض» أول ما يُعطي صورة لديفيد بيكهام David Beckham – الأبيض –، تليها صورة لعارضة أزياء سوداء. ثم، يحتوي كل صف رجلاً أسود أو رجلين. والعديد من الصور لرجال بيض هي لأفراد أدينوا بجرائم، مع عبارات ترويجية مثل: «احذر الرجل الأبيض العادي» و«الرجال البيض سيئون».

وعندما تمضي أكثر في هذا النفق المريب، تغدو نتائج البحث أكثر سخافة بكثير. أو، على الأقل، تبدو النتائج سخيفة إذا كنت تتوقع الحصول على ما تريده من بحثك، على الرغم من أنك سرعان ما ستستطيع إدراك الوجهة التي يقودك إليها هذا التضليل.

وإذا ما بحثت في google الصور عن «زوج مثلي»، فستحصل على عدة صفوف من صورٍ لأزواج من المثليين السعداء. أشخاص سعداء وغاية في الوسامة. الآن، ابحث عن «زوج غيري»، فستحصل على صورة أو اثنتين في كل صف من خمسة صور تظهر زوج إناث مثلياً أو زوج رجال مثليين. والواقع أننا نجد في صفوف الصور التي تعرض نتائج البحث عن «زوج غيري»، صوراً لأزواج مثلية أكثر من

صور لأزواج غيرية.

يُعطي البحث بصيغة الجمع تشكيلة نتائج أكثر غرابة بعد. أول صورة تظهر في البحث عن «أزواج غيرية» هي صورة لزوج غيري أسود. الصورة الثانية هي لزوج من الإناث المثليات مع طفل. والرابعة لزوج مثلي أسود، والخامسة لزوج من الإناث المثليات. هذا هو الصف الأول فقط. في الصف الثالث من «الأزواج الغيرية»، تقتصر النتائج على المثليين. ويظهر تاغ على صورة لزوج مثلي خلاسي (أسود وأبيض) يقول: «تتعلم الأزواج من العلاقات المثلية». ثم تاغ آخر يقول: «تستطيع الأزواج الجنسية الغيرية التعلّمَ من الأزواج المثلية». ثم نقع على زوج مثلي مع طفل متبنى. ثم مجرّد صورة لزوج مثلي ساحر من مجلة Winq. والسؤال المطروح: لماذا، بعد ثلاثة صفوف من الصور المطلوبة في البحث عن «أزواج غيرية»، الجميع مثلي؟

لكن الأمر يزداد غرابةً بعد. لدى البحث عن «زوج غيري أبيض»، الصورة الثانية هي لقطة مقرّبة لقبضة كتبت أعلاها كلمة «كراهية». الصورة الثالثة هي لزوج أسود. وإذا ما أطلقنا البحث نفسه بصيغة الجمع («أزواج غيرية بيضاء»)، نقع على سلسلة من الصور الغريبة لدرجة تحملنا على الاعتقاد بخلل ما. فالصورة الثانية هي لزوج خلاسي. الرابعة لزوج مثلي (أسود وأبيض) يحمل طفلين أسودين. في الصفين الثاني والثالث، تعرض الصور على وجه الخصوص أزواجاً من المثليين مع تاغات من قبيل: «أزواج مختلطة الأعراق»، «أزواج مثلية لطيفة»، «لماذا السعادة تصطف إلى جانب الأزواج المثلية أكثر مما إلى صف الأزواج الغيرية».

كرّر عمليات البحث هذه بلغات أخرى وعبر محركات بحث google في بلدان هذه اللغات، وستحصل على مجموعة مختلفة من النتائج. على سبيل المثال، إن بحثت عن «رجال بيض» بالتركية على google التركي، فستحصل على صور عدة لرجال بيض قصار القامة أو لرجال صادف أن اسم عائلتهم « White». أمّا

البحث في google الصور بالفرنسية فيُسفر عن نتائج مطابقة لتلك التي تظهر بالإنكليزية. على العموم، كلما ابتعدت من اللغات الأوروبية، حصلت على ما طلبت رؤيته. ولا تظهر النتائج الغريبة إلا لدى البحث باللغات الأوروبية. لكن البحث بالإنكليزية هو الذي يُعطي النتائج ذات التوجه الأوضح والأكثر جلاءً، والأشد غرابة. والواقع أن غرابة نتائج بعض عمليات البحث بالإنكليزية هي على درجة من التطرف يتضح معها أن المسألة ليست مجرد آلة تحاول تقديم قدر معين من التنوع. ليست المسألة مجرد إنصاف في التعلّم الآلي.

فلئن كنّا سنقع لدى البحث عن «زوج أبيض» على زوج مثلي وخلاسي في الصفوف الخمسة الأولى، ثم على زوج أبيض أنجب أطفالاً سوداً باستخدام أجنة سوداء، لن نقع لدى البحث عن «زوج آسيوي» على سوى ما بحثنا عنه فعلياً. فكتابة «زوج آسيوي» في محرك البحث إنما يُظهر مجموعة من الصور لأزواج آسيوية. يجب الانتظار حتى الصف الرابع للصور حتى نرى امرأة آسيوية في صورة فوتوغرافية مع رجل أسود. وما عدا صورة أخرى مشابهة، تبقى جميع الصور محصورة في حدود أزواج آسيوية. ولا نتلمّس أي جهد لجعل هذه الأزواج مثلية. ليس ثمة أزواج مثلية على الإطلاق.

والحقيقة هي أننا أمام لغز. فإذا ما جرى تطبيق التعلّم الآلي على عمليات البحث وحدها، من الممكن أن يؤدي البحث عن أزواج غيرية بيضاء إلى ظهور بعض الأزواج المثلية. لكن ذلك لا يؤدي إلى إعطاء الأولوية إلى صور الأزواج التي ليست غيرية ولا بيضاء. يبدو أن هناك سعياً متعمداً – في مناسبات محددة – لإعطاء الأفضلية لصور الأزواج التي لا تتطابق مع ما طُلب.

ينتابنا أحساس بأن طبقات ما تغطي مقدراً معيناً من التعلّم الآلي المنصف، وهي طبقات تنطوي على فاعلية وتدخّل بشري. ويبدو أن هذا التدخل البشري قد اختار التعامي بقسوة مع الأشخاص الذين يشعر المبرمجون أو شركاتهم بالغضب نحوهم. لعلّ ذلك يُفسّر لماذا توصلنا عمليات البحث عن الأزواج السود أو

الأزواج المثلية إلى ما ننتظره بالفعل، في حين أن عمليات البحث عن أزواج بيضاء أو غيرية، تغلب عليها أضدادها. ويُفسّر كذلك عدم ظهور حاجة لاستفزاز الأشخاص المهتمين بالبحث عن صور الأزواج الآسيوية أو إعادة تثقيفهم، بينما توجد حاجة لفعل ذلك مع كلمن يبحث عن صور أزواج بيض. وبالمثل، لا حاجة بالغيرين من أصل آسيوي لأن نظهر لهم مجموعة متنوعة من الأزواج الخلاسية ولا أن نقول لهم بأن هذه الأزواج هي ليست طبيعية فحسب، بل هي أكثر طبيعية من غيرها، وأن نغرقهم بصورٍ للمثليين. إن أراد شخص ببساطة أن يبحث عن صور لزوج آسيوي، سيُظهر له محرك البحث مجموعة من الصور لأزواج غيرية آسيوية سعيدة – شابة أو عجوزاً. ولن يحاول google في أي وقت تقويم نظرتهم لما يكونه الزوج أو الشكل الذي قد تبدو عليه العلاقة العادية.

في المقابل، ثمة، في مكان ما من عمليات الترميز، محاولة متعمّدة للغاية لتكدير وسوء معاملة وإرباك، بل وإثارة سخط الأشخاص الذين يبحثون عن مفردات معينة. يبدو أن google يريد تقديم خدمته التي يتباهى بها إلى أناس معينين، ولكن ليس إلى من قد يبحث عن أزواج غيرية أو من العرق القوقازي. فهؤلاء يمثّلون مشكلة على ما يبدو، ويجب إعاقتهم وإحباطهم في محاولتهم الوصول إلى صنف الإحالات التي يبحثون عنها. ويجب صرفهم وطردهم – عبر صورة عملاقة ذات حجم تكنولوجي، تقول: «تباً لكم!». وذلك كلّه من أجل الإنصاف، لا ريب. وهو الأمر نفسه الذي تفعله صحيفة The New York Times بمقالاتها اللامتناهية عن رجال الأعمال المثليين وراقصي الباليه المثليين. لكن وادي السيليكون يُنفّذ الخطة نفسها بإيقاع بالغ السرعة كما لو أنه يهدف إلى جعله غير قابل للإنكار.

الآن، اِبحث عن صور لـ«عائلة سوداء» وسترى عائلات سوداء مبتسمة على طول الخط، ومن دون أن تظهر أي عائلة خلاسية في الأفق. اكتب: «عائلة بيضاء»، وثلاث صور من خمس في الصف الأول هي إما لعائلات سوداء أو

لعائلات خلاسية. قريباً، لن تتبقى سوى العائلات السوداء.

يبدو أنه من أجل تجريد الحواسيب من صنف التحيزات الذي يعاني منه البشر، أعددناها بصنف جديد من التحيزات المضادة. غير أن ذلك يُعطينا نسخة متحيّزة من التاريخ، بالإضافة إلى مجموعة جديدة من الأحكام المسبقة التي حُقنت عمداً داخل المنظومة على يد أشخاص عازمين على مهاجمة آخرين ينظرون إليهم باعتبار أن لديهم أحكاماً مسبقة معينة. خلاصة القول، بغية التخلص من التحيزات البشرية، قام أناس بحشو براجمهم بتحيزات أخرى.

لا تقتصر المشكلة على أناس لا يحصلون على ما ينتظرونه من محركات البحث. فقد اعتاد الناس على المشهد الإعلامي الخاص بنا. إذا قرأت صحيفة The New York Times أو The Guardian، ستعلم ضرب التحيزات التي قد تنطلق منها الصحيفة أو لا، وبناءً على ذلك تستطيع أن تختارها كصحيفتك - أو لا. بالمثل، إذا قرأت The Daily Telegraph أو The Economist أو New York Post، ستعرف توجّه الصحيفة ومحرريها، بل وتوجه مالكيها. حتى وإن لم يكن القارئ يُشارك مواقف الصحيفة ومنظوراتها، فإنه قادر على الفرز في أثناء القراءة وتحديد ما هو مفيد له، ما دام يعرف التوجه العام للمنشور.

ولكن حتى الآن، كانت محركات البحث تُعدّ فضاءً «محايداً». كان من المتوقع أن تثير ضروباً مختلفة من الشذوذ، لكن لا أن تفرض سياسات تحريرية جديدة - والتي، علاوة على ذلك، تتسم بانحياز لافت. يبدو الأمر كما لو أن صحيفة مرجعية قد أثبتت وثوقيتها إلى حد ما في تقاريرها الأجنبية، وبدت منحازة بصورة غير عادية في تغطيتها المحلية، ثم أشارت بصراحة في الصفحات الرياضية إلى أن كل من يحب الرياضة، يجب أن يعاقب ويُعاد إلى رشده.

من الممكن بطبيعة الحال أن يستخدم الناس، حين يصيرون أكثر حكمة بشأن وسائل التواصل الاجتماعي، محركات بحث مصممة خصيصاً لاحتياجاتهم

الخاصة، مثل أي فرد يميل إلى إعطاء الأولوية إلى الأخبار التي تناسب احتياجاته ورؤيته للعالم إلى حد كبير. وقد تشهد شركات التكنولوجيا نجاحاً معيناً، وقد تُقبَل نسخة الأشياء التي تروّج لها على نطاق واسع، أو حتى بالكامل. ما الضير في أن يحسب تلامذة المدارس، بعد جيل أو جيلين، أن بلادهم كانت كما تبدو الآن؟ وأن السود والبيض كانوا موزّعين بإنصاف في أوروبا القرن السابع عشر؟ ما الضير في أن يكون الغيريون في راحة أكثر مع المثليين؟ ما الضير في صور المثليين الذين يظهرون المودّة؟ وأن يحسب الغيريون الشباب أن 50 في المئة من الناس أو أكثر مثليين؟ يمكن لأي كان أن يعاين السهولة التي تُنجز بها تصويبات من هذا النوع. ثم إن كانت هناك فرصة حقيقية لتقليص العنصرية والتحيز الجنسي والمشاعر المعادية للمثليين، مَن لا يرغب في انتهازها بكل ما أوتي من أدوات أو محركات بحث؟

المشكلة الوحيدة، والكبرى، لهذا الموقف الأخير هي أنه يضحّي بالحقيقة على حساب السعي وراء هدف سياسي. فهو يقرر أن الحقيقة هي جزء من المشكلة، وعقبة لا بد من تذليلها. هكذا، عندما يُقدَّر وجود عدم تلاؤم بين التنوع والتمثيل في الماضي، نستطيع حلّ هذه المشكلة بمنتهى السهولة عن طريق تزوير الماضي. قد يكون بعض مستخدمي محرك البحث الأشهر في العالم قد لاحظ شيئاً من ذلك. وقد يكون البعض الآخر قد لاحظ ذلك كله. إلا أن معظم مستخدمي google وtweeter أو أي شبكة أو تطبيق من منتجات التكنولوجيا الكبرى على المستوى اليومي، انتابه بلا ريب الإحساس بأنه في مواجهة ظاهرة غريبة، وهي: حصوله على أشياء لم يطلبها، في إطار مشروع لم يشترك فيه، سعياً إلى هدف قد لا يكون هدفه.

3

العِرق

عندما خطب مارتن لوثر كينغ Martin Luther King بالحشود من على درجات نصب لنكولن التذكاري في واشنطن العاصمة في / 28/ أغسطس / 1963/ ، لم تقتصر خطبته على مناشدة أسس العدالة، المحفورة في التقاليد والمبادئ التأسيسيّة الأميركيّة؛ بل تعدّتها نحو صياغة أبلغ مرافعة قِيلت على لسان شخص حول الطريقة الصائبة للتعامل مع الآخرين. جاء كلامه بعد قرون كان فيها الأميركيون السود عبيداً أوّلاً، ثمّ مواطنين من الدرجة الثانية، وعلاوةً على ذلك، في عصرٍ كانت فيه القوانين العنصرية ما تزال موجودة في المدونات القانونية لبعض الولايات الأميركية. كانت قوانين الفصل العنصري ما تزال سارية، بما فيها قوانين مكافحة اختلاط الأجناس، وتستوجب الملاحقة القضائية للأزواج من خلفيات عرقية مختلفة.

كان الدكتور كينغ يتمتع ببصيرة أخلاقية عظيمة صاغتِ المستقبلَ الذي كان يحلم به؛ مستقبلٌ يستطيع فيه «أطفاله يوماً ما العيش في أمةٍ لا يُحاكمون فيها وفق لون بشرتهم، وإنما وفق ما تمتاز به شخصيتهم». وعلى الرغم من أن عدداً من الأشخاص حاولوا الارتقاء بأنفسهم إل

ى مستوى هذا الأمل، ونجح في ذلك كثير منهم، نشأ في السنوات الأخيرة تيار غادر، اختار رفض حلم الدكتور كينغ بالإصرار على أنّ ما تمتاز به الشخصية ليس شيئاً مقارنة مع لون بشرة الشخص، وقرر أنصاره أن لون البشرة هو المهم وحده.

في السنوات الأخيرة، تنبّه العالَم إلى أحد آخر الدهاليز التي تنشط فيها هذه اللعبة الخطرة. فمنذ الانتخابات الرئاسية الأميركية لعام /2016/ ، صبّ الاهتمام الإعلامي المكثّف تركيزه على بقايا نزعة التفوّق الأبيض والنزعة القومية البيضاء، الناشطتان في الولايات المتحدة وأجزاء من أوروبا. لكن الموقف العام إزاء ناشطي هاتين النزعتين كان مجمع عليه. لم يستفد هؤلاء إلا بقليل من الدعم لما يخاطرون باللعب به مستخدمين أحلك عناصر التاريخ. تلخّصت ردود فعل جميع وسائل الإعلام والسياسيين تقريباً في إدانةٍ لا لبس فيها للعنصرية التي أبداها الأشخاصُ المتبنون النزعة القومية والعرقية البيضاء.

بيد أنّ أكبر تراجع عن حلم الدكتور كينغ لم يأتِ من هذا الجانب، بل جاءَ على أيدي أشخاص يحسبون أنهم ماضين على الدرب الذي رسمه القسّ الأسود من على درجات نصب لنكولن التذكاري في عام 1963. ذلك أنّ الرؤية التي يحملونها للكفاح ضد العنصرية دفعتهم إلى نقل العرق من مصاف القضايا المهمة إلى مصاف القضايا الأهم، ولا شيء آخر غيرها مهم. ففي وقت كانت فيه قضية العرق على وشك التسويّة، قرروا من جديد جعلها أهمّ قضية على الإطلاق.

الجامعة

شهدت العقود التي تلت الستينيات صعودَ «دراسات سواد البشرة» في الجامعات الأميركية. وأسوة بحقول بحثية أخرى حول الهَويّات الجماعية، تمثّل الهدف من هذه البرامج في البداية في «رفع الوصم» عن المجموعات المعنية وتثقيف الجمهور حول جانب مهم من تاريخه. مثل «دراسات المثلية الجنسية»

و«دراسات النسوية»، كان الهدف من «دراسات سواد البشرة» التشديد على جانب بعينه من التاريخ والسياسة والثقافة والأدب. هكذا، كان على برامج الأدب الأسود أن تستحضر الكتّاب السود الذين تغفل عنهم برامج الأدب الأخرى. وأمّا الشخصيات السياسية السوداء التي قد تُهمل داخل مقاربة عامة لعصر أو بلد ما، فيمكن إبرازها في برنامج للتاريخ حول السود. والحقيقة أنّ حقول البحث هذه نشأت بعد أن دخل الكتّاب والسياسيون السود في جميع المناهج الأخرى، الأمر الذي يُشكّل ظاهرة غريبة. من آثار ذلك أنه، عندما بدأت الاختلافات العرقية بالتضاؤل والاختفاء، وجدت نفسها فجأة مُدرَجةً ومُحدَّدة داخل حقول متخصِّصة ومكرَّسة لها. هكذا، أصبح لـ«الأدب الأسود»، كمثل «أدب المثليين» و«أدب النساء»، قسمٌ خاص به في المكتبات التجارية والعامة.

وكما حدث مع النسويّة، فبعد أن أحرزت «دراسات سواد البشرة» نصراً مبيناً وكانت المساواة بين الأعراق في أفضل وضع لها على الإطلاق، دخل خطابٌ ناشط وتيار من الأفكار شديد العدائية إلى هذا الحقل المعرفي. وأيضاً كما حدث مع النسويّة التي انتقل تيار منها من الاحتفاء بالمرأة إلى مذمّة الرجل، اختار جزءٌ من «دراسات سواد البشرة» مهاجمةَ كلّ مَن ليس بأسود. فتحوّل الفرع المعرفي الذي كان من المفترض به رفع الوصم، إلى تمهيد الطريق صوب وصم جديد. ظهر المعادل العرقي لنسوية الموجة الرابعة داخل انطلاقة «دراسات بياض البشرة»، وهو فرع معرفي بات يُدرّس في جامعات رابطة اللبلاب[148] (Ivy League) جميعها، كما في الجامعات الإنكليزية والأسترالية. يُدرّس هذا الفرع من النظرية النقدية في جامعة ويسكونسن في ماديسون، والتي تقدم برنامجاً يُسمّى «مشكلة أن تكون أبيضاً»؛ وكذلك في جامعة ملبورن في أستراليا التي ضغطت فيها مجموعة من الأكاديميين بغية جعل «دراسات بياض البشرة» جزءاً إلزامياً من التكوين في حقول معرفية لا صلة لها مع هذا المحور. كلّ مَن لُقِّم بمفهوم تقاطع أشكال

(148) مصطلح يُطلق على تجمّع يضم مجموعة من أرق الجامعات الأميركية وأقدمها، وهي عارفرد وييل وبرنستون وبنسلفانيا وبراون وكورنيل ودارتموث وكولومبيا. (م)

التمييز سيتعرّف إلى أثره في هذا التحوّل.

فيما يأتي تعريف «موسوعة بحوث جامعة أكسفورد» لـ«دراسات بياض البشرة»:

حقل للدراسات يشهد توسّعاً متزايداً، ويهدف إلى الكشف عن البنى الخفية التي تُنتج تفوّق البيض وامتيازاتهم. تفترض «دراسات بياض البشرة» النقدية وجود شرطٍ معين للعنصرية مقترن بنزعة تفوق البيض.

من الواضح أنّها «تفترض» ذلك. لكن مؤلفة هذه المادة المعجمية – الأستاذة في جامعة سيراكيوز، باربرا أبلباوم Barbara Applebaum – شأنها شأن الآخرين في هذا الحقل، تستمد سبب وجودها من هذا الافتراض. في كتابها المنشور عام 2011، بعنوان Being White, Being Good: White Complicity, White Moral Responsibility and Social Justice Pedagogy [أن تكون أبيض البشرة، أي أن تكون جيّداً: التواطؤ الأبيض، والمسؤولية الأخلاقية البيضاء، وبيداغوجيا العدالة الاجتماعية]، تشرح لنا أبلباوم أن البيض الذين يصرحون علانية بمعارضتهم للعنصرية، لا يعني انتفاء العنصرية في دخيلتهم، لكنهم غير مدركين بعد للكيفيات الخاصة التي تعتمل وفقها عنصريتهم. تدعو أبلباوم الطلاب البيض إلى تعلم الإصغاء إلى الآخرين، وإلى الاعتراف بـ«تواطؤهم» مع العنصرية؛ وانطلاقاً من ذلك، تعلّم كيفية «بناء التحالفات». ذلك أننا لسنا هنا إزاء مجرّد حقل للدراسات الأكاديمية. بالنسبة إلى أبلباوم، وكما تقول هي نفسها في «موسوعة أوكسفورد»، يتعلق الأمر بشنّ حملة لا هوادة فيها ولا مجاملة؛ حملةٍ تتسم بجميع الخصائص المميّزة المألوفة، ليس للتربية، بل لتربية جديدة. الأمر شبيه بعض الشيء بـ«اختبار للتحيزات اللاواعية»، يُجريه عليك شخص سبق وأن حكم عليك بأنّك مذنب.

تتحدث أبلباوم عن «تعزيز أهمية التيقّظ لدى البيض»، وتعليمهم «معنى

الامتياز الأبيض»، وكيف أنّ «هذا الامتياز على تواطؤ مع العنصرية». وبالطبع، فإنّ ذلك كله لا يوجد في الفراغ، بل في وضعٍ «تتفشى» فيه العنصرية وتُسفر – كما تقول أبلباوم بطريقة مخيبة للآمال بعض الشيء – عن «آثار عنيفة... وهو أمر برهنت عليه أعمال العنف العنصري في وسائل الإعلام». ومع ذلك، فإن «موسوعة أكسفورد» واضحة بخصوص هدف هذا البرنامج. ففي حين تحتفي «دراسات سواد البشرة» بالكتّاب السود وتاريخ السود، وتُبرز «دراسات المثلية الجنسية» الشخصيات المثلية وتضعها في الصدارة، فإن «دراسات بياض البشرة» بعيدة كل البعد عن أن تكون برنامجاً احتفائياً – هذا إن كان برنامجاً أصلاً. وتفتخر أبلباوم في أنّ غاية «دراسات بياض البشرة» هي «الالتزام ببلبلة العنصرية من خلال أشكلة البياض». ويجب أن تتمّ هذه البلبلة بوصفها «تصويباً». واللافت أنه في حين صُمِّمت جميع برامج الدراسات العرقية الأخرى ضمن مناخ احتفائي، يتمثّل الهدف من هذا البرنامج في «أشكلة» مئات ومئات الملايين من البشر.

انطلقت أبلباوم من اقتباسِ ملاحظةٍ قدّمها وليام إدوارد بورغاردت دو بويز W. E. B. Du Bois، مفادها أنّ «حدود اللون الفاصلة» هي السمة المميزة للمجتمع الأميركي، وكتبت: «ستستمر رؤية دو بويز هذه بتقديم فهمٍ مصيب لهذا المجتمع إلى أن يتعلم البيض الاعتراف – بدلاً من الإنكار – بكيفية تواطؤهم مع العنصرية، وإلى أن يطوّروا وعياً من شأنه أن يستحضر من جديد وبطريقة نقدية أطرَ الحقيقة وتصورات «الخير» التي يفهمون من خلالها عالمهم الاجتماعي».

نستطيع بالطبع الرد بما هو أقرب إلى الصواب والقول بأن الدليل الدامغ على العنصرية إنما هو تعريف مجموعة كاملة من الناس ومواقفهم وعيوبهم وأخلاقياتهم انطلاقاً من خصائصهم العرقية وحدها. فمن أجل «أشكلة البياض»، لا بد من إظهار أن البيض أنفسهم هم مشكلة، ليس على المستوى الأكاديمي والمجرّد فحسب، بل من خلال التأنيب اليومي لفئة بأكملها. وكما

يحدث غالباً، وجد هذا الترويج داخل المجتمع بأسره لتصورٍ متحدّر من الوسط الجامعي أبرز تعبير له في عالم المشاهير الذي تحوّل من اللامبالاة إلى الهوس العرقي، شأنه في ذلك شأن جميع حقول الحياة الأخرى.

«أشكلة» الممثل أرمي هامر Armie Hammer

لنتأمل حالة الممثل أرمي هامر الذي أصبح مشهوراً في عام 2017 مع الفيلم الرمنسي المثلي Call Me By Your Name [نادني باسمك]. ولسوء حظ شهرته، هامر نفسه ليس مثلياً. لكنه رجل وأبيض. لذلك عندما أشادت الانتقادات بالفيلم الذي أدى فيه دور البطولة، ورُشّح للجوائز، كان موقفه ضعيفاً جداً. اختارت شركة Buzzfeed الإعلامية أن تنشر مقالةً من ستة آلاف كلمة بعنوان Ten long years of trying to make Armie Hammer happen [عشر سنين طوال من محاولة أن يصير آرمي هامر ظاهرةً]. يمكن الآن استخدام العرق والسياسة العرقية سلاحاً بغية بثّ السمّ في كل شيء. كما قالت «الكاتبة الثقافية الأقدم» في هذه الشركة داخل عنوانها الفرعي: «كم من فرصٍ ثانية تتاح لنجمٍ ذكرٍ، أبيض اللون وسيم الطلعة؟» ووفق آن هيلين بيترسن Anne Helen Petersen، كان لنجم الفيلم «الطول والتسريحة الجانبية واللاحة الجميلة القديمة التي قادت المخرجين إلى مقارنته مع غاري كوبر Gary Cooper. زد على ذلك أنه يتصرف تصرّف مَن ترعرع مع المال: بثقة وجاذبية. أو إذا ما تبنينا وجهة نظر أقل كرماً من ذلك، مثل أحمق صغير». ثمّ انتقلت الكاتبة إلى الاستهزاء بمختلف المشروعات السينمائية التي أدى فيها هامر دوراً، وانتهت إما بسرعة أو منيت بالإخفاق. فبعد أن اختير ليؤدي دور بروس واين Bruce Wayne الشاب في فيلم مستوحى من القصة المصوّرة Justice League [قضاة العدالة]، أخفق المشروع: «فجأة انتهى طريقه إلى النجومية الفورية». وفي نبرة من التلذذ المعلن، أحصت بيترسن «الأفلام الغربية الفاشلة»، «والأفلام ذات التكلفة الباهظة والهابطة»، و«الأفلام المرموقة» التي «مُنيت بالفشل»، وكيف تحوّلت واحدة من «أكبر القنابل

الصيفية على الإطلاق» والمفضّلة لجوائز الأوسكار إلى مجرّد «ومضة على رادار موسم الجوائز». وعلى الرغم من ذلك، لم تتوقف بيترسن عن الشكوى من أن فريق الدعاية التابع لهامر «لم يكل أو يمل من محاولته جعل أرمي هامر ظاهرةً».

بدا أن الهدف من هذا المقالة اللامتناهي – الذي كتبته امرأة بيضاء – هو مهاجمة هامر، ليس لأنه فاشل فحسب، بل لأنه أبيض أيضاً – وبصورة خاصة بسبب «الامتياز» الذي لاح لبيترسن في كل مرحلة من حياة هامر المهنية. وتشرح بيترسن أن «هوليود لن تتخلى أبداً عن رجل بهذه الوسام وهذا القدّ المشوق وهذا البياض وهذا الفكّ المربّع، ولهذه الأسباب لا يزال هامر من الممثلين المهمّين، على الرغم من الاستخفاف الذي يوحي به لصحفيّة Buzzfeed. وزادت على ذلك بالقول: «في هوليود، لا أحد ينال فرصة ثانية مثل تلك التي ينالها الغيريون البيض». ثم اختتمت: «في نهاية المطاف، ليست المشكلة في أن أرمي هامر قد مُنح عدداً من الفرص في سبيل شهرته. فالمنظومة التي ضمنت له هذه الفرص – ومثل هذه الفرص أعطيت لرجال بيض مثله – تَحجب أيضاً الفرص وهامش الأمان والثقة عن أشد مَن يحتاج إليها، وقد يستفيد منها أكثر من غيره»[149].

على ذلك ردّ هامر بتغريدة يقول فيها: «تأريخك للوقائع كامل، لكن وجهة نظرك فظّة. ربما لست سوى رجل يحب عمله، ويرفض فعل أيّ شيء سوى ما يحب فعله...؟». ثم غادر tweeter. جاء آخرون للدفاع عنه. أكد أحد مستخدمي tweeter أن هامر أمضى العامين الماضيين وهو يدافع عن «المخرجين السود وقصص الأفلام التي تحكي عن السود والمثليين. إنّه من الأخيار». لكن ناقداً سينمائياً وتلفزيونياً من مجلة Forbes هاجم المدافعين عن هامر، بالقول: «اسألوا أنفسكم إذا كنتم تدافعون عن الممثلين والممثلات الملونين بالقدر نفسه، وإلّا، أرجو شاكراً أن تغلقوا فمكم». ذكّر آخرون الجميعَ بأن لوكا غواداغنينو Luca

(149) Anne Helen Petersen, 'Ten long years of trying to make Armie Hammer happen', *Buzzfeed*, 26 November 2017.

Guadagnino – مخرج الفيلم (الذي هو، على الأقل، مثلي الجنس) – قد تعرض لانتقادات في وقت سابق لأنه لم يُعط «أدوار المثليين في فيلمه إلى ممثلين مثليين»[150]. في مقابلة أجريت معه، حاول غواداغنينو أن يشرح أنه اختار الأشخاص الذين يعتقد أنهم يمتلكون الكيمياء المصيبة، لا الجنسانية المصيبة. وللدفاع عن نفسه شدّد على أنه «مفتون بنظرية الجندر»، وأنه درس جوديت بتلر Judith Butler – المنظّرة الأميركية في هذا المجال – و«لفترة طويلة»[151]. وهو الأمر الذي خلّصه من ورطته. خلاصة القول: تبيّن أن «أشكلة» ممثل أبيض هي من المسائل المعقدة والنموذجية للغاية في هذا العصر.

على الرغم من أن البعض قد يعتقد أن بإمكان ممثل كهامر تولي الأمر – إذ حتى وإن لم يكن يحتل موضع الصدارة في مجاله المهني، فقد قدم أداءً أفضل من معظم الممثلين العاملين في هذا المجال، وكوفئ على ذلك كما ينبغي –، تبقى المسألة أن «أشكلة البياض» تعني «أشكلة البيض». يبدو من الواضح أن التحديات ذات الصبغة العرقية، عندما تصبح رائجة وشائعة، لا تخفّف الضغط بأي حال من الأحوال، بل تفاقم الحالة التي يُنظر إلى كلّ ما فيها لا من منظور العرق، ولكن من خلال أشدّ العبارات العنصرية والعدوانية.

هكذا، حتى مناهضة العنصرية أصبحت عنصرية. كان أحد المبادئ الأساسية لمناهضة العنصرية في العقود الأخيرة هو فكرة «عمى الألوان» التي حلم بها مارتن لوثر كينغ في عام 1963. وهي فكرة مفادها أن على لون البشرة أن يغدو من اللامعنى في هوية شخص ما إلى درجة يمكن تجاهله كلياً. إنها فكرة تجاوز العرق، ولعلها الحل الوحيد المتاح، وهي فكرة جميلة، إذ تمنع العرق من تلوين جميع جوانب التفاعلات البشرية مرة واحدة وإلى الأبد. مع ذلك، تعرضت هذه الفكرة

---

(150) "نجم فيلم [نادني باسمك]، أرمي هامر، يُغادر تويتر بعد تنديده بمقالة "فظة" في *Buzzfeed*، 26 نوفمبر 2017.

(151) Ashley Lee, 'Why Luca Guadagnino didn't include gay actors or explicit sex scenes in "Call Me By Your Name" (Q&A)', *The Hollywood Reporter*, 8 February 2017.

للهجوم في السنوات الأخيرة. هكذا، صرّح إدواردو بونيلا سيلفا Eduardo Bonilla-Silva، رئيس «جمعية علم الاجتماع الأميركية» والأستاذ في جامعة يوك، أن الفكرة القائلة بمجتمع «مصاب بعمى الألوان» تُشكّل فعلياً جزءاً من المشكلة. شنّ بونيلا سيلفا حرباً شخصية ضد فكرة «عمى الألوان»، وشبّه هذا المفهوم نفسه بالعمل العنصري. في كتابه الصادر عام 2003 بعنوان Racism without Racists [عنصرية من دون عنصريين] (الذي أعيد طبعه أربع مرات حتى اليوم)، ابتكر بونيلا سيلفا مصطلح «عنصرية عمى الألوان». ثمّ أتى أكاديميون آخرون من بعده وعملوا على تطوير هذه الحجة.

عام 2018، حضر مئات الأساتذة الجامعيين في بريطانيا ورش عمل، طُلب فيها منهم الاعتراف بـ«امتيازهم الأبيض»، والإقرار بأن «بياضهم» يمكن أن يجعلهم عنصريين، وحتى من دون درايتهم. دُعي الأساتذة في جميع الجامعات إلى الاعتراف بأن البيض يتمتعون بمزايا غير مكتسبة بسبب لون بشرتهم، وبأن الموظفين والطلاب والزملاء السود يتعرضون بصورة روتينية للتمييز العنصري. في ندوة في جامعة بريستول استضافتها «المجموعة الاستشارية للموظفين السود والآسيويين والأقليات العرقية»[152]، وعدَ أحد المتحدثين بأن تدعو مؤسسته أساتذة جامعيين إليها «لتفحّص الدور المدمّر للبياض والاعتراف به»[153]. والجدير بالذكر أن هذه الأفكار قد ولدت في أميركا، بتاريخها الخاص بالعلاقات بين الأعراق المختلف جداً عن تاريخنا. إلا أن إحدى السمات اللافتة في عنصرية مناهضي العنصرية هي افتراضها أن حالة العلاقات العرقية هي نفسها في كل مكان وزمان، وأن المؤسسات التي يجب أن تكون الأقل عنصرية في التاريخ، هي فعلياً على وشك تفجير إبادة عنصرية جماعية.

بيّن غريغ لوكيانوف Greg Lukianoff وجوناثان هايدت Jonathan Haidt في

(152) Black, Asian and Minority Ethnic Staff Advisory Group

(153) '"White privilege" lessons for lecturers', *The Sunday Times*, 11 March 2018.

كتابهما الصادر عام 2018 بعنوان [الحماية الفائقة للعقل الأميركي]، أنّ النزعة الكوارثية أصبحت أحد المواقف المميزة لعصرنا. وكما يقال للنساء إننا نعيش في ثقافة شاع فيها الاغتصاب حتى صار من الممكن وصفها بـ«ثقافة الاغتصاب»، ينتهج الناس سلوكات كما لو أنهم يعيشون في مجتمع يتأرجح على حافة الهتلرية. الغريب في كلتا الحالتين أن أكثر المطالبات تطرفاً إنما تصدر في الأماكن التي يقل احتمال أن تعرف مثل هذه الكارثة. هكذا، في حين أن هناك دولاً في العالم يمكن وصفها بأنها تتسم بشيء أقرب إلى «ثقافة الاغتصاب» (الاغتصاب فيها بلا مقاضاة، بل ومحمي من القانون)، لا يمكننا منطقياً أن نُدرج الديمقراطيات الغربية بين هذه البلدان. وبالمثل، ففي حين أن هناك مناطق في العالم تنتشر فيها العنصرية، ومجتمعات قد تنزلق في أيّ لحظة إلى عيش دهاليز الكابوس العرقي، فإن أحد أقل الأماكن المعرّضة للانزلاق إلى التطهير العرقي على غرار ما حدث في ألمانيا الثلاثينيات، لا بدّ أن يكون جامعة للعلوم الإنسانية في دولة ليبيرالية من أميركا الشمالية. والغريب أننا نعثر على أشدّ المطالبات والسلوكات المتطرفة في العالم في هذه الأماكن بالتحديد.

«إزالة الاستعمار» عن إيفرغرين

تختص كلية ولاية إيفرغرين[154] في أولمبيا بواشنطن بتقليد يدوم منذ عقود، ويُعرف باسم «يوم الغياب». التقليد مأخوذ من مسرحية لدوغلاس تورنر وارد Douglas Turner Ward تحمل الاسم نفسه، وتمّ عرضها لأول مرة عام 1965. كانت فكرة هذا التقليد أن يغادر جميع الطلاب وأعضاء الهيئة التدريسية الذين ينتمون إلى جماعة عرقية أقلية الحرمَ الجامعي ليوم واحد للالتقاء ومناقشة القضايا ذات الصلة، ولفت الانتباه إلى أهمية إسهاماتهم في المجتمع بأسره. استمر هذا التقليد حتى عام 2017 عندما أُعلن عن قلب «يوم الغياب» هذا العام في الاتجاه

(154) Evergreen State College

المعاكس. إذ أعلن المنظمون هذه المرة أنهم يرغبون في أن يظلّ جميع البيض بعيداً عن الحرم الجامعي طوال اليوم.

اعترض أحد أعضاء الهيئة التدريسية في الكلية على ذلك، وهو أستاذ الأحياء بريت وينشتاين Bret Weinstein. فبعد أن درّس في الكلية مع زوجته لمدة 14 عاماً، لم يكن لديه أيّ مشكلة مع الترتيبات السابقة لهذا اليوم. ولكن كما أشار في رسالة مرسلة إلى قائمة البريد الإلكتروني في الحرم الجامعي:

ثمة فارق كبير بين مجموعة أو تحالف يقرّر التغيّب طواعية عن فضاء مشترك من أجل تعزيز مكانة أدواره الحيوية والتي لا تحظى بالتقدير الكافي والوافي (وهو محور مسرحية دوغلاس تورنر وارد، Day of Absence [يوم الغياب]، كذلك مظاهرات يوم المرأة)، ومجموعة تدعو أخرى إلى المغادرة: الأولى هي نداء قوي لضمير كلّ واحد منّا، ومن شأنها بالطبع أن تشلّ منطق الاضطهاد، والمجموعة الثانية هي استعراض قوة وفعل من أفعال القمع الأشد وضوحاً.

ثم يؤكد وينشتاين أن أحداً لن يُجبره بأي حال من الأحوال على الابتعاد عن الحرم الجامعي طوال اليوم. وعبّر عن اعتقاده بأن «الحق في الكلام – أو الوجود – لا يجب أن يؤسس على لون البشرة».

لم يكن بريت وينشتاين نموذجَ الأستاذ الجامعي الذي يمكن أن نتهمه العنصرية، فقد كان ناشطاً يسارياً تقدمياً، ومناصراً لبيرني ساندرز Bernie Sanders. لكن ذلك لم يحل دون أن تكال له اتهامات كهذه. فما إن نُشرت أخبار البريد الإلكتروني حتى تجمّعت مجموعة من الطلاب أمام القاعة التي يُدرس فيها وينشتاين. حاول الأخير أن يفتح معهم حواراً حضارياً لمناقشة سوء الفهم وإعادتهم إلى جادة الصواب، وسُجّلت نتائج هذا الحوار على الهواتف المحمولة مع الطلاب. حاول وينشتاين أن يُشير إلى وجود فرقٍ بين «النقاش والديالكتيك». ثم قال موضِّحًا إنَّ «النقاش يعني أنكم تحاولون الفوز، والديالكتيك يعني أن تستخدموا الخلاف بغية اكتشاف الصواب. من جهتي لست مهتماً بالنقاش. لا

أهتم إلا بالديالكتيك، ما يقتضي أن أصغي إليكم وأن تصغوا إلي». لم يستقبل الطلاب المجتمعون هذا الاقتراح بصدر رحب. صرخت شابة في وجه وينشتاين الذي صمّ أذنيه بيديه: «آخر ما يعنينا هو ما تتحدث عنه، نحن لا نتحدث من خلال مصطلحات وضعها الامتياز الأبيض». أخذ آخرون يُحدثون الضجيج ويصرخون، وبدأ الجو العام يزداد توتراً وعدائية. ثم صاح طالب: «هذا ليس حوراً. أنت خسرت هذه الفرصة».

أصرّ وينشتاين على موقفه قائلاً: «أنا أتحدث عن مصطلحات تلائم الحقيقة». وسرعان ما قوبلت هذه الملاحظة بالسخرية والضحكات العالية. صرخ آخر: «لقد تفوهت بأمور مقرفة عنصرية. تباً لما يمكن أن تقوله». علا الصراخ، ولم يعد ممكناً تمييز الكلام. قال شخص آخر للطلاب: «هل ترغبون في سماع الإجابة أو لا؟»، ولم يحصل إلا على «لا!» مدوّية. ثم صرخ أحد الطلاب: «كفّ عن القول إنّ الأشخاص الملونين عديمو الفائدة. أنت عديم الفائدة. ارحل من هنا! اللعنة عليك، أيها القذر»[155].

بدأ الأمر يخرج عن السيطرة في جميع أنحاء الحرم الجامعي. أُستدعيت الشرطة التي تعرضت للإهانات من مجموعات طلابية تركض في جميع الاتجاهات. احتشدت مجموعة أمام مكتب رئيس الكلية جورج بريدجز George Bridges، وهتفت بعبارات من قبيل: «القوة السوداء!» و«هاي هاي، هو هو، يجب أن يغادر هؤلاء الأساتذة العنصريون!». في أحد الفيديوهات، نرى طالباً أسود بشعر وردي يتأكّد من منع بريدجز والموظفين الآخرين مغادرة مكتب الرئيس. نرى هذا الطالب نفسه، وهو يشرح لاحقاً أن «حرية التعبير ليست أهم من حياة السود والعابرين والنساء والطلاب في هذا الحرم الجامعي». في النهاية، احتل الطلاب مكتب الرئيس. غير أن ما حدث بعد ذلك كان سريالياً لأيّ مراقب خارجي.

(155) انظر المشاهد المصوّرة في YouTube على الرابط:
https://www.youtube.com/watchv=LTnDpoQLNaY

رفض الطلاب السماح لبريدجز بالمغادرة. في لحظة معينة، طلب إليهم السماح له بالذهاب إلى الحمامات، لكن طلبه هذا قوبل بالرفض. كرّر بريدجز متوسلاً: «عليّ أن أتبوَّل». ردّ عليه أحد الطلاب بشي من اللامبالاة: «أمسك نفسك». في النهاية، جرى الاتفاق على السماح له بالذهاب إلى الحمامات، لكن بشرط أن يصحبه اثنان من الطلاب إلى هناك وأن يعودا معه[156]. بالنسبة إلى مَن يدعي القلق من الفاشية الصاعدة، أثبت هؤلاء الطلاب قدرات لافتة على التنظيم والتصرف كمثل الميليشيات النازية.

أظهرت مزيد من اللقطات المسجّلة على الهواتف المحمولة لاحقاً الرئيسَ (المتبحر في العلوم الاجتماعية والذي أمضى حياته المهنية في الدفاع عن العدالة الاجتماعية)، وهو يجادل الطلاب في مكان آخر من الحرم الجامعي. في أثناء محاولته الحوار معهم، منهم مَن صرخ في وجهه: «اللعنة عليك يا جورج، لا نريد أن نسمع منك أيّ شيء تريد قوله. أغلق فمك، اللعنة». حاولت امرأة أن تشرح للرئيس أنّ «هؤلاء الناس غاضبون، لذا فإنّ المهم هو ما يقولونه، وليس الطريقة التي يقولون بها». ثم نسمع صيحات حول «امتياز البيض»، وعندما كان الرئيس يهزّ رأسه بتمعّن، تعرّض لتوبيخ الطلاب الواحد تلو الآخر. اتهمته طالبة سوداء بأنه يعطي انطباعاً بتبسيط الأمور: «لسنا حمقى، إننا بالغون. وها أنا أقول لك، أنت تتحدث إلى سلفك. فقد كنّا هنا قبلكم. ونحن من بنى هذه المدن. كانت لدينا حضارة قبلكم بكثير. اخرجوا من كهوفكم، هل فهمت؟».

صرخ آخر في وجهه: «لديك من الجرأة اللعينة لتجريدنا من الإنسانية...». ثم قاطعهم آخر لإثارة اضطهاد «العابرين جندرياً أيضاً»، لأن هناك «استهداف

---

(156) انظر:
'Campus argument goes viral as Evergreen State is caught in racial turmoil', *Vice News*, 16 June 2017;
على الرابط:
https://www.youtube.com/watch?v=2cMYfxOFBBM

لهم». ردّ البعض: «اللعنة، نعم»، لكن التصفيق كان أقل مع مطالب العابرين مقارنةً مع كل ما يتعلق بالعرق. في النهاية، فشل الحوار، واجتمع عديد من الطلاب حول بريدجز، وهم يصرخون في وجهه، وراح رجل ضخم يلوّح مهدداً بذراعيه. بعد فترة وجيزة، رفع الرئيس يديه بتواضع في محاولة لتأكيد نقطة نظام. قال له أحد الطلاب: «ضع يدك جانباً يا جورج»، «لا تشرْ بإصبعك»، ثم حذّره آخر: «هذا ليس لائقاً». ذهب باتجاهه طالبٌ ليظهر له كيف عليه الوقوف: يجب أن تكون يداه مستقيمتين إلى جانبيه عندما يتحدث. صرخ بعضهم: «عليك أن تخفض يديك. هل تعلم أن عليك أن تخفض يديك!» وما إن فعل بالضبط ما طُلب منه، تعالت الضحكات من هنا وهناك[157]. لا تعبّر هذه الضحكات عن الارتياح من زوال خطر إصبع ترتفع محذرةً، بل تشي بفرح نراه على وجوه أناس نجحوا في إذلال رجل أكبر سناً وأكثر خبرة منهم. وفي اجتماع آخر مع الطلاب، طُلب أيضاً من الرئيس إنزال يديه. قالت له شابة: «أنزل يديك». ثم نهضت شابة سوداء أخرى وهي تقول: «لديّ مشكلة، جورج، أنت تستمر في هذه الحركات الصغيرة بهذه اليد أو تلك. حسنٌ، سوف أنهي استعمار هذا المكان. سأقوم فقط بالتجوّل فيه». ثم علا التصفيق والصياح. «لم يعد لدي يدان»، قال بريدجز واعداً ومحاولاً مواصلة الحوار ويداه خلف ظهره، والشابة تتجوّل وهي «تنهي استعمار» المكان[158].

كلّما ازدادت روح التمرّد في الحرم الجامعي، أقنع طلاب إيفرغرين أنفسَهم بأنهم يواجهون أستاذاً يُعلن عنصريته ومؤسسة عنصرية عنصريةً صريحة. سرعان ما عُثر على زمرة من الطلاب يستخدمون مضارب بيسبول وأسلحة أخرى، وهي تجوب الحرم، وتطارد الطلاب، وتعتدي عليهم، وتخطط على ما يبدو لأذية

(157) انظر المشاهد المصورة في YouTube على الرابط:
https://www.youtube.com/watchv=BzrPMetGtJQ
(158) انظر المشاهد المصورة في YouTube على الرابط:
https://www.youtube.com/watchv=RZtuDqbfO5w

الأستاذ وينشتاين وعائلته التي كانت تعيش آنذاك مقابل الكلية. أصبحت الانزلاقات نحو العنف من الخطورة حدّ تدخلت الشرطة وأغلقت الحرم الجامعي لأيام عدة. مُنعت الشرطة من تطبيق القانون ورأت نفسها محبوسة داخل مركز الشرطة، فاتصلت بوينشتاين، وطلبت منه الابتعاد عن الحرم الجامعي ونقل زوجته وأطفاله إلى مخبأ حفاظاً على سلامتهم. غداة هذا المشهد، حذّرت الشرطة وينشتاين أمام قاعته من أنّ المتظاهرين يبحثون من سيارة إلى أخرى في المنطقة، ويسألون عن وثائق هوية الركاب بحثاً عنه. لم يَسلَم طلابه – وغيرهم ممن يُشتبه أنّ لديهم آراء مخالفة – من مضايقة الحشود ومطاردتهم. أبقى أحد الطلاب هاتفه يعمل عندما تعرّض للاعتداء على يد حشد من الناس. بعد الحادثة، ادّعت شابة متورطة في الاعتداء أنهم هاجموا هذا الطالب لأنهم وجدوه وهو «يكتب خطاباً يحض على الكراهية»[159].

لا نفي الحالة حقّها إن نحن قلنا إن إيفرغرين أصبحت مهووسة بالعرق خلال هذه الفترة. في اجتماع لاحق لمجلس إدارة الكلية، روى أحد الطلاب البيض: «قالوا لي أكثر من مرة أنه غير مسموح لي بالتحدث لأنني أبيض. يبدو أن هذه المدرسة تركّز كثيراً على العرق لدرجة أنها أصبحت فعلياً أكثر عنصرية ولو بطريقة مختلفة»[160]. لكن طلاباً آخرين تبنوا وجهة نظر مختلفة. قالت فتاة بيضاء (ذات شعر وردي مرة أخرى) في مقابلة معها: «لم أعد أهتم بما سيحدث لبريت بعد الآن. يستطيع أن يذهب حيثما يشاء، ويكون عنصرياً قذراً إن أراد ذلك، نأمل أن نتمكن على المدى الطويل أن نتخلّص من أمثال بريت»[161].

بعد ما حدث، لم يُدرِّس وينشتاين في إيفرغرين مرة أخرى. خرج واحد فقط

---

(159) انظر المشاهد المصورة في YouTube على الرابط:
https://www.youtube.com/watch?v=Pf5fAiXYr08&t=1941s

(160) من اجتماع مجلس إدارة كلية إيفرغرين. في 12 يوليو 2017. انظر في YouTube على الرابط:
https://www.youtube.com/watch?v=yL54iN8dxuo

(161) *Vice News*, 16 June 2017.

من زملائه أو زملاء زوجته الأكاديميين في إيفرغرين علناً لدعم حقه في اتخاذ الموقف الذي اختاره. بعد مرور أشهر عدة، تفاوض هو وزوجته على تسوية ثم غادرا منصبيهما.

يجب كتابة أطروحة كاملة لتحليل الاضطرابات التي وقعت في إيفرغرين في تلك الأيام، من دون إغفال نظرةِ الطلاب والآخرين إلى ما حدث بالفعل. ففي هذه الحادثة، اجتمعت جميع الخصائص التي تسبب الانفجار داخل الحرم الجامعي الحديث: النزعة الكوارثية الأيديولوجية، والادعاءات التي لا تحمل أي تشابه مع الحقائق التي يمكن إثباتها، ورفض القانون بحجة إنشاء قواعد أكثر تكافؤاً للعبة، وتحويل الكلمات إلى عنف والعنف إلى كلمات.

ومع ذلك، لم تكن حوادث إيفرغرين غير مألوفة في حرم جامعي أميركي، إذ كانت استطالةً لحراك ظهر أول مرة على نطاق واسع قبل عامين في جامعة ييل. لقد أصبح أمراً شائعاً خلع سمة الكارثة على الحوادث العنصرية لدرجة أنه ليس من المستغرب أن يعتقد طلاب إيفرغرين بأنهم يستطيعون الانتقال إلى المرحلة الثانية. وعندما فعلوا ذلك، وجدوا أن البالغين إمّا غادروا الغرفة أو أنهم (إذا لم يغادروا) كانوا على استعداد لتلقي التعليمات.

في عام 2015 – قبل عامين من حوادث إيفرغرين – تساءلت محاضِرة في جامعة ييل، تُدعى إيريكا كريستاكيس Erika Christakis، في رسالة على البريد الإلكتروني، هل على مسؤولي الجامعات تقديم المشورة للطلاب البالغين بشأن ما يرتدونه لحفلة عيد الهالوين. جاء سؤال إيريكا في أعقاب سلسلة من «حروب الهالوين» في الحرم الجامعي، بعد أن نمت مخاوف من ارتداء أزياء تعبّر عن اللامبالاة، أو عن شكل من أشكال الاستيلاء الثقافي، وأصبحتِ الملمح المركزي لهذا الاحتفال السنوي. وعلى إثر هذه الرسالة، أحاطَ عشرات الطلاب بزوجها نيكولاس (وهو أستاذ أيضاً) في باحة كلية سيليمان السكنية التي كان يُشرف عليها. ظلّ نيكولاس محاصراً لساعات عدة، وتعرّض للسبّ والاتهام بالعنصرية

مع زوجته. مرة أخرى، صوّر الطلاب المشهد بهواتفهم الذكية.

في بداية المشادة الكلامية، قالت طالبة سوداء لنيكولاس كريستاكيس Nicholas Christakis: «لم يعد هذا المكان آمناً لي»، لأن كلامه ورسالة زوجته هما «من أعمال العنف». بدا نيكولاس لطيفاً طوال الحوار، وحاول أن يسترضيهم وأن يكون مفيداً. من الواضح أنه أراد أن يُنبه الطلاب ويحثهم على القبول بوجهة نظر غير التي يعبرون عنها. لم يسر اللقاء جيداً. أخذت طالبة سوداء بالبكاء والعويل خلال الحوار. ذهبت الجهود التي بذلها نيكولاس هباءً. وبينما كان يحاول شرح رؤيته للإنسانية بوصفها مجتمعاً واحداً، نسمع أناساً يضربون أقدامهم على الأرض، ويُصدرون أصواتاً غريبة من داخل الحشد، تماماً كما فعل أقرانهم في إيفرغرين. كان آخرون ينتظرون اللحظة المناسبة للانقضاض. حاول نيكولاس توضيح وجهة نظره مرة أخرى، فقال إنه إنْ لم يتشارك شخصان بتجارب شخصية واحدة، ولم يكن لهما لون البشرة نفسه أو الجنس نفسه، يمكنهما مع ذلك فهم بعضهما الآخر. لكن لا حياة لمن تنادي. في لحظة معينة، ابتسم نيكولاس، فتلقى التوبيخ من الطلاب على فعلته هذه.

صاحت شابة من جامعة ييل: «يصيبني السأم ما إن أنظر إليك». ثمّ تقدّم طالب أسود طويل القامة وقال له بنبرة آمرة: «أنظر إلي. أنظر إلي. أنظر... إلي... هل تفهم: أنا وأنت لسنا الشخص نفسه. نحن بشر، ممتن جداً لأنني عرفت ذلك. لكن تجاربك لا تتصل أبداً بتجاربي». في هذه اللحظة، أخذ الطلاب المجتمعون يطقطقون بأصابعهم (البديل غير «العدواني» للتصفيق). تابعت الطالبة بالقول: «ليس التعاطف ضرورياً لكي تفهم أنك مخطئ. ليس من الضروري أن تشعر بما أشعر به، أبداً. ليس من الضروري أن يكون أحدهم عنصرياً معك. لا أحد سيكون كذلك معك. هذا لا يعني أنه يمكنك أن تتصرف وكأنك لست عنصرياً». ثم تلقى نيكولاس مرة أخرى تعليمات من الطالب نفسه الذي قال له إن الوضع «لا يتطلب منك أن تبتسم». وعندما أجاب انه يتفق مع أحد الطلاب،

صرخ شخص آخر في وجهه بأن الاتفاق ليس ضرورياً أو مرجوّاً، وقال: «هذا ليس نقاشاً. هذا ليس نقاشاً». قالت طالبة شابة سوداء: «أريد أن تُفصل من عملك. نعم. اِفهم ذلك! انظر إليّ في وجهي أولاً». ثم راحت تخبره كم هو رجل «مقرف»، وأنها ستتركه الآن مع «معتقداته المقرفة، أو أياً كان بحق الجحيم»[162].

في النهاية، شرح نيكولاس للطلاب أن للآخرين حقوقاً أيضاً، ولا تقتصر الحقوق عليهم. في هذه اللحظة، وبينما نسمع طلاباً يقولون: «إنه لا يستحق أن نستمع إليه»، أخذت شابة سوداء أخرى - انتشر انتقادها انتشارَ الفيروس - تتهم الأستاذ بأنه «جعل المكان هنا غير آمن». حاول الرد، رفعت الفتاة يدها وصرخت: «سكوت!»، ثم تابعت: «في موقعك بوصفكَ أستاذًا، وظيفتك أن تخلق مكاناً تسوده الراحة ومنزلاً دافئاً للطلاب الذين يعيشون في سيليمان. أنت لم تفعل ذلك بإرسال هذا البريد الإلكتروني الذي يتعارض مع منصبك. هل تفهم ذلك؟» حاول نيكولاس أن يعترض: «لا، أنا لا أتفق مع ذلك»، فثارت ثائرة الطالبة وصرخت: «لماذا إذاً قبلت هذا المنصب؟ مَن وظّفك، تباً؟»، حاول مرة أخرى: «لأن لدي رؤية مختلفة عن رؤيتك». لم يخفف ذلك من غضب الشابة التي استمرت بالصراخ: «عليك الاستقالة! إذا كانت تلك هي نظرتك عن وظيفتك كأستاذ، عليك الاستقالة! لا يتعلق الأمر بخلق فضاء فكري. هل تفهم ذلك؟ بل بخلق بيت دافئ. وأنت لا تفعل ذلك». وقبل أن تغادر بغضب، صرخت قائلة: «لا يجب أن ترقد لك عين. أنت مقرف»[163].

لا بد من التذكير بأن القصة بدأت من خلاف بشأن أزياء الهالوين، فهل على سلطات الجامعة أن تتعامل مع الطلاب كأطفال وتقول لهم ماذا يرتدون. يحق لِمن لم يدرس في ييلَ لكنه عرف ما جرى من تجاوزات فيها أن يسأل كيف لطلاب

---

(162) شاهد الفيديو الكامل في YouTube على الرابط:
https://www.youtube.com/watchv=hiMVx2C5_Wg
(163) شاهد الفيديو الكامل في YouTube على الرابط:
https://www.youtube.com/watchv=V6ZVEVufWFI

يجدون صعوبة في مواجهة عيد الهالوين أن يتمكنوا من مواجهة الحياة.

خلافاً لما سيجرى مع وينشتاين، كان هناك بعض الدعم من زملاء إيريكا ونيكولاس كريستاكيس. ومع ذلك، استقال نيكولاس من منصبه بوصفه رئيساً للكلية السكنية في جامعة ييل بعد نهاية العام الذي وقعت فيه الحوادث، ثم استقالت زوجته.

لم يكن أمراً بسيطاً وعديم الأهمية أن يستطيع طلاب ييل توبيخ أساتذتهم وشتمهم علناً، وحتى إجبارهم على الامتثال لتعليماتهم، وطردهم من وظائفهم في نهاية الأمر. لعلّ ذلك شجّع الطلاب في إيفرغرين وأماكن أخرى. لكن اللافت في لقطات الفيديو التي سجّلت الحوادث، هو أن ما حدث كان عبارة عن صراع قوى سافرٍ وشنيع. فعلى الرغم من أن بعض الطلاب قد يكون صادقاً، نلحظ أيضاً عليهم عدم تصديقهم مقدار السهولة في حمل البالغين على الانسحاب والهروب. يُضاف إلى ذلك شيء من الارتياح من أن دراساتهم الجامعية (بدلاً من أن تكون هذه الفترة مكرّسة لعمل صارم من طرفهم)، يمكن أن تُختزل إلى سلسلة من الادعاءات المغالية والمتطلبات غير المنطقية.

في مقالة نشرها نيكولاس بعد نهاية هذه القضية، حاول أن يشرح ما يجب أن تكون عليه الجامعة، وأنّ من واجب المسؤولين عنها «اجتثاث مجموعة الأفكار غير الليبيرالية من جذورها». وأكّد أن «الخلاف ليس اضطهاداً. والحوار ليس اعتداءً. والكلمات ليست عنفاً، بما فيها الاستفزازية والبغيضة. والرد على الخطابات التي لا نحبها، هو مزيد من الخطابات»[164].

لكن رأيه هذا ليس الذي ساد وطغى. بعد سنة من مداخلة نيكولاس الكتابية، انعقدت حلقة نقاش في جامعة روتجرز حول سياسات الهُويّة، وضمّت البروفيسور مارك ليلا Mark Lilla ورجل الأعمال الأسود والمعلّق التحرّري

(164) Nicholas A. Christakis, 'Teaching inclusion in a divided world', *The New York Times,* 22 June 2016.

كميلي فوستر Kmele Foster. قدّم فوستر في ملاحظاته دفاعاً حماسياً عن حماية حرية التعبير، موضحاً للطلاب المجتمعين أن مجموعة الأقليات استخدمت في ستينيات القرن الماضي حرية التعبير في سبيل النضال من أجل الحقوق المدنية، وأنه «كان من الضروري لهم أن يستطيعوا ضمان هذه الحقوق بغية الدفاع عن قضيتهم». ثمّ أشار إلى أن مارتن لوثر كينغ كتب رسالته من سجن في برمنغهام، وقد سُجن لانتهاكه القوانين التي تؤطر حرية التعبير. في هذه اللحظة، قاطع جزء من جمهور روتجر المتحدّثَ الأسود، وبدأ في الترديد: «حياة السود مهمة!» ثمّ نادى شخص أسود من الجمهور فوستر متهماً إياه اتهامات قاسية، فطرح فوستر عليه هذا السؤال البسيط: «أليست الوقائع مهمة؟» فصرخ محاوره: «لا تحدثني عن الوقائع، لست بحاجة إليها!» وتابع: «الاستعمار هو المشكلة... أي أن تتحكّم مجموعة من الناس بمجموعة أخرى». في هذه الأثناء، رفع شخص آخر من الجمهور لافتة تقول: «نزعة تفوّق البيض هي المشكلة»[165]. في النهاية، سُمح للمحاضِر الأسود بإنهاء محاضرته.

ليست ردود الفعل هذه، وردود الفعل الأخرى، سوى ما يطفوا على السطح من بئرٍ أيديولوجية أعمق بكثير. تنتشر منذ سنوات في السياسة والفكر الراديكالي الأسود فكرةٌ مفادها أن كل ما أنتجته منظومة الهيمنة البيضاء مُشبعٌ بالعنصرية الصريحة أو المسترة، لذلك يجب إلغاء كل الآثار المتصلة بها. وإذا ما أتيح لأيّ جزء من هذه المنظومة الاستمرار، لن نبلغ العدالة العرقية. لهذا السبب، نشرت مجلة المجتمع الأسود The Root مقالةً لمايكل هاريوت Michael Harriot في عام 2018، انتقد فيه البيض الذين يشتكون من غياب «التنوع في الفكر»، كتب فيها: «عليكم أن تمنحوا البيض هذا التنوع، مع ولعهم بلعب دور الضحية». ثم يتابع شارحاً أن «جرأة التعبير عن التفوق العرقي الأبيض تكمن في رفضهم الفوري

(165) 'Identity politics: the new radicalism on campus?'

نقاش دار في جامعة روتجرز بتاريخ 13 أكتوبر 2017 ونُشر في YouTube على الرابط:
https://www.youtube.com/watch?v=2ijFQFiCgoE

لكل ما من شأنه أن يمثّل تهديداً لدوام أولوية البيض». بعد ذلك، طرح هاريوت فكرته الرئيسة، وهي أن «التنوع في الفكر» ليس سوى المعادل المخفّف لـ«نزعة تفوّق البيض»[166].

لنتابع. في العام نفسه الذي اعتُرض فيه على كميلي فوستر بالقول: «لست بحاجة إلى وقائع»، كان من المقرر أن تقدم الكاتبة هيدز ماك دونالد Heather Mac Donald مداخلة في كلية كليرمونت ماكينا. أُذيعت مداخلتها في قاعة أخرى عن طريق الاتّصال بالفيديو، بسبب السلوك المهدّد للطلاب. لكن قبل المداخلة، أرسلت رسالة إلى سلطات الجامعة من طلبة وصفوا أنفسهم كالآتي: «نحن، القلّة القليلة من الطلاب السود في كلية بومونا وكلية كليرمونت». أعلن الموقعون على الرسالة أن الضيفة المحافِظة، إن دُعيت لإبداء رأيها، «فلن تناقِش مجرّد اختلاف في الرأي، بل في حق السود في الوجود». ووصفت الرسالة ماك دونالد بأنها «فاشية، وتقول بالتفوق العرقي للبيض، ومؤيدة للحروب، وكارهة للعابرين وأحرار الجنس، وطبقية جاهلة بمنظومات الهيمنة المتشابكة التي تنتج الشروط المميتة التي تُجبر الشعوب المضطهَدة على العيش فيها». غني عن القول بأن لا شيء من ذلك صحيح. من الواضح أن الطلاب قد تناهى إلى مسامعهم بعض الروايات عمّا كتبته ماك دونالد في كتابها The War on Cops: How the New Attack on Law and Order Makes Everyone Less Safe [الحرب على رجال الشرطة: كيف يجعل التهجّم الجديد على القانون والنظام الجميعَ أقل أمناً]، لكن من الواضح أيضاً أنهم لم يقرؤوه. ومع ذلك، استمروا في ترديد اللازمة نفسها، متذرعين بأن إعطاء ماك دونالد منبراً هو بمنزلة «إباحة للعنف ضد السود»، وإذ ذلك سيكون فعلاً «مناهضاً للسود». لكن نهاية هذه الرسالة التي أرسلها الطلاب هي الذروة الأشد كشفاً. وإليكم المقطع:

(166) Michael Harriot, "' Diversity of thought" is just a euphemism for "white supremacy"', *The Root*, 12 April 2018.

على مرّ التاريخ، عظّمت نزعة التفوّق العرقي الأبيض من شأن فكرة الموضوعية، واستخدم الثنائية الذاتية/ الموضوعية وسيلة لإسكات الشعوب المضطهَدة. إنّ فكرة أنّ الحقيقة واحدة ووحيدة هي بناء على يد أوروبا الغربية الضاربة جذورها في عصر التنوير، وهي صيرورة وصفت أيضاً السود والسمر بأنهم دون البشر ولا يتأثرون بالألم. هذا البناء أسطورة، والتفوق العرقي الأبيض والإمبريالية والاستعمار والرأسمالية والولايات المتحدة الأميركية كلها من مشتقاته. إنّ فكرة أنّ الحقيقة كيان علينا البحث عنه، في الميادين التي تهدد قدرتنا على الوجود في الفضاءات المفتوحة، هي محاولة لإسكات الشعوب المضطهَدة.[167]

«الحقيقة بنيان من صنع أوروبا-الغرب». من الصعب تصوّر عبارة على هذه الدرجة من التضليل ومن خطورة ما تنطوي عليه من تداعيات في آن. إن كانت «الحقيقة» (محوطةً بعلامتي تنصيص مذعورتين) شيئاً أبيضَ، فما الغرض الذي سيعيش لأجله الآخرون أو يسعون نحوه؟

ليس المقلق في أطروحات كهذه أن تخرج من أفواه الشباب، بل الخشية، كل الخشية، أن تدخل إليهم عن طريق التعليم.

بطبيعة الحال، إحدى الأمور الغريبة في الحياة السياسة داخل الحرم الجامعي – بما في ذلك في جوانبها الحراكية – هي سهولة تجاهلها واستبعادها. يمكن لأيّ شخص بعد أن يبلغ سنّاً معيناً أن ينظر إلى الوراء ويقول بأن الطلاب كانوا دائماً ثائرين، متجاهلين حقيقةَ أنّ الجامعة، حتى الستينيات، ما كانت تعدّ مكاناً للشروع في حياة حراكية، أو التحريض على ثورة محلية، ناهيك بثورة عالمية. لكن السرعة التي تتفشى بها أكثر الادعاءات غرابة، إلى جانب سرعة انتشارها في العالم الواقعي باتت الآن واضحة. يُضاف إلى ذلك أن الأكاديميين في أقسام الآداب

(167) يمكن الاطلاع على رسالة 17 أبريل 2017 على الرابط:
http://archive.is/Dm2DN18

والعلوم الإنسانية الآمنة في الولايات المتحدة، بدأوا يعتقدون بأن العنصرية حاضرة في كل مكان، ويتصرفون وفق هذا الاعتقاد، في حين أنها غائبة فعلياً. بالمثل، أصبح هاجس العرق في العالم أجمع، وإمكان التلفّظ بأقوال عنصرية بذريعة مناهضة العنصرية، أمراً طبيعياً وعادياً. هكذا، وكما قال أندرو سوليفان Andrew Sullivan، عندما نقارن الجنون في الحرم الجامعي ببقية المجتمع، من المستحيل تجنّب الاستنتاج التالي: «نحن جميعاً نعيش في حرم جامعي»[168].

هراء لا يُصدق

مثل جميع الانحرافات المشابهة، يبدأ ذلك كلّه – في جزء منه على الأقل – من موقف مفهوم تماماً، وهو الرغبة في التكفير عن أخطاء الماضي التي لا تقبل الإنكار. إلا أنّ هذه الرغبة في التكفير تتسبب غالباً بإنتانات جديدة بدلاً من أن تُفضي إلى الشفاء. لا شك أن غالبية الناس لا تنظر إلى مجلة National Geographic على أنها مجلة عنصرية خاصة. وإلى من فاتته عنصريتها في الماضي، في عام 2018 شعرت المجلة أنها مضطرة إلى نشر افتتاحية تقدّم اعتذاراً رسمياً. عنونت الصحيفة في عدده المخصص بالكامل لموضوع العرق: «كانت تقاريرنا عنصرية لعقود طويلة. ولا بد لنا من الاعتراف بماضينا في سبيل تجاوزه». تضمّن اعتذار المجلة – التي بدأ إصدارها عام 1888 – تشكيلة واسعة من المغالطات. في افتتاحيتها، أعلنت رئيسة التحرير سوزان غولدبرغ Susan Goldberg أنها كلّفت مساعدها بمراجعة الأعداد السابقة من المجلة، وأن «بعضاً مما نجده في أرشيفنا يتركنا عاجزين عن الكلام». وجد القائمون على المجلة أنها مذنبة في طبعاتها السابقة بكثير من الإساءات. فقد اكتشفوا أن المجلة كانت تتجاهل حتى نهاية السبعينيات من القرن الماضي «جميع الأشخاص الملونين الذين يعيشون في الولايات المتحدة». وفي أمكنة أخرى من العالم، صوّرت «السكان الأصليين

(168) Andrew Sullivan, 'We all live on campus now', *New York magazine*, 9 February 2018.

كائنات دخيلة، وفي أغلب الأحيان عارية كما نعرف، وسعيدة في أعمال الصيد، وهمجية نبيلة، إلى ما هنالك من الكليشيهات المنمّطة». باختصار، «لم تفعل المجلة إلا القليل لتحرير قرائها من التنميطات المتأصلة في الثقافة الأميركية البيضاء». عُثر على مقالة نُشرت عام 1916 عن سكان أستراليا الأصليين، ووُصفت بأنها عنصرية على نحو خاص[169]. وللتدليل على مدى التطور الإيجابي للمجلة، لفتت المحررة قراءها إلى أنها امرأة إلى جانب كونها يهودية.

فضلاً عن لفت الانتباه إلى جوانب لا يتذكرها أحد، ثمة شيء آخر غريب في هذا الاعتراف بالذنب. فكلّ من درس التاريخ تقريباً يعرف الحقيقة التي لخّصها إلـ. بي. هارتلي L. P. Hartley في السطر الأول من روايته The Go-Between [الوسيط] على النحو الآتي: «الماضي بلدٌ أجنبي، فهناك يفعلون الأشياء بطريقة مختلفة». على المرء أن يكون على قدر لا بأس به من السذاجة حتى يُخيّل له أن مقالة نُشرت عام 1916 يمكن أن تفي بالمعايير الاجتماعية الدقيقة لعام 2018. في عام 1916، لم يكن للمرأة في بريطانيا وأميركا الحق في التصويت، ويمكن أن يُعاقب مَن يُتهم بالمثلية الجنسية بالأشغال الشاقة في السجن، وقد تعرّض جيل كامل من الشباب للإبادة بالغاز والتفجير وطلقات النار والقصف في ميادين المعركة في بلجيكا وفرنسا. كان العالم حينئذ مختلفاً.

ومع ذلك، ثمة درسٌ يمكننا تعلمه، وهو أن المجلة، مهما اعتذرت، فإن اعتذارها هذا لن ينال الرضى. هكذا، في صحيفة The Guardian، أعلن المؤرخ ديفيد أولوسوغا David Olusoga أن هذا الاعتذار «الصادر عن نية حسنة قد تأخر في الصدور»[170]. لا نستغرب ألا يقود هذا الفحص العميق للماضي إلى موقف نقدي مُثمر، وإنما إلى خوف عصابي مما هو مباحٌ للناس – أو لا – قوله أو فعله في الوقت الحاضر. فإذا أخطأ أجدادنا إلى هذه الدرجة في الماضي، ما السبيل

---

(169) في *National Geographic*، في عدد أبريل 2018.

(170) David Olusoga, 'National Geographic's righting of its racist wrongs is well meant but slow in coming', *The Guardian*, 1 April 2018.

إلى التأكد من التصرف المصيب اليوم؟

كان فيلم Black Panther [الفهد الأسود] قد أُطلِق قبل اعتذار المجلة مباشرةً. قبل إطلاقه، صدرت تعليقات كثيرة تناولت طاقم التمثيل الذي غلب فيه الممثلون السود. كان يُنتظر من الفيلم أن يكون لحظة أمل للأميركيين السود وغيرهم، إلا أن نجاحه المعقّد والتجاري اعترض هذا الأمل. طلبت صحفيّة مخضرمة في The Planetary Society تُدعى إميلي لاكدوالا Emily Lakdawalla، من tweeter مساعدتها في سؤال كان صادقاً في شفافيته: ما هي اللحظة الملائمة لكي تذهب امرأة بيضاء لمشاهد فيلم [الفهد الأسود]؟ من الواضح أن عطلة نهاية الأسبوع كانت غير مواتية، لكن متى يمكنها الذهاب؟ كتبت المرأة البالغة من العمر 42 عاماً على tweeter: «لذلك لم أشترِ تذاكر الفيلم في عطلة نهاية الأسبوع التالية على افتتاحه، لأنني لم أرغب في أن أكون الشخص الأيض الذي يمتصّ الفرح الأسود من المسرح. ما التاريخ الملائم لي لشراء التذاكر؟ هل عطلة نهاية الأسبوع المقبلة تاريخ جيّد؟»[171] إن لعبارة «امتصاص الفرح الأسود» رنيناً موفّقاً لأنها تشي بأن البيض ليسوا وحوشاً وعنصريين فحسب، بل ومصاصي دماء غريبي الأطوار.

مرة أخرى، يبدو من الخبل تخيّل أن مجرّد حضور شخص بلون بشرة مختلفة يمكن أن يمتص الفرح من تجربة مجموعة أخرى من الأشخاص. وعلى الرغم من الهجاء الذي تعرضت له بسبب تغريدتها، فالأفكار التي تشبّعت بها لاكدوالا كانت موجودة في كل مكان من وسطها الاجتماعي. ابتلعت لاكدوالا هذه الأفكار، وهي الآن ترجّعها، فقط.

في معظم الأوقات، يكون عيد الشكر مجرّد وقت مناسب يلتئم فيه الأميركيون مع عائلاتهم وأحبائهم. لكن حتى هذه اللحظة لم تسلم ممّا قد يُخلع عليها من

---

(171) Emily Lakdawalla, Twitter, 13 February 2018.

عنصرية. إليكم كيف اختارت مجلة The Root أن تحشد قراءها على الإنترنت في عيد الشكر لعام 2018: «أعزائي أبناء العرق القوقازي، إن كنتم تحضرون العيد مع عائلات سوداء، تذكروا أن عيدنا هذا لا يمت بصلة إلى الاستعمار والإبادة العرقية للأميركيين الأصليين. طقوسنا شبه دينية، وتعتمد على الطعام والأسرة وفطيرة البطاطا الحلوة»[172]. بعد بضعة أسابيع، مع بداية موسم العطلات، نشرت Vice مقطعاً مسجلاً عن صنف جديد ومثير من العطلات: مجموعة من النساء اللواتي احتجن إلى استراحة «من البيض»، أو كما عنونت Vice الفيديو عند وضعه على الإنترنت: «ماذا يُشبه قضاء عطلة بعيداً من البيض؟»[173]

لم يكن لدى الناشر والمشاركين في هذه العطلة سوى تعليقات إيجابية عن الأفكار الكامنة وراءها. أوضح المشاركون أهمية ابتعاد النساء ذوات البشرة الملونة عن البيض، ولا حرج في ذلك، وأنه يجب أن تكون عنصرياً شريراً لكي تعترض على هذا الصنف من العطل.

على الحدود الشمالية، اتضح أن الكنديين لم يكونوا قادرين على الموت من دون البرهنة على عنصرية ممنهجة. في أبريل عام 2018، وقع حادث مروع لحافلة في ساسكاتشوان، وراح ضحيته 16 شاباً وأصيب 13 آخرين. زاد من حجم هذه المأساة اكتشاف أن الحافلة المتورطة في هذا الاصطدام كانت تحمل فريق Humboldt Broncos. في بلد الهوكي، استدعى موت كثير ممن هم في أواخر سن المراهقة حداداً وطنياً غير مسبوق. ترك الكنديون عصي الهوكي خارج أبواب منازلهم تكريماً لهم، وحققت حملة لجمع الأموال في ذكرى هؤلاء الشباب مبلغاً قياسياً من المال. لكن حتى هذه المأساة لم تسلم من العرقنة الجديدة التي تطاول كل شاردة وواردة.

غداة هذه الحادثة المؤلمة، اشتكت الكاتبة والناشطة في مدينة كيبيك، نورا لوريتو

(172) The Root, Twitter feed, 22 November 2018.
(173) Vice, Twitter, 6 December 2018.

Nora Loreto، على وسائل التواصل الاجتماعي الاهتمام الذي حظي به فريق الهوكي المتوفّى، بالقول: «إن ذكورة الضحايا وشبابهم وبياضهم (...) أدّت دوراً مهماً»[174].

هكذا، بحلول عام 2018، سواء اتجهت النظرة صوب الماضي أم المستقبل، وسواء تلونت بالمأساة أم بالهزل، كانت تفصل بينها وبين ما تنظر إليه عدسة واحدة وحيدة، وهي عدسة العرق. إنه العام الذي أصدرت فيه ديزني نسخة جديدة من فيلمها الكلاسيكي Dumbo [دامبو]، الذي يروي قصة فيل شاب. في نقدها للمقطع الدعائي للنسخة الجديدة (وليس للفيلم!)، اختارت Vice الإحالة على فيلم ديزني الأصلي لعام 1940 بالعبارات التالية: «إنه بلا ريب أحد أكثر الأشياء المرعبة التي أنتجتها ديزني»، بسبب مختلف الشخصيات الكحولية و«المخيفة» و«العنصرية جداً». ومع ذلك، «فقد تمكّن الفيلم أن يُصبح فيلم رسوم متحركة، يستمتع به الأطفال، ويحبونه، ويخشونه كلّما شاهدوه لأجيال». لحسن الحظ، قُوّمت هذه الأخطاء في النسخة الجديدة. وبعد أن شاهدت Vice المقطع الدعائي للنسخة الجديدة، أجازت لنفسها إبلاغ قرائها البالغين أن هذه النسخة تبدو «لطيفة ومحببة، وغير عنصرية أو مرعبة»[175]. ما الذي حملهم على الاعتقاد بأن هذه هي الحالة؟ ما صنف هذا العالم الذي يجب لنسخة جديدة من فيلم رسوم متحركة للأطفال حول فيلٍ طائر أن تزوَّد بهذا التحذير «الصحي»؟ الجواب: عالم بات كل شيء فيه مهووساً، ليس بغياب التحيزات العرقية، بل بالوسواس العنصري. وإذا كان منظرو العرق في الحرم الجامعي هم المصدر العميق لبعض هذه الأفكار، فلا مكان آخر تُعرض فيه غير وسائل الإعلام العمومية بأوضح صورة، وهو المكان الذي تتشرب فيه مئات الملايين من البشر فكرة أن هذا

---

(174) Mathieu Murphy-Perron, 'Let Nora Loreto have her say', National Observer, 11 April 2018.

(175) استعراض Vice لفيلم [دامبو]. وبالمناسبة، تم تغيير النسخة على الإنترنت بعد سخرية واسعة عبر الإنترنت.

الوسواس العرقي الذي بُعثت فيه الحياة من جديد، أمرٌ طبيعي تماماً.

تشهير

في فبراير 2018، أصدرت Netflix مسلسلاً مقتبساً من رواية ريتشارد كي مورغان المعنونة Altered Carbon [الكربون المعدَّل]. شقّ فهم هذه المسلسل بالكامل على كلّ من شاهده على الرغم من تصويره المذهل وكلفته الباهظة، باستثناء عشاق الخيال العلمي المتفانين. من دون المقدمات مطوَّلة، تدور الحبكة الأساسية في عام 2384 حول بطل يُدعى تاكيشي، قُتل ثم وُلد من جديد في جسد آخر – الأمر الذي يمكنك دائماً عمله في المستقبل.

في اللحظة التي أعلنت فيها Netflix عن توزيع الأدوار، وحتى قبل إصدار المسلسل، أُدين القرار المركزي. ذلك أن دور تاكيشي المولود من جديد مُنح للمثل السويدي المولد جويل كيناماان Joel Kinnaman، الذي اشتهر بأداء دور الخصم السياسي لفرانك أندروود Frank Underwood (كيفن سبيسي Kevin Spacey) في الفيلم House of Cards [بيت البطاقات]. يوم إصدار [الكربون المعدَّل]، قررت مجلة Time، من بين مجلات أخرى، أن تدق الحديد وهو حام. فعنونت مقالتها: «تقع مجريات [الكربون المعدَّل] في المستقبل، لكنه أبعد ما يكون من التقدّم». أوضحَت المقالة أن المسلسل ولّد انطباعاً «صريحاً في رجعيته»، بسبب طريقة تناوله «العرق والجنس والطبقة». المشكلة رقم واحد: إسناد الدور الرئيس لكيناماان. وفقاً للمجلة (التي نسيت أن الأمر برمته كان خيالاً علمياً)، كان من الخطأ حشو «رجل أبيض» داخل جسد لشخصية كانت في حياتها السابقة «رجلاً آسيوياً». ومع إقرارها بأن المسلسل المقتبس يتبع بدقة وأمانة السرد في الكتاب الأصلي، قدّر الناقد أن اختياراً كهذا «إشكالي على نحو خاص على الشاشة». تقول (وهنا نعثر على قاموس المصطلحات المفضّل للذين يقوّمون أخطاءنا):

كان من المفضل أن يختار المبدعون ممثلاً آسيوياً ليؤدي دور تاكيشي المولود من

جديد، فتجنبوا السجال نفسه الذي ابتلي به فيلم Ghost in the Shell [شبح في الهيكل] العام الماضي. ففي هذا الفيلم المقتبس، تؤدي سكارليت جوهانسون Scarlett Johansson دورَ ضمير امرأة آسيوية داخل روبوت أبيض.

كلّ شيء إلا الوقوع في الحروب الكبرى لعام 2017 حول الضمير الروبوتي لسكارليت جوهانسون! بالطبع، إذا أردت إخراج دراما خيال علمي تقع مجرياته في عام 2384، عليك أن تتوقع من الجمهور في ذلك العام أن يحمل القيم نفسها التي يحملها ناقد مجلة Time في عام 2018[176].

يعد الترفيه من مجموعة Netflix أحد أكثر الوسائط التي يمكن تقديم شخصٍ ما من خلالها، شعبية وشيوعاً حتى الآن. ثم إنها توفّر فرصة لحرية التعبير والتبادل الحر للأفكار، لم تكن الأجيال السابقة لِتحلم بها. وها هي أصبحت ملعباً مفضلاً للادعاءات المنتشرة في كل مكان والممهورة بالوسواس العرقي المنبعث من جديد، مع العلم بأن هذا الهوس يُعيدنا إلى سلوكات أكل الدهر عليها.

بالأمس، لم يكن الأمر كذلك

هذا الجنون عصيّ على الفهم ولا سيما أن الهدف المأمول قد تمّ بلوغه تقريباً. في العقود الأخيرة، أصبح من الطبيعي والمقبول تماماً أن يؤدي أشخاص من الأعراق كافة أدواراً رئيسة في المسرح الغربي أو السينما. كان من المفترض أن هذه المعركة انتهت وتوّجت بالنصر. فمنذ عقدين من الزمن، اختارت «الشركة الشكسبيرية الملكية» الممثلَ أدريان ليستر Adrian Lester (الذي صادف أنه أسود) لأداء دور هنري الخامس. جذب هذا الإنتاج الجمهور كما كان ليفعل أي إنتاج جيد أو أداء عظيم. منذ ذلك الوقت، أصبحنا نرى كثيراً من الممثلين السود على خشبة المسرح، بما في ذلك في المسرحيات الكلاسيكية، حتى إنهم من النادر أن يكونوا موضوعاً

(176) Eliana Dockterman, 'Altered Carbon takes place in the future. But it's far from progressive', *Time*, 2 February 2018

للتعليقات. كذلك هو الأمر منذ عقود في المسرح الغنائي. منذ سبعينيات القرن الماضي، ظهرت السوبرانو الأميركية العظيمة كاثلين باتل Kathleen Battle في أعمال شتراوس Strauss وفيردي Verdi وهايدن Haydn. لم يُكتب أي دور من الأدوار لهذه المغنية السوداء خصيصاً، لأنها سوداء، لكن أحداً لم يُشكك في ملاءمتها للدور، كما لم يكن هناك أي تعليق سلبي بشأن اختيار المؤدين.

ينطبق الأمر نفسه على جيسي نورمان Jessye Norman، إحدى أعظم السوبرانو في العقود الأخيرة. لا شك أن ريتشارد فاغنر Richard Wagner لم يقل بأن إيزولد Isolde يجب أن تكون سوداء. لكن عندما غنّت جيسي نورمان مقطوعة تريستان وإيزولد بقيادة هربرت فون كاراجان Herbert von Karajan مع أوركسترا فيينا، لم يفكر أحد في تجاهل الموسيقى وإدانة اختيار المؤدين بوصفه اختياراً غير لائق عرقياً. كنّا جميعاً معتادين على ذلك.

ذلك كان بالأمس. اليوم، بات من المقبول تماماً الإشارة إلى الخصائص العرقية للممثل أو المؤدي بوصفها خصائص حاسمة عندما نسند إليه دوراً. وهي أكثر أهمية حتى من موهبته في الأداء. تندلع اليوم سجالات عرقية تستهدف عروض المسرح، شبيهة بتلك التي تندلع في المجالات كلها.

في عام 2018، وبعد أسابيع فقط من إخضاع مسلسل [الكربون المعدَّل] لاختبار النقاء العرقي، أعلنت محطة BBC جدول برامجها لحفلات بروميناد الموسيقية الصيفية[177]. وأُعلن عن فقرة لنجمة برادواي سييرا بوغيس Sierra Boggess في تأدية الفيلم الموسيقي West Side Story [قصة الحي الغربي]، بوصفها أحد أبرز فقرات هذا البرنامج. لكن ما إن أُعلِن عن طاقم التمثيل حتى اشتعلت الاستنكارات على وسائل التواصل الاجتماعي. فقد اختيرت بوغيس، ذات العرق القوقازي، لأداء دور ماريا (شخصية خيالية بورتوريكية). لم يشفع لذلك أن الفيلم كان قصة خيالية، وكَتب كلماته ولحّن موسيقاه يهوديان. فقد

(177) Promenade Concerts

وُجّهت إلى بوغيس تنبيهات شديدة اللهجة على tweeter: «أنت فتاة قوقازية، والشخصية بورتوريكية. لو كان ينقصك فرص عمل، لفهمنا الأمر. كفي عن أخذ أدوار الممثلين الملونين». وكتب آخر: «أنا أحب سييرا بوغيس، ولكن ماريا هي بصراحة أحد الأدوار الرئيسة الوحيدة للنساء اللاتينيات في المسرح الموسيقي. لذا هل يمكنكم اختيار واحدة من اللاتينيات الموهوبات اللائي قد يُقتلن للقيام بهذا الدور؟»

هكذا، فإن BBC Proms اتهِمت بالتورط في «عملية تبييض»، عندما أسندت دور ماريا إلى بوغيس. للأسف الشديد، أخذت بوغيس هذه الانتقادات على محمل الجد، وأعلنت على facebook:

بعد تفكير مطوّل، أدركت أنني إن قبلت هذا الدور، فسأحرم مرة أخرى اللاتينيات من فرصة غناء هذه المقطوعة، فضلاً عن أهمية أن يرون أنفسهن ممثّلات على خشبة المسرح.

ثم قالت إن ذلك سيكون «خطأً فادحاً»:

منذ الإعلان عن هذا الحفل، أجريتُ عدداً من المحادثات حول الأسباب التي تجعل من هذا العصر عصراً حاسماً، الآن أكثر من أي وقت مضى، لعدم إدامة خطأ توزيع الأدوار في هذا العرض. أعتذرُ عن عدم الوعي بذلك في وقت مبكر. وبوصفي فنانة، أجد لزاماً أن أسأل نفسي كيف أستطيع أن أخدم العالم على وجه أفضل. وردّاً على هذا السؤال، يتضح اختياري أكثر من أي وقت مضى: التنحي جانباً وإتاحة الفرصة لتقويم خطأ ارتُكب لسنوات، وبخاصة مع هذا العرض.

لذا، انسحبتُ من هذا الحفل وأتطلع إلى استمرار أن أكون صوتاً من أصوات التغيير في مجتمعنا وعالمنا[178].

(178) 'Sierra Boggess pulls out of BBC West Side Story Prom over "whitewashing"', *BBC News website*, 25 April 2018.

في النهاية، عُدّل توزيع الأدوار وأُسند دور ماريا إلى ميكايلا بينيت Mikaela Bennett، من أوتاوا في كندا، والتي عُدّت سحنتها العرقية أكثر ملاءمة.

هكذا، ومع حفنة من التغريدات، تقرّر إلغاء قرار إسناد الدور، ودُفعت نجمة موهوبة إلى الاعتزال عن طريق إطلاق حملة تخويف. باسم «التقدم» و«التنوع»، حقق التطور الأكثر رجعية والأقل تنوعاً على الإطلاق انتصاراً آخر. وفي حقبة تشهد التسييس والاستقطاب، أصبح عالم الخيال والفن – الذي هو أحد أكبر ما نملك من عوامل كسر الحواجز – ساحة معركة من أجل التفرّد والإقصاء العرقيين.

لعلّ أولئك الذين يشتغلون على ترويج مثل هذه الأجندات يصحون يوماً، ويدركون أنهم ماضون نحو حطام منطقي كبير. ذلك أن المنطق نفسه الذي دفع بوغيس إلى استبعاد نفسها من [قصة الحي الغربي]، قد يُستَخدم بسهولة لاستبعاد كل من ليس بأبيض من أدوار هنري الخامس الشاب وإيزولد. يستطيع المخرجون أن يكونوا غير آبهين بلون البشرة، أو مهووسين بذلك، لكن ليس بمقدورهم أن يجمعوا بين الاثنين.

بات هذا الهوس المُضني يصيب اليوم جميع مجالات الحياة الأخرى. ما عاد ثمة انشغال أو هواية تجلب السكينة إلا وتلوّثت في لحظة معينة بسجال عرقي. وفي كل مرة يحدث فيها هذا التلوث، يتنقّل السجال ويأخذ أشكالاً أخرى، محوّلاً حادثاً أو مطلباً إلى مناسبة لشلال من الحوادث والمطالبات اللاحقة التي سرعان ما تخرج عن نطاق السيطرة.

خذوا السجال الذي دار حول بطلة التنس سيرينا ويليامز Serena Williams في سبتمبر 2018. خلال نهائيات بطولة الولايات المتحدة المفتوحة، عوقبت البطلة لانتهاكها القواعد الرياضية، ثم تلقت نقطة جزائية بعد أن كسرت مضربها عمداً. فقدت ويليامز أعصابها أمام الملأ في وجه الحكم، بسلوك ليس نادراً، وإن

كان محط استهجان دائم في رياضة التنس اللطيفة. توّجهت ويليامز إلى الحَكم بعنف، ووصفته بـ«اللص» وأوصاف أخرى. غُرّمت ويليامز بمبلغ 17000 دولار، وهو أقل بقليل من مبلغ جائزة الفوز بالبطولة المفتوحة، البالغ أربعة ملايين دولار، وملوني دولار للوصيفين. أي إنه لا يُحدث فارقاً عند ويليامز. لكن القضية لم تتوقف عند هذا الحد. لأن ويليامز امرأة، شجب «اتحاد التنس النسائي» الحَكم ووصفه بـ«المتحيّز جنسياً». ولأنها سوداء، تحوّلت القضية على الفور إلى نزاع عرقي كامل الأركان.

ادّعت BBC أن الانتقادات الموجّهة إلى ويليامز بسبب سلوكها الغاضب على أرض الملعب أسهمت في تعزيز الصورة النمطية العرقية عن «المرأة السوداء الغضوبة»[179]. إلا أن أحداً لم يشرح لنا كيف لامرأة سوداء أن تنفجر غضباً من دون أن تستيقظ مثل هذه الصورة النمطية. من جهتها، قررت صحيفة The Guardian أن تزايد على هذا المنظور العرقي في السجال. وفقاً للكاتبة كاريز أفوكو Carys Afoko، هناك عبرة أكبر في الانتقادات الموجهة إلى سيرينا ويليامز. فهي تبرهن عن «مدى صعوبة أن تكون امرأة سوداء في العمل». وترى أنّهُ ليس للنساء السود الحق في يوم سيء في المكتب. أو بدقة أكبر، إن مررنا بيوم سيء، لا حق لنا في المخاطرة بالتعبير عن الغضب أو الحزن. يطوّر كثيرات منّا شخصيةً مهنية من شأنها أن تسمح لنا بأن نكون مقبولات في أماكن عمل البيض. لعل ما تقدّم لا يشرح سوى التحديات الخاصة التي على كاتبة في صحيفة The Guardian مواجهتها. في جميع الأحوال، أعطت أفوكو مثالاً عما تريد قوله، وكان عليها هي نفسها أن تتحمله: «قبل عامين، اختلفتُ مع فكرة أحد زملائي الذكور، فأخذني جانباً ليخبرني أنني كنت عدوانية. عندما حاولت أن أوضح أن المفردة "عدوانية" مشحونة بتضمينات عنصرية، انفجر بالبكاء». من يدري لماذا انفجر زميلها

---

(179) Ritu Prasad, 'Serena Williams and the trope of the "angry black woman"', *BBC News online*, 11 September 2018.

بالبكاء؟ لعل ذلك مظهراً آخر من مظاهر العنصرية من طرفه، أو خوفاً من إنهاء حياته المهنية بسبب اتهامه بالعنصرية؟ أو لعلّه انهار لأنه بدأ يشعر أن كل ملاحظة موجّهة إلى زميلته ستُسفر عن اتهامه بالعنصرية؟

من جهتها، استنتجت أفوكو عبرةً أخرى مختلفة كلياً لكتلة الدموع التي ذرفها زميلها: «لقد عزّز ذلك درساً تعلمته في العشرينيات من عمري: في معظم الأحيان، من العبث أن تحاول المرأة شرحَ العنصرية أو التمييز على أساس الجنس في العمل. ما عليكِ سوى طأطاة رأسك وإنجاز المهمة الموكلة إليكِ على أفضل وجه ممكن». ولكي تساعد قراء صحيفة The Guardian الذين لم يُحدّثوا معلوماتهم، أضافت أفوكو مؤشراً مفيداً: «إذا لم تكوني امرأة سوداء، وتشعرين الآن بالتشويش، إليكِ مقطع فيديو مدته دقيقتان حول تقاطع أشكال التمييز»[180]. عنوان هذا المقطع المفيد: «الأطفال يشرحون تقاطع أشكال التمييز»، وتماشياً مع هذا العنوان، يُظهر الفيديو أولاداً بعمر أقل من عشر سنوات يشرحون مدى بساطة تقاطع أشكال التمييز. ومع قليل من التدخل من طرف البالغين، أوضح الفيديو بلغة سهلة وموسيقية بعض الشيء، كيف أن تقاطع أشكال التمييز هو ببساطة «مفهوم يسمح لنا بإدراك أن الناس يعيشون، نوعاً ما، حياة متعددة الأبعاد». وعلى الرغم من أن طفلاً أميركياً أصلياً شرح لطفل أبيض بعمر الخمس أو الست سنوات ماذا يعني تقاطع أشكال التمييز، وجد هذا الأخير بعد الارتباك حول ما يعنيه فعلياً هذا المصطلح. في النهاية، نرى الطفل الأبيض «التقط» المعنى وشرح للمرأة السوداء اللطيفة التي ظهرت في أول الفيلم القصير أن «الناس لا يُختزلون إلى مجرّد صورة واحدة. ولكي نبني اللوحة كاملة، نحتاج إلى تجميع جميع جوانب الشخصية». ولأنه لقط المعنى بهذه الطريقة، وتغلب على ارتباكه الأول، هُنّئ الولد: «شكراً، هذا رائع حقاً»، ثم نال مكافأته، التي كانت

(180) Carys Afoko, 'Serena Williams's treatment shows how hard it is to be a black woman at work', *The Guardian*, 10 September 2018.

تحية تلامس الأكف العالية.[181]

الاستيلاء الثقافي

قد نجد في مواصلة طمس الحدود بين الثقافات طريقةً للتصدي لهذا التنقيب اللانهائي عن العرق والخصائص العرقية. يمكن لهذا الطمس أن يأخذ من مشاركة تجربة الملامح العرقية بين البشر سبيلاً له. فالخصوصيات الثقافية لشخص أو شعب ما، والتي تكون محط إعجاب من طرف شعوب أخرى، يمكن مشاركتها بغية تشجيع التفاهم بعيداً مما يمكن أن ينبجس من انقسامات محتملة. إن طموحاً كهذا جدير بالاهتمام. لسوء الحظ، فرضت نظرية نفسها قبل أن يتحقق هذا الطموح تحققاً كاملاً. وُلدت هذه النظرية أيضاً داخل الحُرم الجامعية قبل أن تمتد إلى العالم الواقعي. وجعلت لنفسها مفهوماً، وهو: الاستيلاء الثقافي.

نشأت هذه النظرية في حقل «الدراسات ما بعد الاستعمارية» انطلاقاً من معاينة مفادها أن القوى الاستعمارية لم تكتف بفرض ثقافتها الخاصة على البلدان الأخرى، بل دمجت جوانب من هذه الثقافات الأجنبية في بلدانها. إن من شأن القراءة الحميدة لهذه النظرية أن ترى فيها محاكاة تتضمن إعجاباً صادقاً بالثقافات. لكن أساتذة «الدراسات ما بعد الاستعمارية»، مهما كان حجم شهرتهم، لم يشتهروا بميلهم إلى القراءات الحميدة. فبدلاً من ذلك، سادت قراءة من النوع الخبيث، بل أشد القراءات خباثة، ومفادها أن هذه السرقة الثقافية هي آخر إهانة وجهها الاستعمار إلى الشعوب المستعمَرة. فبعد أن صادرت القوى الاستعمارية الموارد الطبيعية للبلد، وأخضعت شعبه لهيمنة قوة أجنبية، لم تقبل بترك هذه الثقافات للشعوب المعنية، فاستولت عليها في آخر المطاف.

لعلّ المعارضة الشرسة التي حرّض عليها هذا المفهوم في المدن التي تقع فيها

(181) الفيديو (وهو واحد من سلسلة) متاح على موقع YouTube، من إنتاج شركة Soyheat (نُشر في 23 سبتمبر 2016).

الحُرم الجامعية، أمرٌ طبيعي ومحتم. جاءت أول موجة من الاتهامات بالاستيلاء الثقافي كرد فعل على الأزياء التنكرية «غير اللائقة» (inappropriate) [غير المستولى عليها] التي بثت الذعر في نفوس طلاب جامعة ييل في عيد الهالوين عام 2015. كانت الخشية المفصح عنها هي وقوعُ حوادثَ تُورّط أشخاصاً ليسوا من الأميركيين الأصليين، بعد أن يُعثر عليهم وهم يرتدون – على سبيل المثال – قلنسوة أميركية أصلية. ووفق اللغة العامية المستخدمة اليوم لمعارضة مثل هذه الممارسات: هذا ليس أوكيه.

منذ زمن قريب، عُرفت بورتلاند بولاية أوريغون بأنها مختبر لتجريب جميع الأفكار المجنونة. وفي السنوات الأخيرة، وقعت المدينة تحت رحى التعبير عن الاستيلاء الثقافي، فتحوّلت مما وصفه أحد الكتاب بأنه «جنّة الذوّاقة» إلى ما يُشبه ساحة المعركة[182]. هكذا، في عام 2016، افتتحت امرأة من السكان المحليين حانة صغيرة سمّتها Saffron Colonial [الزعفران الاستعماري]. سرعان ما احتشدت جموع غاضبة أمام المطعم واتهمتها بالعنصرية وتمجيد الاستعمار. ثمّ غصّت مواقع الإنترنت، مثل Yelp، بالتعليقات السلبية التي تناولت الحانة واضطرت المالكة إلى الاستسلام وتغيير اسم المطعم. اتهِمت صاحبة المطعم بمحاولتها إعادة إحياء الإمبراطورية بأمكر الطرق وأخبثها عن طريق افتتاح مطعم في بورتلاند. لم تكن هذه أشد الحالات هولاً. بل إن الأسوأ منها في نظر السكان المحليين هي حالة الأشخاص الذي ليس لديهم الحق في طهي الطعام لأن حمضهم النووي لم يكن الحمض المصيب.

في عام 2017، افتتح زوجان شاحنةَ طعام لبيع وجبة البوريتو المكسيكية. تبعاً للقواعد المحلية الجديدة، كانا مذنبين بارتكاب الاستيلاء الثقافي، وتحديداً بـ«سرقة» الثقافة المكسيكية عن طريق بيع البوريتو من دون أن يكونا مكسيكيين.

---

(182) انظر:
Andy Ngo, 'Would you like some strife with your meal? *Wall Street Journal*, 31 May 2018.

تلقّى مالكا عربة الطعام تهديدات بالقتل واُضطرا إلى إغلاق جميع حسابات التواصل الاجتماعي، وفي نهاية المطاف، إلى إغلاق مشروعهما. القول إن انتصارات كهذه من شأنها أن تحرّض الناس هو تقليل من شأن الحالة. ففي غداة الانتصار على شاحنة البوريتو، نشر نشطاء محليون من أوريغون قائمة بعنوان: «بدائل للمطاعم الاستيلائية المملوكة للبيض في بورتلاند». وقُدّمت اقتراحات لمطاعم تعود ملكيتها إلى «أشخاص ملونين» بدلاً منها(183).

على غرار الحوادث التي وقعت في الجامعات، كان من المتوقع أن تظلّ حادثة بورتلاند محصورة في بورتلاند. لكن مرة أخرى، وكما حدث في مثال الجامعات، أخذ ينمو في هذا العصر الموسوم بالاعتماد المتبادل شعورٌ بأننا قد نصحوا جميعنا اليوم في بورتلاند. في صيف عام 2018، وعندما كان معظم الناس يقضون عطلتهم، اندلعت حروب الاستيلاء الثقافي الغذائي في بريطانيا بعد أن شجبت عضوة برلمانية سوداء تُدعى دون بتلر Dawn Butler أحد أشهر طهاة التلفزيون في بريطانيا. كان جيمي أوليفر Jamie Oliver قد أطلق مؤخراً طبقاً جديداً يُدعى «الدجاج الجامايكي الحار». سرعان ما وجهت انتقادات بأن وصفة أوليفر تفتقد عدداً من المكونات المستخدمة تقليدياً في مُلَاح هذه الوجبة. ومن انتقاد المكونات المفقودة في الوصفة، أخذ السجال على الفور منعطفاً عرقياً. غرّدت بتلر معربةً عن اشمئزازها من الطاهي. وتساءلت هل يعرف أوليفير حقاً «ما الدجاجة الجامايكية الحارة. ليست هذه الوجبة مجرد كلمة نزين بها الأشياء لبيع منتجاتنا». وختمت: «دجاجتك الجامايكية ليست أوكيه. هذا الاستيلاء على جامايكا يجب أن يتوقف»(184). الآن، ناموا قريري العين، فقد خضعت سلسلة المطاعم الإيطالية التابعة لجيمي أوليفر Jamie's Italian والتي تملك فروعاً في عشرات من المدن البريطانية، لرقابة دون بتلر.

---

(183) Robby Soave, 'White-owned restaurants shamed for serving ethnic food: it's cultural appropriation', *Reason*, 23 May 2017.

(184) Dawn Butler, Twitter, 18 August 2018.

في هذا الصنف من الحملات الهجومية، يمكن أن تطاول الاتهامات اللاأخلاقية والشرسة أشخاصاً مجهولين تماماً بمقدار ما تطاول المشهورين. في أي وقت عادي، لن تتسبب حفلة نهاية العام في مدرسة في ولاية يوتا دهشةً مشابهة للمشاجرة بين عضو برلماني وطاه مشهور. لكن في عام 2018، شاركت فتاة تبلغ من العمر 18 عاماً، وتدعى كيزيا، صوراً على الإنترنت للفستان الذي ارتدته في حفلها. كان الفستان الأحمر يتصف بطراز صيني مميّز، ومن الواضح أن صاحبته كانت ترجو الحصول على بعض «الإعجابات» بغرض التباهي. بدلاً من الثناء المرجو، تسببت كيزيا بتسونامي طاول الكوكب كله. سأل أحد مستخدمي tweeter: هل كان موضوع الحفلة عنصرية غير رسمية؟ ثم انهال مستخدمون آخرون على الفتاة غير الصينية باتهامها بالاستيلاء الثقافي لأنها ارتدت فستاناً ذا قصة صينية[185].

في عالم يسوده الحس السليم، يجب أن يكون ذلك كلّه هدية ثمينة للفنانين، لا سيما الساخرين منهم. لكن حتى مجرّد إلقاء نظرة نقدية على الظاهرة يبدو أنه خلق فيضاً من الاتهامات ومزايدات في الادعاءات والحساسية. في سبتمبر 2016، ألقت الروائية ليونيل شرايفر Lionel Shriver خطاباً في مهرجان الكتاب في برسبان حول «سياسات الخيال والهوية». انتهزت شرايفر (مؤلفة رواية We Need To Talk About Kevin [يجب أن نتكلّم بشأن كيفن]، من بين روايات أخرى) الفرصة لتناول مسألة «الاستيلاء الثقافي». في الأسابيع التي سبقت المحاضرة، كان المصطلح قد أطلّ برأسه غير مرة وفي سياقات عدة، ولا سيما في سياق السؤال: هل يجب أن يكون لغير المكسيكيين الحق في ارتداء قبعات السمبريرو، وللأشخاص من غير أصول تايلاندية الحق في طهي طعام تايلاندي وتناوله؟

---

(185) 'Teenager's prom dress sparks cultural appropriation debate', *Independent*, 30 April 2018

ولّما كان اللجوء إلى الخيال والاندساس في رؤوس الآخرين من عمل الروائي، قدّرت شرايفر أن هذه الحركات تهدد منطقتها بما لا يدعو إلى الراحة. مثّل الخطاب الذي ألقته في برسبان دفاعاً حماسياً عن فنّها وعن حق الكتّاب في تناول الموضوعات التي يختارونها. ثمّ شرحت أنها عندما فكّرت في شخصية لإحدى رواياتها، كان واقع أنها أرمنية من الممكن أن يوحي بمخطط أولي لهذه الشخصية. لكن «مجرد كون المرء أرمنياً لا يعني أن يكون له شخصية – كما أفهم هذه الكلمة». ثم تابعت: «كون المرء آسيوياً لا يُشكّل هوية. وكونه مثلي لا يُشكّل هوية. كونه أصمّ أو أعمى أو مقيد بالكرسي المتحرك ليس بهوية، مثلما ليست هوية للشخص أن يكون محروماً اقتصادياً».

كان الردّ متوقعاً. في مجلة New Republic، ردت لوفيا غياركي Lovia Gyarkye بالقول إن «ليونيل شرايفر لا يجب أن تكتب عن الأقليات. يُثبت الافتقار إلى الفروق الدقيقة في خطابها يوم 8 سبتمبر في مهرجان الكتّاب في برسبان أنها لا تفهم جوهر هذا الموضوع». ثم أعقبت حكمها هذا بسؤال: «سؤالي إلى شرايفر هو: إذا لم تكن هذه الواسمات هويات، إذا لم تكن المثلية والإعاقة جزء من هوية الشخص، فلماذا يتعرض مئات الأشخاص للإيذاء والوصم والقتل كل يوم بسبب هذه الخاصيات؟ يبدو أن شرايفر لم تفهم مدى ارتباط الاستيلاء الثقافي بالسلطة»[186]. هكذا، دمجت غياركي النزعة الكارثية والفيلسوف فوكو Foucault في تأكيد واحد. ثمّ جاء رد فعل ياسمين عبد المجيد، التي كانت حاضرة في محاضرة برسبان، ليزيد على تبرّم غياركي تبرماً. أخذت صحيفة The Guardian ما روته الأخيرة عن المحاضرة وأعادت نشره على صفحاتها. تقول ياسمين في هذه الرواية:

كان قد مضى على الخطاب عشرون دقيقة عندما التفت إلى والدتي الجالسة

(186) Lovia Gyarke, 'Lionel Shriver shouldn't write about minorities', *New Republic blog*, September 2016.

بجواري في الصف الأمامي، وقلت لها، والرعشات تختلج عضلات وجهي: ماما، لا أستطيع البقاء هنا. لا يمكنني إضفاء الشرعية على ذلك...

ثم أعقب ذلك سرد رائع ومطوّل عمّا نشعر به عندما نقف ونغادر غرفة.

اتضح أن توجّه خطاب شرايفر كان مناقضاً تماماً للخط الفكري الذي تنتهجه ياسمين نفسها، إلى درجة أن الأخيرة نفت صفة الخطاب عن محاضرة شرايفر، بل كانت بالأحرى: «عبوة مسمومة وملفوفة بالغطرسة، رمتها شرايفر بتعالٍ وعجرفة». ثم شرحت ياسمين مخاطر الأشخاص الذين يكتبون بصوت ليس صوتهم. وقدّمت نفسها مثالاً على ذلك بأن أشارت إلى الحدود التي وضعتها لنفسها بالقول:

أنا لا يمكنني التحدث باسم مجتمع LGBTQI، أو المختلفين عصبياً، أو ذوي الإعاقة. لكن جلّ القضية كامن هنا. أنا لا أتحدث نيابة عنهم، وعليّ أن أسمح لأصواتهم وتجاربهم أن تكون مسموعة ومشروعة.

ثم اختتمت بعد ذكر بعض الاعتبارات المتعلقة بالاستعمار، بالقول:

يندرج هذا الضرب من عدم الاحترام الذي يتشبع به خطاب ليونيل شرايفر في الحالة العقلية نفسها التي حملت الناس على التصويت لبولين هانسون Pauline Hanson(187). لهذا السبب، تستمر شعوبنا الأولى في النضال من أجل الاعتراف، ولهذا السبب، نستمر في تحمّل سجون الهجرة الساحلية. إنه صنف المواقف التي تضع الحجر الأساس للتحيز والكراهية والإبادة العرقية الجماعية(188).

يُحسب لصحيفة The Guardian بعد ذلك نشرَ خطاب شرايفر كاملاً حتى يتمكن قراؤها من تمييز هل كان خطابها في برسبان اعتداءً ألمعياً على موضةٍ، أم

---

(187) سياسية محافظة أسترالية، معارضة للتعددية الثقافية. (م)

(188) Yassmin Abdel-Magied, 'As Lionel Shriver made light of identity, I had no choice but to walk out', *The Guardian*, 10 September 2016

حجر أساس للفاشية الجديدة.

نجت شرايفر من رد الفعل العنيف جزئياً لأنها تتمتع بسمعة طيبة لقولها الحقيقة من دون مواربة. ومع ذلك، فقد منحت مَن يرغب الادعاء بأنه أحد ضحاياه حافزاً واضحاً. ولو اختارت ياسمين (التي غادرت أستراليا لاحقاً إثر اتهامات تُشكّك فيها) أن تكتب نقداً غير مشخصن ومدروس عن موقف شرايفر، لما كان لهذه الأخيرة بلا ريب أن تجذب إليها الانتباه، وترى مقالتها منشورةً على الفور في صحيفة كبيرة. ولو لم تختلج الرعشات عضلات وجهها، ولم تقل لأمها إن مجرّد حضورهما في القاعة «يمنح الشرعية» للكراهية، لما كان لرأيها أن يكون أكثر صواباً (أو أن يكون علنياً) من رأي أي شخص آخر. وهذه عتبةً مهمةً في آلية إثارة جنون الحشود: مَن يُعلن أنه الأكثر تضرراً، يحصل على أكبر قدر من الاهتمام. وفي المقابل، مَن لا يُصرّح بذلك، لا يُكترث به. في عصر الصراخ ولفت الانتباه في وسائل التواصل الاجتماعي، يُكافأ الغضب بدلاً من التفاؤل المطمَئن. في السنوات التي تلت خطابها في برسبان، كانت شرايفر واحدة من المؤلفات القلائل اللواتي اعترضن علناً على دور النشر التي اختارت الحصص الجنسية والعرقية على حساب الجدارة الأدبية الوحيدة المهمة في سياسة اتخاذ القرار بشأن نشر الكتب والمؤلفين.

المشكلة المركزية

تتلخص المشكلة المركزية التي تكمن وراء ذلك كله في تشوّش هائل ناجم، ليس عن سوء فهم، وإنما عن وجود برامج عدّة تُحاول مجتمعاتنا تطبيقها في وقت واحد. يُقدّم الأول العالم بوصفه مكاناً يتشكّل قوام العيش الرغيد فيه من تذوّق آثارٍ من الثقافات المختلفة، الأمر الذي يفترض تسهيل الوصول إلى تلك الثقافات. البرنامج الثاني يخضع لمبدأ آخر، مفاده أن الحدود الثقافية عصيّة على التجاوز إلا في ظروف معينة. وإلى جانب أن هذا البرنامج الأخير لم يُنفّذ حتى آخره، فقد

عُهدت مهمة إنجاز كتابته إلى أي شخص مهما كان، مهما كان على الإطلاق، بشريطة أن يُقرر التكفّل به. ثمة برنامج ثالث، يَعدّ أن العرق والثقافة ليسا الشي نفسه. وبرنامج أخير – يعمل بالتزامن مع الثالث – يُوضّح لنا أنهما على قدر كبير من التطابق، لدرجة أن التعدي على ثقافة شخص آخر هو عدوان أو «استيلاء» عنصري.

تكمن وراء ذلك كلّه مشكّلة على درجة عالية من الخطورة في انفجارها لدرجة ليس من المستغرب أنه جرى تجاهلها بعناية فائقة. تكمن المشكلة في سؤال لا نطرحه على أنفسنا لأننا سبق وقررنا الإجابات المستبعدة. السؤال هو الآتي: هل العرق مسألة جهازية أم برمجية؟ في الماضي الذي أوحى بشيء من العار لـ National Geographic، من بين مؤسسات أخرى، عُدّ العرق أكثر المسائل جهازية على الإطلاق، لدرجة أنه كان يُعرِّف الفرد المتحدّر منه. وغالباً ما كان هذا التعريف يأخذ منحىً إقصائياً وعلى حساب أي شيء آخر. كلما تقدّمنا في القرن العشرين، نشأ وعي أكثر تبصّراً وانتشاراً، وهو أن العرق قد يكون مهماً، لكنه ليس بعائق عصي على التذليل. والواقع أنه أصبح بمقدور البشر الانتماء إلى ثقافة أخرى أو شعب آخر، كما يطيب لهم، شريطة أن تتوافر الإرادة لذلكن ويندمجون في الثقافة أو العرق الجديد بروح من الامتنان والحب. في نهاية القرن العشرين، برزت تحذيرات في هذا الشأن، ولا سيما الاعتراف بأن هذا المسار الأخير لا يمكن أن يسمح إلا بالتحرك في اتجاه واحد. على سبيل المثال، يمكن للهندي أن يُصبح بريطانياً، لكن البريطاني الأبيض لا يمكنه أن يُصبح هندياً. تتغير حدود ما هو ممكن أو غير ممكن في هذا الخصوص بدقة عالية وصورة مستمرة. وقد تطوّرت في العقود الأخيرة المواقف تجاه التبني بين الأعراق، وحول ما إذا كان من المفيد أو الملائم أن يُتبنى أطفال من أصل عرقي واحد من طرف آباء من عرق آخر. إلا أن المشكلة بالنسبة إلينا هي أن هذه الحدود تتحرك من جديد وتعيد رسم مناطق جديدة. تنبعث من هذا التحرّك الدائم إشارات لا تشي بأننا قادرون على اتخاذ منعطفات مفاجئة فحسب، بل يبدو أننا اخترنا بعض أسوأ الوجهات الممكنة.

هل السواد سياسيٌّ؟ الخطاب، وليس المتكلّم

في عام 2016، عندما أيّد بيتر ثيل Peter Thiel دونالد ترامب Donald Trump في المؤتمر الوطني للحزب الجمهوري في كليفلاند، تحوّل على الفور إلى شخص غير مثلي في عيون أبرز مجلة للمثليين في أميركا. كان اختياره اليمين – فضلاً عن دونالد ترامب – خطأً فادحاً لدرجة أن Advocate أصدرت بحقه ما يشبه حرماناً من كنيسة المثليين. بعد ذلك بعامين، تكرر الأمر نفسه، لكن مع الأميركيين السود هذه المرة.

بعد عام تقريباً من صمت كاني ويست Kanye West على tweeter، عاد إليه في ربيع عام 2018. وبما أنه بارع في هذا الوسط، سرعان ما بدأ في إصدار الأخبار. في أبريل، توّج المعلّقة السياسة والناشطة المحافظة السوداء كانديس أوينز Candace Owens على أثر محاضرة ألقتها الأخيرة في الحرم الجامعي بجامعة كاليفورنيا، لامت فيها بعض ناشطي حركة «حياة السود مهمة»[189] التي تظاهرت ضدّها، فقارنتهم مع طلاب سود يجلسون في الصفوف الأمامية، ويستمعون إلى كلامها. في مقطع انتشر على نطاق واسع، قالت أوينز:

ما يحدث الآن في المجتمع الأسود... حرب أهلية أيديولوجية اندلعت بين السود الذين يركّزون على ماضيهم ويصرخون وينوحون بأعلى صوتهم في موضوع العبودية، والسود الذين يركّزون على مستقبلهم. ما نلاحظه هو صراع بين عقلية الضحية وعقلية المنتصر.

ثم اتهمت المتظاهرين بأنهم «مدمنون» على الاضطهاد.

بعد مشاهدة الفيديو، غرّد كاني ويست: «أحب طريقة تفكير كانديس أوينز». للحظة، بدا كما لو أن هناك خللاً في المصفوفة، أو على الأقل خللاً في tweeter. رأينا على مر السنين كثيراً من المحافظين السود، مثل قاض في المحكمة العليا، أو

(189) Black Lives Matter

بعض المفكرين البارزين في أميركا؛ لكن لم يحدث من قبل أن أوحى أحد المشاهير من حجم كاني ويست بوجود حزب آخر غير «الحزب الديمقراطي» يمنحه الأميركيون السود ولاءهم السياسي. وها هو نصف أحد أشهر الأزواج – في السرّاء والضرّاء – على سطح الكوكب، قد أبدى استعداده للسير في حقل الألغام هذا.

يمكننا القول بأن في يد كاني ويست عدداً من الأوراق الرابحة التي تسمح له بدخول هذا الحقل. أولى هذه الأوراق هي أمواله التي لا تأكلها النيران. فحتى وإن جعلته تجاذباته السياسية غير مرغوب لدى شرائح كبيرة من جمهوره – من السود أو البيض – يمكنه دائماً الاستلقاء على أمواله وأموال زوجته. الورقة الرابحة الأخرى التي سمحت لكاني ويست بالتعبير الصريح عمّا يعتمل في فكره، هو الشعور المنتشر على نطاق واسع والذي لا يمانع ويست اللعب على وتره بأنه معتوه بعض الشيء.

سرعان ما تحوّل مدح كانديس أوينز إلى ثناء يُكيله ويست لترامب. في أكتوبر 2018، كان ويست حاضراً في المكتب البيضاوي في اجتماع قمة وغداء، وهو أمر غريب حتى بالمعايير غير الرسمية. احتكر ويست الكلام، واكتفى الرئيس الجالس على الجانب الآخر من المنضدة، بالإيماء برأسه بحذر. انتهز ويست الفرصة للحديث عن المجتمع الأسود وإصلاح السجون، وكيف أن ارتداء قبعة MAGA الحمراء يمنحه شعوراً «وكأنه سوبرمان». تحدّث أيضاً عن وجود «أكوان بديلة». واشتكى من أن «الناس يتوقعون من الأسود أن يكون ديمقراطياً». ثم تابع بالقول «إنه يُحب ترامب».

منذ اللحظة التي بدأ فيها كاني ويست السير في هذا الحقل، كان من المتوقع أن يتلقى رداً عاجلاً أو آجلاً. جاء الرد الأصوب والأكثر تدميراً على يد تانيهيسي كوتس Ta-Nehisi Coates. في مقالة نشرها الأخير في مجلة The Atlantic، تطرق إلى نشأته وولعه بمايكل جاكسون Michael Jackson. كتب عن التحوّل

الغريب لهذا الأخير من صبي أسود صغير بتسريحة إفريقية إلى ما صار إليه في الجزء الثاني من حياته، أي شخصية من شمع، وشبه شفافة. ثم قرّر كوتس مقارنة كاني مع مايكل جاكسون.

وكتب: «ما يسعى إليه كاني ويست، كان مايكل جاكسون يسعى إليه أيضاً. يصيغ ويست معركته بحقّه في أن يكون «مفكراً حراً». والواقع أنه يدافع عن ضرب من الحرية، هي تلك الحرية البيضاء، حرية بلا عواقب، حرية بلا نقد، حرية أن تكون مختالاً وجاهلاً». وضّح كوتس ذلك في العنوان: «أنا لست أسوداً – أنا كاني: يريد كاني ويست الحرية – حرية البيض»[190]. سقط كاني في الفخّ نفسه الذي سقط فيه ثيل. في مرحلة ما، تحولت المظالم السياسية للأقليات إلى حراك سياسي، ومنذ تلك اللحظة، اندرجت هذه المظالم داخل أكثر الألعاب السياسية ابتذالاً. إن المطالبة بوجود كتل انتخابية لها الأطر نفسها التي لمجموعات الأقليات، من شأنها أن تعود بالفائدة على بعض السياسيين الذي يبحثون عن كتل ناخبة، وعلى الوسطاء المهنيين الذين يدّعون الكلام باسم مجتمع بأكمله من أجل الحصول على الترقيات التي يرغبون فيها. لكن هذا التقاطع بالغ الخطورة، علماً بأن جميع المطالب الحقوقية قد انتهت إليه.

يرتئي هذا التقاطع أنك لن تكون عضواً في مجموعة أقلية معترف بها ما لم تقبل المطالب المحدَّدة والمظالم السياسية والبرامج الانتخابية الناجمة عنها والتي عمل الآخرون على تحضيرها من أجلك. وإن حدث وخرجت عن هذا الإطار المرسوم، لن تُعدَ حاملاً الخاصيات نفسها التي كانت لك في السابق، إذ بتجاوزك المعتقد المرسوم لك، تُنزع عنك هذه الخاصيات. هكذا، ما عاد ثيل مثلياً ما إن أيد ترامب، وما عاد ويست أسود منذ تأييده ترامب أيضاً. أي إن كلمة «أسود» ما عادت تشير إلى لون بشرة أو عرق – أو إلى هذا أو ذاك فحسب. بل تحوّلت – شأنها شأن المثلية الجنسية – إلى أيديولوجيا سياسية، ليس إلا. غالباً ما يكون هذا

---

(190) *The Atlantic*, 7 May 2018.

الافتراض مضمَراً، ونادراً ما يُصرّح به، وبات متأصلاً حدّ الإحالة عليه إحالة آلية لا تحتمل اللبس.

تتباهى كلية لندن للاقتصاد[191] بكونها إحدى أكبر جامعات العالم في العلوم الاجتماعية: «مع هذا الحجم الكبير من الالتحاق الدولي والانتشار العالمي، وضعت كلية لندن للاقتصاد دائماً الانفتاح على العالم في صميم مهمتها». في الصفحة المخصصة من الكلية لمراجعة الكتب، نُشر في مايو 2012 نقداً لكتاب جديد لتوماس سوويل Thomas Sowell بعنوان Intellectuals and Society [المثقفون والمجتمع]. كان هذا الكتاب قد صدر قبل عامين، لكن في العالم الأكاديمي، غالباً ما يبدأ إطلاق النار من المثقفين بإيقاع أبطأ مما في بقية المجتمع.

المُراجع هو أيدان بيرن Aidan Byrne، وهو «بروفسور فخري في الدراسات الإنكليزية والإعلام/ الدراسات الثقافية» في جامعة ولفرهامبتون. وبصفته كذلك – كما يُخبرنا في سطرين –، «هو متخصص في الذكورة داخل الويلزية في فترة ما بين الحربين والقصة السياسية، ويُدرّس في تشكيلة واسعة من الوحدات». أي أنه يمتلك صفة مرجعية مثالية، لتلقي من خلالها مجلة LSE Review of Books أحكامها على سويل Sowell.

من جانبه، لم يكن بيرن «متأثراً» بهذا الكتاب ذي الأطروحات «المتحزبة جداً». إليكم المفردات التي أطلق بها بيرن نيرانه بعد عامين من نشر كتاب سوويل. منذ السطر الأول، يُحذر من أن «الكتاب يتألف من سلسلة من التهجّمات التي عفا عليها الزمن، وغير النزيهة أحياناً، على أعداء سوويل السياسيين». من بين الاتهامات الأخرى التي يُكيلها بيرن، ادعى بوجود سطر واحد في كتاب سوويل يردد مخاوف حركة Tea Party [حفلة الشاي]، ويُشكّل «هجوماً مقنّعاً على الاندماج العرقي».

---

(191) The London School of Economics

ثمّ جاء ادعاء أكثر غرابة ضد سوويل. حذّر بيرن القرّاء من أن إحالات هذا الأخير على القضايا العرقية ليست سوى «رسائل مشفّرة مُبلبِلة ومزعجة». وبالطريقة نفسها، يقول بيرن إن حجج سوويل حول إرث الماضي هي أيضاً «تدخل مشفّر». وبالعودة إلى موضوعه، يشرح بيرن أنه «بالنسبة إلى سوويل، لا ينبغي اعتبار الإرث الثقافي للعبودية مشكلة أخلاقية، ولا يجب محاولة تحسينها». ثم يُضيف إلى هذه التهمة ملحقاً مدمّراً، لكنه ما لبث أن عاد بدماره على بيرن نفسه.[192]

يُحسب إلى كلية لندن للاقتصاد أن موقعها أضاف «تصويباً» في الجزء السفلي من المقالة على الإنترنت. التصويب مهم، فهو يشير ببساطة إلى حذف سطر من النص الأصلي: كانت المقالة الأصلية تحتوي على السطر: «من السهل على رجل أبيض غني أن يقول ذلك». حُذف هذا السطر ونحن نعتذر عن هذا الخطأ[193]. ذلك أن توماس سوويل، وعلى الرغم من حجم دخله، ليس رجلاً أبيض. فهو أسود، بل ورجل أسود مشهور جداً. ولم يفترض ناقد الكلية أنه أبيض إلا بسبب أفكاره السياسية.

لنتفحّص الآن اقتراحاً تسلل إلى نقاش ليبيرالي دونما أدنى قدر من الاحتجاج. وقد تسلل من اتجاهات متعارضة متعددة. لنأخذ على سبيل المثال ردّ الفعل تجاه حالة راشيل دوليزال Rachel Dolezal الغريبة والمثيرة للشفقة. دوليزال رئيسة إقليمية لـ«الجمعية الوطنية للنهوض بالملونين»، وأصبحت مشهورة عالمياً في عام 2015 عندما «أزيل النقاب» عن كونها امرأة بيضاء خلال مقابلة متلفزة. في أثناء هذه المقابلة، سئلت دوليزال إذا كانت هي نفسها سوداء. تظاهرت دوليزال بعدم

---

(192) حُصل على المقالة الأصلية من الإنترنت:
http://eprints.lse.ac.uk/44655/1/__Libfile_repository_Content_LSE%20Review%20of%20Books_May%202012_week%204_blogs.lse.ac.uk-Intellectuals_versus_society_ignorance_and_wisdom.pdf

(193)Aidan Byrne, 'Book Review: Intellectuals and Society by Thomas Sowell', *LSE Review of Books*, 26 May 2012.

فهم السؤال. عندما واجهت إفادة من والديها البيولوجيين، اصطدمت المقابلة بسد منيع. ذلك أن والديها لم يكونا من ذوي البشرة البيضاء فحسب، بل ومن أصول ألمانية تشيكية، أي بعيدين كل البعد من الهوية الأميركية السوداء التي كانت دوليزال تدعيها. وفي النهاية، اعترفت دوليزال بأن والديها هما بالفعل والداها، إلا أنها أصرّت على كونها سوداء على الرغم من ذلك، مدعيّة بأن تماهيها مع المجتمع الأميركي الأسود قد تحقق بسبب قربها من أشقائها السود بالتبني.

غير أن شقيقها بالتبني قال إنها «نشأت كشخصية بيضاء في مونتانا، وتتمتع بامتيازات». نجحت السيدة دوليزال في الظهور بوصفها امرأة سوداء بفضل تطبيقات دقيقة من الكريمات البرونزية وتجعيد شعرها تجعيدةً نمطية. كان معظم الناس في غاية الذهول، وعبروا عن ذهولهم هذا بالسؤال: «لكن ألستِ بيضاء؟». فهي لم تنجح في انتحال شخصية امرأة سوداء فحسب، بل وفي ترأس الفرع المحلي لمنظمة أنشئت خصيصاً من أجل السود.

أثارت قضية دوليزال سلسلة لا نهائية من الأسئلة، وقد سمحت القضية وردود الفعل عليها بتحليل الثقافة الراهنة من منظورات عدة. من بين هذه المنظورات، وليس أقلها أهمية، الانقسام الذي نشأ واتسع بين شخصيات بارزة من السود، والمتحدثين الرسميين للمجتمع الأسود، والناشطين.

في برنامج تلفزيوني على محطة ABC، دافع ووبي غولدبرغ Whoopi Goldberg عن دوليزال بالقول: «إذا أرادت أن تكون سوداء، تستطيع أن تكون سوداء»، تلك كانت وجهة نظر غولدبرغ(194). يبدو أن «السواد» لم يكن مشكلة في هذه المناسبة. جاء رد الفعل الأكثر إثارة للاهتمام على لسان مايكل إريك دايسون Michael Eric Dyson الذي دافع عن دوليزال على نحو لافت على محطة MSNBC، إذ أعلن قائلاً: «إنها تتحمل مسؤولية الأفكار والهويات والصراعات.

(194) The View, ABC, 15 June 2015.

فقد تماهت معها. أراهن أن كثيراً من السود سوف يدعمون راشيل دوليزال أكثر مما سوف يدعمون، على سبيل المثال، كلارنس توماس Clarence Thomas»[195]. يشي ذلك كلّه بأن كلمة «أسود» ما عادت تمت بصلة إلى لون البشرة أو العرق، بل باتت مُدرجة مسبقاً في سجلّ سياسي. لدرجة أن امرأة من العرق القوقازي طبّقت مرهماً برونزياً لكنها تحمل آراء «مصيبة»، تمكّنها من أن تكون سوداء أكثر من قاضي المحكمة العليا، إذا صادف وكان هذا القاضي أسوداً محافظاً.

المتكلّم، وليس الخطاب

إليكم سبب آخر لجنون الحشود الذي نعيشه. في أحيان معينة، كما في حالة رايل دوليزال وكانديس أوينز وتوماس سوويل، نستطيع أن نقع على موقف ثابت. لا يهم المتكلّم والخصائص الفطرية الخاصة به. المهم، هو الكلام الذي يتلفظ به والأفكار والمشاعر التي يُبديها. لكن في أحيان معينة أخرى، ومن دون سابق إنذار أو وسيلة تنبؤية واضحة، يسود مقياس قيم متناقض كلياً. فجأة، يُصبح محتوى الخطاب بلا فائدة على الإطلاق أو ذا فائدة من الدرجة الثانية في أحسن الأحوال. في هذه الحالة التي يكون فيها الخطاب، وليس مَن يتلفظ به، هو المهم، فجأة يُصبح المتكلّم هو الوحيد المهم، ويسمح بتعليق الخطاب.

يرتبط هذا التطور ولا ريب بإحدى الهدايا الكبيرة التي ندين بها إلى عصر وسائل التواصل الاجتماعي، أي، إلى إمكان نشر تأويلات قاسية ومغلوطة لأقوال جاءت على لسان الآخرين. وعندما يُسلط الضوء على شخصية من المشاهير، يمكن لوسائل الإعلام أن تنتهز الفرصة لترديد هذه الحفنة من التأويلات وتضخيمها على حساب التعليقات الصادقة أو المتسامحة. نستطيع أن نرصد آثار موقفٍ كهذا في الأخبار اليومية. إذ يمكن لعنوان رئيس أن يقول إن شخصاً

(195) MSNBC, 17 June 2015.

مشهوراً «وُبِخ» على قول جهر به، ليتبين – عند قراءة المقالة – أن «التوبيخ» جاء على لسان شخصين من الجمهور رصدهما الصحفي على tweeter. لهذا السبب يبدو على السياسيين الذعر الشديد عندما يحاول أي شخص سحبهم إلى أي أرض وعرة. ليس لأن ثمن التفكير بصوتٍ عالٍ باهظ فحسب، أو من الخوف بأن قواعد اللعبة قد تغيرت منذ حاولنا ذلك آخر مرة، بل أيضاً لأن مجرّد رد فعل سلبي واحد (يأتي من ساكن على سطح هذا الكوكب) يمكن أن يتحوّل إلى عاصفة هوجاء. يبتلع هذا الخوف اليوم جميع الشخصيات العمومية تقريباً، وحتى عندما يحسبون أن خطواتهم بارعة – أو بطولية –، قد يكتشفوا أنهم وضعوا قدمهم في المكان الخاطئ وأن الدوي الذي تناهى إلى أسماعهم ليس صدى التصفيقات، بل انفجار حياتهم المهنية وقد تناثرت أشلاء للتو.

في يناير 2015، ظهر الممثل بنديكت كومبرباتش Benedict Cumberbatch في مقابلة متلفزة في برنامج Tavis Smiley Show [استعراض تافيس سمايلي] على محطة PBS. كرّس كومبرباتش جزءاً من وقت المقابلة للاحتجاج على أن أصدقاءه الممثلين من خلفيات أقلية عرقية، والذين يحصلون على عمل في الولايات المتحدة بسهولة أكبر مما هو الحال في المملكة المتحدة. كان من الواضح، انطلاقاً من ردوده وأقواله وملاحظاته، اصطفافه إلى جانب الممثلين السود، وأنه أبعد ما يكون، على سبيل المثال، من مواقف منظمة «كو كلوكس كلان» العنصرية. ما مِن سبب جدي للاعتقاد بأن كومبرباتش كان عنصرياً متخفياً يخون نفسه أمام تافيس سمايلي. إلا أن الممثل ارتكب خطأً، لا يتعلق بنية أو دافع، وإنما – كما هي الحال في أغلب الأحيان، عندما لا يتوافر دليل آخر – بانتهاك لغوي. ففي سياق ملاحظاته، أحال كومبرباتش على «الممثلين الملونين»؛ وهذا هو التعبير الذي لا يزال مستخدماً من دون أن يحمل أي تضمينات سلبية في وطنه. والحال، قبل المقابلة بزمن قليل، تغير البروتوكول تغيراً طفيفاً في هذه النقطة. في يناير 2015، أصبحت الطريقة الجديدة المصيبة للإشارة إلى «الأشخاص الملونين» هي «الأشخاص ذوو البشرة

الملونة». على المستوى الدلالي، نستطيع القول بأن الفارق ضئيل وليس ذا مغزى.

ومع ذلك، كان الغضب عارماً وعظيماً، كما لو أنه استخدم مفردة «زنجي». بطبيعة الحال، اضطر الممثل إلى تقديم اعتذار علني فوري ومذل. في بيان صدر بعد العرض مباشرة، قال الممثل: «يدمرني أنني تسببت بالإيذاء باستخدام هذا المصطلح الذي عفا عليه الزمن. أستميحكم عذراً. لا عذر لحماقتي، وأعرف أن الأذى قد حدث»[196].

على الرغم من ذلك، أظهرت عناوين الصحف الممثل في «مرمى النيران» (The Telegraph) وفي قلب «سجال عرقي» (The Independent). خلال كل هذه الحادثة، لم يدّعِ أحدٌ بجدية أن كومبرباتش كان عنصرياً، وكان من المستحيل لأي كان أن يؤول بجدية هذه الملاحظات أو أي ملاحظات أخرى على أنها عنصرية. لكن بات اسمه الآن مقترناً بـ«سجال عرقي». لو أصغى الناس إلى ما حاول كومبرباتش قوله، لربما تحقق ولو مقدار ضئيل من الفائدة، وزادت فرص اختيار الممثلين من أصدقائه في المملكة المتحدة. ولكن يبدو أن أسهل الطرق هو التقاط بعض ادعاءات وسائل التواصل الاجتماعي التي أدلى بها مراقبو اللغة، وتحويلها إلى «جدال» فعلي تدور مجرياته في الحياة الواقعية. هذا هو صنف الحوادث الذي بدأ كلّ مَن في وسائل الإعلام، كما بين أوساط الجمهور، الاستفادة من دروسه. ومعظم الناس لا يراهن على تدخل سحري من شيرلوك هولمز أو أي بطل شعبي آخر لإخراجه من هذه الهاوية.

تشير صعوبة الحديث عن العرق، أو حتى التعريج عليه كما فعل كومبرباتش، إلى مشكلة إجرائية عميقة، يُحاول كل خطاب عمومي التطرق إليها. حتى الآن، كان يمكن لأي سياسي أو كاتب أو شخصية عمومية، من دون أي صعوبة تذكر، التخلّص من أي متعلقات مقترنة مع تعبيره. يجب أن نحاول الكلام والكتابة أو

(196) 'Benedict Cumberbatch apologises after calling black actors "coloured"', *The Guardian*, 26 January 2015.

حتى التفكير بصوت عالٍ، بطريقة لا يمكن وفقها لأي شخص عاقل أن يسيء تفسيرها على نحو معقول. حتى الآن، إن أساء أحدهم تأويل كلامك بطريقة مبالغ فيها، ترتب عليه تبعات سلبية. وأي شخص كان ليدعي أن بنديكت كومبرباتش عنصري خبيث، وكشف نفسه بنفسه للتو، يمكن أن يتوقع أن يُسخر منه، ويُرفض من دون مزيد من التفكير.

لكن في السنوات الأخيرة – التي ليست مصادفة أنها متزامنة مع سنوات تطور وسائل التواصل الاجتماعي – تبدلت الأحوال. اليوم، يوجد السياسي والكاتب وغيرهما من الشخصيات العمومية في الموقع نفسه الذي يوجد فيه أي مواطن عادي. ولم يعد بإمكاننا الافتراض أن مستمعينا صادقون أو يسعون وراء أهداف مماثلة لأهدافنا. وقد تستدعي الصيحات الصادقة الانفجارات المدوية نفسها التي تستدعيها تصريحات ميكيافيلية. لذا فإن الطموح الجماعي للشخصيات العمومية يجب أن يتحوّل إلى التأكد من أنهم يكتبون ويتحدّثون ويفكرون بصوت عالٍ، بحيث لا يمكن لأي نقد غير نزيه أن يزيّف أفكارهم. لا مراء في أن هذا الطموح مستحيل ومربك ومحيّر. إنه مستحيل. أو على الأقل، لا نستطيع السعي إليه من دون الإصابة بالجنون.

يتمثّل رد الفعل البدهي بتفحّص الخيارات المتاحة. أحد هذه الخيارات هو الصمت، أو على الأقل عدم قول أي شيء قد يكون له صدى علني. تبنى هذا الخيار عدد من السياسيين، إلا أنه يترك الباب مفتوحاً أمام أشخاص على استعداد لقول أي شيء وكل شيء. يقوم خيار آخر على تحديد نوع اللعبة التي تدور هنا فعلياً. للقيام بذلك، من الجدير أن نُقارن بين أمثلة مختلفة، أي بين الحالات التي لا يُقال فيها أي شيء ذي دلالة، ومع ذلك نُتهم بإساءة خطيرة، والحالات الأخرى التي تُقال فيها فعلياً أقوالٌ فظيعة من دون الاتهام بأي إساءة. وخير مثال على ذلك حالة سارة جيونغ Sarah Jeong، التي وقعت في أغسطس عام 2018.

سارة جيونغ

بدأت القصة عندما أعلنت صحيفة The New York Times تعيين كاتبة تبلغ من العمر 30 عاماً، متخصصة في قضايا التكنولوجيا، في هيئة تحرير الصحيفة. ومثل جميع التعيينات من هذا العيار، جذبت ترقية جيونغ إلى هذا المنصب في سن مبكرة قدراً كبيراً من الاهتمام. والاهتمام في عصر الإنترنت، يعني بطبيعة الحال إعادة قراءة كل الأقوال المنشورة في هذا الفضاء. في حالة جيونغ، أدت عمليات التمشيط إلى صعود تغريدات ذات هدف خاص جداً، وهي عبارة عن مسلسل من الإساءات المتواصلة والفجة جداً ضد البيض. من بين تغريدات جيونغ: «هل الأشخاص البيض مهيؤون وراثياً للاحتراق السريع في الشمس، لذلك هم مستعدون منطقياً للعيش تحت الأرض مثل عفاريت صاغرة؟»؛ «أتحداكم أن تذهبوا إلى ويكيبيديا وتجدوا أشياء للبيض فضلٌ فيها. الأمر صعب بحق»؛ «الرجال البيض خراء»؛ «احذفوا الرجال البيض»، وفي وسط سلسلة من التغريدات: «هل حاولتم مسبقاً أن تفهموا جميع الأشياء المباحة للبيض ولا تندرج في الاستيلاء الثقافي؟ حرفياً، لا يوجد شيء. التزلج، ربما، والغولف أيضاً... من الممل جداً أن تكون أبيض»[197]. نستطيع أن نؤكد بحيادية تامة أن حسابها على tweeter يُظهر هوساً بهذا الموضوع. حتى إنها ارتكبت الخطأ الأساس عندما قارنت هؤلاء الأشخاص الذين لا تحبهم بالحيوانات: «بيض أغبياء يشغلون الإنترنت بآرائهم، مثل كلاب تتبول على صنابير المياه»[198]. وتغريدة أخرى تقول: «أوه، من المقرف جداً رؤية الفرحة التي أشعر بها من كوني قاسية مع الرجال البيض المسنين»[199].

كانت جيونغ أيضاً مؤيدة شرسة لشعار: «اقتلوا جميع الرجال». لكن نظراً إلى

(197) Sarah Jeong tweets from 23 December 2014; 25 November 2015; 31 December 2014; 18 November 2014; 1 April 2014.

(198) Sarah Jeong tweets from 28 November 2014.

(199) Sarah Jeong tweet from 24 July 2014.

الظروف، اكتست هذه المسألة أهمية ثانوية في سلم أولويات منتقديها. وثارت ثائرة هؤلاء من جيونغ والصحيفة التي وظّفتها، بسبب سيل التصريحات العنصرية تجاه البيض. من جهتها، استمرت The New York Times بالوقوف إلى جانب موظفتها الجديدة، إذ من غير الوارد التخلي عنها لقطعان الإنترنت. أعلنت الصحيفة في بيانها الرسمي أنها وظّفت جيونغ بسبب «عملها الاستثنائي» على الإنترنت. ثم تابعت: «جعل منها عملها الصحفي، إلى جانب أنها شابة آسيوية، موضوع مضايقة متكررة على الإنترنت. وخلال فترة زمنية معينة، ردّت على هذه المضايقة بتقليد خطاب المضايقين. وهي الآن مدركة أن هذا النهج لم يؤد إلا إلى تغذية النقد اللاذع الشائع بكثرة على وسائل التواصل الاجتماعي. إنها تأسف لذلك، والصحيفة لا تقبل بذلك أيضاً». ثم اختتمت الصحيفة بالقول إن جيونغ، بعد أن تعلّمت من هذا الدرس، «ستكون صوتاً مهماً لدفع هيئة التحرير إلى الأمام»[200].

في الحقيقة، امتدت «الفترة الزمنية» التي انخرطت خلالها جيونغ في نشاطاتها التغريدية المثيرة للجدل من 2014 حتى عام واحد فقط قبل أن توظفها الصحيفة. لكن دفاع صاحب العمل الجديد توّج بالنجاح. والواقع أن ما نجح هو استخدام جنس السيدة جيونغ وشبابها وعرقها، بالإضافة إلى المهل التي تُمنح آلياً إلى مَن يدّعي أنه في موقع الضحية. مرة أخرى، لو كانت السيدة جيونغ قد ادعت أنها لم تتعرض إلى الشتم على الإنترنت، أو لم تتحقق بانتباه شديد مما يقوله الناس عنها، أو (حجة لا يجب استخدامها إن أردنا الفوز بالجولة) ادعت أن الشتائم على الإنترنت لم تزعجها البتة، لكانت حجتها واهنة.

لكن قضية جيونغ كانت وراء كشفٍ آخر مبهر. دافع كاتب في موقع Vox يُدعى زاك بوشامب Zack Beauchamp عن الصحفية الشابة، فغرّد: «يخلط كثير من الناس على الإنترنت اليوم بين الطريقة التعبيرية التي يلجأ إليها المناهضون

(200) بيان نشرته الصحيفة في The New York Times بتاريخ 2 أغسطس 2018.

للعنصرية والأقليات للحديث عن «البيض»، مع البغضاء العرقية الفعلية، لسبب يصعب سبر غوره»[201]. لا يُعطي الصحفي أي تفسير لما هو «تعبيري» أو ليس كذلك بمصطلح النعوت العرقية، أو أي دليل لكيفية الحكم على الاختلاف بين «البغضاء العرقية الفعلية» وصيغها «التعبيرية» اللغوية. لكننا ندين إلى إيزرا كلاين Ezra Klein، وهو كاتب آخر في Vox، بدفاع أكثر تثقيفاً عن جيونغ. افتتح كلاين دفاعه عن جيونغ بإرجاع هذه الجلبة إلى «متصيدين عنصريين من اليمين المتطرف، يستخدمون التغريدات القديمة عن سوء نية، بغية الدفع نحو إقالة شابة آسيوية». وهو الأمر الذي سمح باللعب على وتر الهوية العرقية لجيونغ (والتي تطرقت الصحيفة إليها أيضاً)، وعلى وتر الدوافع السياسية لكل شخص، وربما لجميع الأشخاص الذين لديهم ما يعترضون عليه في تغريدات جيونغ.

لكن دفاع إيزراكلاين الذي كان أكثر مدعاة للاهتمام، هو ذاك الذي يعكس الحجة التي استخدمتها سلمى الورداني Salma El-Wardany للدفاع عمّن يُغرّد: «جميع الرجال قمامة»، وتغريدة كلاين القائلة: «اقتلوا جميع الرجال». تقول هذه الحجة: إن هذه التغريدات ليست سوى طريقة أخرى للقول: «سيكون من الرائع لو كان العالم أقل خشية للنساء». ولكي يسوّغ الشتائم العرقية التي كررتها جيونغ تجاه البيض، أوضح كلاين أيضاً أن الشابة الصحفية، عندما استخدمت كلمة «البيض» في «مزحاتها»، كانت تعني شيئاً آخر غير ما قالته. وكما أشارت في « tweeter العدالة الاجتماعية»، تُحيل الكلمة على «بنية السلطة والثقافة المهيمنة، وليس على أشخاص بيض فعليين»[202].

ها هنا دافع آخر رائع للجنون. فإذا انتهى المطاف ببنديكت كومبرباتش Benedict Cumberbatch وسارة جيونغ في «سجالات عرقية»، نستطيع أن

---

(201) مقتبس من:

Zack Beauchamp, 'In defence of Sarah Jeong', *Vox*, 3 August 2018.

(202) Ezra Klein, 'The problem with Twitter, as shown by the Sarah Jeong fracas', Vox, 8 August 2018.

نستنتج من ذلك أنهما مذنبان بارتكاب استفزازات مماثلة. إلا أن الحال ليس كذلك. ذلك أن كومبرباتش وجد نفسه في مرمى النيران لأنه استخدم مصطلحاً عفا عليه الزمن. أمّا جيونغ فقد وجدت نفسها في قلب سجال عرقي لأنها استخدمت خلال سنوات وفي أكثر من موضع النعوت العرقية نفسها بطريقة ازدرائية، وبدا أنها استمتعت بذلك. هناك ما هو أسوأ من ذلك: من الممكن للتجريم أن ينفصل عن خطورة الكلمات المستخدمة من طرف المتهمين. في بعض الحالات، نستطيع أن نؤاخذ شخصاً على استخدامه مصطلحاً معيناً، وإن لم يكن هذا الاستخدام متعمداً (كومبرباتش). وفي حالات أخرى، قد تكون الكلمات عنيفة جداً، وتُستخدم عن عمد، لكن لا تُؤخذ بالحسبان في معناها الحرفي. هذا هو التفسير الذي قدمه كلاين والورداني وآخرون. ففي حين يستحق بعضهم التأنيب والتوبيخ لاستخدامه غير المتعمد المصطلح الخطأ، يلجأ بعضهم الآخر إلى المصطلح غير المناسب وبالغ التطرف، من دون أن يستحق أي عقاب من صنف خاص. والأسباب في هذا الإطار غير واضحة.

والواقع أنه ليس ثمة سوى احتمالين للإحاطة بما هو «غير واضح». الأول هو أن هناك أداة تشويش رمزية لجميع التصريحات العمومية المتعلقة بالجنس والعرق وأشياء أخرى، والتي تتطلب جهازاً لفك الرموز، لا يمتلكه الجميع. لكن من الواضح أن كلاين والورداني يمتلكانه، لكننا لا نعرف بالتحديد مَن غيرهم يمتلك أداة فكر الترميز الصحيحة لمعرفة ما المقصود بالكلمات وما غير مقصود. هل علينا أن نلجأ دائماً إليهما لإخبارنا بالكلمات التي تعني حرفياً ما نسمعه؟ وما الكلمات التي نسمع غير المقصود منها؟ وما آلية عمل جهاز فك الترميز بالضبط؟

التفسير الآخر هو أن هذا التشويش الرمزي إنما يتبع منطقاً بسيطاً. لا علاقة لهذا المنطق بالكلمات ولا بالقصد، بل بالخصائص الفطرية لمتكّلم بعينه. فكومبرباتش، الرجل الغيري الأبيض، يتكلّم من مكان يتسم بأكبر قدر من عدم الأمان. من جهة أخرى، قد يُظنّ أن الشخص الذي يُدلي بتعليقات مهينة لسنوات حول

مجموعة عرقية أخرى، سيتورط في مشكلات خطيرة. اللهم إن كانت هويته موافقة. لو أمضى كومبرباتش سنوات في إطلاق التغريدات عن آسيويين يعيشون في الجحور مثل العفاريت، وعن مدى استمتاعه بإبكاء المسنين الآسيويين، ما كان ليفلت من العقاب بهذا اليسر. لكن جيونغ أفلتت من العقاب، بفضل هويتها العرقية وحدها (على الرغم من أن الامتياز الآسيوي بات اليوم محط تقويمات صارمة على ميزان العدالة الاجتماعية)، وبسبب واقع العرق الذي هاجمته.

من المستحيل فكّ رموز المعايير المختلفة التي تُطبّق في آن من خلال الاستناد إلى محتوى الخطاب وحده، لأن هذا الخطاب نفسه ما عاد مهماً. ما يهم في المقام الأول هو الهوية العرقية وأصناف أخرى غيرها من الهوية التي يحملها المتكلّم. وتتوقّف إدانته أو تبرئته على هويته. الأمر الذي يعني أن الكلمة ومضمونها، على أهميتهما، أصبحا عنصرين ثانويين. ويعني أيضاً أننا، بدلاً من تجاوز قضية العرق وتجاهلها، سوف نضطر في المستقبل المنظور إلى التركيز عليها، لأن عرق المتكلمين وحده هو الذي سوف يُحدّد من يجب أن نسمح لأنفسنا بالاستماع إليه.

صعود البلاغة

ليس في هذا الصراخ المتزايد ما يدعو إلى الدهشة. فقد تطور النقاش بشأن العِرق في السنوات الأخيرة على نحو ملفت وشبيه بالمسار الحديث للحركة النسوية. وقد لاحظنا مع الحركة النسوية تضخيماً مماثلاً لخطاب مطلبي واتهامي في اللحظة عينها التي بدا فيها النصر وشيكاً. وعلى غرار النقاشات النسوية، لا أدّعي أن التباينات العرقية والآراء العنصرية غير موجودتين، مثلما لا يمكن لأحد أن يدّعي بأنه ما من امرأة في العالم توضع العقبات في طريقها بسبب جنسها.

لكن من عجائب هذا العصر أنه، في اللحظة التي بدا فيها الوضع أفضل مما كان عليه في أي وقت مضى، جرى تقديمه كما لو أنه أسوأ من أي وقت مضى. وكأن الحركات التي أصبحت سياسية أو التي في طور التسييس، بحاجة إلى مفكرين

يهيّجونها بدلاً من الاقتصار على تمثيلها. ومثلما اشتهرت مارلين فرينش Marilyn French وغيرها بسبب التطرف بمطالبها، كذلك في السنوات الأخيرة، لم يُكَل المديح للكاتب في مجال العرق صاحب الصوت المصلِح أو الداعي إلى التهدئة، بل إلى ذاك الذي قدّم المشكلة العرقية، في أميركا على وجه الخصوص، بوصفها بلغت مرحلة فظيعة لم يسبق لها مثيل.

نستطيع الغوص في تخمينات كثيرة حول المرتجى الثقافي للناشرين الذين ينشرون لكتاب، يكون أولُ مؤلَّف لهم عبارة عن مذكّرات. مُنح هذا الشرف إلى تانيهيسي كوتس الذي يصف كتابه الأول، The Beautiful Struggle [المعركة العظمى] (2008)، بأمانة مثيرة للإعجاب، ليس نشأته في بالتيمور فحسب، بل أيضاً موقفه الخاص إزاء كل شاردة وواردة في تجربته. يعترف في هذا الكتاب أنه عندما يرى أشخاصاً بيضاً في ملعب بالتيمور، كان ينظر بازدراء إلى قبعاتهم وملابسهم ووجباتهم السريعة: «كنت أظنّ أنهم متسخين، ما جعلني عنصرياً وفخوراً بكوني كذلك»[203]. يحكي أن والده – عضو في حركة «الفهود السود» – أنجب سبعة أطفال من أربع نساء. ويصف عالماً من العنف المسلح، ومن عصابات السود التي تهدد مجموعات أخرى من السود على نزاع معها. وعلى الرغم من أنه يُقرّ بثرثرته خلال دروس اللغة اللاتينية – الأمر الذي ضيّع عليه فرص التعلّم الجيد – لم ينسَ ما علّمته إياه أمّه عن العبودية وثورات العبيد. يبوح بازدرائه القومية المدنية المهيمنة التي جسّدها أبوه في مرحلة معينة. فالابن يرفض الأب لكونه «من تلك الحقبة، ومتحزباً لهذا الإيمان الأسود الخاص الذي جعل منّا وطنيين على الرغم من نير الاستعباد، لذلك كان يعبد جون كينيدي، ويُدمن أفلام الحرب القديمة»[204].

ثم في وقت لاحق، حدثت لأبيه «صحوة وعي»، وانقضت «سنوات النوم»،

---

(203) Ta-Nehisi Coates, *The Beautiful Struggle: A Memoir*, Spiegel & Grau, 2008, p. 6.

(204) المرجع نفسه، ص 70.

وكوتس الأب هو الآن «مع الذين أدركوا بأن حالتنا، الأسوأ في هذا البلد – فقر ومرض وأميّة وشلل وغباء –، ليست مجرّد ورم يجب استئصاله، بل الدليل على أن هذا الجسد كله متورّم، وأن أميركا لم تكن ضحيةً لعفن كبير، بل كانت هي العفن نفسه»[205]. كان لدى تانيهيسي مدرس لغة إنكليزية («رجل قصير القامة ذو صوت منخفض»)، وقد كتب بخصوصه: «لقد منحْتهُ كل التقدير الذي يمكن أن تحمله نملة، وفي المقابل، توقعت منه احتراماً كبيراً». انتهى الأمر بكوتس الشاب بالعراك مع هذا المعلم في يوم صرخ فيه هذا الأخير في وجهه، «فلم أستطع التراجع» و«لكمته في وجهه». ثم بعد صفحات، وصف من غير ندم مشاركته في هجوم عنصري على صبي أبيض[206]. ومع ذلك، وحدهم آل كوتس وأعضاء مجتمعه هم مَن يُعَدون بانتظام في عداد الضحايا.

يقول: «نحن نعرف كيف سنموت. إننا في أدنى درجات السلّم، وكلّ ما يحول بيننا وبين الحالة البهيمية، أو التحوّل إلى حديقة حيوان محلية، هو الاحترام؛ الاحترام الذي من الطبيعي أن تناله كما أشياء مبتذلة، كمثل السكّر أو القرف. نعلم من نحن، ونعلم أننا نتصرف كما لو أننا لن نظلّ طويلاً في هذا العالم، هذا العالم الذي لم يرتح لنا كثيراً»[207]. عرف كتاب [المعركة العظمى] نجاحاً كبيراً، وتلقى على أثره منحة «النبوغ» من مؤسسة ماك آرثر. بعد هذه السيرة الذاتية، نشر في عام 2015 كتابه الثاني Between the World and Me [بين العالم وبيني]، على شكل رسالة إلى ابنه ذي الخمسة عشر عاماً. وبهذا يكون قد نشر كتابين ذكريات قبل سن الأربعين!

في [بين العالم وبيني]، يصف كوتس ردود أفعاله على حوادث 11 سبتمبر 2001. ويُقدّم هذا الوصف بصدق مثير للإعجاب، على الرغم من أنه لم يكن قد مضى شهرين على وصوله إلى مدينة نيويورك. يحكي أنه عندما صعد مع عائلته

(205) المرجع نفسه، ص 5-74.
(206) المرجع نفسه، ص 168.
(207) المرجع نفسه، ص 177.

على سطح مبنى سكني لمشاهدة سحب الدخان، وهي تتصاعد من جزيرة مانهاتن، كان «قلبُه بارداً». ويُضيف: «لن أنظر إلى أي مواطن أميركي على أنه نقيّ. لم أكن منسجماً مع المدينة». قبل ذلك بعام، قُتل زميل له في المدرسة على يد أحد ضباط شرطة ماريلاند بعد أن ظنّ خطأً بأن برانس جونز Prince Jones كان تاجر مخدرات، الأمر الذي دفع كوتس إلى الكتابة بمفردات صادمة عن رجال إطفاء في ولاية أخرى يعطون حياتهم ويخاطرون بها لإنقاذ حياة الأميركيين من جميع الأعراق والخلفيات، «لم يكونوا بشراً بالنسبة إليّ». ثم يختم بالقول: «كان السود والبيض وغيرهم تهديداً من الطبيعة. لقد كانوا ناراً »[208].

كانت مسيرة كوتس المهنية في غاية السلاسة، لدرجة أنّ الانتقادات المعتدلة التي وُجهت إليه قد أسكتت أو حُكم عليها بأنها غير مقبولة عندما أتيح لها التعبير عن نفسها. كتب توني موريسون Toni Morrison في تقديمه لكتاب [بين العالم وبيني]، أن كوتس قد ملأ «الفراغ الفكري» الذي أثقل كاهله منذ وفاة جيمس بالدوين James Baldwin. على الأقل، رأينا شخصاً واحداً – الدكتور كورنيل ويست Cornel West – متعض من الكتاب، على الرغم من أن الأسباب المذكورة لامتعاضه كانت تمييزية على نحو نموذجي ومثير للإعجاب. كتب ويست: «كان بالدوين كاتباً عظيماً ذا شجاعة عميقة، ولم يخشَ قول الحقيقة للسلطة. كوتس متكلّم ألمعي، وذو موهبة صحفية، ويتجنب أي انتقاد للرئيس الأسود في السلطة»[209]. جُرح كوتس عندما قيل إنه لم يكن على قدم وساق مع جيمس بالدوين، فجاء رد فعله غير مدروس. وفضلاً عن الامتياز الذي يخونُه ردّ الفعل هذا، فإنه بمنزلة تذكير مفيد.

---

(208) Ta-Nehisi Coates, *Between the World and Me*, The Text Publishing Company, 2015, pp. 86 – 7.

(209) الدكتور ويست على فيسبوك، أخذ من الرابط:
https://www.alternet.org/2017/12/cornel-west-ta-nehisi-coates-spat-last-thing-we-need-right-now/

كان بالدوين أحد أعظم الكتاب والشخصيات الأخلاقية في أواخر القرن العشرين. علاوة على ذلك، فقد نشأ في زمن، ليس الغضب فيه ضد الظلم في أميركا مسوغاً فحسب، بل كان ضرورياً أيضاً. وبالإضافة إلى الظلم الكبير الذي لا تزال المجتمعات التي عاش فيها تعاني منه، فقد خَبِر بالدوين بنفسه هذا الظلم من دون وسيط. كما يروي في كتابه The Fire Next Time [في المرة المقبلة، النار]، فقد تعرض إلى الضرب في سن العاشرة على يد ضابطي شرطة. ويمكن وصف شكواه بكل شيء ما عدا المبالغة. ومع ذلك، كانت الكتابة هي الوسيلة الوحيدة التي لجأ إليها بالدوين بغية تجاوزِ الانقسامات الموجودة في أميركا، وليس من أجل توسيعها. في المقابل، بنى كوتس حياته المهنية بتوسيع الفروق ورش الملح على الجروح[210]. وعهد لنفسه بمهمة صالحة في جميع الظروف والملابسات: المطالبة بأن تُكفّر أميركا عن خطيئتها وتسدد دينها للأميركيين السود اليوم، حتى بعد كلّ هذه القرون. وهو على استعداد دائم لمقابلة أي خطيئة تافهة بأكثر اللعنات تطرفاً ومغالاة. في عام 2018، عندما أعلنت مجلة The Atlantic (التي يُعد كوتس «مراسلها الوطني») أنها ستوظّف الكاتب المحافظ كيفين ويليامسون Kevin Williamson، بدأت عملية النبش عن مقالاته السابقة. واكتشف على أثر ذلك أن لديه آراء مناهضة للإجهاض، الأمر الذي أثار ثائرة عدد من منتقديه. علاوة على ذلك، زُعم بصورة غير نزيهة أن إحدى مقالاته عن ولاية إلينوي، نُشرت في National Review، وتضمنت إشارة ازدرائية إلى صبي أسود.

أُعفي ويليامسون من منصبه الجديد في المجلة بعد أقل من خمسة عشر يوماً من الإعلان عن توظيفه. ولكن بعد التوظيف والإقالة، عُقد اجتماع للموظفين جلس فيه المحرر – جيف غولدبيرغ Jeff Goldberg – على المنبر إلى جانب كوتس. وعلى الرغم من أن أحداً لم يطلب من غولدبيرغ أن يرخي يديه ويضعهما إلى

(210) للاطلاع على بعض الأمثلة لفصول وجمل، انظر:
Kyle Smith, 'The hard untruths of Ta-Nehisi Coates, Commentary, October 2015.

جانبيه، كما حدث مع رئيس إيفرغرين، كان من الواضح أنه يحارب من أجل حياته المهنية وأن كوتس هو طوق نجاته. في لحظة معينة، قال غولدبيرغ: «اسمعوا، من الصعب جداً بالنسبة إليّ أن أفصل تانيهيسي المهني عن تانيهيسي الشخصي لأن... ما أريد قوله، ما أريد قوله هو ذلك. أنا فقط أشعر بالحاجة إلى قول ذلك. أعني أن كوتس أحد أعز الناس في حياتي. سأموت من أجله». كثير من الكتّاب في هذه المجلة كان ليرى في هذا الولاء أمراً كافياً له، وحافزاً لولاء مقابل. إلا أن كوتس لم يبادر إلى شيء من هذا القبيل.

تطرق كوتس إلى حالة ويليام، فاستنسخ الموقف الذي اعتمده في جميع مذكراته: إلقاء أسوأ تعتيم ممكن على الحالة من على العرش الذي نُصّب عليه. استخدم كوتس الاجتماع ليقول إنه لم يكن يتوقع شيئاً من ويليامسون ما خلا بعض النثر المنمّق. ما من توقعات، ما خلا اليقين بأن ويليامسون – وهنا تأكيد مدهش – لم يكن قادراً على «رؤيتي أو، بصريح العبارة، رؤية كثير منكم بشراً حققوا أنفسهم على أفضل نحو»[211]. كانت فكرة أن ويليامسون لم يكن ينظر إلى كوتس، وفعلياً إلى أي شخص أسود بوصفه «كائناً بشرياً حقق نفسه على أفضل نحو»، وأن ذلك كان ببساطة واقعاً حزيناً؛ تصريحاً فظيعاً من كوتس، ويقول الكثير عنه، ومن شأنه أن يكشف الامتيازات التي أباحها لنفسه منذ بداية حياته المهنية. لم يتكلّم جيمس بالدوين قط عن الأشخاص البيض كما لو كانوا بمجملهم عصيين على التصويب. ولم يكن أيضاً بحاجة إلى تضخيم الإهانات المرتكبة ضد أقرانه السود. لا يكتفي كوتس بالمغالاة في تقدير حجم الجرح، بل، ويفعل ذلك، وهو مدرك أن جميع الأسلحة بين يديه الآن. هناك مسدس محشو على الطاولة، لكن ليس الأبيض من يمسك به، بل هو. عندما سأل الطلاب الذين أشعلوا الاضطرابات في الحرم الجامعية الأميركية، هل التصريحات غير النزيهة وتهويل الحوادث التافهة مسألة

(211) 'Leak: The Atlantic had a meeting about Kevin Williamson. It was a liberal self-reckoning', *Huffington Post*, 5 July 2018.

مربحة، كان يكفيهم أن ينظروا إلى كوتس ليتأكدوا من ربحها.

بالمثل، في عصر المعلومات الحديث، لا ينحصر تطور الوعي العرقي داخل حدود البلد الذي نشأ فيه. فالنجاح الذي لقيته الكاتبة ريني إدو لودج Reni Eddo-Lodge في بلد يختلف تاريخ العلاقات العرقية فيه اختلافاً كبيراً، مناظر لنجاح كوتس في الولايات المتحدة. عندما نُشِر كتابها عن العرق المعنون I 'm no Longer Talking to White People [لماذا ما عدت أتحدث إلى الناس البيض] عام 2017، سرعان ما أثار القضايا نفسها التي أثارها كوتس، فضلاً عن تلقيه قدراً مماثلاً من الاستحسان والجوائز. أشاعت إدو لودج بين الجمهور البريطاني مفاهيم مثل «امتياز البيض»، لكنها اُضطرت إلى الحفر أعمق من كوتس في سبيل مظالمها. نقلت إدو لودج في كتابها عدداً من الحوادث المروعة من ماضي بريطانيا، مثل القتل العنصري لبحّار أسود يُدعى تشارلز ووتون Charles Wooton في أرصفة ميناء ليفربول عام 1919[212]. رَوتْ إدو لودج أحداثاً فردية كما لو كانت أحداثاً رمزية للبلد، في تاريخ لا يزال مخفياً حتى الآن. وهذا التاريخ كان لا بد لها من أن تتقصى عنه، فخرجت من ذلك بنتيجة – كما قالت إدو لودج – تُظهر إلى أي درجة كان الماضي أسوأ مما نتخيل، وإلى أي درجة لا بدّ أن يكون البيض اليوم سيئون نتيجة لذلك.

ما المفترض أن تكون ردة فعل المعاصرين على أناس حاليين عادوا من التطواف في الماضي بهذه الحالة المزاجية الانتقامية؟ لدى الجميع شعور واضح بتطبيع روح الانتقام الذي راح في السنوات الأخيرة يتسلل إلى لغة الحياة اليومية. هكذا، في «مسيرة المرأة» في لندن في يناير 2018، كُتب على إحدى اللافتات التي رفعتها امرأة شابة ذات شعر وردي: «لا بلداً للعجائز البيض»[213]. من مفارقات الأمور أن إحدى اللافتات الاشتراكية كانت مرفوعة بجانبها مكتوب عليها: «لا

(212) Reni Eddo-Lodge, *Why I'm no Longer Talking to White People about Race*, Bloomsbury, 2017, pp. 14–15.

(213) من صورة بعدسة مارتا دوبني Martin Daubney، على تويتر، 21 يناير 2018.

للعنصرية». ومن المحزن أن هذه الشابة كانت تلوح بلافتتها قرب النصب التذكاري الذي يُحيي ذكرى كثير من الرجال البيض ممن لم يواتهم الحظ في العيش حتى سنّ متقدّمة.

في هذه الحقبة الجديدة المترعة بالروح الانتقامية، أصبح من المقبول تماماً اتهام البيض – النساء البيض على وجه الخصوص – بجرائم لا يُتهم بها آخرون. فترى صحيفة The Guardian ملائماً أن تنشر مقالة بعنوان: «كيف تستخدم النساء البيض الدموع الإستراتيجية لتهرب من المسؤولية؟»، ويشكو فيه الكاتب من أنه «في أحايين كثيرة، عندما حاولت التحدث مع امرأة بيضاء أو مواجهتها بشأن شيء قالته أو فعلته وأثرّ فيّ سلباً، أصطدم بإنكار دموعها وسخط اتهاماتها بأنني أؤذيها»[214]. أصبح هاشتاغ «الدموع البيضاء» شائعاً. ثمّ جاء تعميم مصطلح «gammon» [لحم الخنزير] الذي أصبح الكلمة المصيبة لدى مستخدمي الإنترنت المستنيرين عندما يتطرقون إلى الأشخاص أصحاب البشرة البيضاء، الذين يمكن أن يتحولوا إلى اللون الوردي. دخل المصطلح حيز الاستخدام حوالي عام 2012، وبحلول عام 2018 أُستخدم بحرية في البرامج التلفزيونية، وكذلك عبر الإنترنت لتسليط الضوء على لون البشرة المسلّي للبيض ومظهرهم كخنازير، ولكن أيضاً للإشارة ضمناً إلى أن هذا الاحمرار يُخفي عدوانية محرجة، بل يخفي كراهية للأجانب. وهكذا، مرة أخرى وأخرى، لجأ المناهضون للعنصرية إلى العنصرية في سعيهم المناهض للعنصرية. ما النتائج السلبية التي يمكن أن يفضي إليها مثل هذا الموقف؟

معدّل الذكاء

المساواة بين البشر هي أهم أساس من بين جميع الأسس التي يُبنى عليها مجتمع

(214) أعيدت عنونة هذه المقالة لاحقاً على النحو الآتي: "كيف تستخدم النساء البيض الدموع الإستراتيجية لإسكات النساء ذوات البشرة الملونة"، 7 مايو 2018.

متنوع ومتحضّر. وهي هدف كل حكومة غربية، وجميع المنظمات المدنية الأساسية، وتطلّع أيّ شخص يرغب في العثور على مكان في مجتمع راقٍ. لكن تحت هذا الطموح أو الافتراض أو الأمل، توجد واحدة من أكثر القنابل فتكاً، والتي لم تنفجر حتى الآن، وأحد أهم الأسباب التي تجعلنا نتقدم ببطء وحذر في عصر الهاشتاغ على tweeter. يكمن لبّ السؤال في معرفة ما تعنيه المساواة، وهل هي موجودة أصلاً؟

المساواة عقيدة رئيسة في التراث المسيحي. لكنها تحوّلت في عصر الإنسانية العلمانية من المساواة أمام الله إلى المساواة في نظر الإنسان. وهنا تكمن المشكلة، فكثير من الناس يدرك أو يخشى أو يشعر بأن البشر ليسوا متساوين تماماً. البشر ليسوا متساوين في الجمال، ولا يتمتعون بالقدر نفسه من المواهب والقوة والعقل. وبالطبع، هم ليسوا بالثراء نفسه، والود. وفي حين يتحدث اليسار السياسي باستمرار عن الحاجة إلى المساواة أو حتى الإنصاف (بالقول، كما يفعل إدواردو بونيلا سيلفا Eduardo Bonilla-Silva وآخرون، إن المساواة في النتائج ليست مرغوبة فحسب بل ممكنة)، يُجيب اليمين السياسي بالدعوة إلى المساواة بالفرص، وليس إلى المساواة في النتائج. والواقع أن هذين المطلَبين يستحيل تحقيقهما على المستويين المحلي والوطني، ناهيك بالمستوى العالمي.

فالطفل لوالدين ثريين سيحصل على فرص لن يحصل عليها طفل لوالدين فقيرين، ما سيمنح الأول بكل تأكيد المزايا في بداية حياته إن لم يكن كلها. وعلى الرغم من أن حق الجميع ارتياد أفضل المدارس، لن يتمكن الجميع من الذهاب إلى أفضل المدارس، وعلى الرغم من أن كثيراً من الناس قد يرغب في الذهاب إلى الدراسة في هارفارد، يبدو الأمر مستحيلاً. يحاول حوالي 40 ألف شخص سنوياً الدخول إلى هذه الجامعة المرموقة، لكن لا يستطيع جميعهم ذلك. وهارفارد هي المكان الذي كُشفت فيه مؤخراً أشد القنابل تدميراً وحداثة، وقد تنفجر في أي لحظة.

كما رأينا سابقاً، فإن هارفارد هي التي قدمت للعالم اختبار «التحيز اللاواعي». أو كما يقول أحد عناوين الإنترنت: «هل أنت عنصري؟ إن كنت كذلك، سوف يُخبرك اختبار هارفارد هذا». في جميع الأحوال، يبدو أن على أقدم جامعة أميركية أن تخضع إلى هذا الاختبار[215]. وإذا كان هذا الاختبار دقيقاً، فسينتج منه أن جامعة هارفارد نفسها في غاية العنصرية.

في عام 2014، رفعت مجموعة من الطلاب («طلاب من أجل القبول المنصف»، والتي تُمثّل أميركيين من أصل آسيوي) دعوى قضائية ضد جامعة هارفارد. أكدت هذه المجموعة أن سياسات القبول المتبعة في الجامعة هي سياسات تمييزية منذ عقود من الزمن. وأكد أعضاء هذه المجموعة أن الجامعة، وباسم «التميز الإيجابي»، كانت متحيزة بصورة روتينية ومنتظمة ضد المتقدمين الآسيويين الأميركيين. قاتلت الجامعة بشراسة لتمنع الإفراج عن الوثائق التي تكشف عن معلومات حول معايير القبول، بحجة أن هذه المعلومات هي من الأسرار التجارية لجامعة هارفارد. لكن الإدارة – التي ادعت عدم التمييز بين المتقدمين «من أي مجموعة كانت» في إجراءات القبول – اضطرت في النهاية إلى الكشف عن هذه الأسرار[216]. ولا عجب أنها سعت إلى إخفائها.

نظراً إلى أن جامعة هارفارد لا يمكنها أن تستوعب سوى حوالي 4.6 في المئة من المتقدمين كل عام، كان لا بد من وجود شكل معين من التدقيق والتصفية. لكن لا يمكن تخيل أسوأ من إجراءات التصفية التي طبّقتها هذه المؤسسة. شأنها شأن معظم الجامعات الأميركية الأخرى (والمجتمع برمته انطلاقاً من هنا)، أرادت هارفارد أن تستأصل فكرة التحيز العرقي من عملية الاختيار. لكن اتضح أن

---

(215) انظر:

The Tab, n.d. 2016.

(216) انظر:

'Asian Americans suing Harvard say admissions files show discrimination', *The New York Times*, 4 April 2018

الالتزام الدقيق بهذا الهدف لن يسمح بالحصول على توزيع تمثيلي كامل على المستوى العرقي، على اعتبار أن الإجراء يُعزّز فرص بعض المجموعات بصورة غير متكافئة. هارفارد – ولأنها ذكية – أدركت ذلك، فكان عليها أن تجد وسيلة للالتفاف على المشكلة، وعلى وجه التحديد من أجل محاولة زيادة عدد الأميركيين الأفارقة الذين يرتادون الجامعة. لذا قررت البحث عن طريقة لتجعل سياسة الدخول إلى الجامعة – والتي كانت على ما يبدو تتسم بعمى ألوان محكم – متحيزة ضد إحدى المجموعات التي كانت ذات أداء عالٍ جداً. فحوّلت هارفارد الإجراء الذي كان يتسم بعمى الأعراق، والذي هُيّئ بالفعل بغية تحسين فرص بعض المجموعات، إلى إجراءٍ مهووس بالعرق.

على الرغم من أن الجامعة نفت هذه المزاعم جملةً وتفصيلاً في المحكمة، لكن سجلاتها الخاصة أظهرت أن الجامعة، وعلى مدار سنوات، كانت تخفض درجة المتقدمين الآسيويين الأميركيين بصورة منتظمة. علاوة على ذلك، فقد كانت تُنزل درجتهم تبعاً لمعايير تتعلق بالشخصية، مثل معيار «الشخصية الإيجابية»، والكياسة واللطافة. لسوء حظ الجامعة، تبين بعد الإفشاء عن السجلات أن تخفيض تصنيف الطلاب الأميركيين الآسيويين كان يحدث من دون إجراء أي مقابلة أو لقاء مع المتقدمين. بمعنى آخر، كان الإجراء أشبه بسياسة متعمدة لخفض تصنيف هؤلاء تبعاً لدرجات شخصياتهم من دون مقابلتهم حتى. لماذا قد تحتاج هارفارد أو أي مؤسسة تعليمية أخرى متميّزة إلى ذلك؟

لسببين. الأول هو أن جامعة هارفارد، شأنها شأن مؤسسات النخب الأخرى المشابهة، قد التزمت بتقديم، ليس أفضل الأشخاص الممكنين للعالم، ولكن أفضل الأشخاص المحتملين بعد إخضاعهم للاختبار الاصطفائي الذي يعكِس التزام المؤسسة من أجل التنوع. والثاني: إن لم تتعمد جامعة هارفارد تخفيض درجات بعض المجموعات ورفع درجات مجموعات أخرى – تبعاً لالتزامها بسياسات «التمييز الإيجابي» ومن أجل التنوع عموماً –، فإن خريجي هارفارد قد يكونوا

أمارة على غياب مقلق للتنوع. وبدقة أكثر، قد يُمثَّل الطلاب بهيئة طلابية تتألف من تمثيل غير متكافئ للطلاب، ليس من الأميركيين البيض أو السود خاصة، بل من الأميركيين الآسيويين أو اليهود الأشكناز على سبيل المثال. هنا نحن أكثر القنابل رعباً على الإطلاق!

تُعدّ البحوث حول معدّل الذكاء وعلم الوراثة من أكثر الموضوعات التي كانت محطّ منافسة، ولعلها الأشد خطورة والأكثر استغلاقاً على الإطلاق. عندما نشر تشارلز موراي وريتشارد جـ. هيرنشتاين كتابهما The Bell Curve [منحنى الجرس]، غلب اعتقادٌ بأنهما سكبا الزيت على النار. ومع أن قليلاً من منتقديهما قرأ كتابهما، تعرّض تحقيقهما حول الجانب المتوارث في علم الوراثة إلى هجوم واسع النطاق. أدرك عدد قليل من المنشورات أن الموضوع على قدر من الأهمية، ويجب البدء في مناقشته على الأقل. لكن معظم ردود الفعل حاولت عدم فتح الموضوع وإسكات مؤلّفه («مؤلّفه»، لأن المنية وافت هيرنشتان قبيل نشر الكتاب، لسوء حظه، أو لحسنه). أشارت معظم المنشورات التي راجعت الكتاب أن نتائجه كانت «ملغومة»[217]. لكن معظم النقاد قرروا القيام بعمل مُحدِّد للغاية مع هذه النتائج الملغومة. فحاولوا طمرها بأكبر كمية ممكنة من التراب ثم رصّها بقوة وإحكام. وضعت إحدى المقالات المتطرفة غير النادرة لزميل جامعي عنواناً لها كالآتي: «النازية الجامعية». وأكّدت أن الكتاب «يتضمن دعاية نازية، مغلفة بغطاء من الاحترام العلمي الزائف، وهو نسخة أكاديمية من كتاب أدولف هتلر: Mein Kampf [كفاحي][218]. ليس أيُّ كفاح كان، بل كفاح أدولف هتلر!

ولّدت الانتقادات الموجهة إلى [منحنى الجرس] انطباعاً بعدم وجود أي رغبة

(217) انظر:
Malcolm W. Browne, 'What is intelligence, and who has it', *The New York Times*, 16 October 1994.

(218) من مراجعة ستيفن جـ روزنثال لـ منحى الجرس، على الرابط:
https://msuweb.montclair.edu/~furrg/steverbc.html

في تفحّص الأدلة التي تقترح أن اختبارات الذكاء تختلف باختلاف المجموعة العرقية. يعني ذلك بدقة أنه عندما تسجل بعض المجموعات درجات أعلى في اختبارات الذكاء، لا بد أن يحصل الآخرون على درجات أقل. لا يعني ذلك بالطبع أن هذه هي حالة جميع أعضاء المجموعة المختبرَة. والمسألة المهمة التي شقّت على موراي وهيرنشتاين إفهامها على الرغم من محاولاتهما، هي أن الاختلافات داخل المجموعات العرقية أكبر من الاختلافات بين المجموعات. ومع ذلك، فإن الذين درسوا الأدبيات الأكاديمية حول الفروق في معدل الذكاء بين المجموعات العرقية، يعلمون أكثر من غيرهم أن الأدبيات في هذا الحقل – كما قال جوردان بيترسون Jordan Peterson – «كابوس إيتيقي»[219].

يبدو أن جميع العالم تقريباً تنتابهم رغبة كبيرة في تحاشي هذا الكابوس. وقد تدبّروا لهذا الغرض طرائق متنوعة. منها ما يقوم على مجرّد رفض الكتّاب بوصفهم عنصريين. ثم ترك الرائحة الكريهة تُنجزُ العمل بعد رميهم بما يكفي من القاذورات، ليبتعد عنهم المارّة بمسافة بعيدة. وقد برهنت هذه الطريقة على نجاعتها، إلى درجة أن الطلبة في كلية ميدلبري بفيرمونت، لدى دعوة تشارلز موراي في عام 2017 بغية التحدّث عن كتاب صدر له مؤخراً، حاصروا المحاضِر داخل القاعة، ومنعوه من إلقاء خطابه، ثم طردوه إلى خارج الحرم الجامعي، متسببين بإرسال الزميل الذي كان يحاول نجدته إلى المستشفى. من الطرائق الأخرى التي تهدف إلى تنحية الجدل حول [منحنى الجرس]، نشير إلى تلك التي تقوم على زرع الشكوك في متنبئات معدّل الذكاء عموماً، أو الادعاء بأنها ترجّح كفة مجموعات عرقية معينة على أخرى بسبب الانحياز المتضمن فيها. دُحضت محاولات الدحض بدورها على نحو مقنع. لكن بعد ربع قرن، من الواضح بجلاء أن الجدل حول [منحنى الجرس] لن يُخاض أبداً على أساس الوقائع. ذلك أن هذه

(219) من مقابلة أجراها جوردان بيترسون مع دوغلاس موراي، وأذيعت على YouTube بتاريخ 4 سبتمبر 2018.

الأخيرة، إن أتيح لها الانتشار بحرية، تُعكّر صفو الهواء الفكري الذي نتنفسه. يتشكّل موقف الانسحاب القائم على رفض مواجهة الأدلة على فروقات معدل الذكاء، من القول بأن هذه العناصر، حتى لو كانت موجودة، واتسمت بوضوح بالغ، يُرتاب أخلاقياً بكلّ من يودّ فحصها، ومن شأنها كذلك أن تُسفر عن مشكلات إيتيقية وأخلاقية على درجة عالية من الكبر والتعقيد، نعجز أمامها عن فعل أي شيء.

يسم هذا الارتداد من القول بأن «هذه الوقائع خاطئة» إلى القول بأن «هذه الوقائع غير مفيدة»، التراجعَ الأخير للرأي العام أمام أدبيات تتكاثر باستمرار حول هذا الموضوع. في عام 2018، نشر ديفيد رايش David Reich من جامعة هارفارد – وهو أحد الخبراء المرموقين في العالم – مقالة تزامناً مع صدور كتابه الجديد في علم الوراثة. وتفحّص رايش في هذا الكتاب الادعاءات التي تمثّل العرق (كما هو الحال مع النوع الاجتماعي) بـ«بناء اجتماعي» من دون أساس وراثي. أوضح رايش أن هذا الرأي، الذي أصبح محطّ اتفاق جماعي، لا أمل له في الصمود أمام الأدلة المتعددة التي تقوض موثوقيته. ولأنه على دراية تامة بالأرض الملغومة التي يمشي عليها، أشار في مقالته إلى أنه «متعاطف بشدة مع الخشية من الاكتشافات الوراثية التي قد تُستخدم عن سوء نية لتسويغ العنصرية». ثمّ أضاف: «بصفتي عالم وراثة، أعلم أيضاً أنه ببساطة لم يعد من الممكن تجاهل متوسط الفروق الجينية بين الأعراق»[220]. مع ذلك، ما من تحفظ يمكن أن يكون كافياً في هذا الحقل، إذ انطلق النقاش بشأن العرق ومعدل الذكاء مرة أخرى وبحدة أكثر. قال الهجوم الأشد نمطية الذي وُجه ضدّه: «ألم ير رايش بحق أن العنصرين والمتحيزين جنسياً يستطيعون تحريف فكره؟ أم أنه بالفعل يُشاركهم أحكامهم المسبقة على مستوى معين؟»[221].

---

(220) David Reich, 'How genetics is changing our understanding of race', *The New York Times*, 23 March 2018.

(221) Pete Shanks, 'Race and IQ yet again', *Center for Genetics and Society*, 13 April 2018.

حتى اليوم، مجرد رؤية أحدهم يتبادل الحديث مع موراي، هو سبب كاف لتكرار هذه المناورة نفسها. هكذا، اعترف عالم الأعصاب سام هاريس Sam Harris، بلسانه، أنه تجنب أي اتصال، حتى عن بعد، مع موراي أو مع كتابه الأشهر، بسبب كم القذارات المنتشرة حوله. وبعد أن محّص الأدبيات العلمية، قال إنه أدرك أن موراي «قد يكون المثقف الذي لم يُظلم أحد بمقدار ما ظُلم هو، على ما عهدته في حياتي»[222]. لكن لمجرد وجوده في حلقة موراي الصوتية وتبادل الحديث معه باحترام وبصيرة (عنونت الحلقة: «المعرفة المحرّمة») حول أعمال موراي، ثارت ثائرة بعض وسائل الإعلام التي حاولت أن تحشره في جعبة واحدة معه. قالت Vox إن تحقيقاً كهذا ليس «معرفة محرمة»، بل ببساطة «أقدم تسويغ أميركي للتعصب الأعمى واللامساواة العرقية»[223]. وهي الحجة التي تتجاهل احتمال أن يصحّ الأمران معاً.

في الوقت الحالي، يُراوح التحقيق والنقاش بشأن معدل الذكاء في هذا المكان. ولأن هذه المعارف قد تقع بين أيدي أشخاص بنيات خبيثة، يجب التخلي عن التحقيق، بل ورفضه. وكما ذكر موراي في حواره مع هاريس، قد يكون هناك سبب واضح لكل هذا السخط الذي يستهدف موراي. وهو أن الالتزام بفكرة «التنوع» و«المساواة» المنتشر من أعلى الحكومة إلى جميع مفاصل مؤسسات مجتمعنا تقريباً، هو التزام شامل وحاضر في كل مكان. ومدرَج في قوانين التوظيف وسياساته كلها. تستشري في جميع السياسات الاجتماعية قناعة مفادها أننا «متشابهون من فوق الرقبة». والواقع أن هذه الفرضية باتت واسعة الانتشار إلى درجة أن على كل مواطن يُقال إنه قوّض هذه الفكرة أو احتج عليها أن يُنزل فيه عقابًا شديدًا كالذي كانت الكنيسة في أوج قوتها تُنزله على الذين يخالفون تعاليمها. تعاليم عصرنا هي أن جميع البشر متساوون، وأن العرق والنوع

---

(222) Sam Harris, 'Waking up' podcast, with Charles Murray, 23 April 2017.

(223) Ezra Klein, 'Sam Harris, Charles Murray and the allure of race science', *Vox*, 27 March 2018.

الاجتماعي وأمور أخرى كثيرة هي بناءات اجتماعية، ليس إلا. وأن كل فرد يستطيع أن يكون ما يريد إن نحن أغدقنا عليه التشجيعات والفرص المناسبة. وأن الحياة برمتها رهن البيئة والفرص والامتيازات. لهذا السبب، بمجرد أن تبدأ الحجج السجالية - كما في حالة قبول الآسيويين في هارفارد - حتى يبدأ معها الألم والارتباك والإنكار والغضب. الإنكار منتظم في عموم الأمر، لكنه قد يُحمَل على موضوع أو شخص بعينه، فيُرمى بأسوأ الاتهامات لمجرد أنه جاء على ذكر الهرطقة أو كاد يفعل ذلك. لا شك أن بعضهم (وهم في تزايدٍ لا بأس به) يرحّب بالبحوث في هذا الحقل بفرح غير مستساغ البتّة. لكن ليس من الصعب تبيّن الفرق بين مَن يتقصى هذه الهاوية المظلمة محمّلاً بالقلق، ومَن يتقصاها بفرح عامر.

في جميع الأحوال، نحن أمام أسوأ سجال جهازي/ برمجي على الإطلاق. لفترة طويلة وسيئة الصيت، اعتُقد أن العرق مشكلة جهازية - بل أكثر المشكلات جهازية على الإطلاق. وبعد ذلك، في أعقاب الحرب العالمية الثانية وفظائع الإبادات العرقية والجماعية، انعكست الآية وانعكس الإجماع، فأصبح العرق بناءً اجتماعياً كغيره، وذلك بحكم الضرورة. لأنه إن كان العرق مسألة جهازية، قد نواجه في وقت ما مشكلة خطيرة.

في شهر مارس من العام 2019، ألقت البروفيسورة روبن دي أنجيلو Robin DiAngelo من جامعة واشنطن محاضرةً في جامعة بوسطن. ودي أنجيلو هي باحثة متخصصة في «دراسات بياض البشرة»، ولها كتاب في هذا الشأن يحمل العنوان White Fragility [الهشاشة البيضاء]. بالنظر إلى أنها من ذوي البشرة البيضاء، كان على دي أنجيلو أن تمارس بعضاً من جلد الذات لتكسب ثقة جمهورها؛ وهو ما قامت به من خلال طمأنتهم بأنها تُدرِك أنّ مجرد وقوفها على المنبر، وحديثها هذا، هو نوع من «تعزيز بياض البشرة ومركزية وجهة النظر البيضاء». ثم طلبت المغفرة بقولها: «أودّ لو أنني أقل بياضاً، ما يعني أن أكون أقل قمعاً، وأقلّ غفلةً، وأقل دفاعيةً وجهلاً وغطرسةً». وشرحت لجمهورها في

بوسطن كيف يكون البيض ممن يرون الآخرين أفراداً بصرف النظر عن لون بشرتهم «خطرين»[224]. هذا يعني أنّ رؤية مارتن لوثر كينغ لم تصمد سوى نصف قرن من الزمن فحسب، قبل أن تُقلَب رأساً على عقب.

اليوم، نرصد عودة إلى مستوى عال من البلاغة بشأن العرق وتصاعداً كبيراً في الادعاءات حول الفروقات العرقية، في اللحظة عينها عندما بدأ معظمنا يحدوه الأمل بأن هذه الفروقات آخذة في التلاشي. يتدافع بعضهم بمرح إلى هذه الأرض الملغومة التي بدأنا نسمع فيها المؤقتات منذرة باقتراب الانفجار. منهم من يذهب إليها محملاً بروح الانتقام، ومنهم بروح الفرح. لكنهم جميعاً ليس لديهم أدنى فكرة عمّا ينتظرهم هناك.

(224) Diana Soriano, 'White privilege lecture tells students white people are "dangerous" if they don't see race', *The College Fix*, 6 March 2019.

فاصل

(في الصفح)

أسفرت حقبة وسائل التواصل الاجتماعي عن مفعولات ما زلنا نفهمها بصعوبة، وولّدت مشكلات لا نحيط بها على وجه الدقة. واحدة من هذه المشكلات هي انهيار الحاجز بين الكلام العلني والكلام الخصوصي. لكن هناك مشكلة أكثر أهمية بعد، وهي في الحقيقة أكبر المشكلات على الإطلاق، على الرغم من أنها منبثقة عن الأولى. فنحن لسنّا مجهّزين بآليات تسمح لنا بالخروج من الوضع الذي تضعنا فيه التكنولوجيا. التكنولوجيا قادرة على التسبب في الكوارث ولكن ليس في البراء منها، وفي الإيلام لكن ليس في المداواة. لنأخذ الظاهرة المعروفة اليوم باسم «الإذلال العلني».

في فبراير 2018، قبل بضعة أشهر من تعيين سارة جيونغ في هيئة تحرير The New York Times، أعلنت الصحيفة عن تعيين اسم آخر، وهي صحفية تبلغ من العمر 44 عاماً ومتخصصة في التكنولوجيات، وتدعى كوين نورتن Quinn Norton. بدأ الإنترنت بالعمل على الفور، وكما سيحدث مع سارة جيونغ، راح المحقّقون يتفحّصون حسابها على tweeter. مرة أخرة، وجدوا تغريدات لم تكن، بلغة ناشطي العدالة الاجتماعية، «أوكيه». من بين الرسائل التي نبشوها عدد من التغريدات التي تعود إلى عام 2013، استخدمت فيها نورتن كلمة «مُخنّث». نجد في هذه التغريدة: «اسمع، أيها المخنّث»، وفي مشادّة مع مستخدم آخر على tweeter: «مخنّث صغير وحساس ومتباك وآكل الخراء»[225]. وفي مناسبة أخرى،

(225) كوين نورتون على تويتر، 27 يوليو 2013.

في عام 2009، اُتهِمت نورتن باستخدام أكثر كلمة غير مقبولة للرد على مستخدم إنترنت عدائي: «لو كان الله أراد أن يتحدث زنجي إلى أطفالنا في المدراس، لجعله رئيساً. أوه، لكن انتظر... لنرى»[226]. تراجعت الصحيفة عن التعيين بعد سبع ساعات فقط من الإعلان، قائلة إن نورتن لن تنضم إلى الصحيفة. في مقالة لاحقة في مجلة The Atlantic، أوضحت نورتن ما حدث في ظنها. واعترفت بأن كثيراً من الكلمات التي كتبتها وغردتها في الماضي كانت كلمات جاهلة ومحرِجة. ثم شرحت أنها كانت تشعر بأن «نسخة شبيهة» عنها – هذا ما قالته بالحرف – كانت تخرج منها فجأة عندما تكون أمام الإنترنت. وشأنها شأن كثيرين من الذين تعرضوا للإذلال على الإنترنت، لم تكن هذه «النسخة» التي هاجمها الناس تمت لها بصلة، بل هي نسخة بغيضة ومبسّطة ومجتزأة من السياق، ومؤلَّفة من أجزاء صغيرة جدًّا منها.

شرحت نورتن اعتقادها بأنها كانت ضحية لما دعته باسم «تداعي السياق». يُشير هذا المصطلح إلى إلغاء الفجوة بين الكلام الخصوصي والخطاب العلني، عندما تُنشر محادثة مخصصة لمجموعة داخلية في مجموعة خارجية تجهل السياق الأصلي للمحادثة. أوضحت نورتن أنها استخدمت كلمة «زنجي» في معرض خلافٍ على الإنترنت كانت «تدعم فيه الرئيس أوباما». وأضافت أنها قد تكون استخدمت لغة وضيعة مثل تلك للردّ على محاور أبدى فظاظة خاصة معها في مشادات خاضتها أيضاً مع عنصريين بيض. وفي موضع آخر، جاءت على ذكر التزامها مع ناشطي مجموعة «مجهولون» Anonymous في معرض تسويغها استخدام كلمة «مخنث»[227].

تستخدِم هذه المجموعات هذا الصنف من المفردات عفو الخاطر، غير أنه من الواضح أن هذا الاستخدام شائن في عالم The New York Times. التقى العالمان

(226) المصدر نفسه، 4 سبتمبر 2009.

(227) Quinn Norton, 'The New York Times fired my Doppelganger', *The Atlantic*, 27 February 2018.

لقاءً سريعاً، كانت نورتن تنتمي مسبقاً إلى الماضي، والحياة تابعت مجراها.

لكن هذه الأمثلة جديرة بالتأمل. أولاً، لأن حالتي نورتن وجيونغ تدعوان إلى طرح السؤال الآتي: ما التمثيل المنصف للشخص في حقبة الإنترنت؟ ما السبيل إلى وصف غير متحيّز لشخص ما؟ فنورتن، على سبيل المثال، قد تُختَزل إلى مجرّد «صحفية تكنولوجية عنصرية وكارهة للمثليين ومسرَّحة من صحيفة The New York Times». من جهتها، قد تقدّر أن أكثر الأوصاف إنصافاً لها هو «كاتبة وأم». ومن المحتمل أيضاً ألا تكون جيونغ تعدّ نفسها عنصرية. من صاحب الكلمة الفصل؟ إن كانت الحشود هي من يبت في الأمر، فنحن في مشكلة جمّة.

والواقع أن أسوأ نسخة عن حياة الشخص تتضمن المعلومة التي من شأنها أن تُعلن بداية عمل المحققين على الإنترنت. هذه المعلومة هي من الذهب الخالص بالنسبة إلى شبكة مدمنة على الإذلال والشماتة. يعرف جميعنا مدى الفرحة التي يمكن أن نشعر بها عندما نرى أحدهم يفقد حظوته، ونفحة الاستقامة التي يمكن أن ترافق الاشتراك في عقاب المعتدي، حتى (أو خصوصاً) إذا اقترن هذه الاعتداء بخطيئة ارتكبناها نحن أنفسنا. كذلك نعلم، بفضل أعمال الأنثروبولوجي رينيه جيرار René Girard، مدى الارتياح المجتمعي الناجم عن تحديد كبش فداء. لذا فإننا نميل إلى تبني السردية الأقل إفهاماً ودقة، والأكثر فظاعة ورعباً عن الحياة.

هنا ينتظرنا مستنقع جديد. ثمة قليلٌ مما يمكن أن يُلجأ إليه عندما تدوس الصحافة التي تعمل بأساليب المدرسة القديمة على حياة أحدهم. لكن على الإنترنت، لا توجد أي هيئة تنظيمية رقابية يمكن مناشدتها إن مُرّغت حياتك في التراب بهذه الطريقة. آلاف، وربما ملايين من الأشخاص متورطون، لكن لا توجد أي آلية للوصول إليهم جميعاً وحملهم على الإقرار بأنهم داسوا على حياتك زوراً وبهتاناً. لا أحد لديه الوقت لذلك، وقلّة هي الأشخاص التي يُحكم أنها تستحق هذا الخلاص. ثمّة أهداف أكثر أهمية من ذلك. وبخلاف مجموعة الأشخاص التي كانت وسائل الإعلام القديمة قادرة على الحطّ من شأنهم، يمكن

للتكنولوجيا اليوم أن تتهجم على أيّ كان على الكوكب وتقتلعه من جذوره.

المسألة الثانية المهمة في قصص مثل قصص نورتن وجيونغ وآخرين، هو السؤال الذي لم تبدأ حقبة الإنترنت بطرحه بعد: كيف يُبرهن عصرنا قدرته على الصفح، هذا إن كان قادراً على ذلك حقاً؟ عندما يتعثّر الجميع مرة أو مرتين في حياتهم، على كل شخص أو مجتمع معافى أن يبرهن على قدرة معينة على الصفح. من هنا تتأتى أيضاً القدرة على النسيان. لكن لا وجود للنسيان على الإنترنت، ولا لأي أثر له. ويمكن لكل حدث أن تُبث فيه الحياة من جديد على يد وافدين جدد. سوف يرى أي موظّف جديد في نورتن الصحفيّة التي تفوّهت بكلمة «زنجي»، وسوف يسأل، من دون أدنى اعتبار للسياق، إن كانت حقاً من صنف الأشخاص الذين يرغب في تعيينهم في شركته.

مُسحت التغريدات المثيرة للجدل من حسابي نورتن وجيونغ على tweeter، لكن بعد أن التقطها عدد من المستخدمين وخبّأها لأجيال القادمة. وبرؤيتها على الإنترنت اليوم، قد يتملّكنا ردّ الفعل نفسه كما لو كانت قد نُشرت، ليس من بضع سنوات أو حتى عشر، لكن البارحة أو اليوم.

حتى وقت قريب جداً، كانت الزلة أو الخطأ الذي يرتكبه شخص مشهور يتلاشى بمرور الوقت. لا شك أن هناك من الأفعال الجسيمة التي لا تستحق النسيان أبداً. فالشخص المدان من القضاء أو الذي أمضى زمناً في السجن، سيحتفظ بذلك في سجله العدلي. لكن العيش في عالم يكون فيه لأفعال غير جرمية التبعات نفسها التي للأفعال الجرمية، أمرٌ يحمل على الاضطراب. أمام أي محكمة نستطيع الاستئناف؟ خصوصاً عندما تتبدل طبيعة «الجريمة»، أو ما يكوّنها، بتبدّل الأيام. ما الطريقة الملائمة للحديث عن عابر جندري اليوم؟ هل استخدمت هذه الكلمة في مزحة أم في شتيمة؟ كيف سيبدو ما نقوم به اليوم بعد مضي عشرين عاماً؟ على من سيقع الدور بعد جوي ريد Joy Reid، الخاضعة للمساءلة على رأي «خاطئ» والذي عبّرت عنه في وقت كان العالم كلّه يُشارك هذا الرأي

«الخاطئ»؟ إذا لم نكن نعرف الإجابة عن هذه الأسئلة، فعلينا التأكد، قدر المستطاع، من أننا سنستطيع التنبؤ بتقلبات الحشود، ليس السنة المقبلة فحسب، بل طوال حياتنا. حظاً موفقاً!

لا عجب فيما تبرهن عليه الدراسات من زيادة في القلق والاكتئاب والأمراض العقلية لدى الشباب اليوم. ليست المسألة مرتبطة بـ«هشاشة عاطفية»، بل برد فعل مفهوم تماماً على عالم مشلول بصعوبات عصية على الحل. إنه رد فعل منطقي على مجتمع يستند إلى أدوات قادرة على خلق مشكلات لا نهاية لها ومن دون أن يقدم أي حلول. ومع ذلك، الحلول موجودة.

في نوفمبر 1964، ألقت حنة أرندت Hannah Arendt محاضرة في جامعة شيكاغو بعنوان 'Labour, Work, Action' [«الجهد والعمل والفعل»] في إطار مؤتمر حول «المسيحية والإنسان الاقتصادي: قرارات أخلاقية في مجتمع الوفرة»[228]. كان المحور الرئيس لمحاضرتها هو السؤال: مما يتشكل قوام حياتنا «الفاعلة»؟ ماذا نفعل عندما نكون «نشطين»؟ مع اقتراب نهاية محاضرتها، تساءلت أرندت عن بعض تبعات الفاعلية الإنسانية في العالم. فحياة كل كائن إنساني يمكن أن تُسرد بوصفها قصة لأن فيها بداية ونهاية. لكن الأفعال المندرجة بين هاتين النقطتين الثابتتين – أي ما نفعله عندما نكون فاعلين في العالم – لها تبعات لا قيود لها أو حدود. إن «هشاشة الشؤون الإنسانية وعدم موثوقيتها» تعني أننا نفعل باستمرار داخل «شبكة من العلاقات، لا يُسفر فيها كل فعل عن رد فعل فحسب، بل عن سلسلة من ردود الفعل». يعني ذلك أن «كل سيرورة إنما هي علّة لسيرورات جديدة لا يمكن التنبؤ بها». كلمة واحدة، أو فعل واحد، قد يؤدي إلى تغيير كامل. والنتيجة، تقول أرندت، «لا نستطيع أبداً معرفة ما نفعله».

---

(228) 'Christianity and Economic Man: Moral Decisions in an Affluent Society'

ما يُفاقم هذا الوضع هو «هشاشة الشؤون البشرية وعدم موثوقيتها». ذلك أن أرندت تقول:

على الرغم من أننا لا نعرف ما نقوم به عندما نكون فاعلين، ليس في مقدورنا أن نتراجع عمّا فعلناه. فالسيرورات الفاعلية ليست عصية على التنبؤ فحسب، بل هي أيضاً لاعكوسة. ما من فاعل أو مبتكر قادرٍ على التراجع عما فعله إن لم يحبه أو إذا تبين له أن العواقب وخيمة.

وكما أن الأداة الوحيدة القادرة على وقايتنا من عدم القدرة على التنبؤ تتمثّل في قدرة معينة على الفعل وتقديم الوعود، تُظهر أرندت أن هناك أداة واحدة فقط لمداواة لاعكوسية أفعالنا، هي «ملكة الصفح». يرتبط هذان البعدان وأحدهما مع الآخر ارتباطاً ضرورياً، أي القدرة على الالتزام من خلال الوعد والقدرة على المحافظة على الرابط من خلال الصفح. تقول أرندت في شأن النقطة الأخيرة:

من دون أن ننال الصفح، من دون التحرر من تبعات ما فعلناه، فإن قدرتنا على الفعل ستكون، كما كانت، حبيسة فعل واحد لن نستطيع البراء منه. وسوف نظل إلى الأبد ضحية تبعات فعلنا، مثل الصبي الساحر الذي لم يكن يمتلك الوصفة السحرية لكسر التعويذة[229].

إنها الحقيقة منذ قبل ظهور الإنترنت، وكم ازدادت هذه الحقيقة حقيقةً منذ ظهوره.

يكمن أحد المفاتيح للبراء من هذه التبعات في النسيان التاريخي وليس النسيان الشخصي. وفي الصفح التاريخي وليس في الصفح الشخصي. ليس النسيان صفحاً، لكن يرافقه أحياناً ويُشجّع عليه بالتأكيد دائماً. يرتكب شخص أو شعب أشياء فظيعة، لكن الذكرى تتلاشى بمرور الوقت. ينسى الناس تدريجياً التفصيلات الدقيقة أو طبيعة الفضيحة. تحيط هالة سلبية بشخص أو شعب ما،

(229) 'Labour, Work, Action', in The *Portable Hannah Arendt*, Penguin, 2000, pp. 180 – 1.

ثم تتبدد الهالة بعد سلسلة من الاكتشافات والتجارب الجديدة. ويموت ضحايا الجرائم ومَن ارتكبها، ويموت المعتدين والمعتدى عليهم. قد تعود الذاكرة إلى الأحفاد لبعض الوقت. لكن الوقت كفيل أيضاً بمحو الإهانة وإطفاء الشكوى، عبر الانتقال من جيل إلى جيل، ومَن يرفض نسيان الظلمة، لا تُمتدح حساسيته أو يُثنى على معنى الشرف لديه، بل في أغلب الأحيان يوصم بسبب ثأريته.

بالإضافة إلى مساعدة الناس على التذكر، يُتيح الإنترنت التعامل مع الماضي من منظور العارف بكل شيء، وإذ ذلك من زاوية غريبة. يُصبح الماضي، والأشياء كلها، رهينة أي نابشٍ عن الحوادث الماضية قرّر الأخذ بثأره. هكذا، يمكن لحوادث تسببت بفضائح منذ زمن طويل، لكنها نُسيت منذ أجيال عدة، أن تُعاد إلى المشهد من جديد. كيف نسينا هذه الجريمة التي ارتكبت قبل أكثر من مئة عام؟ ألا يجب أن تظلّ حاضرة في أذهاننا؟ ألا يجب أن نشعر بالخجل؟ ومَن نكون نحن اليوم، إذا نسينا هذه الجريمة وتجاهلناها؟

حتى الملفات التي كانت تبدو أنها سُوّيت، يمكن أن تُفتح من جديد. في قصيدته بعنون 'In Memory of W. B. Yeats' [في ذكرى ويليام بتلر ييتس]، كتب ويستن هيو أودن W. H. Auden عن السمعة الأدبية: «الزمن الذي، مع هذه العذر الغريب/ صفح عن كيبلينغ Kipling وآرائه/ سوف يصفح عن بول كلوديل Paul Claudel/ سوف يصفح عنه لأنه يُجيد الكتابة»[230]. عدا عن أننا نعلم اليوم أنه إذ صُفح عن كيبلينغ، قد يُوضع في مرمى الاتهام من جديد. ربما كان هذان الكاتبان معرضين لهذا الخطر على الدوام، إلى حدّ ما، لكن الاتهام اليوم يمكن أن يدوي من بعيد، من مسافة بعيدة جداً، مثل تسونامي قادرٍ على جرفك بلمحة عين.

في يوليو 2018، رسم طلاب في جامعة مانشستر لوحة جدارية لقصيدة كيبلينغ

(230) W. H. Auden. 'In Memory of W. B. Yeats', in *The English Auden: Poems, Essays and Dramatic Writings*, ed. Edward Mendelson, Faber, 1986, pp. 242 – 3.

المعنونة If [إذا] – وهي إحدى القصائد المفضّلة عند البريطانيين. لكن بغض النظر عن شجيتها وإلهامها، قرر الطلاب محوها. من الممكن أنهم أجبروا على ذلك، فوضعوا مكانها قصيدة لمايا أنجيلو Maya Angelou[231]. سوّغ وكيل «التحرير والوصول» في اتحاد الطلاب بالجامعة هذا الإجراء بأن كيبلينغ جُرّم «بإضفاء الشرعية على وجود الإمبراطورية البريطانية في الهند» و«نزعه الصفة الإنسانية عن الأشخاص ذوي البشرة الملونة»[232].

قبل ظهور الإنترنت، كان من الممكن تذكّر أخطاء الأفراد داخل مجتمعاتهم أو دوائرهم الضيقة. لكن كان الممكن أيضاً البدء بحياة جديدة في مكان آخر من العالم. أمّا اليوم، يُطارد الناسَ ظلُّهم أينما هربوا في هذا العالم. وحتى بعد موتهم، تُنبش قبورهم وتُقتحم، ليس لغايات توثيقية أو من أجل الصفح، بل بروح القصاص والثأر. تكمن في صميم هذا الموقف الغريزة العقابية الغريبة لعصرنا تجاه الماضي. تُقنعنا هذه الغريزة بأننا أفضل ممن سبقونا الذين نعرف سلوكهم، وأننا كنّا سنتصرّف على نحو أفضل منهم لو كنّا مكانهم. غير أن هذه الموقف يُلخّص المغالطة الحديثة الهائلة. فبالطبع، إن اعتقد المحدثون أنهم سيتصرفون على نحو أفضل، فذلك لأنهم عرفوا كيف انتهى التاريخ. والحال أن السابقين المنغمسين في التاريخ لم يتمتعوا بهذه الرفاهية. لقد اتخذوا قرارات جيدة أو سيئة في أوقاتهم وأماكنهم، نظراً إلى الأوضاع والمحظورات التي اعترضت طريقهم.

إن النظر إلى الماضي بشيء من الحِلم إنما يعني، من بين معان أخرى، أن نطلب الصفح منذ اليوم أو نُعامَل برحمة. ذلك أن كل ما نفعله أو ننوي فعله الآن لن ينجو بالضرورة من دوامة الأحكام والقصاص. هل يمكن للغفران أن يُطبق على الأشخاص كما على المراحل التاريخية؟ على البشر الذين يخوضون التاريخ معنا؟

---

(231) كاتبة وناشطة أميركية سوداء ومناهضة للعنصرية (1928-2014).

(232) 'Manchester University students paint over Rudyard Kipling mural', *The Guardian*, 19 July 2018.

خلال ليلة رأس السنة 2017/ 2018، سرّبت الحكومة البريطانية خبر تعيين حكومي جديد: عُيّن الصحفي ومؤسس المدارس توبي يونغ Toby Young عضواً في المجلس الاستشاري الحكومي للتعليم العالي في وزارة التربية. اشتهر يونغ منذ سنوات بوصفه أبرز المدافعين عن البرنامج الحكومي عن «المدارس المجانية». وكان قد كرّس نفسه لافتتاح مدرسة جديدة في لندن وترأس «شبكة المدارس الجديدة». قبل أن يخوض في هذا الطريق، كان يونغ مؤلفاً، وكتب، من بين عناوين أخرى، كتاباً بعنوان How to Lose Friends and Alienate People [كيف تخسر الأصدقاء وتتجاهل الناس وتمضي في طريقك] (والذي حُوّل إلى فيلم)، يروي فيه الإخفاق الذي لحق بطموحاته الأميركية. الكتاب يتّقد حماسة، ومليء بالنقد الذاتي، وكاشفٌ، وكما فعل في عدد من أعمدته الصحفية، أراد أن يولّد فيه صدمة للقراء. ربما قادته هداية دمشقية، طرأت بين مرحلة وأخرى في حياته، إلى شيء من الصفح، لكن يونغ عرف لفترة كيف يمتطي حصانين: صحفي مضحك وصادم، وشخص يساعد الأطفال من العائلات الفقيرة في الحصول على تعليم أفضل. وعلى مفترق الطرق هذا، قبضت عليه حشود الإنترنت.

في الساعات والأيام التي تلت الإعلان عن تعيينه، وفّر حسابه على tweeter – ومقالاته – كنزاً للنابشين الذي يبحثون عن الإساءة والعثرات. والواقع أن هذا الكنز، في أعين غير المعتادين على أعماله وأسلوبه ومن منظور الإذلال على الإنترنت، كان بمنزلة العثور على مقبرة توت عنخ آمون!

هكذا، اكتُشف أن يونغ أعرب في عام 2009 وفي أكثر من مناسبة عن اهتمامه بأثداء المرأة، وأنه على استعداد للتغريد حول ذلك مع متابعيه على tweeter. فقد تحدّث عن «الأثداء الضخمة» لإحدى صديقاته. وفي إحدى المناسبات، عندما كان يُشاهد برنامج «أسئلة إلى رئيس الوزراء» على التلفاز، سأل متابعيه على tweeter: «صدر مكشوف خطير خلف رأس إد ميليباند Ed Miliband. هل

يعرف أحد منكم إلى من يعود هذا الصدر؟»[233] كما أسرّ لاحقاً، لم يكن يونغ فخوراً جداً بهذه التعليقات. لكن النبش لم يتوقف هنا. في مقالة كتبها في مجلة The Spectator في عام 2001، تحدّث يونغ عن برنامج تلفزيوني جديد على قناة Men and Motors، بعنوان The glamour game [لعبة الإغراء]، وأن هذا البرنامج إباحي في الأساس، وقال إنه أحبه. كتب محرّر فرعي مقالة بعنوان Confessions of a porn addict [اعترافات مدمن على المواد الإباحية][234]. بعد ما يقارب عقدين من الزمن، أصبحت هذه المسألة إحدى التهم الرئيسة الموجّهة ضدّه. واُستهدف من طرف النواب «حزب العمل» والمحافظين. ثمّ عنونت صحيفة The Times of London إحدى مقالاتها بـ Porn addict Toby Young fights to keep role as student watchdog [مدمن المواد الإباحية، توبي يونغ يكافح للحفاظ على دوره مراقباً للطلاب»][235]. من جهتها، نشرت صحيفة The Evening Standard مقالة بعنوان New pressure on Theresa May to sack porn addict" Toby Young from watchdog role [ضغط من جديد على تيريزا ماي لإقالة «مدمن المواد الإباحية»، توبي يونغ، من دوره كمراقب»][236].

وعُثر على استخدامه تعبير «مخنث مثل فقمة» في وصف أحد المشاهير مثلي الجنس. واُكتشف أنه حضر في مؤتمر عن معدّل الذكاء وعلم الوراثة، عُقد في إحدى جامعات لندن. باختصار، اتضح أن يونغ كان مُنتهِكاً من الطراز الأول للمحرمات الملغومة في تلك الحقبة. بعد تسعة أيام من الإعلان عن تعيينه في منصبه الجديد، وعندما اتضح أن المخزون الكامن من التجاوزات المتعلقة بيونغ قد يستمر طوال العام، رفع الأخير الراية البيضاء. وفي غضون بضعة أسابيع

---

(233) انظر:
'Toby Young quotes on breasts, eugenics, and working-class people', *The Guardian*, 3 January 2018
(234) Toby Young, 'Confessions of a porn addict', *The Spectator*, 10 November 2001.
(235) *The Times*, 6 January 2018
(236) *The Evening Standard*, 5 janvier 2018.

أخرى، فقد يونغ كلّ وظيفة حاول الاحتفاظ بها، بما فيها وظيفة رئيس «شبكة المدراس الجديدة»، التي كانت مصدر دخله الأساس وشغفه في المرحلة الثانية من حياته.

لن يود أي شخص أن يُدافع عن يونغ بخصوص أثداء النساء. قد يتساءل كثيرون عن حكم شخص بالغ يُغرّد على tweeter مُزاحاً يليق بتلميذ في المرحلة الثانوية[237]. لكن السؤال الذي تطرحه حالة يونغ، شأنها شأن جميع حالات الإذلال العلني الأخرى، هو أهم الأسئلة على الإطلاق. هل هناك سبيل إلى الصفح؟ ألا يمكن لسنوات يونغ في العمل التطوعي في مساعدة الأطفال المحرومين، أن تشفع له خطيئة التغريدات المتعلقة بالأثداء؟ في حال كانت الإجابة بلى، كم هو عدد الأطفال الذين يجب مساعدتهم لمحو عدد التغريدات عن الأثداء؟ ما الفترة الزمنية الملائمة بين الخطأ والصفح؟ هل من مُجيب؟ هل هناك مَن يُقدر أهمية العمل على هذا السؤال؟

لقد آن أوان المحاولة على الأقل. فبعد كلّ شيء، نضع قدمنا اليوم في أكثر المناطق وعورة وخطورة على الإطلاق. ذلك أننا على مشارف الإذلال العابر للأجيال. في أغسطس عام 2018، أعلنت شركة Lilly Diabetes انسحابها من عقد رعايتها لسائق السباق المحترف كونور دالي Conor Daly، قبل أن يبدأ هذا الشاب البالغ من العمر 26 عاماً أول ظهور له في سباق الناسكار. لم تكن الفضيحة هذه المرة متعلقة بتصريح لدالي نفسه. فقد سحب الرعاة دعمهم لأن قصة حدثت في الثمانينيات عادت إلى الواجهة. في هذا العقد – لم يكن كونور مولوداً بعد – أجرى والده مقابلة مع محطة إذاعية استخدم فيها مصطلحاً مهيناً للإشارة إلى الأميركيين الأفارقة. أعلن دالي الأب عن خجله، وصرّح أن المصطلح نفسه كان له معنى ودلالات مختلفة في وطنه أيرلندا، وأنه انتقل للتو إلى الولايات المتحدة. ثم أعرب عن أسفه واعتذاره وطلب الصفح عن هذه الإساءة. ومع ذلك، فقد خسر ابنه

(237) Toby Young, 'The public humiliation diet', *Quillette*, 23 July 2018.

عقد الرعاية[238].

لسنا نجرؤ حتى اليوم على مواجهة حقيقةِ أننا أسهمنا في خلق عالم أصبح فيه الصفح شبه مستحيل. عالمٌ يؤاخذ فيه الأبناء بجريرة الآباء. والأنكى من ذلك أننا ما زلنا غير آبهين بإيجاد آليات من شأنها أن تحلّ هذه المعضلة أو أن تُفضي إلى توافق حول أفضل طريقة لتناولها.

خلال قرون، كان من المتفق أن الله وحده هو الذي يغفر الذنوب جميعاً. لكن التقاليد المسيحية بيّنت إمكان الصفح وضرورته في الحياة اليومية. بما في ذلك الصفح غير المحدود[239]. ثمّ تنبّأ فريدرك نيتشه Friedrich Nietzsche أن المحدَثين قد يجدوا أنفسهم عالقين في دوامة لا يُقدم لهم أي لاهوت مسيحي مخرجاً منها، وذلك نتيجة لـ«موت الإله». بدقة أكبر، حُرم البشر – ورثة مفاهيم الذنب والخطيئة والعار – من سُبل الفداء التي يُقدّمها الدين المسيحي. اليوم، نعيش في عالم قد تُخلّف الأفعال فيه عواقب لم ولن نتخيلها، ويقض مضاجعنا الذنب والعار أكثر من أي وقت مضى، من دون أن يكون بين أيدينا أي سبيل إلى الخلاص. لا نعرف مَن قد يُقدّم لنا أفقًا مثل هذا السبيل، ومَن قد يقبل به، وهل يُشكّل بديلاً مرغوباً مقارنة مع الدوامة اللامتناهية من اليقينيات والوشايات غير المحدودة.

إذن، نحن نعيش في هذا العالم الذي يُخاطر فيه كلّ منا – مثل الأستاذ تيم هانت Tim Hunt – بالاضطرار إلى تمضية بقية حياته حاملاً وزر أسمج مزحة قالها في حياته. عالمٌ ليس الفعل هو الحافز الأساس فيه، بل الردّ على الآخرين، بالتحديد، بغية عيش دور الضحية أو القاضي، والتفاخر بالقليل من الفضيلة الأخلاقية التي تقدّمها لنا المعاناة حسب ظننا المخطئ. عالمٌ لا أحد يعرف فيه مَن المباح له أن

(238) 'Conor Daly loses Lilly Diabetes sponsorship over remark his father made over 30 years ago', *Associated Press*, 25 August 2018.
(239) Matthew 18:21– 2.

يصفح عن الإساءات. عالمٌ الجميع فيه مدعوّ إلى الصراخ مع القطيع للمحافظة على سمعته. عالمٌ تُمارس فيه بلا هوادة أعتى السلطات – سلطة الحكم على حياة إنسان آخر، وربما تدميرها لأسباب قد تكون صادقة أو لا.

حتى اليوم، لا يوجد سوى نموذجين للإجابات المؤقتة لهذه الصعوبة الرئيسة. الأول: هو أن نصفح عمّن نحبهم، أو الشخص الذي تكون قبيلته، أو آراؤه أقرب ما يكون إلينا، أو تُثير سخط أعدائنا على الأقل. فإذا كانت إيزرا كلاين تُحبّ سارة جيونغ، سوف تصفح عنها. وإذا كنت تكره بوبي يونغ فلن تصفح عنه. إلا ان هذه الطريقة واحدة من أضمن الطرق التي يمكن تخيّلها لترسيخ جميع الفروقات القبلية الموجودة مسبقاً.

الطريق الثاني المؤقت هو الطريق الذي سلكه مؤخراً سائق سباق آخر، يُدعى لويس هاميلتون Lewis Hamilton. في عيد الميلاد 2017، نشر الأخير مقطع فيديو في حسابه على Instagram، يقول فيه: «أنا في غاية الحزن الآن. أنظروا إلى ابن أخي». ثم حوّل الشاب البالغ من العمر 32 عاماً كاميرا الهاتف ليُصوّر ابن أخيه الصغير وهو يرتدي فستاناً وردياً وأرجوانياً، ويلوّح بعصا سحرية. يسأله هاميلتون: «لماذا ترتدي فستان الأميرة؟» ثم يضيف: «الصبيان لا يرتدون فساتين الأميرة». كان الولد يضحك خلال المقطع.

وسرعان ما تحوّل ذلك كلّه إلى أمر بالغ الخطورة ومدمّر لهاملتون وحياته المهنية. أدانته منظمة خيرية مناهضة للتنمر لاستخدامه منصته على وسائل التواصل الاجتماعي بهدف «إخلال توازن طفل صغير». على الإنترنت، انتُقِد هاميلتون لأنه يُعاني من رهاب العابرين جندرياً ويروّج لأحكام منمّطة جنسية أكل عليها الدهر عليها. التقطَتْ وسائل الإعلام القصة وجعلتها مادة إخبارية رئيسة. ودَعَتْ جمعية لمكافحة الاغتصاب، تهدف إلى مساعدة الناجيات من الاغتصاب، إلى تجريد السائق من رتبة الإمبراطورية البريطانية الحائز عليها. سرعان ما ركض هاميلتون إلى وسائل التواصل الاجتماعي للاعتذار عن تعليقاته «غير اللائقة» وإخبار

الجميع بمدى حبه لابن أخيه. قال في إحدى الرسائل: «أحب أن يشعر ابن أخي بالحرية في التعبير عن نفسه، كما يجب علينا جميعاً». وقال في رسالة أخرى: «أيدت دائماً أي شخص يعيش حياته بالطريقة التي يريدها بالضبط، وأرجو أن تُغفر لي هذه السقطة في الحكم»[240].

لم يُشبع ذلك شراهة الحشود. بعد بضعة أشهر، في أغسطس 2018، اكتشف قرّاء مجلة الذكور GQ صورة للويس هاميلتون على الغلاف، مع مقابلة وصورة في الداخل. تُظهر جميع الصور، بما فيها صورة الغلاف، هاميلتون مرتدياً التنورة. إضافة إلى تموّجات عضلات البطن والصدر من خلال قميص مفتوح متعدد الألوان على الطراز الأسكتلندي، كان يرتدي تنورة أسكتلندية مليئة بالأنماط والبقع الملونة. كان عنوان الغلاف الأمامي المرافق لهذه الصورة يقول: «أريد أن أُحرَّر من العبء». لويس هاميلتون يرفض الالتفاف على القضية.[241] إذن، هذا هو المنوال الثاني الوحيد والمتاح حالياً للخلاص. إذا كنت غنياً ومشهوراً بما يكفي، يمكنك اللجوء إلى علاقاتك وتأمين غلاف أمامي في مجلة ذكورية، لكن بشرط ارتداء تنورة والسجود أمام عقائد العصر التي تطورت بسرعة. لا عجب إذن أن عدداً متزايداً من الناس مقتنع بأن عليه ببساطة إطاعة هذه العقائد، من غير المسموح طرح الأسئلة، ولا أسئلة موجودة أصلاً.

---

(240) 'Lewis Hamilton apologises for "boys don't wear dresses" remark', *BBC News*, 26 December 2017.

(241) *GQ*, August 2018.

4

العبور الجندري

اِرتكبت جميع العصور السابقة على عصرنا، أو سمحت بارتكاب أفعالٍ تبدو لنا مخيفة من الناحية الأخلاقية. لذلك، ما لم يكن هناك أيُّ سبب للاعتقاد بأن البشر اليوم هم أكثر عقلانية، أو أفضل أو أكثر حكمة من الناحية الأخلاقية من أي عصر آخر، من المنطقي أن نفترض أن بعضاً من أفعالنا وسلوكاتنا الحالية – المترعة جميعها بالفضيلة الأخلاقية – سوف تتسبب يوماً ما بصرخات عالية من أحفادنا اللذين سوف يقولون: «لكن ما الذي كانوا يفكرون فيه؟» يجدر بنا التساؤل عن البقع العمياء في عصرنا. هل مِن أفعالنا ما ستحكم عليه الأجيال اللاحقة الحكمَ نفسه الذي نطلقه اليوم على تجارة العبيد أو استعمال الأطفال في العصر الفيكتوري لتنظيف المداخن؟

لنأخذ حالة ناثان فيرهيلست Nathan Verhelst، التي وافتها المنية في بلجيكا في سبتمبر 2013. وُلدت ناثان فتاةً، وأَطلق عليها والديها اسم نانسي. نشأت في أسرة من صبيان، وانتابها شعور دائم بأن والديها يفضلون إخوتها الثلاثة عليها. أمر هذه العائلة مريب في نواحٍ عدة: بعد وفاة ناثان، أجرت وسائل الإعلام المحلية مقابلة مع أمها التي قالت: «عندما رأيت "نانسي" لأول مرة، تحطّم حلمي. كانت قبيحة جداً. إنها ولادة وهمية. لا يزعجني موتها. لا أشعر بأي حزن أو شك أو ندم. لم ينعقد بيننا أي رابط»[242].

(242) 'Moeder van Nathan spreekt: "Zijn dood doet me niks"', *Het Laatste Nieuws,* 2 October 2013.

لأسباب تلوح في هذا التعليق وغيره، نشأت نانسي مع شعور بالرفض من والديها في طفولتها، فاقتنعت بأن الأمور قد تكون أفضل لو كانت رجلاً. في عام 2009، عندما اقتربت من الأربعينيات، بدأت بتلقي علاج هرموني. بعد ذلك بوقت قصير، أجرت عملية لاستئصال ثدييها، ثم مجموعة من العمليات الجراحية لمحاولة زرع قضيب.

بالمحصلة، خضعت نانسي لثلاث عمليات رئيسة لتغيير جنسها بين عامي 2009 و2012. في نهاية العمليات، كان رد فعل ناثان – كما بات يُسمي نفسه – على النتائج كالآتي: «كنت على استعداد للاحتفال بولادتي الجديدة. لكن عندما نظرت إلى نفسي في المرآة، شعرت بالاشمئزاز. ما هكذا توقعت ثديي الجديدين، ويُبدي قضيبي الجديد أعراضَ رفض». تركت جميع العمليات التي خضع لها ناثان ندوباً كبيرة، ومن الواضح أنه كان تعيساً في جسده الجديد. توجد صورة له في جسد «ناثان» على شاطئ بلجيكي ذي كثافة سكانية منخفضة، كانت عيناه ترفرفان تحت شمس قوية، وهو ينظر إلى الكاميرا. وعلى الرغم من أن الوشم يُغطي جزءاً من صدره، كانت الندوب الناتجة عن استئصال الثدي لا تزال مرئية. وفي صورة أخرى، كان مستلقياً على سرير مرتدياً حذاء وبدلة، ويبدو مضطرباً وغير مرتاح.

لم تتحقق الحياة التي كان ناثان يرجوها، وسرعان ما غرق في الاكتئاب. لذلك، في سبتمبر 2013، بعد عام واحد فقط من آخر عملية لتغيير جنسه، خضع ناثان للقتل الرحيم على يد الدولة. يُعدّ القتل الرحيم قانونياً في بلده الذي ولد فيه، ووافقت السلطات الطبية المختصة في بلجيكا على أنه يمكن قتل فيرهيلست بسبب «معاناة نفسية لا تُطاق». قبل أسبوع من النهاية، أقام حفلة صغيرة لبعض الأصدقاء. وبحسب ما قيل، رقص الضيوف وضحكوا ورفعوا أكواب الشمبانيا متمنيين لناثان حياة مديدة. بعد الحفلة بأسبوع، ذهب فيرهيلست إلى مستشفى جامعي في بروكسل، وانتهت حياته بحقنة قاتلة. قال قبل وفاته: «لا أريد أن أكون

وحشاً»[243].

ليس من الصعب تخيّل الذهول الذي يمكن أن توحي به هذه القصة للأجيال اللاحقة. «باختصار، حاولت الخدمة الصحية البلجيكية تحويل امرأة إلى رجل، ثم أخفقت، ثم قتلتها؟» الأكثر استغلاقاً على الفهم هو أن هذا القتل والعمليات التي سبقته لم يُرتكبا بروح الحقد أو الفظاعة، ولكن بروح العطف والطيبة.

لا شك في أن حالة فيرهيلست غير عادية من جميع النواحي. لكن الأمر يستحق التأمل، وخصوصاً لأن الدروس المستخلصة منها لا تستغرق التفكير طويلاً. ما الذي تعنيه كلمة «عابر جندرياً»؟ ومَن يكون «العابر»؟ وما الذي يجعل من شخص ما عابراً جندرياً؟ هل نحن متأكدون من وجود فئة كهذه؟ وفي حال كان الجواب بالإيجاب، هل نحن متأكدون من أن محاولة تحويل شخص ما جسدياً من جنس إلى آخر أمرٌ ممكن دائماً؟ وهل هذه هي أفضل الطرائق للتعامل مع لغزِ رغبةٍ كهذه؟

من بين جميع موضوعات هذا الكتاب، وجميع القضايا المعقدة في عصرنا، ما من موضوع ولّد ارتباكاً وفرضيات على هذا القدر من التطرّف، ما من موضوع أسفر عن مطالبَ على هذا القدر من الشراسة، بمقدار موضوع العابرين جندرياً. ما من قضية بلغت بسرعة لا تُضاهى مرحلةً تُكرّس فيها صفحات كاملة من الصحف للحديث عن آخر تطوّراتها، ونرصد فيها طلباً متنامياً لتعديل اللغة، بل وتشييد معرفة جديدة من شأنها أن تُدرجها ضمن موضوعاتها، مثل قضية العابرين جندرياً[244]. ناهيك بأن هذه القضية تمسّ عدداً قليلاً نسبياً من الناس. قد يرى بعضهم أن النقاش بشأن حقوق المثليين تطوّر بسرعة كبيرة جداً، ومع ذلك، استغرق الانتقال من القبول بالمثلية الجنسية وضرورة التكيّف معه إلى تشريع

(243) 'Mother of sex change Belgian: "I don't care about his euthanasia death"', *Daily Telegraph*, 2 October 2013.

(244) أنظر، على سبيل المثال:
The Sunday Times, 25 November 2018, p. 23.

زواج المثليين عقوداً. في المقابل، أفرز موضوع العابرين جندرياً موقفاً أقرب إلى العقيدة في زمن قياسي جداً. ورأينا وزراء محافظين في الحكومة البريطانية يُطلقون الحملات بغية تسهيل شهادات الميلاد وتغيير الجنس عند الولادة[245]. ورأينا أيضاً سلطة محلية تُصدر إرشادات تربوية تطلب من معلمي المدارس الابتدائية أن يشرحوا للأطفال أن «جميع أشكال الجندر»، بما في ذلك الصبيان، يمكن أن يمروا بفترة الدورة الشهرية، لكي يتقبّل الأطفال العابرين جندرياً أنفسهم على نحو أفضل[246]. ورأينا في الولايات المتحدة مشروع قانون فيدرالي في مايو 2019 يُعيد تعريف الجنس ليشمل «هوية الجندر»[247].

يتابنا الشعور نفسه في كل مكان. من بين جميع ضروب جنون الحشود التي نمرّ بها اليوم، بات العبور الجندري أشبه بثور هائج مندفع في جميع الاتجاهات، كما لو كان السلاح النهائي لهدم السور الأبوي العظيم. وها هي المجموعة البريطانية للدفاع عن حقوق المثليين، ستونوال Stonewall، تعود إلينا بنسخة جديدة من قميصها القديم حول حقوق المثليين، وتحذّرنا هذه المرة بالقول: «بعض الأشخاص هم من العابرين جندرياً. عليك التكيّف مع ذلك». لكن، هل هم كذلك؟ وهل علينا ذلك؟

ما ليس غريباً

لا بد من القول بأن لا شيء غريب في أصل ظاهرة «العبور الجندري» ومنشئها. اليوم، تندرج تحت هذه التسمية، وتختلط ضروب عدة من الوجود. في العقود الأخيرة فقط، أُستخدم مصطلح «العبور» لوصف تشكيلة واسعة من الأفراد، مِن

(245) فيما يتعلق بالاستشارة العمومية بشأن قانون الاعتراف بالجندر عام 2018.

(246) أنظر:

'Schools tell pupils boys can have periods too in new guidelines on transgender issues', Daily Mirror, 18 December 2018.

(247) https://www.congress.gov/bill/115th-congress/senate-bill/1006

الذين يرتدون ملابس أحياناً بوصفهم يُمثّلون أفراداً من الجنس الآخر، إلى الذين خضعوا لعملية جراحية كاملة لتبديل الجنس. بعض جوانب الواقع العبوري مألوف لنا أكثر من غيره. وهو ما أثار أول أشكال الارتباك في هذا الخصوص.

ذلك أننا نعثر في معظم الثقافات على شكل معين من الغموض والجندرية السائلة، ومن الصعب جداً إيجاد مجتمع لا يتضمن شيئاً من الغموض الجندري أو يسمح به. إذاً، لسنا في هذا الصدد أمام ابتكار من ابتكارات الحداثة المتأخرة. وكما رأينا، تحكي قصة تيريسياس التي رواها أوفيد عن تغيير في الجنس. وفي الهند، هناك الهيجراس (Hijras) – وهي فئة من بينيي الجنس (intersex) والمشتهين لبسة الجنس الآخر (transvestite) –، معروفون ومقبولون منذ قرون. وفي تايلاند، يُعدّ الكاثوي (Kathoey) رجلاً مخنّثاً، لا هو رجل ولا امرأة، وهو مقبول على نطاق واسع بوصفه كذلك. وفي جزيرة ساموا، نجد الفافافين (fa'afafine)، وهم رجال يعيشون، ويلبسون كمثل النساء.

حتى في أكثر المناطق عداءً للمثلية الجنسية عند الذكور في العالم، قُبل بوجود فئة من الأشخاص، إما أن تتموضع بين الجنسين وإما ألا تكون أياً منهما. في أفغانستان، هناك تقليد الباشا بوش[248] (Bacha posh) الذي يُجيز للوالدين اللذين لم يرزقا بوريث ذكر، أن يختارا فتاة لكي تُصبح رجلاً. وفي بداية الستينيات من القرن الماضي، قبل الثورة بوقت طويل، أصدر آية الله الخميني حكماً يُجيز عمليات تغيير الجنس. نتيجة لذلك، منذ ثورة 1979، أصبحت الدولة الإيرانية بحكم الواقع، وعلى نحو مقلق، رائدة في المنطقة في هذا المجال. يعود ذلك، إلى حد كبير، إلى كون هذه العمليات هي السبيل الوحيد للأشخاص الذين يُكتشف أنهم مثليون، إلى تجنب عقوبات أسوأ بكثير من عملية جراحية غير مرغوبة.

إن الوعي بوجود منطقة رمادية بين الجنسين موجود في جميع الثقافات تقريباً، وتشمل اشتهاء لبسة الجنس الآخر (أي أولئك الذين يتنكرون في ملابس الجنس

(248) وهي كلمة فارسية تعني: الصبي الذي يرتدي ملابس الفتاة. (م)

الآخر) حتى التحول الجنسي (مروراً بسلسلة كاملة من الإجراءات من أجل «الصيرورة» إلى الجنس الآخر). وأياً كانت العوامل التي تُفسّر هذا التطور، فقد كان على عدد من الثقافات أن تتكيّف، بطرائق تناسب كلّ منها على حدة، مع فكرة أن بعض الأشخاص قد يولدون في جسد ويرغبون العيش في آخر.

لكن مَن هم هؤلاء العابرون جندرياً، وما الحدود الفاصلة، ليس بينهم وبين الآخرين فحسب، بل داخل فئة الأفراد نفسها الذين لا يتشابهون إلا في الخطوط العريضة؟ يكتنف هذه الموضوع من العواطف والألغام ما يجعل من الضروري، من أجل معالجته، نهج مقاربة علمية لن تتسم، في جميع الأحوال، بقدر كافٍ من الدقة لترضي جميع العالم. ومع ذلك، لا بد من البدء من مكان ما. وقد يكون أفضل مكان للانطلاق هو أكثر الأجزاء في النقاش بشأن العابرين جندرياً. فبمجرّد الاتفاق على أشد الجوانب بساطة في النقاش، فإن أكثر النقاط حساسية – والتي ليس من المصادفة أن تكون أكثر النقاط تطرقاً إليها ومرارةً – ستقبل الإحاطة بسهولة ويسر.

البينية الجنسية

إذا وضعنا ثقتنا في العلماء بدلاً من خبراء العلوم الاجتماعية، وإذا اتفقنا على أن الأسهل هو الانطلاق من ماهية الأشخاص وليس مما يدّعي هؤلاء أنه ماهيتهم، فإن الجانب من النقاش الأقل إشكالية بشأن العابرين جندرياً هو مسألة البينية الجنسية.

البينية الجنسية ظاهرة طبيعية ومعروفة في مهنة الطب منذ قرون، وإن كانت غامضة بطبيعة الحال في نظر معظم البشر. تُولد نسبة مئوية ضئيلة من البشر إما بأعضاء تناسلية ملتبسة أو أنها مزوّدة بسمات جنسية غير نمطية (على سبيل المثال، بظر كبير غير عادي، أو قضيب صغير بصورة غير عادية أيضاً)، ما يعني أنه يُمكن لأفرادها أن يتموضعون في مكان ما بين الجنسين. ليست هذه الأعراض مرئية

دائماً. في حالات نادرة، قد يُظهر هؤلاء خصائص أحد الجنسين مع العلم أنهم يحملون أعضاء تناسلية خفية من الجنس الآخر. على سبيل المثال، تُصيف متلازمة قناة مولريان المستمرة (PMDS) الأفراد الذين يُولدون مع أعضاء تناسلية ذكورية، ولكن يحملون أيضاً أعضاء تناسلية أنثوية مثل قناتي فالوب، وحتى الرحم.

الأطباء على دراية بهذه الظواهر منذ قرون، بخلاف العامة التي لديها معرفة محدود جداً، وتميل في الغالب إلى التركيز على «فظاعة» هذه الظواهر. أظهرت عروض السيرك «المرأةَ الملتحية» مثل انحراف في الطبيعة، وتُظهر الإحالات التاريخية على «ثنائيي الجنس» (hermaphrodites) اعترافاً بوجود فئة ليست مشتهي لبسة الجنس الآخر، ويتموضعون بين الجنسين. ومع أن الخطاب العلمي قد همّش هذه الحالات، كان هناك وعي دائم بالتحديات المعقدة والقاسية غالباً التي تثيرها البيولوجيا.

ومع ذلك، ما نزال حتى اليوم نجهل مدى الشيوع النسبي للبينية الجنسية. تُشير التقديرات إلى أن حوالي واحد من كل ألفي طفل يُولد بأعضاء جنسية غير محددة في الولايات المتحدة، وأن واحداً من كل ثلاثمئة يجب إحالته إلى الأخصائي[249]. وبالطبع، كلما زاد وعينا بالبينية الجنسية، زاد النقاش الدائر بشأن الموقف الواجب تبنيه حيال أولئك الذين وُلدوا مع هذا التحدي الإضافي في حياتهم. في النصف الثاني من القرن الماضي، وضعت جامعة جونز هوبكنز في بالتيمور إجراءً معيارياً يُتيح للخبراء، بعد فحص طفل أُحيل إليهم، تقرير الجنس الغالب أو الجنس الذي يمكن للطفل التكيّف معه على نحو أفضل، ثم معالجته تبعاً للنتيجة من خلال الجراحة والهرمونات.

أخذت طريقة مختلفة جداً للتعامل مع المسألة تفرض نفسها إثر اكتشاف قدر

---

(249) Alice Dreger, *Galileo's Middle Finger: Heretics, Activists, and One Scholar's Search for Justice*, Penguin, 2016, p. 21.

كبير من الممارسات السيئة. على مدار ثلاثين عاماً الماضية، كانت أستاذة أخلاقيات البيولوجيا الأميركية أليس دريجر Alice Dreger أكبر الناشطات من أجل النهوض بحقوق الأشخاص بينيي الجنس. وعلى الرغم من أنها ليست بينية الجنس، كانت واحدة من عدد قليل من الأشخاص الذين عارضوا الجراحة المبكرة (التي غالباً ما تُجرى لإرضاء الوالدين) وعملوا بجد من أجل فهم أفضل لهذه الظاهرة بين الجمهور والمهنيين. قليل من الضوء المسلّط على هذه الظاهرة لن يعود إلا بالنفع على مَن يواجهون هذا التحدي. في كتابها حول هذا الموضوع – بعنوان Galileo 's Middle Finger [الإصبع الأوسط لغاليلو] –، تتذكّر دريجر ما قاله لها أحد كبار الجراحين في أواخر التسعينيات، بأنها لم تفهم الديناميكيات السائدة. وفقاً له، فإن أهالي الأطفال الذين يولدون بأعضاء تناسلية ملتبسة، عاجزون عن التعامل مع هذه المشكلة: «الأم تبكي، والأب يسكر. وإذا تركتِ طفلاً بأعضاء تناسلية ملتبسة يكبر من دون جراحة... سوف ينتحر عند سن البلوغ»[250].

لكن طرأ تغيّر كبير منذ منتصف التسعينيات واختراع الإنترنت. كما تلاحظ دريجر، حدث أمر «ما كان ليخطر على بال الأطباء الفكتوريين: فقد بدأ الأشخاص الذين وُلدوا باختلالات جنسية مختلفة في العثور على بعضهم بعضاً، وتنظيم أنفسهم في حركة تناضل من أجل الاعتراف بحقوقهم»[251]. تأسست «الجمعية البينية الجنسية في أميركا الشمالية» في عام 1993، وتلتها جمعيات أخرى مشابهة. ثمّ لفتت رواية جيفري يوجينيدس Jeffrey Eugenides التي حملت عنوان Middlesex [الجنس الأوسط] وكانت الأكثر مبيعاً لعام 2002، الانتباه إلى الصعوبات الرئيسة التي يُثيرها هذا الموضوع. وصرّح بعض الشجعان بنفسه، وحكى تجربته الشخصية على الملأ. ومع ذلك، ما زال هناك كثير من الأسئلة

---

(250) المرجع نفسه، ص 20.

(251) المرجع نفسه، ص 9.

موضع سجال حاد، مثل: ما أنسب تدخل جراحي؟ وفي أي لحظة؟ وما أفضل الممارسات؟

أصبح عدد من الأشياء واضحاً اليوم بفضل الدفاع الذي قادته «الجمعية». أولها، هو أن البينيين الجنسيين موجودون، وليس عليهم تحمل مسؤولية الوضع الذي لا يتحكمون فيه مطلقاً. ويمكننا الشعور بالتعاطف وإبداء قدر كبير من التفهم حيال كل فرد يولد بيني الجنس. أيّ شعور آخر على الناس أن يبدوه حيال أقرانهم الذين أتوا إلى العالم مُحمّلين بمثل هذا الوزر؟ هنا نحن أمام نموذج ما يُسمى بالمشكلة الجهازية بامتياز.

البينية الجنسية قضية مشروعة تماماً، ومعقولة ومضنية، وعلى كلّ منا أن يقف عندها. ويجب أن يأخذها كل من يُعنى بحقوق الإنسان على محمل الجد. ومع ذلك، من المدهش مدى ندرة الانشغال بقضية بينيي الجنس اليوم، على حين يشغل العابرون جنسياً أخبار كل يوم. يبدو أن البينية الجنسية لفتت انتباه الجمهور في اللحظة نفسها عندما ظهرت مجموعة كاملة من القضايا المشابهة لها ظاهرياً، ولكنها مختلفة عنها واقعياً.

التحوّل الجنسي

في فترة ما بعد الحرب، ظهر في أوروبا وأميركا عدد قليل من الحالات من الأفراد الذين حاولوا تغيير جنسهم. تبوّأ تحوّل روبرت كويل Robert Cowell إلى أنثى (صار اسمه روبرتا Roberta) في بريطانيا، وجورج جورجنسن (كريستين) في الولايات المتحدة، عناوين الصحف في جميع أنحاء العالم. حتى اليوم يتذكر الأكبر سناً بيننا كيف كان والداهم يخبئان الصحف التي تحمل أخبار «تغيير الجنس». ذلك أن هذه القصص لم تكن مطبوعة بطابع التلصصية الشهوانية فحسب، بل تمسّ المعايير المجتمعية الأساسية. هل يمكن لشخص أن يُغير جنسه؟ إذا كان الجواب نعم، فهل يعني ذلك أن أي شخص يستطيع فعل الأمر؟ وأن الجميع

سينتقل إلى فعل ذلك في حال جرى تشجيعه؟

بالنظر إلى الوراء، ليس من الصعب معرفة لماذا استثارت هذه الحالات الأولى إرباكاً عميقاً. فبعد الحرب العالمية الأولى، أصبحت فكرة الرجال المخنثين والنساء المسترجلات مطيّة لكلّ من يريد أن ينتقد جيل الشباب. كانت بمنزلة حجة. حتى إن إحدى الأغاني الناجحة في العشرينيات تقول: «نساء مسترجلات! رجال مخنثون! من الديك؟ من الدجاجة؟ من الصعب التمييز بينهما اليوم»[252].

في ذلك الوقت، بدا أن المثلية الجنسية واشتهاء لبسة الجنس الآخر مرتبطان بعرى وثيقة، وأننا نتعامل إما مع المشتهين لبسة الجنس الآخر الملتزمين، أو مع المثليين المخنثين خاصة. لكن أول الشخصيات العلنية من مشتهي لبسة الجنس الآخر خالفت الأحكام المسبقة السائدة. هكذا، كانت كويل طيّارةً مقاتلة في بداية حياتها المهنية، ثم اشتهرت بوصفها سائقة سباق سيارات. إن لم تكن هذه الحجة قاضية، فإن التطرق إلى التخنيث المتطرف كان يبدو أكثر صعوبة، وإن لم يكن مستحيلاً. ثم كانت هناك ادعاءات عبّر عنها الأفراد أنفسهم. كانت كويل ترغب في أن يعتقد أناس بأنها ولدت بينية الجنس، وأن عملية تجميل المهبل وغيرها من العمليات كانت مجرّد تصويبٍ لخلل طرأ في أثناء الولادة. كلما أصبحت هذه الفئات أكثر منظورية – المثلية الجنسية والبينية الجنسية واشتهاء لبسة الجنس الآخر والتحويل الجنسي – صار الوضع أكثر تعقيداً وتداخلاً.

كان لا بد من بعض الوقت، وشيء من الشجاعة، وموهبة فردية حقّة، حتى نبدأ في استخلاص ما ندعوه اليوم «عابر» من هذا المزيج المشوَّش. ومن يشك في وجود هذه الفئة من الأفراد، عليه أن يذهب في رحلة استكشافية داخل شهادات العابرين جندرياً الذين لم يكتفوا بالتأمل والتفكير، بل عبّروا عن أنفسهم بقوة وعمق في هذا الخصوص. وأنجح المحاولات لتوصيل ما يزعم عديد من العابرين

(252) 'Masculine Women, Feminine Men', lyrics by Edgar Leslie, music by James V. Monaco, 1926.

أنه غير قابل للإيصال، هو عمل الكاتبة البريطانية جان (جيمس James سابقاً) موريس Jan Morris. مثل روبرتا كويل، زادت موريس بعشرة أضعاف الإرباك والفضول اللذين ما زلنا نرصدهم اليوم لدى العامة والصحفيين.

خدم موريس في الجيش في الأيام الأخيرة من الحرب العالمية الثانية. ثم عمل صحفياً في The Times وThe Guardian. وشأن الخدمة العسكرية، لا يتطابق الالتزام المهني لموريس بوصفه مراسلاً في الخارج (في الشرق الأوسط وإفريقيا وخلف الستار الحديدي) مع ما نتوقعه من رجل عازم على أن يصير امرأة — ولا مع واقع زواجه بامرأة، والذي كان زواجاً سعيداً، إذ رزق بخمسة أطفال.

بدأ تحوّل جيمس إلى جان في الستينيات، واكتمل مع عملية تبديل الجنس في عام 1972. كانت جان قد اشتهرت قبل ذلك بوصفها مؤلّفة، ثمّ حوّلها هذا الحدث إلى واحدة من أشهر المتحوّلات جنسياً في العالم. كتبت في عام 1974 مذكراتها عن هذا الانتقال، بعنوان Conundrum [اللغز]، الذي ظلّ حتى يومنا أكثر السرديات إقناعاً وبالتأكيد أجودها كتابة بشأن الأسباب التي تدفع بعض من أقراننا إلى تبديل جنسهم. والواقع أن قراءة هذه المذكرات تجعل من الصعب إنكار وجود الشرط عبر الجندري، أو اختزاله إلى مجرّد وهم ذاتي. كانت أول ذكرى لموريس عن ولد بعمر الثالثة أو الرابعة، يجلس تحت بيانو والدته، ومدركاً إدراكاً تاماً بأنه «وُلد في الجسد الخطأ»[253]. ولم تفارقه هذه القناعة على الإطلاق، حتى بعد بلوغه سنّ الرشد، وفي الجيش وبعد الزواج والأبوة. ولم يبدأ حل هذه المشكلة يلوح في الأفق إلا مع لقائه طبيب الغدد الصماء الشهير في نيويورك، الدكتور هاري بنجامين Harry Benjamin.

كانت تلك هي المراحل الأولى لمحاولة فهم ظاهرة العبور. كان بعض الأطباء، شأن بنجامين، على قناعة أتتهم عن طريق الملاحظة بأن أقلية معينة من الناس

(253) Jan Morris, *Conundrum*, Faber and Faber, 2002, p. 1.

تشعر بأنها ولدت حبيسة الجندر الخطأ. ومع ذلك، كانت جميع الأسئلة بشأن أفضل السبل للتصرف حيال هذا الأمر موضوع نقاش واكتشاف. ثمّ توصّل بعض الأطباء، مثل بنجامين، إلى خلاصة مفادها أن الطب قادر على اقتراح بعض الحلول. وكما قال ذات مرة: «أتساءل، بداعي الرحمة أو الفطرة السليمة، إذا لم نتمكن من تغيير القناعة لكي توافق الجسد، ماذا لو علينا، في ظروف معينة، أن نغيّر الجسد لكي يتلاءم مع القناعة...؟» «تغيير الجسد»، أو كما قال موريس، «إزالة الزوائد...وأن أتخلّص من هذا الخطأ، وأن أبدأ من جديد». ليس هذا ما أراده فحسب، بل ما حلم به وما صلّى لأجله[254].

يشرح موريس في كتابه كيف أن الرغبة في أن يصبح امرأة لم تكن تغرق في التناقضات، بل كانت تزداد وتتعزز مع كل عام جديد. كل عام، كان جسده «يزداد تصلّباً من حوله». اتبع موريس علاجاً هرمونياً من عام 1954 إلى عام 1972، ووصف بدقة فائقة آثاره الغريبة على الرجال، والمتمثّلة بتجدد الشباب وازدياد النعومة. لم يقتصر أثر هذه الهرمونات في تخليص موريس من طبقات الذكورة المتراكمة عليه فحسب، لكنها جرّدته أيضاً «من الطبقة غير المرئية من المرونة المتراكمة، والتي توّفر درعاً للذكر، لكنها تقتل في الوقت نفسه أحاسيس الجسم». بمرور الوقت، أصبح موريس شخصية «ملتبسة بعض الشيء». مِن الناس مَن كان يرى فيه رجلاً مثلي الجنس، ومنهم من كان يعتقد بأنه في مكان ما بين الجنسين. في بعض الأحيان، كان الرجال يفتحون الباب له، ويعاملوه بوصفه امرأة. كان ذلك كلّه قبل الجراحة.

في تلك المرحلة، كان قليل جداً من الجراحين في أوروبا وأميركا على استعداد لإجراء هذا النوع من العمليات التي كانت لا تزال في المرحلة التجريبية. إضافة إلى ذلك، كان هناك شيء من عدم الفهم للأسباب التي تدفع بعضهم إلى الرغبة في تبديل جنسهم. هل نحن نتعامل مع مرض عقلي؟ في جميع الحالات أم في

(254) المرجع نفسه، ص 42.

بعضها فقط؟ كيف نميز هذه الرغبة في بتر المرء جزءاً من جسده، عن رغبة المريض الذي يؤكد لطبيبه أنه الأدميرال نيلسون ويُريد أن يبتر ذراعه اليمنى؟ وهل الشخص الذي يريد إزالة قضيبه سليمُ العقلِ معافى أكثر منه؟

في الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي، كان الجراحون القلائل المستعدون لإجراء تدخل جراحي، يطلبون ضمانات عدة. أولها ألا يكون المريض ذهانيًّا بأي حال من الأحوال، ثم ألا يتخلى المريض بعد تغيير جنسه عن أي شخص كان يعتمد عليه قبل ذلك. ثالثاً، على المريض أن يكون قد خضع لعلاج هرموني لفترة طويلة. وأخيراً، أن يكون المريض قد عاش سنوات عدة في دور الجنس الذي اختاره. لم تتغير هذه المبادئ والضمانات كثيراً في العقود التالية.

في النهاية، بعد أن خضع موريس لعلاج هرموني لسنوات، اختار الذهاب لإجراء الجراحة في المغرب على يد الدكتور جورج بورو Georges Burou (المشار إليه في الكتاب باسم الدكتور بي). كان هذا الطبيب قد أجرى سابقاً جراحة تبديل الجنس على متحوّلة جنسياً بريطانية، تُدعى إبريل أشلي April Ashley، وعلى الرغم من أنه كان لا يريد أن يُذاع اسمه، كان هذا الطبيب مشهوراً في تلك الفترة داخل أوساط محددة. حتى إن «زيارة الدار البيضاء» أصبحت عبارة ملطّفة ومعروفة بدلالتها على تغيير الجنس. كانت زيارة الدكتور بورو في مركز الجراحة والاستشفاء في أحد أزقة الدار البيضاء، أشبه عند مرضاه «بزيارة ساحر»[255] — وفق تعبير موريس.

على كلّ من يرتاب بوجود بعض الأشخاص المقتنعين قناعةً تامة بضرورة تغيير جنسهم، أن يقرأ وصف موريس لما كان مستعداً للقيام به.

دخلت ممرضتان غرفته في عيادة الدكتور بورو، واحدة فرنسية والأخرى عربية. أخبرتا موريس أنه سيخضع لعمل جراحي في وقت لاحق، لكن عليهما الآن أن

(255) المرجع نفسه، ص119.

يحلقان المناطق الحسّاسة. جلست الممرضتان على الطاولة، ومدتا ساقيهما، بانتظار أن يحلق موريس نفسه بماكينته الخاصة شعر عانته، مع ماء بارد وصابون مغربي، قبل أن يعود إلى الفراش ويتلقى الحقن. نصحته الممرضتان أن ينام بانتظار العملية. لكن موريس راح يصف وصفاً مؤثراً ما سيحدث بعد ذلك. فبعد أن غادرت الممرضتان الغرفة، نهض من السرير، مرتعشاً بعض الشيء، لأن مفعول الدواء بدأ يعمل، وذهب «يودّع نفسه في المرآة. لن نلتقي مجدداً مرة أخرى. أودّ أن ألقي نظرة أخيرة على الآخر، عيني بعينيه، وأن أغمزه لأتمنى له حظاً موفقاً»[256].

أمضى موريس أسبوعين في العيادة، ملفوفاً بضمادات، لكنه قال بعد العملية إنه يشعر «بنظافة عذبة. فقد نُزعت مني النتوءات التي كانت تزيد كرهي لنفسي. لقد صرت الآن، وفق معاييري الخاصة، إنساناً طبيعياً»[257]. ثم وصف الفترة التي تلت العملية، بما فيها العودة إلى المنزل، كما لو كانت مفعمة بشعور دائم بـ«النشوة». رافقه طوال هذه الفترة يقين لا يتزعزع: «لقد فعلت الصواب»[258]. لم يغب عنه شعور السعادة لو للحظة. وفي لحظة كتابة مذكراته، كان مدركاً أن ما حدث خلال تحوّل جيمس إلى جان هو «واحدة من أكثر التجارب الآسرة الي حدثت لإنسان على الإطلاق». ثمة بعض الشك في ذلك، في واقع الأمر.

إن تيريسياس هذا قد خَبِر، بالإضافة إلى العبور من جنس إلى آخر، الطريقة الخاصة التي ينظر بها المجتمع إلى الرجال والنساء على السواء. سائق سيارة الأجرة الذي اقترب منها ووضع قبلة على شفتيها ولم تمنعه، والبوح الذي يُقال للرجال وليس للنساء، وذاك الذي يُسرّ للنساء وليس للرجال. بالإضافة إلى ما تقدّم السرُّ الأعظم الآتي: ليس الطريقة التي يُدرك بها العالم الرجل والمرأة، بل الاختلاف في إدراك العالم بين رجل وامرأة. لا يوجد كثير في هذه الرواية مما قد يُرضي نسوية

(256) المرجع نفسه، ص122.
(257) المرجع نفسه، ص123.
(258) المرجع نفسه، ص127.

من الجيل الحديث.

على سبيل المثال، وصفت موريس الاختلاف في زوايا النظر والمواقف الأساسية المختلفة لكلّ من الجنسين. بما هو رجل، كان جيمس كثير الاهتمام بـ«المشكلات الكبرى»، في حين كانت جان تهتم بـ«القضايا الصغرى». كتبت جان بعد أن تحوّلت إلى امرأة: «بدا حقل رؤيتي يتقلّص، وتناقص بحثي عن رؤية كلية مقارنة مع التفصيلات الصغيرة. كما تغيرت نبرتي في الكتابة، فانتقلت من الأماكن إلى الأشخاص»[259].

لم تكابر جان بإخفاء المشكلات التي تسبب بها العمل الجراحي. فقد كانت مأساة من بعض النواحي، نظراً للضغط الشديد الذي ولّده الحدث على مَن حولها. قبل الجراحة، في عام 1972، كان عليها أن تتطلق من زوجتها إليزابيث، والتي تزوجت منها عام 2008، بعد أن صدر تشريع يقونن الشركات المدنية من الجنس نفسه في المملكة المتحدة. ثم إن أطفالها الأربعة الباقين على قيد الحياة، لم تكن مهمة تكيّفهم مع هذا التحول أمراً يسيراً، على الرغم من أنهم برهنوا، على ما يبدو، على ملكات جيدة للتكيّف. لكن العملية بمجملها قد تسببت، باعترافها، بالحيرة مع أقربائها. إلا أن هذه العملية التي شوّهت «هذا الجسد الجميل بالمواد الكيميائية وقطّعته بالسكين في مدينة بعيدة»، هدفت إلى بلوغ ما سمّته «الهوية»، مع أل التعريف[260]. تقول جان: «لا شك في أننا لا نفعل ذلك في سبيل التسلية، ولو كانت فرصة اختيار الحياة من دون هذه التعقيدات متاحة لي، لاخترتها بالطبع»[261]. ثم أضافت أنه ما من شيء كان يمكن أن يُزعزع قناعتها أن هذا الشخص المولود مع «هو»، كان في واقع الأمر «هي». وكانت لتفعل كل شيء في سبيل تحقيق هدفها. ولو حُبست من جديد داخل هذا القفص، «فلا شيء على الإطلاق قد يحول بينها وبين بلوغ هدفها... سأفتشّ في الكوكب برمته عن

(259) المرجع نفسه، ص134.
(260) المرجع نفسه، ص138.
(261) المرجع نفسه، ص128.

جراحين، وسأرشو الحلاقين والمجهضين، بل سأتناول سكيناً وأفعل الأمر بنفسي، بلا خوف، بلا اكتراث، بلا تردد...»[262].

من الأسهل الإقرار بأن هناك أشخاصاً يولدون بينيي الجنس. نفهم بعد قراءة قصة شخص مثل جان موريس، وجود بعض الأشخاص المصنفين رجالاً أو نساءً، وهم مقتنعون بضرورة التغيير. ما هو صعب على الفهم صعوبة استثنائية – وليس في متاحنا اليوم إلا القليل من الوسائل لفهمه – هو كيفية القفز فوق الهوة التي تفصل بين البيولوجيا ورواية الشخص عن نفسه. البينية الجنسية قابلة للإثبات بيولوجياً. قد يتبيّن في السنوات المقبلة أن فئة «العابرين جندرياً» قابلة للإثبات نفسياً أو بيولوجياً. لكن ليس لدينا في الحقيقة أي فكرة عن الحقل الذي يمكن أن تُدرج فيه يوماً. وإن بدا نهجي طريقة متحذلقة وغير مفيدة لفحص الشعور العام بـ«الهوية» لدى بعض الأشخاص، دعونا نركّز على الصعوبات التي يطرحها جانب واحد فقط من هذه الأرض الوعرة.

الأوتوجينيفيليا

إذا بدأنا بالاعتراف بأن مجموعة الأفراد المولودين بينيي الجنس تتموضع على أحد طرفي الطيف، وإذا أقررنا بأن هذه بكل تأكيد أكثر المشكلات جهازية، فإن الجوانب الأخرى من مسألة العبور الجندري تتموضع بوضوح على طيف يمتد من الأشخاص الذين لديهم تسويغ بيولوجي منظور لبينيتهم الجنسية، من جهة، إلى الأشخاص الذين لا إثبات لديهم على اختلافهم سوى شهادتهم، من جهة أخرى. ومسألة معرفة أين ينتهي الجزء الجهازي القابل للإثبات للعبور الجندري، وأين يبدأ الجزء «البرمجي»، هو أحد أخطر التمارين التأملية على الإطلاق. دعونا نبدأ.

نجد في مكان ما على امتداد طيفِ الأشخاص الذين ولدوا بينيي الجنس، أولئك

(262) المرجع نفسه، ص143.

الذين وُلدوا مع الكروموزومات XX أو XY التقليدية، والأعضاء التناسلية وكل شيء آخر يأتي معها، لكنهم يؤمنون – لأسباب ما زلنا بعيدين عن فهمها – أنهم يسكنون الجسد الخاطئ. يقول لهم دماغهم إنهم رجال، في حين جسدهم جسد امرأة. أو العكس. وبالإضافة إلى أننا لا نعرف ما قد يُسبب مثل الإدراك – إن وُجد –، نجهل عدد هذه الحالات.

أُثبت عدم وجود أي فارق فيزيولوجي ذي مغزى بين العابرين وغير العابرين. وعلى الرغم من وجود بعض الدراسات بشأن الاختلافات في وظائف الدماغ، لم يُثبت بعد وجود سبب جهازي واضح يدفع بعض الأشخاص للتحوّل من جنس إلى آخر، وتالياً من جسد إلى آخر.

ومع ذلك، نلاحظ وجود ضغط – كما هو الحال مع المثلية الجنسية – يدفع إلى نقل هذه المسألة من سجل البرمجي إلى سجل الجهازي. في عالم العابرين جندرياً، تركّزت هذه المسألة حول جوانب معينة. ينجم إحداها من سبب بدهي لدى كلّ من يريد تغيير جنسه، أي: الإثارة الجنسية. فقد يرغب رجل في ارتداء الملابس الداخلية النسائية أو حتى الملابس الداخلية الكاملة، لأنها تمنحه «تحريضاً» أدائياً: الجوارب، وملمس الدانتيلا، والانتهاك، والانحراف. اعتُرف منذ زمن طويل بأن جميع هذه العوامل تعمل عمل الفاعل المحرّك للشهوة الجنسية. من بين هذه المصطلحات الفنية التي تُشير إلى هذه الحفزة، ثمة مصطلح صعب، وهو: الأوتوجينيفيليا (autogynephilia).

الأوتوجينيفيليا هي الإثارة المتأتية من تخيّل المرء نفسه داخل جسد الجنس الآخر. ولعله من غير المفاجئ القول بأن هناك انقسامات حتى داخل هذا «المجتمع» ومخاوف وخلافات حول أشكال متنوعة من الأوتوجينيفيليا. إذ إن هذه الأخيرة تشتمل على الإثارة الحاصلة لدى الرجل من فكرة ارتداء ملابس امرأة، وعلى الإثارة الحاصلة من فكرة امتلاك جسد امرأة.

إحدى أكثر الاتجاهات اللافتة في النقاش الدائر حول العابرين جندرياً في السنوات الأخيرة، هو أن الأوتوجينيفيليا باتت غير مرغوب بها بشدة. بعبارة أخرى، عُدّت الفكرة القائلة بأن الأشخاص الذين يُعرّفون أنفسهم بوصفهم عابرين إنما يُموضعون أنفسهم في الحدّ الأقصى من انحراف جنسي، إنها فكرة مفعمة بالكراهية في نظر عديد من العابرين، تُعدّ إحدى الخطابات المتعددة التي ننعتها اليوم بخطاب الكراهية.

في عام 2003، نشر جون مايكل بيلي J. Michael Bailey، أستاذ علم النفس في جامعة نورث وسترن، كتاباً مليئاً بالوثائق بعنوان: The Man Who Would Be Queen: The Science of Gender-Bending and Transsexualism [الرجل الذي كان يريد أن يكون ملكة: علم تشويش الجندر والتحوّل الجنسي]. يفحص بيلي في هذا الكتاب فكرة عن التحول الجنسي مختلفة عن الفكرة السائدة حول دماغ لجنسٍ يُسجَن داخل جسد جنس آخر. وينظر على وجه التحديد في إمكان أن يؤدي كل من موضوع الرغبة الجنسية وطبيعتها دوراً محركاً في هوية العابرين جندرياً. استند بيلي إلى أعمال راي بلانشارد Ray Blanchard في المركز الكندي للإدمان والصحة العقلية، ليؤكد بأن الرغبة في تغيير الجنس قد تكون سائدة بصورة خاصة بين صنف معين من الرجال المثليين الأنثويين. وبما أنهم رجال بيولوجيين ينجذبون إلى رجال بيولوجيين آخرين، فمن المنطقي أن يتشبّه صنف معين من الرجال المثليين بالنساء، نظراً إلى أنهم لا يستطيعون جذب الغيريين (لكونهم رجالاً) ولا المثليين (لكونهم أنثويين جداً). إن من شأن هذا التشبّه أن يُضاعف احتمالات جذب الرجال الذين كانوا منذ البدء الموضوع الفعلي لرغبتهم. استخدم بلانشارد مصطلح «المتحولون جنسياً من المثليين جنسياً» في وصف هذه الفئة من الأشخاص.

درس بيلي أيضاً في كتابه صنفاً آخر من الأفراد الذين يُعرّفون أنفسهم بوصفهم عابرين جندرياً، وهم الرجال الذين كانوا دائماً غيريين جنسياً، وقد يكونون

متزوجين وآباء: الرجال الذين، عندما يُعلنون رغبتهم في أن يصيروا امرأة، يُسببون الصدمة لكلّ من حولهم. هؤلاء وجدوا أنفسهم، في خلوتهم، مثارين جنسياً بفكرة تأدية دور امرأة أو أن يصبحوا امرأة، حتى وإن لم يُبدوا أي أمارة على الأنوثة في حياتهم الخارجية. جمع بيلي كمية معتبرة من الأدلة بغية إظهار أن الصنف الأول من التحوّل الجنسي هو الأكثر انتشاراً من الصنفين الآخرين. ففي ثقافات عدة، كان هذا الصنف هو «الجواب» على الألغاز المتمثّلة في رجال أنثويين للغاية – ومثليين جنسياً في أغلب الأحيان. وعلى الرغم من أن بيلي، وكذلك بلانشارد، يعترفان بوجود اختلاف بين هذا الصنف من التحوّل الجنسي والأشخاص الذين لديهم حفزات أوتوجينيفيلية، فإنهما لا يُدينان أو ينتقدان الصنف الأول أو الصنف الثاني في أي حال من الأحوال. فكلاهما يتطلب مساواة كاملة في الحقوق الإنسانية، ورعاية ودعماً نفسياً.

لكن بيلي كان قد وضع قدمه في أرض ملغومة. ففي السنوات التي سبقت نشر الكتاب، أثمرت الجهود المتضافرة التي بذلها الناشطون العابرون جندرياً عن نزع الصفة الجنسية من قضيتهم. وهذا هو أحد الأسباب في التوقّف عن الحديث عن «المتحولين جنسياً» وتفضيل مصطلح «العابرين جندرياً» عليه. وكما كتبت أليس دريجر في كتابها في هذا الخصوص: «قبل بيلي، بذل كثير من المدافعين عن حقوق العابرين من وقتهم من أجل نزع الصفة الجنسية والمرضية عن تمثيلاتهم العامة، ذلك بهدف الحدّ من الوصم، وتحسين الوصول إلى الرعاية، وإنشاء حقوق الإنسان الأساسية للأشخاص العابرين جندرياً»[263]. ثمّ شبّهت دريجر هذا التطور بالجهود المثمرة التي بذلها الناشطون المثليون في سبيل الحصول على حقوق متساوية من خلال التركيز، ليس على ما يفعله المثليون داخل غرفة النوم، ولكن على ما يفعلوه داخل الغرف الأخرى من منازلهم.

جازف كتاب بيلي بإفشال هذه المكتسبات، فأطلق زملاؤه الأكاديميون وناشطو

(263) Dreger, *Galileo's Middle Finger*, p. 63.

العبور الجندري حملة ضده على الفور. لم يقتصر الهدف من هذه الحملة على انتقاد عمل بيلي ورفضه، لكنها دعت إلى إقالته من منصبه في جامعة نورث وسترن. كانت المستشارة العابرة جندرياً أندريا جيمس Andrea James، المقيمة في لوس أنجلوس، من بين أشد المنتقدين. واختارت الانتقام من بيلي بنشر صور لأطفاله (التقِطت عندما كانوا في المدرسة الابتدائية والإعدادية) على موقع الويب الخاص به وحدّدتها بترويسات جنسية صريحة(264). من بين الهجمات الأخرى التي يبدو أنها كانت منسّقة، تقدّم عديد من الأشخاص بالادعاء بأنهم كانوا موضوع تقديم كاذب ومحرّف في الكتاب، ليتبيّن لاحقاً أن الكتاب لم يأت على ذكرهم حتى. وسرعان ما جرى التراجع عن ترشيح الكتاب لجائزة لامدا من منظمة أدبية للمثليين. يروي صديق لبيلي أن ردود الفعل على كتابه كان لها أثر «مروّع» كبير، لدرجة أن بيلي أصبح شخصاً آخر بعد نشره(265).

حدث ذلك كلّه ببساطة لأن بيلي قد أجرى بحوثاً معمّقة للغوص والوصول إلى جذر سؤال مهم والعودة منه بإجابة تَبيّن أنها إجابة غير مرغوبة. فمنذ بداية القرن الواحد والعشرين، أصبحت الفكرة القائلة بأن الهوية العابرة للجنس هي مسألة متعة جنسية، بمنزلة إهانة شائنة وافتراء جنسي.

الفكرة الصائبة التي على الناس قولها حالياً هي أن العابرين لا يشعرون بأي إثارة جنسية من فكرة كونهم عابرين. وهم يكرهون هذه الفكرة كرهاً قاطعاً. بل ويعدّونها فكرة مضجرة وباعثة على الملل. هكذا، في نوفمبر 2018، كتبت أندريا لونج شو Andrea Long Chu مقالةً في صحيفة The New York Times تطرقت فيها إلى المرحلة الثانية من جراحة تغيير جنسها. جاء في عنوان «كاتبة المقالات والناقدة» من بروكلين: «لن يجعلني مهبلي الجديد سعيدة. وليس عليه القيام بهذه المهمة». ثمّ أوضحت قائلة: «سأحصل على مهبل في الخميس القادم.

(264) 'Criticism of a gender theory, and a scientist under siege', *The New York Times*, 21 August 2007.
(265) Dreger, *Galileo's Middle Finger*, p. 69.

ستستغرق العملية ست ساعات، والنقاهة ثلاثة أشهر على الأقل. إلى يوم مماتي، سيعدّ جسدي المهبَل جرحاً، وسيتطلب اهتماماً منتظماً ومؤلماً للمحافظة عليه. هذا ما أريد، لكن ليس هناك ما يضمن أنه سيجعلني أكثر سعادة. والواقع أنني لا أتوقع ذلك أيضاً. لكن ذلك لا يجب أن يمنعني من الحصول عليه»[266].

على الرغم من صدى أعمال آن أي. لوارنس Anne A. Lawrence (التي تُصرّح علانية أنها أوتوجينيفيلية[267]) وأعمال أخرى، أصبحت الفكرة القائلة بأن التحويل الجنسي ناتج عن الأوتوجينيفيليا، مصدرَ سخط معتبر لدى الناشطين العابرين. والسبب في هذه الانعطافة الحادة واضح، ويعيدنا إلى السؤال: جهازي أم برمجي؟ فإذا كان لدى الناس ميل جنسي خاص، حينئذ إما أن يكون هذا الميل جهازياً أو برمجياً. لكن من الصعب إقناع المجتمع بأن عليه تغيير جميع معاييره الاجتماعية واللغوية تقريباً من أجل التكيّف مع الانحرافات الجنسية. قد يتسامح المجتمع معك، وقد يتمنى لك التوفيق حتى. لكن رغبتك في ارتداء ملابس داخلية نسائية ليست سبباً لإجبار المجتمع على استخدام ضمائر جديدة جدةً تامة، ولا على تغيير الحمامات العمومية كلها، ولا على تنشئة الأطفال على الاعتقاد بعدم وجود فرق بين الجنسين أو بأن الجندر هو بناء اجتماعي.

إذا كانت الهوية العبورية مسألة تتعلق على نحو أساس بالتحفيز الجنسي فحسب، لا يجب أن تطالب بتغيير المبادئ الأساسية للمجتمع، شأنها في ذلك شأن الإثارة الجنسية المتأتية من ارتداء ملابس مطاطية. تُخاطر الأوتوجينيفيليا بأن تُقدّم الهوية العبورية بوصفها مشكلة برمجية. وهذا هو سبب الانعطافة التي نرصدها ضدها. ذلك أنها – وكما كانت الحال مع المثليين – تقع على الطرف النقيض من

(266) Andrea Long Chu, 'My new vagina won't make me happy', *The New York Times*, 24 November 2018.

(267) أنظر:

Anne A. Lawrence, *Men Trapped in Men's Bodies: Narratives of Autogynephilic Transsexualism*, Springer, 2013.

القناعة بأن العابرين جندرياً «يولدون على هذا النحو».

ما يزيد من تعقيد هذه المشكلة، هو أن سلوك كثيرين من العابرين يُثبت بما لا يدعو للشك (وهي حالة جان موريس) أن رغبتهم في أن يكونوا داخل جسد من الجنس الآخر لا يُمكن اختزاله إلى مجرد هوام أو حفزة جنسية. في النهاية، من الصعب التفكير في خيار يتطلّب التزاماً جذرياً من الفرد، أكثر من قرار الخضوع لعملية جراحية من شأنها أن تغيّر الجسد تغييراً لا رجعة فيه. لا يمكننا الادعاء بأن الرجل الذي يرغب في نزع قضيبه أو استئصاله أو قلبه نحو الداخل، إنما يأخذ هذا الأمر بخفّة. يُمكن أن يُعد إجراء كهذا بمنزلة النقيض المناقض للتسلية أو اختيار أسلوب عيش جديد. ومع ذلك، على الرغم من مدى ثبات هذه القناعة وعمقها، فهي لا تَبُتّ أن العبور الجندري هي مشكلة جهازية. ذلك أنّ مِن الناس مَن لا يتراجع أمام أي تطرف كان باسم قناعاتهم التي يعتقدون بصوابها. تتلخّص المسألة في معرفة هل يجب أن يقبل الجميع بصحّة شيء يعتقد شخص أو أكثر بأنه صحيح.

الاختراقة العبورية الجندرية

هذا النقص في الأدلة هو أحد الأسباب التي تحمل بعضهم على الحكم بأن قضية العبور الجندري قضية وهمية. وما زال هذا الارتياب موجوداً حتى في وقت يُدفع فيه المجتمع برمته إلى القبول بمطالبات العابرين كما هي.

في أبريل 2015، أصبح الرياضي الأولمبي السابق ونجم تلفزيون الواقع بروس جينر Bruce Jenner متحولاً جنسياً، وكشف عن اسمه الجديد، كايتلين جينر Caitlyn. وسرعان ما أصبحت المتحولة الأشهر في العالم. بعد ذلك بأسابيع، ظهرت على الصفحة الأولى في مجلة Vanity Fair تحت عنوان: «نادوني كايتلين». كانت الصور التي التقطتها لها آني ليبوفيتز Annie Leibovitz تُظهر أعلى ثدييها المرفوعتين بمشدّ نسائي، في حين تُغطي ساقيها المتقاطعتين الأعضاء التناسلية

الذكرية التي كان علينا أن نعرف لاحقاً أنها لم تفقدها بعد. كانت لقطات ليبوفينز تتفادى بألمعية الأجزاء الذكورية الأكثر وضوحاً في جسد جينر: الساقان متقاطعتان بغية إخفاء الانتفاخ، والذراعان مطويتان خلف الجسم بغية تصغير حجم الكتفين وعضلات البايسبس للاعبة الأولمبية السابقة. قبل ذلك بعام، كانت مجلة Time قد خصصت غلافها للممثلة العابرة لافيرن كوكس Laverne Cox تحت عنوان: «The Transgender Tipping Point: America's Next Civil Rights Frontier» [نقطة تحوّل العابرين جنسياً: الحدود المقبلة للحقوق المدنية الأمريكية](268). كان هذا الشعور بوجود حدود جديدة يتعين تخطيها يلوح في الأفق. «لقد حان دورهم الآن»(269)، هذا ما قالته روث هانت Ruth Hunt من ستونوال، عندما أطلقت هذه الأخيرة حملة بخصوص المتحولين جنسياً في العمل. لقد أُنجزت المهمة في جزء كبير منها بخصوص المثليين. ويبدو أن الجميع قد علم مدارات التقدم الحاصل على الصعيد العرقي والنسوي. ثم إن بعض الأشخاص – وخاصة من العاملين في مجالات قديمة تشهد تدهوراً – كانوا على استعداد تام لمعركة جديدة من أجل الحقوق المدنية. إذاً، كان توقيت كايتلين جينر مثالياً.

هكذا، كان عام 2015 هو العام الذي انتشرت فيه حقوق العابرين ومنظوريتهم ومطالبهم في كل شبر من المجتمع، وكانت جينر في كل مكان. فضلاً عن صور لوبوفيتز، الحاضرة في كل مكان، استبعدت جينر جميع منافِساتها في حفل لتوزيع الجوائز في أميركا. سمّتها مجلة Glamour «سيدة العام». وفي الجائزة السنوية للتميّز في الأداء الرياضي، مُنحت جائزة الشجاعة، ونالت تصفيقاً حاراً من حشد من الرياضيين، رجالاً ونساء. وشأن جميع السمات الأخرى التي ميّزت انطلاقة حركة العبور الجندري، كانت لكل لحظة ولكل صغيرة في هذه القصة القدرة على القضاء على أي شخص قد يتجرأ ويتردد في اللحاق بالحشود، أو كل شخص لا

(268) *Time magazine cover*, 9 June 2014.
(269) 'Stonewall to start campaigning for trans equality', *The Guardian*, 16 February 2015.

يُصفق تصفيقاً كافياً.

في أثناء الحفل الرياضي وبعده، تعرّض لاعب الوسط في كرة القدم الأميركية بريت فافر Brett Favre للانتقاد على وسائل التواصل الاجتماعي في البداية، ثم في بقية وسائل الإعلام، لأنه لم يُصفق لجينر بحماسٍ كاف. على الرغم من أن فافر انضمّ إلى حفل التهليل الجماعي، إلا أنه عاد وجلس في مقعده قبل أن ينتهي الجميع من التصفيق، جرى تصوير هذه اللقطة، وكانت محطّ سجال كبير. شجبت صحيفة New York Post نقص حماس الجاني في مقالة بعنوان: «بريت فافر يجعل الجائزة السنوية للتميّز في الأداء الرياضي غير مريحة للجميع»[270]. لا أحد يعرف بالتمام المدة الصائبة التهليل وقوفاً للترحيب بمنح الجائزة إلى امرأة متحوّلة. لعل قليلاً من الانتباه إلى الآداب التي كانت سائدة في المكتب السياسي السوفياتي قد يفي بالغرض. الدرس الوحيد والأكيد الذي يمكن استخلاصه هو الآتي: عندما يعمّ التصفيق لشخص متحوّل، عليك التأكد من أنك آخر من يجلس في كرسيه.

أثار السجال في شأن جينر حوادث أخرى تظل في الذاكرة، وبانتظام لا يمكن التنبؤ به. في يوليو 2015، كان المعلّق المحافظ بن شابيرو Ben Shapiro، البالغ من العمر آنذاك 31 عاماً، من بين ضيوف برنامج Dr Drew On Call على محطة HLN للنقاش حول جائزة جينز للشجاعة. كانت زوي تور Zoey Tur، التي قُدّمت بوصفها «صحفية عابرة»، تجلس إلى جانب شابيرو في الاستوديو. خلال النقاش، توجّه الدكتور درو بسؤال إلى تور عمّا إذا كانت جينر «شجاعة» بحق. قالت تور: «تقتضي الشجاعة أن نكون على طبيعتنا»، وأن نكون عابرين للجندر هو «أشجع ما يمكن القيام به».

في هذا الموضع، أبدى شابيرو رأياً مفاده أن «الاحتفاء بجينر، أدى إلى نشر الوهم بين الجمهور». سألت ضيفة أخرى غاضبة: لماذا تسميه «وهم»؟ واصل شابيرو

---

(270) *New York Post*, 16 July 2015

الشرح، وفي أثناء ذلك أشار إلى جينر بـ«هو» بدلاً من «هي». وعلى الرغم من أن جينر كانت بروس لمدة 66 عاماً، ولم تسمّ من جديد بكايتلين سوى منذ ثلاثة أشهر، تهجّم جميع من في الاستديو على شابيرو، وانتقدوه لوقاحته. «إنها »هي»، قالت بإلحاح المرأة الغاضبة: «إنك لست مهذباً مع الضمائر. ما تقوله غير محترم».

استأنف شابيرو الذي تجاهل مسألة كيف يمكن أن نكون مهذبين أو غير ذلك مع الضمائر، وقال: «انسي عدم الاحترام. فالوقائع لا تكترث لمشاعرك. تبين أن كل كروموزوم وكل خلية في جسد كايتلين جينر، ذكرية، باستثناء بعض خلايا حيواناتها المنوية. اتضح أنه لا يزال يملك جميع الزوائد الذكورية. وما يُشعر به في داخله لا صلة له بمسألة أناه البيولوجي». في هذه اللحظة، أعلن بسرعة الضيف الآخر الوحيد في الأستديو الذي أعرب عن انتقادات معتدلة لمنح الجائزة لجينر (منطلقاً من أن جينر كان غنياً وأبيض، ولم يكن واضحاً بما يكفي في الماضي بشأن قضايا الـ LGBT)، أنه لم يكن «متفقاً» مع ما قيل للتو. لعل هذه المسافة كانت ضرورية بالنظر إلى ما دار بعد ذلك.

حاول المنشّط أن يهدئ التوتر الحاصل في الأستديو، ودعا تور إلى أن تُعرض أمام الجميع عِلم اضطراب الجندر. قالت تور: «كلانا يعرف أن الكروموزومات لا تعني بالضرورة أنك ذكر أو أنثى». ثمّ وضعت يدها على كتف شابيرو وقالت له: «لذا أنت لا تعرف ما الذي تتحدث عنه. أنت غير مؤهل للحديث عن علم الوراثة». حاول شابيرو أن يسأل هل من المسموح النقاش في علم الوراثة أم لا، لكنه قوطع مرة أخرى. سأل حينها تور: «ما جيناتك، يا سيدي؟» في هذه اللحظة، وضعت تور يدها وراء رقبة شابيرو، وقالت بنبرة تهديد: «أوقف ذلك حالاً، وإلا ستعود إلى المنزل في سيارة إسعاف».

ردّ شابيرو بجرأة وقال: «ما قلتِه غير لائق في نقاش سياسي». يُفترض عادةً بالضيوف الآخرين في هذه الحالة أن يعقدوا حاجبيهم أمام التهديد بمثل هذا العنف الجسدي داخل الأستديو، لكن الديناميكيات الحالية حولت الهجوم كلّه

نحو شابيرو. قال له أحد الضيوف الذكور الآخرين: «للإنصاف، أنت تتصرف بوقاحة نوعاً ما، وهذا ليس عدلاً». ثم ندد رجل آخر بشابيرو، مشيراً اَلى أن قول «سيدي» هو «إهانة كبيرة». وبعد ذلك كله، أجازت تور لنفسها من دون أن يعترضها أحد، أن تقول لشابيرو: «تأكلك الكراهية. هذا هو أنت. أنت رجل صغير».

إلا أن شابيرو حافظ على برودة أعصابه في أثناء ذلك. فهو لم يتصيّد تور. لم يقل لها، على سبيل المثال، بعد أن هددته بإعادته إلى منزله في سيارة إسعاف: «ليس ذلك بسلوك أنثوي». ولم ينتظرها أن تضربه ليقول لها: «يا إلهي، تضربين مثل رجل!» حتى أنه لم يُشر إلى غرابة أن تحاول تور تخطئته عن طريق ذمّ طوله، بعد كل ما فعلته بجسدها. حاول شابيرو ببساطة أن يُحاجج بمعنى البيولوجيا التي ما كانت لتكون موضع سجال قبل بضع سنوات، لكنها اليوم مُدانة جداً في وسائل الإعلام ولدى المشاهير، لدرجة أنهم يُفضلون الدفاع عن تهديد بالاعتداء الجسدي على شخص لم يكن «مهذباً مع الضمائر».

تعود سرعة هذا التطور والتوافق المجمع عليه إجماعاً شبه كامل إلى أسباب عدة. من بين هذه الأسباب (والذي صُوِّر على غلاف مجلة Time) كان الخوف أو الشك أو الأمل بأن تَحلّ قضية العابرين جندرياً محلّ قضية المثليين وحقوق المرأة والحقوق المدنية، وأن كل مَن سيُلقى القبض عليه في الجانب الخاطئ من حاجز العبور الجندري في هذا العقد سوف ينظر إلى الوراء بأسف، وينظر المجتمع إليه النظرة السلبية نفسها التي نُظر بها إلى الذين عارضوا هذه الحركات فيما مضى. وبمعنى ما، هذه المقارنة صائبة. إذا لم يكن هناك اختلاف وراثي عند المثليين، فالخاصية المميّزة لهم والوحيدة هي سلوكهم. المثليون هم مثليون متى قالوا ذلك، ومتى تصرفوا على نحو يُظهرهم كذلك. بالمثل، أو ربما، العابرون جندرياً هم عابرون متى قالوا ذلك، ولا حاجة لوجود أي علامة خارجية أو واسم بيولوجي في حالتهم، مثلما لم يكن منتظراً (أو مطلوباً) في حالة المثلي.

ومع ذلك، ثمة اختلاف واحد مهم للغاية. فإذا وقعت مثلية في حب رجل، أو وقع مثلي فجأة في حب امرأة، أو إذا وقع رجل غيري أو وقعت امرأة غيرية فجأة في حب أحد أفراد جنسهما، فإن جميع المكونات البيولوجية الموجودة لا تزال في مكانها. المثلي الذي يُصبح غيرياً، أو الغيري الذي يصبح مثلياً، لا يفعل أي شيء من شأنه أن يدوم أو لا رجعة فيه. في المقابل، يقلب الفعل الجذري الذي يقترحه المدافعون عن العابرين الحياةَ قلباً غير عكوسٍ. لذا فإن الذين يبدون قلقهم أو يدعون إلى توخي الحذر أمام التحويل الجنسي، قد لا يكون لسان حالهم إنكار «وجود الأشخاص العابرين» أو الزعم بأنه يجب التعامل مع العابرين بوصفهم مواطنين من الدرجة الثانية، ناهيك (وهنا نقع على أكثر الادعاءات كارثية على الإطلاق) بحمل العابرين على الانتحار. لعلّهم ببساطة يدعون إلى توخي الحذر حيال تحوّل لم يتوضّح بعد، على الإطلاق، فضلاً عن كونه غير عكوس.

ينجم جزء كبير من القلق الذي يكظمه الناس في العلن على وجه التحديد عن هذه اللاعكوسية. فالأخبار عن زيادة عدد الأطفال الذين يقولون إنهم يعانون من اضطراب الجندر، والأدلة المتنامية على «أثر المجموعة» عندما تبدأ مثل هذه الادعاءات بالازدياد (أي، بمجرد أن يدّعي عدد من الأطفال في المدرسة أنهم «في الجسد الخطأ»، تزداد الادعاءات المماثلة زيادة كبيرة)، إنما يعني أن الآباء والآخرين ليسوا على خطأ من الارتياب في وجود ميل جديد يتعزز يوماً بعد يوم القلق بشأنه. إن الأسئلة المتعلقة بالعمر الذي يجب أن يُسمح فيه للأشخاص الذين يعتقدون بأنهم في الجسد الخطأ بالحصول على الأدوية أو الجراحة، هي أسئلة تستحق نقاشاً عميقاً، خصوصاً أن هناك وعياً متزايداً بأن بعض الأطفال، بعد تشخيص وجود اضطراب الجندر لديهم، يخرجون منه لاحقاً – في معظم الحالات – ويصبحون مثليين. وإلا فنحن لا نسهم سوى في مراكمة المشكلات بعضها فوق بعض. بالطبع، لا أحد يود تذكر زمنٍ كان يُقال فيه إلى المثليين «إنها مجرّد مرحلة»، لكن ماذا عن الهوية العبورية (حتى بالنسبة إلى فئة قليلة) التي قد تكون مجرّد مرحلة؟

وماذا لو أدركنا ذلك بعد فوات الأوان؟ لا تنطوي هذه الأسئلة على «رهاب العبور الجندري»، بل إن همّها الأساس هو الطفل، وإن من شأن خلع الطابع المرضي على هذا الانهمام أن جعل هذه المشكلة الحساسة جداً أقبح مما يجب أن تكون.

قصة شاب

بما أني أتطرق الآن إلى موضوع حسّاس، غيّرت اسم الشخص الذي سأصفه. دعونا نسميه «جيمس». الشخص موجود في الواقع، وحالته شائعة، وهو الصنف من الأفراد الذي على قصته أن تُشكّل جزءاً من المكونات الأساسية في أي نقاش مجتمعي دائر اليوم.

يبلغ جيمس عشرين عاماً من العمر. وُلد وترعرع في المملكة المتحدة. في متصف سن المراهقة، وجد نفسه منجذباً إلى مشهد المثليين، وخصوصاً إلى عالَمِ مشتهيي لبسة الجنس الآخر. كان لديه كثير من الأصدقاء المثليين، ومنذ حوالي 16 عاماً بدأ يُثابر على ارتياد نوادي المغازلة. كان يُحب الناس فيها، ويُحب المشهد وحرارته. بدا له الأشخاص في هذه النوادي مثل «جيل تائه» يلتّم على نفسه في هذا العالم لأنه يخشى أن يتبرأ منه والداه في حال اكتشافهما انجذابه إلى الرجال أو ولعه بمشتهيي لبسة الجنس الآخر. نتيجة لذلك، شكّل هؤلاء الأشخاص المجتمعون من أجل التسلية «ما يُشبه العائلة». وفي النهاية، أخذ جيمس نفسُه يقوم ببعض المغازلة. وفي هذا الوقت أيضاً، أصبح صديقاً مقرباً من شخص في أوائل العشرينيات، وهو رجل تحوّل إلى امرأة، وعلى ما يبدو كان شخصاً رائعاً في نظر جيمس.

في حوالي سن الثامنة عشرة، ذهب جيمس إلى طبيب عائلته، واستجمع شجاعته ليقول له: «أعتقد أنني في الجسد الخطأ. أعتقد أنني امرأة». ثم بعد ذلك، ولمدة عام ونصف، استشار أطباء عدة، محاولاً العثور على طبيب يفهم عليه الواقع الذي كان

بعيشه على نحو أفضل من طبيب عائلته. أخيراً، في سن التاسعة عشرة، أُرسل إلى خدمة مختصة بالتحليل النفسي الجنسي في مانشستر، واستغرقت جلسته ثلاث ساعات ونصف الساعة. سُئل عن حياته الجنسية، وعلاقته بوالديه، وكثير غير ذلك. وقد صُدم بعض الشيء بحميمية الأسئلة. لكن الخلاصة التي انتهى إليها الاستشاري كانت قاطعة: «أنت عابر». لذا أُرسل إلى عيادة الهوية الجنسية في تشارينغ كروس بلندن.

كانت غرفة الانتظار زاهية بالألوان، ومراجعو العيادة متنوعين، من «الرجل المؤنث جداً إلى الرجل الخشن الذي يرتدي شعراً مستعاراً». بعد ستة أشهر من ذلك، التقى حوالي عشرون منهم في ورشة عمل. شرح لهم الاستشاري رؤية المحللين النفسيين في «دائرة الخدمات الصحية الوطنية» حول ما أوصلهم إلى هذه الغرفة. قيل لهم (كما قال الدكتور بينجامين لموريس): «نحن نعلم أن أساس هذه المشكلة في الدماغ. لا يمكننا أن نجري عملية في الدماغ، لذلك نبذل قصارى جهدنا لكي يتوافق الجسم مع الدماغ». هكذا قدَّمت «دائرة الخدمات الصحية الوطنية» بداية تكفّلها بحالة جيمس ورفاقه. بعد ستة أشهر من هذه الورشة، أجرى جيمس مقابلته الفردية الأولى، والتي تناولت كلّ شاردة وواردة في حياته. سُئل عن علاقاته وعمله. من الواضح أن الأمر كان يقتضي استقراراً شاملاً في حياة الشخص. راجع جيمس أخصائي الغدد الصماء، وجرى تحديد كمية هرمون التستوستيرون. كانت أرقام هذا الهرمون منخفضة (تباينت هذه الأرقام في تحليلات أخرى)، الأمر الذي أُخذ دليلاً على وجود مشكلة فعلية في الهوية العبورية، ولا بد من معالجتها. بالنظر إلى الوراء، عبّر جيمس عن صدمته بعدد من التفصيلات. منها التصديق السهل لكلّ ما كان يصفه ويشعر به. بالإضافة إلى أمر آخر: «لقد كان كل شيء لطيفاً للغاية»، يقول جيمس اليوم، «لم يكن هناك أي ضغط»، ولا أي «استجواب محكم».

كان العيش لمدة عامين كفرد من الجنس الآخر بمنزلة دليل على أن المرشّح العابر

يستطيع الآن أن ينتقل إلى المرحلة التالية. وبما أن اجتماعات «دائرة الخدمات الصحية الوطنية» كانت منتظمة كل ستة أشهر، لم يكن جيمس قد اشترك إلا بعدد القليل منها عندما أنهى عاميه. في هذه المرحلة، طُرحت مسألة العلاج بالهرمونات. وكما قال جيمس: «إن صبرت ولعبت اللعبة، أسهل ما يكون أن تحصل على الهرمونات. يكفي لذلك أن تحضر مرتين في السنة وأن تنتظر». وبالطبع، يجري تبادل المعلومات بنشاط داخل المجموعات حول كيفية الوصول إلى المرحلة التالية.

أخذ جيمس حاثات طمثية وُصِفت له في جرعات يومية وعلى شكل حقن. ما رواه عن هذا الإجراء، وغيره من الإجراءات، من شأنه أن يُكذب الادعاءات بعدم وجود فروقات جوهرية بين الجنسين. والواقع أن وصف آثار الحاثات الطمثية على الجسد الذكوري كان ليُعدّ متحيزاً جنسياً في سياقات مختلفة كلياً. وتجربة جيمس في هذا الخصوص تُشبه إلى حدّ كبير تجارب كثيرة لآخرين تناولوا هذه الحاثات ومضادات هرمون الذكّار (حاصرات التستوستيرون). من بين هذه الآثار، أصبح جيمس أكثر إرهافاً من قبل: «أصبحت كثير البكاء». ثم بدأت بشرته تنعم، ودهون جسده تتوزع على نحو. لكنه رصد أموراً أخرى. لقد تغيّرَ ذوقه بالأفلام والموسيقى – وكذلك بما كان يحبه في السرير.

تناول جيمس الحاثات الطمثية لأكثر من عام. وبما أن نموّه كان متأخراً، جرى التساؤل هل أكمل مرحلة البلوغ عندما بدأ بتناول الهرمون أم لا. عقد جيمس اجتماعين أيضاً – أحدهما عبر سكايب والآخر شخصياً – حول إمكان الانتقال إلى المرحلة التالية. كان يعلم أن قائمة الانتظار تعني أن «دائرة الخدمات الصحية الوطنية» لا تستطيع التعجيل بإجراء هذه المرحلة، لذلك قال إنه أثار معهم إمكان الذهاب لإجراء جراحة تغيير الجنس في الخارج. أوصاه بعضهم بعيادة في مربلة في كوستا ديل سول، وأكّد أن « دائرة الخدمات الصحية الوطنية» لم تؤيّده أو تحاول إيقافه عندما قال إنه كان يُفكر في هذا الخيار. ثم حصل على معلومات عن تكاليف

الإجراءات والأدوية وحتى الرحلات الجوية. «لقد أوشكت على فعل ذلك»، أكّد جيمس، «وأنا سعيد جداً الآن أنني لم أفعل».

حتى في الفترة التي كان يتناول فيها العلاج الهرموني، ويتطلع إلى الانتقال إلى المرحلة التالية من التحوّل، بدأ عدد من التفصيلات يشغل باله. إلى الآن، لم يسمع جيمس إلا صوتاً واحداً. فأصدقاؤه في المشهد العبوري أظهروا له طريقاً يستطيع أن يسلكه هو أيضاً، و«دائرة الخدمات الصحية الوطنية» لم تُشكك لو للحظة في سداد مساره، متعاملين معه كما لو كان مريضاً يحتاج إلى الشفاء. لكن جيمس بدأ البحث على الإنترنت، ووقع على وجهات نظر معاكسة، واكتشف بفضل وسائل الإعلام البديلة نجوم YouTube، وإفادات أخرى شككت في سداد قراره، بما في ذلك مِن أشخاص أصغر سناً منه وأكثر دراية مما كان يتخيّله. ثمّ تنازعه إيمانه، هو الذي نشأ مسيحياً ليبيرالياً، وأعاد إلى ذاكرته الأسئلة التي تتركّز حول الله والخلق. «إن لم يكن الله موجوداً، يعني ذلك أن جسدي ليس مخلوقاً». ثمّ توصّل إلى الاعتقاد بأن الأشخاص الذين يقولون إنهم ولدوا في الجسد الخطأ، لديهم رؤية عن الأشياء متمركزة حول ذاتهم، كما لو أن الأمر كان «تحدّياً وُجّه ضدهم». وبما أن الكون بأكمله جاء نتيجة مصادفة، «لماذا أفرض على نفسي كل هذا الجهد لكي أغيّر نفسي؟» وبدأ يعتقد بأن الإجابة عن بعض الأسئلة تنتمي إلى علم النفس، وليس من اختصاص الجراحة. بدقة أكبر، سأل نفسه: «ما الذي عليّ فعله لأرضى بجسدي، وليس لأغيّره؟» ما من محلّل نفسي مِن الذين تحدّث إليهم دفعه إلى مثل هذه الأسئلة: «لم أشجَع على التعمّق بجدية في هذا الضرب من الأسئلة».

رصد جيمس أمراً آخر دفعه إلى التساؤل هل هذه العملية الجراحية هي ما يرغب فيه حقاً. فكما كان هو والآخرون في محيطه يعرفون جيداً، إنّ أي شخص يأخذ الهرمونات لسنوات سيُلاحظ آثاراً غير عكوسة. تطرأ هذه الآثار بعد حوالي عامين من العلاج بمضادات الذكّار. وما إن اقترب جيمس من سنته الثانية في تناول هذه المضادات، حتى بدأ يشعر بالعصبية. كانت قائمة الانتظار لدى «دائرة

الخدمات الصحية الوطنية» طويلة، وكان على جيمس أن ينتظر وقتاً طويلاً لكي يحظى باستشارة طبيب. كان عليه أن ينتظر ستة أشهر أخرى. لكن جيمس شعر أن الأمر ملح ولا يحتمل الانتظار. فهو لم يواجه تغييرات جسدية قد تصبح دائمة فحسب، بل واجهته أيضاً وقائع بيولوجية. يُصاب معظم الرجال الذين يتناولون مضادات الذكُار بالعقم، ويُصبحون غير قادرين على الانجاب. لم يكن جيمس يشكّ برغبته في التحوّل إلى امرأة فحسب، بل كان يتساءل أيضاً هل حقاً لا يرغب في أن يكون أباً. كان لديه صديق لم يقتنع يوماً بأن جيمس يمكن أن يكون امرأة بالفعل، لكنه مقتنع بأن جيمس كان مثلياً، مثله. حتى جيمس نفسه، شعر بأن الهرمونات كانت تقوده إلى «عتبة يكون التغيير فيها نهائياً».

هكذا، وبعد النظر في جميع هذه الاعتبارات، بنفسه هو ومن دون أي دعم أو نصيحة من الأطباء الذين وضعوه تحت العلاج الهرموني، اتخذ جيمس قراراً بإيقاف العلاج. وصف هذا القرار باللحظة «المؤثرة جداً». كانت التغييرات الناجمة عن إيقاف العلاج «أشد بما لا يُقارن» من التغييرات التي طرأت عندما بدأ بتناول الهرمونات الأنثوية. عانى من تقلبات مزاجية حادة، وفي حين جعله تناول حاثات الطمث كثيرَ البكاء وغيّر ذائقته السينمائية، أحدثت عودة التستوستيرون إلى جسده التأثير «المتحيز جنسياً» نفسه، ورصد جيمس كثيراً من السلوكات المنمّطة. فأصبح أكثر غضباً وعدوانية و– نعم – أكثر استثارة جنسياً.

اليوم، توقف جيمس عن تناول الهرمونات لأكثر من عامين. لكن آثار «تحوّله» الموقت بين الجنسين ما زالت موجودة. يعتقد بأنه «على ما يرام» نوعاً ما، لكن قد يظل عقيماً إلى الأبد. الأمر الأشد إلحاحاً هو الثدييان اللذان ما زالا مرئيين، أو ما يسميه «الأنسجة الثديية». عندما نسأله عن ذلك، يرفع بخجل الجزء العلوي من قميصه من جهة واحدة. ما نراه هو شيء أشبه بالشريط. وبالفعل هناك شريط ضاغط يضعه جيمس في محاولة لإخفاء هذا الانتفاخ الثديي. كان يرتدي على الدوام ملابس فضفاضة، ومن الواضح أنه كان يتجنب كلّ لباس ضيّق جداً.

يعتقد جيمس بأن تدخلاً جراحياً لإزالة النسيج الثديي المتبقي سيكون ضرورياً ولا بد منه.

أتاح الوقت القليل الذي يفصل جيمس عن التجربة التي عاشها التفكيرَ الملائم في التغييرات التي طرأت في السنوات الأخيرة. يقول: «أعتقد أن التحول الجنسي موجود». وما أقنعه بذلك هو العدد الكبير للمرتادين الذين يسلكون هذا الدرب. لكنه يقول أيضاً بأن المسألة برمتها لم تُفحص أو تُحلّل بصرامة كافية. فالإجراءات الطبية ظلّت محصورة برمتها داخل تفصيلات صغيرة. وخير مثال على ذلك هذا الجواب من أحد المحللين النفسين: «إذاً، أنت لا تحب لعبة الركبي، هذا مثير للاهتمام!». وعندما قال للمحلل النفسي في مانشستر إنه لم يكن منسجماً مع جميع صبيان مدرسته الابتدائية، ردّ عليه: «آها!». وهو الرد نفسه الذي تلقّاه عندما قال للمحلل إنه كان يرتدي ثوب بوكاهونتاس الذي يعود لأخته.

يقول جيمس: «كنت دائماً أنظر بعين الريبة إلى أن «دائرة الخدمات الصحية الوطنية» لم تفكّر في خيارات أوسع». فما إن ذهب لاستشارة الخبراء، شعر وكأنه على سجادة طائرة». كانت «دائرة الخدمات الصحية الوطنية» مزدحمة وتعمل أكثر من قدرتها، مع طبيبين فقط في المملكة المتحدة يمارسان جراحة تغيير الجنس، أحدهما بدوام كامل والآخر بدوام جزئي. لكن الأطباء كانوا دائماً يعدون بأن «دائرة الخدمات الصحية الوطنية»، مع وجود حوالي 3000 شخص يتلقون العلاج و5000 آخرين على قائمة الانتظار في المملكة المتحدة فقط، تبذل ما في وسعها لتكوين عدد كاف من الممارسين لتلبية الطلب. مِن هذه القائمة الطويلة مَن سيتراجع، ربما، كما فعل جيمس، عندما ستذهب بهم السجادة الطائرة إلى غرفة العمليات. لكن حتى في هذه الحالة، ليست الإجراءات من دون ثمن، كما تؤكّد ملابس جيمس الفضفاضة.

جيمس مثلي الجنس – «مثلي جداً»، كما أعلن في مرحلة معينة. وكان دائم الشعور بأنه أشبه بـ«حرباء اجتماعية». «لا شك في أن الأشخاص الذين أمضيت

وقتاً معهم قد أسهموا في ذلك». ثم أضاف: «لا أريد أن أكون واحداً من هؤلاء الأشخاص الذين يقولون بأن العابرين يتمددون ويتكاثرون». «هذا الادعاء قريب جداً، في رأيه، من القناعة القديمة بأن المثلية معدية». ويتابع القول: «لكن هناك أمر مريب»، شيء من قبيل: «صديقي العابر الرائع حقاً». ومثل الجميع، يشعر جيمس أنه عاجز عن تحديد طبيعة الهوية العبورية تحديداً نهائياً: «من المؤكّد أننا بحاجة إلى معرفة المزيد حول المسألة». على سبيل المثال: لماذا لا تتغير معدلات الانتحار بين العابرين قبل العملية وبعدها؟ ويقول: «إننا نمضي بسرعة كبيرة»، شيء أشبه بالمنعكس التلقائي ناجم عن ذعرنا أن نكون في الجانب الخطأ من القصة. لكن جيمس مدرك أن الأمر كان يمكن أن يكون أسوأ. فبالنظر إلى مدى اقترابه من الجراحة، يقول جيمس لنفسه: «أخاف عندما أفكر في الوضع الذي كان يمكن أن أكون فيه الآن. لا أعرف حتى إن كنت سأكون هنا الآن».

عندما أسمع لقصة جيمس – التي تشبه قصصاً لأشخاص كثيرين – فإن أحد أبرز ما يقفز أمام عينينا هو كثرة الخبراء، وضآلة معرفتنا بالموضوع، ومدى السرعة التي يبدو أننا نصل بها إلى حل المشكلات، في حين تبقى الأسئلة المصروحة من دون إجابة في معظمها. هناك ظاهرة أخرى لا بد أن تلفت انتباهنا، وهي الطريقة التي تواصل بها القضية العبورية تلوين كثير من الموضوعات الأخرى والتي هي مثار سجال في عصرنا.

يدافع الناشطون المثليون منذ سنوات عن رؤية مفادها أن أي شخص يستطيع أن يكون مثلياً، وأن الرؤية التقليدية عن المثليين بوصفهم رجالاً مخنثين أو نساء مسترجلات هي رؤية جاهلة عفا عليها الزمان، فضلاً عن كونها مترعة بالأحكام المسبقة والكارهة للمثليين. وبعد ذلك، تأتي مطالبة حقوقية أخرى، تخص العبوريين، لكنها قريبة جداً من مطالبات المثليين لدرجة أنها يمكن أن تتشارك معها الصديرة نفسها. إلا أن المسألة العبورية تقترح أمراً آخر أكثر تقويضاً من مجرّد فكرة أن بعض الخصائص السلوكية سمة مميزة للمثليين. ذلك أنها لا تكتفي

بالقول بأن الأفراد المخنثين بعض الشيء أو الذين لا يحبون الرياضات الملائمة لهم هم مثليون، لكن يُحتمل أيضاً أنهم يسكنون الجسد الخطأ، وهم في الواقع رجالاً (أو نساء) في دخيلتهم. لكن من الغريب ألا يتصدى إلا عدد قليل من المثليين والمثليات لبعضٍ من الادعاءات المتأصلة في التيار العبوري، نظراً للتلميحات المتضمنة فيها. فمجموعات المثليين متفقة عموماً حول القول بأن حقوق العابرين تتقاسم معهم تاريخاً مشتركاً، وأنها تشكّل جزءاً من السلسلة المستمرة نفسها، وتالياً الصديرة نفسها. ومع ذلك، ثمة ادعاءات عدّة يدافع عنها الناشطون العبوريون، وتتعارض مع مزاعم حركة المثليين، بل تقوّضها في أسسها. «بعض الأشخاص مثليون. أو ربما عابرون. أو العكس. عليك التكيّف مع ذلك».

لا يقتصر هذا التقويض على مطالب المثليين وحدهم. فالعابرون يؤكّدون أهداف حركتهم الخاصة بأكثر ما يمكن من رعونة، ويتسببون بسيل من التناقضات المنطقية، بدلاً من «تحرير تقاطعات الاضطهاد»، مثلما ادعى التقاطعيون.

في كلية ويليسلي في عام 2014، رُصدت حالة مذهلة لطالبة أعلنت بعد وصولها إلى هذه الكلية المكوّنة من إناث فقط أنها «ليست ثنائية الجندر، وهي ذكورية نوعاً ما». أرادت أن تدعوها الأخريات «تيموثي»، وانتظرت منهن أن ينادوها بضمائر مذكرة. وعلى الرغم من أنها تقدمت للالتحاق بالجامعة الأم لهيلاري كلينتون بوصفها فتاة، إلا أن الطالبات الأخريات لم يواجهن مشكلات خاصة مع هذا الفرد الذي يقدم نفسه بوصفه رجلاً. على الأقل حتى اللحظة التي أعلن فيها تيموثي أنه يريد الترشح لمنصب منسق الشؤون المتعددة الثقافات: عمل هذا المنسق هو تعزيز «ثقافة التنوع» في الحرم الجامعي. قد يُخيل أن يكون لدى هذا الشخص الذي «ليس ثنائي الجندر، وذكوري إلى حد ما»، كل ما يؤهله لشغل هذا المنصب على نحو أفضل. إلا أن طالبات ويليسلي قدرن على ما يبدو أن وجود تيموثي في مثل هذا المنصب أمرٌ من شأنه أن يُديم النظام الأبوي في الكلية...

أطلقت حملة للامتناع عن التصويت. قالت إحدى الطالبات التي يقفن وراء «حملة الامتناع عن التصويت» هذه: «اعتقدت أنه سيقوم بعمل رائع، لكنني وجدت أنه من غير الملائم أن يشغل رجل أبيض هذا المنصب»(271).

بمعنى ما، توالى تيموثي على جميع المواقع في سلّم الاضطهاد، من المرأة إلى العابر ثم من الرجل الأبيض، وتالياً إلى شخصنة الأبوية البيضاء. من الأقلية المضطهَدة إلى المضطهِد. فإذا كان من يَعبر من كونه امرأة إلى كونه رجلاً يمكن أن يتسبب باصطدام، مَن يعبر من كونه رجل إلى كونه امرأة يتسبب باصطدام آخر – والواضح أن الاصطدام هنا يحدث مع أشخاص وُلدوا نساءً. وفي هذا الموضع، بخلاف أولئك الذين يجمعهم الحرف G في الصديرة LGBT، فإن النساء اللواتي رأين حديقتهن تُداس، لم يحتفظن بالصمت. والواقع أن هذا الجزء من التحالف التقاطعي الجديد هو الذي حاد عن السكة بأقصى سرعة ممكنة.

سلك التعثر النسوي

تشترك النساء اللواتي تعثّرن بالألغام العبورية في السنوات الأخيرة ببعض النقاط، منها أنهن جميعاً كنّ في طليعة نضالات المرأة. وهذا أمرٌ منطقي. ذلك أن قسماً لا بأس به من الحملات الحقوقية الحديثة يعتمد على أشخاص يرمون إلى إثبات أن قضيتهم مشكلة -بهازية. لكن الناشطين العابرين يدفعون الحركات الأخرى إلى المضي في الاتجاه المعاكس تماماً. لا يستطيع هؤلاء الناشطون، العازمون على المحاججة بأن الظاهرة العبورية هي مشكلة جهازية، الفوز بقضيتهم ما لم يُقنعوا الجمهور بأن المسألة الأنثوية هي مسألة برمجية. لكن النسويات لسنّ جميعهن على استعداد لتقديم هذا التنازل.

كانت الصحفية البريطانية جولي بيندل Julie Bindel واحدة من أكثر النسويات التزاماً ونشاطاً في بريطانيا وأماكن أخرى. وبوصفها إحدى مؤسِّسات منظمة

(271) 'When women become men at Wellesley', *The New York Times*, 15 October 2014.

«العدالة من أجل النساء»، قامت بحملة منذ 1991 لمساعدة النساء اللائي تعرض للسجن أو التهديد بالسجن بسبب قتلهن شركائهن الذكور العنيفين. وبصفتها مثلية ونسوية منذ زمن طويل يعود إلى ما قبل الموجة الثالثة والموجة الرابعة، لم تُخف بيندل وجهات نظرها. في بداية هذا القرن، بدأت بيندل تلاحظ أن الأشخاص المولودين رجالا، ويُطالبون اليوم بأن يُنظر إليهم، ويعاملوا بوصفهم نساءً (سواء خضعوا لجراحة أم لا) أخذوا يملؤون المجال الذي كانت تعمل فيه - بما في ذلك في المناطق الأكثر حساسية طبعاً.

في عام 2002، ثارت ثائرة بيندل بعد سماعها أخباراً من كندا، قضت فيها محكمة فانكوفر لحقوق الإنسان بأن كيمبرلي نيكسون Kimberley Nixon، المتحولة الجنسية من ذكر إلى أنثى، تستطيع التدرب لتعمل مستشارة لضحايا الاغتصاب من النساء. ورأى الحكم أن رفض جمعية «فانكوفر للإغاثة من الاغتصاب» السماح لنيكسون بالتدرب على هذا الدور يُشكل انتهاكاً لحقوق الإنسان. منحت المحكمة نيكسون 7500 دولاراً تعويضاً لـ«كرامتها» المهدورة، وهو أعلى مبلغ منحته المحكمة على الإطلاق. ألغت المحكمة العليا لكولومبيا البريطانية في فانكوفر القرار في وقت لاحق. لكن بالنسبة إلى نسوية من جيل بيندل، في حالة تقديم المشورة بشأن الاغتصاب، ألا يمكن للمرأة أن تتأكد من أن الأنثى التي تساعدها هي في الواقع أنثى، هي مسألة خطيرة بعواقب كارثية. أطلقت بيندل العنان لكلماتها على صفحات صحيفة The Guardian دفاعاً عن أخوات «الإغاثة من الاغتصاب» اللائي «لا يعتقدن بأن مهبلاً جرى تركيبه جراحياً وأثداءً منتفخة بالهرمونات تجعل من الشخص امرأة». ثم تحمّست قائلة: «في الوقت الحالي على الأقل، ينص القانون على أن المرأة، لكي تعاني من التمييز بوصفها امرأة، يجب أن تكون، اسمعوا جيداً، امرأة». قد تكون بيندل على دراية بالمحنة التي تنتظرها، أو لا تكون. لكن في بداية الألفية الثالثة، ما زلنا نقع على بعض المجازفين ممن يضعون أقدامهم بلامبالاة على الأرض الملغومة. وهو أمر لن يستمر طويلاً. في جميع

الأحوال، اختتمت بيندل تقريعها بأناقة: «لا مشكلة عندي في أن يتخلص الرجال من أعضائهم التناسلية، لكن ذلك لا يجعل منهم نساء، مثلما لا يجعل من المرأة رجلاً أن تحشو داخل بنطالها طرف خرطوم لمكنسة كهربائية»[272].

بسبب هذه العبارة على وجه الخصوص، وبسبب المقالة بمجملها، كان على بيندل أن تدفع الثمن غالياً بقية حياتها. في المرحلة الأولى، غرقت الصحيفة في بحر من الشكاوى، واعتذرت بيندل نفسها بسرعة عن لهجة المقالة. وفي السنوات اللاحقة، وجدت صعوبة في التحدّث علناً لكثرة المبادرات الرامية لإلغاء محاضراتها ومشاركاتها في النقاشات. وعندما كانت تُدعى للإدلاء بدلوها، غالباً ما تمنعها التظاهرات العنيفة والاحتجاجات المنظّمة لهذا الغرض. بعد عقد من الإدلاء بهذه الأقوال، كان عليها أن تلغي مشاركتها في طاولة مستديرة بجامعة مانشستر إثر الإبلاغ عن عشرات التهديدات بالاغتصاب والقتل.

قد تكون بيندل واحدة من أوائل النسويات اليساريات اللائي تعثرن باللغم العبوري، وتحمّلن تبعاته، لكنها ليست الأخيرة بكل تأكيد. في يناير 2013، نشرت سوزان مور Suzanne Moore مقالة قوية في مجلة New Statesman اليسارية تناولت فيه قوة الغضب الأنثوي. عالجت مقالتها مظالم عدة ارتكِبت في حق النساء، من التعالي على البرلمانيات إلى المواقف تجاه الإجهاض وتأكيدها أن 65 في المئة من تخفيض عدد الموظفين في القطاع العام أصاب النساء. لسوء حظ مور، وسط هذه العاصفة المدعومة بالأدلة، دسّت الملاحظة الآتية: «نلوم أنفسنا لأننا لسنا أكثر سعادة، ولأننا لا نحظى بالحب المناسب، ولأننا لا نملك الجسم المثالي – جسم متحوّل جنسي برازيلي»[273]. إن كان لمقالةٍ أن تصب الزيت على النار، فهي مقالة مور هذه.

---

(272) الفيديو (وهو واحد من سلسلة) متاح على youtube، من إنتاج شركة *Soyheat* (نُشر في 23 سبتمبر 2016).

(273) أنظر:

Andy Ngo, 'Would you like some strife with your meal?', *Wall Street Journal*, 31 May 2018.

من الواضح أن مور ارتكبت خطأً جسيماً، في العالم الواقعي والافتراضي معاً. من المفروغ منه أن «رهاب العبورية» كان من بين الاتهامات التي تعرضت لها. لم تساعد مور نفسها عندما أجابت بأنها، من بين أمور أخرى، لا تكترث لهذه الكلمة، الأمر الذي زاد من غضب الناشطين الذين اعتادوا على إسكات النساء بهذا الاتهام. ومع ذلك، كان رد الفعل صاخباً وغاضباً جداً، حتى أن مور، وفي غضون ساعات، أجبرت على «توضيح» آرائها وطمأنة قرائها أنها ليست تلك الشخصية الحاقدة التي جاءت في الأوصاف التي أطلقت عنها[274]. في البارحة فقط، كانت مور نسوية تقدمية يسارية، والآن غدت في معسكر الرجعيين المتعصبين المفعمين بالكراهية. ثم أعلنت مور، بعد مضايقات من عابرين وآخرين اتهموها بأقذع الأوصاف المتطرفة، أنها تغادر وسائل التواصل الاجتماعي لتجنب «المتنمرين» و«المتصيدين».

كانت جولي بورشيل Julie Burchill واحدة من الأشخاص الذين لم يتمكنوا من هضم ذلك كله. كانت بورشيل الطفلة المزعجة في صحافة الثمانينيات، تميزت بسمعة جيدة بوصفها كاتبة أدبية ومجادلة لافتة. وفق وصفها الخاص، كان مشهد صديقتها سوزان مور، وهي تتعرض للتنمر، ولخطر فقدان وظيفتها، ومصدر رزقها بسبب إحالة عابرة على العابرين، أكثر مما يمكنها أن تتحمّله.

وفقاً لبورشيل، لم تكن مور مجرد صديقة، بل واحدة من أندر النساء اللائي تحدرن من الطبقة العاملة، ونجحن في الصحافة. لم تكن بورشيل لتسمح أن نُجهز على «صديقتها» من دون أن تأتي هي في عونها. لكن بورشيل قررت أن تخمد عمود الدخان الذي تسببت به مور بسحابة نووية.

قدّمت بورشيل حججاً عدة، من بينها أن منتقدي مور تهجّموا عليها لأنها امرأة. وترى أن النساء مثلها ومثل مور عشن حياتهن ووجودهن بوصفهن نساء.

(274) Robby Soave, 'White-owned restaurants shamed for serving ethnic food: it's cultural appropriation', *Reason*, 23 May 2017.

لقد عانين من آلام الدورة الشهرية، ورفضن العروضات الجنسية من الغرباء، وخضن تجربة الولادة، وواجهن سن اليأس، ويتذوقن الآن متعة العلاج بالهرمونات البديلة. وبعد ذلك كلّه، تأتي إليهن «قضبان داخل ملابس نساء» و«عصابة تبلل فراشها وترتدي شعراً مستعاراً رديئاً» لتلقي عليهن الدروس وتشتمهن في العلن.

كان رد الفعل فورياً. صرّحت وزيرة الداخلية البريطانية المسؤولة عن «المساواة» لين فيذرستون Lynne Featherstone، أن «النقد اللاذع الذي وجهته بورشيل ضد مجتمع العابرين جندرياً» لم يكن «مثيراً للاشمئزاز» و«قيئاً متعصباً» فحسب، بل فعلةٌ «على صحيفة The Observer أن تطردها من أجله». وَدَعت الوزيرة أيضاً إلى محاسبة محرر الصحيفة وإقالته من منصبه. بعد هذا الهجوم، خضعت الصحيفة، وقدمت اعتذارها عن العمود، وسحبته من موقعها على الإنترنت بسرعة. كتب محرر الصحيفة جون موهولاند John Mulholland في الاعتذار الذي قدمه لتوضيح سبب اختيار الصحيفة سحب المقالة: «لقد أخطأنا. ونظراً للأذى الذي تسببنا فيه، أقدم اعتذاري، واتخذْتُ قراراً بسحب المقالة». هذا الاعتذار بهذه الصيغة أمرٌ لم يُسمع به من قبل. بعد خمس سنوات، عدّت بورشيل نفسها أن هذه الحلقة هي أحد الأسباب التي أدت إلى غرق حياتها المهنية الصحفية «في مستنقع من المشكلات»[275]. في الوقت نفسه، على الرغم من أن المرأة التي دعت إلى إقالتها – لين فيذرستون – فقدت مقعدها في البرلمان، إلا أنها نالت على الفور وظيفة سهلة في مجلس اللوردات مدى الحياة.

الشخص التالي الذي عانى من هذا الانهيار الأرضي هو أشهر نسوية حديثة على الإطلاق. لم تعالج مؤلفة كتاب The Female Eunuch [المرأة المخصية] القضية العبورية بالعمق إلا مرة واحدة في حياتها. في كتابها الموسوم The Whole Woman [المرأة الكاملة] (1999)، كرست جيرمين غرير Germaine Greer

(275) Julie Burchill, 'The lost joy of swearing', *The Spectator*, 3 November 2018.

فصلاً من عشر صفحات (بعنوان Pantomime Dames «السيدات الإيمائيات») لإيضاح تأكيدها أن الأشخاص الذين ولدوا رجالاً لا يمكن تصنيفهم نساء. وكذلك أشارت عرضاً إلى «التشويه» الذي «يختاره المتحولون جنسياً»، على الرغم من أن هذا الموضوع ليس محوراً أساساً في كتابها. انتقدت غرير واقع أن عدداً من المتحولين جنسياً من الذكورة إلى الأنوثة يختارون شكلاً لأجسامهم «محافظاً للغاية»، الأمر الذي يُعزز في نظرها الصورة النمطية. واستدركت بالقول إنها على دراية بأن الإجراءات الجراحية التي غالباً ما يجري التطرق إليها بكثيرٍ من الاستخفاف، هي إجراءات ليست بسيطة. عام 1977، قالت عيادة الجندر في جامعة ستانفورد إن ما لا يقل عن 50 في المئة من المرضى عانوا من المضاعفات، الأمر الذي يؤدي في كثير من الأحيان إلى علاقة بين الجراحين والمرضى تدوم طوال الحياة. إضافة إلى ذلك، وضعت غرير إصبعها على أمرٍ نادراً ما جرى التطرق إليه، وأثار قلق آباء الأطفال الذي يدعون أنهم يعانون من اضطراب الجندر. فالمتحول الجنسي «يُحدَّد بصفته متحولاً انطلاقاً من ادعاءاته فحسب. إلا أن هذه الادعاءات قد تكون مكتسبة شأنها شأن أي سلوك متعيّن جنسياً أو تُكتب من جديد شأنها شأن السير الذاتية»[276].

لم تعد غرير إلى هذا الموضوع في السنوات التي تلت ذلك. لكن لم يستغرق الأمر سوى عقد ونصف حتى أصبحت آراؤها خارج إطار العقيدة المعمول بها. في أواخر عام 2015، كان من المقرر أن تُلقي غرير محاضرة في جامعة كارديف حول موضوع Women and Power: The Lessons of the 20th Century [«المرأة والقوة: دروس القرن العشرين»]. لكن عدداً لا بأس به من الطلاب والطالبات رفضوا الاستماع إلى أهم نسوية في أواخر القرن العشرين. وبدلاً من ذلك، ضغطوا على جامعتهم، متبنين الموقف التفتيشي والتحريمي المعمول به في زمنهم.

رأى المقاطعون أن آراءَ غرير المتعلقة بقضايا العابرين كانت «إشكالية». فقد

---

(276) المرجع نفسه، ص 74.

برهنت «مراراً وتكراراً على آراء كارهة للمرأة تجاه النساء العابرات». مع العلم أن رفض غرير بوصفها كارهة للمرأة، كان ليُعَدّ قبل سنوات فقط ضرباً من الجنون. إلا أن ذلك لم يمنع المحتجين من تنظيم عريضة مناهضة لغرير، وَصفت منسّقتها نفسها بأنها تتبع خطاً «نسوياً تحريرياً من الناحية الجنسية ويسارياً». من بين الجرائم التي ارتكبتها غرير برأي الطالبات، «الإصرار على عدم استخدام ضمائر المؤنث للإشارة إلى النساء العابرات جندرياً، وعلى إنكار وجود رهاب العبورية». ومع أن الموقعات على العريضة أقررن بضرورة تشجيع «النقاش داخل الجامعة»، إلا أنهن أطلقن تحذيراً من أن «استضافةَ محاضرة لديها آراء على هذا القدر من الإشكال والبغض تجاه المجموعات المهمشة والضعيفة، أمرٌ خطير»[277].

في مقابلة لاحقة مع BBC في هذا موضوع، قالت غرير: «على ما يبدو، هناك مَن قرر منعي من الكلام لأنني لا أعتقد أن الرجال العابرين جندرياً يُصبحون نساءً بعد الجراحة. أنا لا أقول بأنه يجب منع الناس من الخضوع لهذه الجراحة. ما أقوله ببساطة هو أن هذه الجراحة لا تجعلهم نساء». بالإضافة إلى ذلك، نبهت غرير إلى أنها نادراً ما تتطرق إلى القضايا المتعلقة بالعابرين في كتاباتها: «ليسوا قضيتي. كما أنني لم أنشر شيئاً حول العابرين جندرياً منذ سنوات». لكن لمجرّد اقترابي من هذه القضية، «قفزوا في وجهي، واتهموني بأشياء لم أقلها أو أفعلها. يبدو أن الناس لا يبالون بالأدلة، ولا حتى بالقذف والتجريح». وعندما سئلت هل ما زالت مهتمة بالذهاب إلى جامعة كارديف، أجابت: «لقد تقدمت بالسن قليلاً على ذلك. أبلغ من العمر 76 عاماً. لا أريد الذهاب إلى هنالك لكي يُصرخ في وجهي ويُعتدى علي. اللعنة. الأمر ليس على هذا القدر من الأهمية أو المكافأة»[278].

لكن توجيه الإهانة إلى غرير، بل طردها وحرمانها على يد آخر نسخة من النسوية، أصبح طقساً من طقوس المرور لجيل من النساء اللائي – سواء كن

---

(277) 'Germaine Greer defends views on transgender issues amid calls for cancellation of feminism lecture', *ABC News*, 25 October 2015.

(278) المرجع نفسه.

يعرفن ذلك أم لا – استفدن من عملها الريادي في هذا الحقل. في مجلة Varsity الصادرة عن جامعة كامبريدج (الجامعة الأم لغرير في الستينيات)، كتبت إيف هودغستون Eve Hodgson مقالة بعنوان: «لا يمكن وصف جيرمين غرير بالنسوية بعد الآن». فوفق المؤلِّفة: «غرير هي الآن مجرد امرأة عجوز بيضاء أقصت نفسها بنفسها. فتعليقاتها مؤذية بشكل يتعذر على الإصلاح، ما يعكس غياباً كاملاً لاحترام حياة العابرين جندرياً. وإذ تفكّر بما تفكّر، لا يمكن أن تكون نسوية من الصف الأول بعد الآن. وما عادت تدافع عن القضايا نفسها التي ندافع عنها نحن»[279]. مثلما حُرِم بيتر ثيل من أن يكن مثلياً، وكاني ويست من أن يكون أسود، حُرِمت جيرمين غرير من أن تكون نسوية.

مع مرور السنين، أصبح واضحاً أن هذا الموقف المتمثِّل في احتقار الروّاد الأوائل ما عاد مقتصراً على الأكاديميين، وإنما تفشّى في كل مكان. كذلك، أصبحت القناعة بضرورة التشنيع بالنسويات من جيل غرير بسبب مواقفهن من العبور الجندري، وشتمهن بسبب هذه القضية، قناعةً طبيعية ومعمولاً بها. في سبتمبر عام 2018، دفعت ربّة منزل في شمال إنكلترا، تدعى كيلي جي كين مينشول Kellie-Jay Keen-Minshull، 700 جنيه إسترليني لاستئجار لوحة إعلانات في ليفربول. كان الملصق الذي وضعته على اللوحة يتألف ببساطة من تعريف قاموسي، نقرأ فيه: «امرأة: نساء، اسم، أنثى بشرية بالغة». صرّحت السيدة كين مينشول أنها دفعت ثمن الملصق خشية أن «تُستخدم كلمة امرأة لتعني أي شيء». لكن التعريف القاموسي لم يستمر طويلاً. فقد اشتكى إلى الشرطة أكاديمي نصّب نفسه «حليفاً لمجتمع العابرين جندرياً»، ويُدعى الدكتور أدريان هاروب Adrian Harrop، مدّعياً أن لوحة الإعلانات كانت «رمزاً يحمل العابرين جندرياً على عدم الشعور بالأمان». وفي نقاش متلفز لاحق، اتهم المقدّم السيدة كين

(279) Eve Hodgson, 'Germaine Greer can no longer be called a feminist', *Varsity*, 26 October 2017.

مينشول بـ«رهاب العبورية» لأنها وضعت هذا الملصق. وبعد أن لام الدكتور السيدة كيني مينشول لعدم مناداته بلقبه الكامل «دكتور» عند الإشارة إليه، أوضح أن استبعاد النساء العابرات من تعريف المرأة «ليس أمراً لائقاً في مجتمع حديث وتقدمي»[280]. حتى المواقع الإخبارية اليمينية والمحافظة نشرت مقالات عن ظهور كين مينشول في محطات التلفزيون، مشيرة إلى أن «المشاهدين وصفوها بـ«المشينة» بسبب إصرارها على أن النساء العابرات لسن شبيهات بالنساء»[281].

تعرضت النساء اللواتي حاولْنَ قصر حدود الأنوثة بالنساء فقط للنقد اللاذع نفسه في كلّ مكان. هكذا، خلال مسيرة «الفخر في لندن» في عام 2018، أفسدت مجموعة من الناشطات المثليات حفل الـ LGBT احتجاجاً على استيلاء العابرين الجندرين على احتفالات من هذا النوع. اتهمت الصحافة المثلية في المملكة المتحدة هؤلاء «النسويات الراديكاليات العابرات للإقصاء» بالتعصب الأعمى وخطاب الكراهية. وبعد بضعة أسابيع في مسيرة الفخر في مانشستر، كان هناك «هتافات صاخبة»، عندّما أعلن مقدّم مثلي أنه كان من الواجب سحب المتظاهرات في لندن من «أثدائهن المترهلة»[282].

إلى جانب عدم الاشتراك بمنصة واحدة، والتهديدات والإسكات، هناك سؤال نادراً ما يُطرح، وهو: لماذا قد تُحظر النسويات المنتميات إلى تقليد معين من الاعتراض على بعض الجوانب – على الأقل – من النقاش العبوري الجديد؟ كلما لوحقت النساء اللواتي يتطرقن إلى هذه الجوانب، زادت نقطة الخلاف وضوحاً. فنسويات مثل بيندل وغرير بورشيل، يتحدرن من تيارات نسوية ما زالت تُعنى

(280) 'Woman billboard removed after transphobia row', *BBC News website*, 26 September 2018.

(281) Debate between Kellie-Jay Keen-Minshull and Adrian Harrop, *Sky News*, 26 September 2018.

(282) 'Blogger accused of transphobia for erecting a billboard defining "woman" as "adult human female" is branded "disgraceful" by This Morning viewers – as she insists trans women do not fit the criteria', *Mail Online*, 28 September 2018.

إلى اليوم بقضايا حقوق المرأة الإنجابية، وبحمايتها من العلاقات العنيفة والتعسفية، وغير ذلك. هؤلاء الناشطات آمنت بضرورة تحطيم الصور النمطية الموروثة حول صورة المرأة. لذا قد تكون النقطة الأكثر وضوحاً في الخلاف مع الحركة العبورية هي أن هذه الأخيرة غالباً لا تضع البناءات الاجتماعية حول الجندر موضع تساؤل، بل تعمل على تعزيزها.

لنأخذ مثال بلير وايت Blaire White، نجمة YouTube المتحوّلة جنسياً من ذكر إلى أنثى، التي غيّرت جنسها (قبل أن تعلن عن إيقاف التحويل في أواخر عام 2018 من أجل إنجاب الأطفال) واختارت جسد فتاة جميلة مراهقة تتطابق مع اهوامات الذكورية: ثديان مدوّران بارزان إلى الأمام، شعر متموّج، شفاه مبوّزة. أو الطرف الآخر من طيف النموذج الأنثوي. في ديسمبر 2015، سُمح أخيراً لجولي بيندل بالتحدث في جامعة مانشستر، فشاركت في نقاش مع الكاتبة والناشطة العابرة جين فاي Jane Fae. وخلال خطاب بيندل، وفي لحظات من اللقاء، راحت فاي التي أحضرت معها أدوات الحياكة تحيك ثوباً أرجوانياً وردياً. وكذلك إبريل أشلي April Ashley، التي نستطيع رؤيتها في أحد الأفلام الوثائقية احتفالاً بعيد ميلادها الثمانين في عام 2015 في أماكن طفولتها في ليفربول، تستلم مفاتيح المدينة. طوال الفيلم، من المستحيل أن تبعد عنك الإحساس بأن أشلي تقوم بتجربة أداء جسد احتياطي للملكة إليزابيث[283]. على الرغم من التشهير الذي تعرض له جيل معين من النسويات اللاتي رفضن ركوب القطار العبوري، لا يوضّح له أبداً لماذا عليه أن يفعل ذلك. قد تكون لغتهن ملونة عندما يهاجمن هذا الهدف – مثلما عندما يُهاجمن أهدافاً أخرى – لكن اتهامهن بالكراهية والخطورة والحثّ على العنف، وعدم كونهن نسويات، من شأنه أن يُفضي إلى تجاهل الأسئلة المشروعة التي يثرنها. لماذا على بعض النسويات أن تشعرْنَ بالاتفاق

---

(283) أنظر:

'April Ashley at 80', Homotopia festival. On *YouTube* at https://www.youtube.com/watch?v=wX-NhWb47sc

التام مع رجال أصبحوا نساءً، إن كانت المسألة تقتصر على إبراز أثداء مثالية، أو تقليد العائلة الملكية، أو البراعة في الحياكة؟

الوالدان

لخّص الراحل روبرت كونكويست Robert Conquest ذات مرة ثلاث قواعد سياسية رئيسة. أولى هذه القواعد أن «الجميع محافظ عندما يتعلق الأمر بمجال يعرفه جيداً». يمكن القول إن الوالدين يعرفان على أفضل وجه كل ما يتعلق بأطفالهما. أحد التفسيرات للارتفاع الأخير في حجم الأسئلة المهمة التي تُطرح في شأن الهوية العبورية هو أن الآباء في دول مثل أميركا وبريطانيا بدأوا يقلقون بشأن ما يُدرّس للجيل القادم، وما يُفعل في بعض الحالات.

يبدأ قلق الوالدين عندما يسمعان أن المتخصصة بعلم النفس ديان إيرنسافت Diane Ehrensaft، المقيمة في سان فرانسيسكو، تؤكد أن طفلاً «يُدَّعى أنه ذكراً» يبلغ من العمر عاماً واحداً فقط، وينزع حفاضتهُ ملوّحاً بها بطريقة معينة، هو في الواقع يعبّر عن «تواصلٍ ما قبل لفظي بشأن الجندر»[284]. وبخلاف بعض وسائل الإعلام، لا يبتهج الوالدان بأن تُمنح ملكةُ غزلٍ تبلغ من العمر تسع سنوات عقدَ عارضة أزياء مع شركة موضة LGBT، وبتبشير الأطفال الآخرين في مقطع فيديو فيروسي على YouTube: «إذا أردتم أن تصبحوا ملوك غزلٍ، ولا يأذن لكم والديكم، فأنتم بحاجة لوالدين جديدين»[285]. ويبدأ قلقهما عندما تسمحُ مدرسةُ طفلِهما لكل تلميذ يقول إنه من الجنس الآخر بأن يعترف به ويُعامل على هذا النحو. حكى مؤخراً والدان من شمال إنكلترا كيف اكتشفا بأن ابنتهما البالغة من العمر 16 عاماً مثلية ثم عابرة. وعندما حضرا أمسية للأهالي، اكتشفا أن

(284) شاهد الفيديو من دقيقتين على الرابط:
https://vimeo.com/185149379

(285) أنظر وصفَ حالة ملكة الغزل "لاكتاتيا" في المقالة:
'Nine-year-old drag queen horrifi cally abused after modelling for LBGT fashion company', *Pink News*, 9 January 2018

المدرسة كانت قد استخدمت مسبقاً الاسم الذكوري الذي اختارته ابنتها، وكذلك الضمائر المذكرة للإشارة إليها. كانت المدرسة «مؤيدة تأييداً كاملاً»[286].

نصحت الحكومة الإسكتلندية المدارسَ ألا تفشي لوالدي الطفل رغبتَه المحتملة في تغيير جنسه. في موضع آخر، اقترحت وثيقة مصدرها الحكومة نفسها بعنوان «دعم الفتيان العابرين جندرياً» أنه يجب أن يكون التلاميذ قادرين على المشاركة في المنافسات الرياضية في الجنس الذي يشعرون بالراحة تجاهه وأنه لا يجب إبلاغ الوالدين إذا كان طفلهم يريد مشاركة الغرف مع رفاقه من الجنس الآخر في أثناء الرحلات المدرسية. في مناطق أخرى من بريطانيا، روى بعض الأهالي أنهم شاركوا في أمسيات لأهالي الأطفال، وتفاجؤوا بأن المعلم يُشير إلى أطفالهم بالجنس «الخطأ»، قبل أن يقول لهم: «آه، أنتم لا تعرفون أن ابنكم/ ابنتكم يُعرّف نفسه على أنه فتاة/ صبي...». يحدث هذا في المدارس نفسها التي يتعين عليها الحصول على إذن الوالدين لصرف الأسبرين لطفلهم خلال اليوم الدراسي.

ثم إن الأهالي باتوا على ألفة مع ظاهرة تُعرف باسم «التألّب». فقد يحدث أن يُصرّح عدد لا بأس به من التلاميذ بأنهم عابرون جندرياً في مدارس وشِعب واحدة. عل سبيل المثال، في عام 2018، أحصى «تقرير المعلومات حول المساواة» في إحدى المدارس في برايتون المعروفة بـ«أجوائها الليبرالية»، 40 تلميذاً تتراوح أعمارهم بين 11 و19 عاماً «لا يتماهون مع الجندر المحدَّد عند الولادة». ثم قال 36 تلميذ آخر إنهم كانوا مائعين جندرياً، أي إنهم لا يتماهون «طوال الوقت» مع الجندر المحدد عند الولادة. أحد المفعولات المترتبة على هذا التطور هو أن المملكة المتحدة شهدت زيادة بنسبة 700 في المئة في إحالات الأطفال إلى العيادات المتخصصة في مسائل الجندر في خمس سنوات فقط[287].

---

(286) 'The school was already calling her "him"', *The Sunday Times*, 25 November 2018.

(287) 'Trans groups under fire for 700% rise in child referrals', *The Sunday Times*, 25 November 2018.

يُفسر ناشطو العبور الجندري المقرّبون من مجموعة «حوريات البحر» هذا التجمّع وهذه الزيادة بأن عدداً لا بأس به من الأفراد أصبحوا أكثر وعياً باحتمال أن يكونوا عابرين. لكن بعض الإضاءات الأخرى قد تكون معقولة بالقدر نفسه، إن لم تكن كذلك أكثر. إحداها هو حضور التمثيل الإيجابي للعابرين في الثقافة الشعبية – وخاصة على الإنترنت. ولا بد من الإشارة إلى مجاملة السلطات التي تُكثر من التنازلات لجميع مطالب العابرين، ومهما كانت.

في ثقافة الإنترنت، ليس من النادر أن يتحول تناول الهرمونات إلى تمرين سهل سخيف وخالٍ من التبعات. على مواقع YouTube وInstagram وغيرها، هناك عدد لا يُحصى من الأشخاص الذين يقولون إنهم عابرون، ويُحاولون إقناعك بأنك بدورك تستطيع أن تكون كذلك. حصل مقطع فيديو واحد لجاد بوغيس Jade Boggess (متحولة جنسية من امرأة إلى رجل) بعنوان «سنة تحت التيستوستيرون»، على أكثر من نصف مليون مشاهدة على YouTube وحده. وحصل فيديو آخر حول الموضوع نفسه، لريان جاكوبس فلوريس Ryan Jacobs Flores على أكثر من ثلاثة ملايين مشاهدة. في هذه الصنف من الفيديوهات، يُشار إلى حقن التستوستيرون باسم «T» أو «عصير الرجل». مِن الأشخاص من يُنجز التحول بوقت فعلي، ويُصبح من المشاهير بالمعنى الكامل للكلمة. لا أتحدث هنا عن شخصيات قديمة مثل كايتلين جينر، بل عن نجوم جدد على YouTube، مثل جاز جينينغز Jazz Jennings.

ولِد جينينغز الصبي في عام 2000، وبدأ يظهر على وسائل الإعلام، ويتحدث عن كونه عابراً جندرياً منذ سن السادسة. في سن السابعة، أجرت باربرا والترز Barbara Walters مقابلة مع الطفل العابر، وسألته من بين الأسئلة إلى من ينجذب. تواصل الترويج لجينينغز من دون انقطاع. في سن الحادية عشرة، بثت شبكة أوبرا وينفري Oprah Winfrey فيلماً وثائقياً عنها بعنوان I am Jazz [أنا جاز]. في سن المراهقة، تلقت جينينغز عدداً من الجوائز الإعلامية، ووُضعت في

قائمة الشخصيات «الأكثر تأثيراً». أيضاً، دُفع لها من أجل القيام بحملات إعلانية، من بين مزايا أخرى تأتت من شهرتها. والمسلسل الوثائقي الذي يحمل عنوان [أنا جاز]، ويُعرض على شاشة TLC هو الآن في موسمه الخامس، ويستمر في إكسابها كثيراً من المال هي ووالداها وإخوتها (الذين يظهرون معها في العرض). وبعد بلغت سن الثامنة عشر، صُوِّر موسم خامس يتبع جاز في «جراحة تأكيد الجندر». على الحمالة، تنقر جاز بأصابعها مع قليل من الصفاقة، قائلة: «لنفعل ذلك!» حصدت مقتطفات المسلسل على YouTube ملايين المشاهدات.

لكن النجاح في الثقافة الشعبية ليس النجاح الوحيد الذي قد يكون له تبعات. هناك أيضاً انخراط المهنيين الطبيين. في مسلسلات مثل [أنا جاز]، نرى ممرضات مبتهجات للإسهام في هذا التحويل لشخصٍ وُلد صبياً إلى فتاة. يُمثّل ذلك كلّه جزءاً من تطور دفع «دائرة الخدمات الصحية الوطنية» في إنكلترا إلى توقيع اتفاقية تنص أن على كوادرها «ألا تقمع أبداً تعبير الفرد عن هويته الجندرية»[288]. وعلى الرغم من تحذير بعض المتخصصين في الرعاية الصحية من مخاطرَ محتملة بسبب «الإفراط في التشخيص والمعالجة»، تواصل جميع الفرضيات السيرَ في اتجاه واحد وحيد.

قصة عائلة

إليكم تجربة والدين أمريكيين كان على عائلتهما اجتياز رحلة العبور الجندري في السنوات الأخيرة. سأتعمد في سرد الحوادث الغموض بخصوص الأماكن وبعض المواصفات بغية حماية هوية الطفلة. لكن العائلة كانت تعيش في مدينة أميركية كبيرة، ولم تنتقل إلا مؤخراً إلى وسط ريفي. وإلى هنا ذهبتُ للقاء أم الطفلة، التي سأدعوها سارة.

سارة أمٌ مثل جميع الأمهات من الطبقة المتوسطة، ترعى أطفالها، وتعمل مثل

(288) المرجع نفسه.

زوجها على إعالتهم. تصف مواقفها السياسية بأنها «على يسار الوسط قليلاً». قبل أربع سنوات، أعلنت ابنتها البالغة ثلاث عشرة سنة أنها عابرة وكانت في الواقع صبياً. جرى سابقاً تشخيص شكل خفيف من التوحّد عند الطفلة التي كانت تجد صعوبات في تقبّل رفيقاتها لها. كان يشق عليها التقاط الإشارات داخل المحادثة التقاطاً صحيحاً. كانت تتجاهل دعوتها إلى اللعب، وكانت رفيقاتها ينظرن إلى ملابسها على أنها متخلفة. مع مرور الوقت، اكتشفت ابنة سارة أن الصبيان في مدرستها كانوا أكثر توافقاً معها من البنات. وحتى من طرف الصبيان لم تكن مقبولة بالمقدار الذي كانت ترجوه. لماذا لا أحد يُحبني؟ تسأل أمها بين الحين والآخر. حاولت فهم أسباب «عدم اندماجها مع الفتيات على وجه الخصوص»، ولماذا لم تندمج مع زملائها عموماً.

وذات يوم، أعلنت لوالدتها أنها في الحقيقة صبي، وأن هذا الأمر هو سبب مشكلاتها. سألتها سارة عن الذي حملها على التفكير في أنها عابرة، فالقرار مباغت لأسرتها، أجابت الفتاة بأن الفكرة خطرت لها بعد عرض تقديمي في مدرستها. حينئذ، تبيّن أن حوالي 5 في المئة من الأطفال في مدرسة ابنتها يُعرّفون أنفسهم بوصفهم عابرين جندرياً. كانت مواصفات الأطفال المعنيين متشابهة تشابهاً لافتاً، مع كثير من الأطفال المصابين باضطرابات توحّد وتاريخ من عدم الألفة مع الآخرين أو أصحاب صعوبات في التواصل مع أقرانهم. لا أحد يشك في أن أمها أرادت معرفة المزيد عن الأمر. لنفترض أن أحداً من الأطفال في مدرستكِ لم يقل عن نفسه إنه عابر، هل كنتِ لتقررين أنك صبي؟ أجابت الطفلة لا، فما كانت لتقرر ذلك لأنها «ما كانت لتعرف أن لديها مثل هذه الخيار». ثم شرحت الطفلة للأم أنها لا تظن أنها صبي، بل هي صبي، وأنها لا تستطيع أن تفهم ذلك لأنها متوافقة الجنس (cis). لم تكن سارة قد سمعت قط عن هذا المصطلح في السابق، ناهيك بوصفها به. كانت الطفلة تردد على مسامع أمها أن «الأطفال العابرين يعرفون من هم».

لكن سارة دعمت ابنتها. فقبلت أن تناديها باسمها الذكوري الجديد والمفضّل، وبدأت باستخدام الضمائر المذكرة في مخاطبتها. حتى إنها قدّمت ابنتها لأصدقائها على أنها ابنها. وقد بذلت ما في وسعها لتُظهر تفهمها، فذهبت معها في مسيرة «الفخر العبوري»، ورقصتا على أنغام أغنية «هكذا ولدت» لليدي غاغا. وذهبت في دعمها هذا لدرجة أنها اشترت لابنتها أول صدرية ضاغطة طلبتها ابنتها لتخفي ثدييها الناميين. من الصعب تخيل ما يمكن أن تفعله الأم أكثر من ذلك.

وكما يمكن أن نتوقع ونتفهّم، بدأت سارة بالقراءة على الإنترنت حول العالم العبوري. كان الأمر جديداً على حياة عائلتها، وأرادت الحصول على مجموعة من وجهات النظر بغية الوصول إلى رأي شخصي عن الموضوع. وباعتراف سارة، لم تكن انطباعاتها الأولى عن النقاش على الإنترنت جيدة. ورأت أن جزءاً كبيراً مما استخلصته من قراءتها على الإنترنت يعكس، في رأيها، مشاعر «مناهضة للـ LGBT»، واصفة الأشخاص الذين يعبرون عن أنفسهم في هذا الموضوع بـ«المتعصبين والفئويين». لم تستكشف سارة أياً من ذلك بهذا العمق من قبل. كانت «قلقة بشأن ابنتها فحسب». لذا ذهبت للتحدث مع بعض المهنيين، وبدأت بزيارة أطباء متخصصين بقضايا الجندر.

قال لها أولهم أمراً يتردد على مسامع عدد من الأشخاص ممن هم في موقعها. «إن من شأن قبول الوالدين أن يُجنب الفتاة الانتحار». لا يمكن تهديد الوالدين بأسوأ من هذا الكابوس. ثم أكّد الطبيب لسارة أن ابنتها أبدت «إصراراً وثباتاً واتساقاً» في حديثها، الأمر الذي يعني أنها في الواقع صبي.

كانت سارة قلقة من بعض ما ورد في حديث المهنيين، لكن قلقها الأكبر جاء من بعض ما تقوله ابنتها. ففي كل مرة كانت الطفلة تصف أحاسيسها نتيجة اضطراب الجندر، لاحظت أمها أن الكلمات بدت كأنها «سيناريو مكتوب سلفاً». والقول إن هذا السيناريو كان تأثيرياً هو تبسيط للأمور. فذات يوم، قدّمت الطفلة لأمها قائمةً بمطالب تضمنت الابتزاز والتهديد ما لم تُلبَّ.

كانت ابنة سارة تبلغ من العمر 13 عاماً ونصف عندما أعلنت أنها عابرة. في سن الرابعة عشرة والنصف، ذهبت إلى المعالج. وفي سن الخامسة عشرة، قيل لها إن عليها البدء بتناول مانع البلوغ لوبرون. وفي كل مرحلة من هذه المراحل، أُكّد للأم أن من «الإهانة» التشكيك بمشاعر ابنتها، وأن حال العابرين كحال المتوحّدين: «الأشخاص المتوحدون يعرفون من هم»، قالت الابنة مطمئنة والدتها. حُكم على كل تشكيك بـ«التمييز». استشارت الأم وابنتها أكثر من معالج، لكنهما عادتا في النهاية إلى أول معالج. وعندما عبّرت سارة عن بعض المخاوف بشأن الخيارات التي قدمها المتخصصون، ولا سيما فكرة أن تتناول ابنتها مانعات البلوغ، قيل لها: «أنت أمام خيارين، إما هذا العلاج أو المستشفى». ثم، في سن السابعة عشرة والنصف، أعلنت ابنة سارة أنها تريد البدء بعملية العبور.

وكما يمكن أن نتوقع، سألت سارة ابنتها إن كانت متأكدة من خيارها، ولفتت انتباهها إلى استحالة الرجوع عن هذا الدرب في حال اختارت السير فيه. فالعبور أكثر لاعكوسية من الهرمونات. وسألتها ماذا لو شعرت يوماً بالحاجة إلى إيقاف العبور بعد البدء فيه؟ ماذا لو قررت أنك لا تريدين هذا الأمر بعد إجراء هذا التغيير؟ جاءت الإجابة كالآتي: «إذاً، سوف أنتحر». على الرغم من أنه لا يجب على الأهل أن يأخذوا مثل هذا التهديد باستخفاف، يبدو أن نمطاً وراء ذلك، كما أكدت جيرمين غرير قبل ذلك بكثير. وهذا النمط لا يتحكّم بالشباب فحسب، بل ببعض المتخصصين في مجال الصحة ممن يدافعون عن قضيتهم.

وعلى سبيل مثال، في عام 2015، أجرت محطة NBC مقابلة مع ميشيل فورسيير Michelle Forcier، الحاصلة على دكتوراه في الطب، والأستاذة في كلية الطب بجامعة براون، ومديرة دائرة الصحة الجنسية والجندرية في «مجموعة أطباء الحياة» في بروفيدنس برود آيلاند. رداً على سؤال هل يمكن لأطفال لا تتجاوز أعمارهم ثلاث سنوات أو أربع معرفة ما يريدون، قالت فورسيير: «القول إن الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين ثلاث سنوات وأربع لا يفهمون الجندر يعني أننا لا

نمنحهم كثيراً من الثقة». وعندما سُئلت ما الضرر الذي يمكن أن نتسبب فيه إن أخذنا وقتاً كافياً قبل الانخراط في عملية العبور، أجابت: «أكبر ضرر هو الانتظار وعدم فعل شيء». ثم سئلت من جديد: لكن أين الخطر في الانتظار؟ أجابت: «خطر الانتظار هو الانتحار، هو الهروب، وتعاطي المخدرات، والتنمر والعنف. خطر الانتظار هو الاكتئاب والقلق»[289]. وعبّر جويل باوم Joel Baum، المدير الأول في مجموعة حملة Gender Spectrum [الطيف الجندري]، عن الموقف نفسه لكن بوضوح أكبر. إذ حذّر الأهالي القلقين من فكرة تعاطي أبنائهم الهرمونات: «أمامكم خياران: إما أن يكون لديكم أحفاد وإما أن تخسروا أبناءكم، لأنهم سيكونون قد أنهوا العلاقة معكم، أو في بعض الحالات سيختارون درباً أكثر خطورة لأنفسهم»[290].

تكمن مشكلة طريقة تقديم البدائل هذه – وهي أكثر طريقة كارثية – في أنها لا تترك مجالاً للنقاش والاختلاف. فمنذ اللحظة التي يُؤكد فيها الطفل أنه من الجنس الآخر، لا يجب أن يُقابل إلا بقبول لا تحفّظ فيه، ومن ثم تبدأ سلسلة من المراحل التي تُغيّر حياته والتي يبدو أن مجموعة متزايدة من الأطباء عازمة على تشجيعها مع أقل قدر ممكن من إمكان التراجع.

وفي الواقع، فإن قصصاً مثل قصة جيمس وقصة ابنة سارة مليئة بالمنعطفات اللافتة والموحية. يقول جيمس إنه ربما ما كان ليفكّر أبداً في أن يصبح امرأة لو لم يتردد على وسط يرتاده العابرون ومشتهو لبسة الجنس الآخر بصورة اعتيادية. وبالمثل، اعترفت ابنة سارة أنها ما كانت لتفكّر أبداً في إمكان أن تكون في الواقع صبياً لو لم يكن في مدرستها تلاميذ آخرون يُعبّرون عن القناعة نفسها. إن من شأن ذلك كله أن يقودنا إلى صميم المسألة. حتى لو عانى بعض الأطفال معاناة فعلية

---

(289) من مقابلة أجرتها معها شبكة *NBC* في 21 أبريل 2015، على الرابط:
https://www.nbcnews.com/nightly-news/video/one-doctor-explains-the-journey-for-kidswho- are-transitioning-431478851632?v=railb&

(290) https://vimeo.com/185183788

مرتبطة باضطراب الجندر، وحتى لو كانت الجراحة التي تقلب الحياة رأساً على عقب هي أفضل خيار ممكن بالنسبة إلى بعض منهم، فما السبيل إلى تمييز هؤلاء عمّن غُرست في أذهانهم مثل هذه الأفكار وسيدركون عاجلاً أم آجلاً أنهم اتخذوا القرار الخاطئ؟

من بين الحجج الأكثر قوة واحتمالية في سبيل إبطاء هذا التدافع الحالي نحو الهوية العبورية، هي الاحتمال المتزايد لسيل من الدعاوي القضائية. وعلى الرغم من أن المملكة المتحدة، بما في ذلك «دائرة الخدمات الصحية الوطنية»، منفتحة على هذا الاحتمال، فإن النجاح المحتمل للدعاوي القضائية المستقبَلة فيها لا يُقارن مع الولايات المتحدة. ففي حين تجهد هذه «الدائرة» من أجل تلبية الطلب المتزايد على جراحة تغيير الجنس، نرى في الولايات المتحدة تطوراً لتجارة كاملة تُروّج لمثل هذه الجراحة لأسباب تجارية خالصة. تكمن إحدى الأمارات على أن العابرين قد أصبحوا حقلاً بدأ الطلب المجتمعي في جذب فرص العمل إليه، في الاستخفاف المذهل الذي يتحدث به اليوم الناشطون العابرون – وبعض الجراحين – عن هذه الجراحات الجذرية. والواقع أن الاستماع لبعض من هذا الحديث يتطلب معدةً قوية.

المهنة

لنأخذ مثالاً الدكتورة جوانا أولسون كينيدي Johanna Olson-Kennedy، الرائدة في مجالها والمديرة الطبية الحالية لـ«مركز الصحة والتنمية للشباب العابرين جندرياً» في مستشفى الأطفال بلوس أنجلوس. هذه العيادة هي أكبر عيادة للشباب المتحولين جنسياً في الولايات المتحدة، وواحدة من أربعة متلقين لمنحة «المعاهد الوطنية للصحة» المموّلة من دافعي الضرائب لدراسة مدتها خمس سنوات حول تأثير مانعات البلوغ والهرمونات في الأطفال. غير أن هذه الدراسة، على ما يبدو، تفتقر إلى فئة شاهدة.

اعترفت الدكتورة أولسون كينيدي أنها وصفت خلال حياتها المهنية الهرمونات بانتظام لأطفال حتى سن 12 عاماً. وفي مقالة بعنوان: «التعمير الثديي والاضطراب الثديي عند الأحداث والفتية المتحولين: مقارنات الأفواج غير الجراحية وما بعد الجراحة»[291]، التي نُشرت في Journal of the American Medical Association، أشارت الدكتورة إلى أن عدداً من الفتيات، لا تتجاوز أعمارهن 13 عاماً، خضعن للهرمونات الجنسية الهجينة لمدة تقل عن ستة أشهر قبل خضوعهن لعملية جراحية. يعني ذلك أن فتيات يبلغ عمرهن 13 عاماً بالكاد قد تجرّعن هذه الأدوية التي تُغيّر حياتهن.

إن التصريحات العلنية للدكتورة أولسون كينيدي لافتة في إصرارها واختيالها، وفوق ذلك، في دوغمائيتها. فقد انتقدت علناً فكرة إجراء تقويمات الصحة العقلية للأطفال الذين يقولون إنهم يريدون تغيير جنسهم. في أحد المواضع، قارنت الدكتورة أولسون كينيدي هؤلاء الأطفال مع الأطفال المصابين بمرض السكري، فقالت: «لا أرسل إلى المعالج النفسي شخصاً عليه أن يتناول الأنسولين»[292]. وهي من كبار المؤيدين لفكرة مفادها أن أي احتجاج على القرار الذي يتخذه الطفل، من شأنه أن يُعرّض العلاقة بين المعالج النفسي ومريضه للخطر. كتبت في ذلك: «تستلزم إقامة العلاقة العلاجية النفسية الصدقَ والشعور بالأمان الذين قد يتقوّضان إذا اعتقد الشباب بأن ما يحتاجون إليه ويستحقونه (مثل الحاصرات أو الهرمونات أو الجراحة) يمكن أن يُمنع عنهم تبعاً للمعلومات التي يزودون بها المعالج النفسي»[293]. وتُشكّك أولسون كينيدي في فكرة أن بعض الأطفال ممن هم في سن 12 أو 13 عاماً قد لا يكونون في وضع يسمح لهم باتخاذ قرار متبصّر لا رجوع فيه. فقالت في هذا الخصوص: «لم يحدث قط أن أعطيت شخصاً

---

(291) مايو 2018.

(292) Jesse Singal, 'When children say they're Trans', *The Atlantic*, July/August 2018.

(293) Johanna Olson-Kennedy, MD, 'Mental health disparities among transgender youth: rethinking the role of professionals', *JAMA*, May 2016.

الحاصرات، ولم يرغب في متابعة العبور بالهرمونات الجنسية الهجينة في وقت لاحق». ثمّ قالت دعماً لحجتها:

من جهتنا، عندما نتخذ قراراً في إجراء تدخل طبي عن طريق مثبطات البلوغ أو العلاج الهرموني، فإن أهم شخص نضعه في الاعتبار عند اتخاذ هذا القرار هو الطفل أو الشاب. توجد مراكز تستخدم اختبارات قياسية نفسية أكثر فنية، تقيس عوامل متنوعة وترابطية في النمو النفسي للطفل. نحن لا نطبق هذا النموذج في عياداتنا[294].

ومع ذلك، أكدت الدكتورة في موضع آخر أنها رأت عدداً قليلاً من المرضى الذين ندموا على عبورهم، وتوقفوا عن العلاج. لكنها أضافت أن هذا لا يجب أن يُؤثر في المواقف تجاه الأشخاص الآخرين الذين يرغبون في تغيير جنسهم. تتمثل إحدى هذه المشكلات – في رأيها – في أن مثل هذه القرارات المهمة قد يتّخذها «متخصصون (عادة ما يكونون من متوافقي الجنس) يُحددون ما إذا كان الشباب جاهزين أو لا». وتعتقد أولسون كينيدي أن هذا النموذج «قد أكل عليه الدهر وشرب»[295].

وعلى الرغم من أن المبادئ التوجيهية لـ«جمعية الغدد الصماء» (وهي المنظمة الأقدم والأهم في العالم في مجال طب الغدد الصماء ودراسة الاستقلاب) تنص على أن «تجارب قليلة جداً نُشرت» حول العلاج الهرموني لأشخاص «قبل 13.5 إلى 14 عاماً»[296]، تبدو أولسون كينيدي وزملاؤها الآخرون واثقين جداً مما يفعلونه، في نكرانٍ لافت ليس لخصومها فحسب، ولكن للسمة اللاعكوسة

---

(294) 'Deciding when to treat a youth for gender re-assignment', Kids in the House (n.d.).
(295) Singal, 'When children say they're Trans'.
(296) Wylie C. Hembree, Peggy T. Cohen-Kettenis, Louis Gooren, Sabine E. Hannema, Walter J. Meyer, M. Hassan Murad, Stephen M. Rosenthal, Joshua D. Safer, Vin Tangpricha, Guy G. T ' Sjoen, 'Endocrine treatment of gender-dysphoric/gender-incongruent persons: An Endocrine Society clinical practice guideline', *The Journal of Clinical Endocrinology & Metabolism*, vol. 102, no. 11, 1 November 2017.

للإجراءات التي يشجعون الأطفال على الخضوع لها. في أحد العروض التقديمية التي سُجّلت سراً، صاغت أولسون كينيدي جواباً لجميع المنتقدين الذين يظنون أن الأطفال عاجزون عن اتخاذ قرارات بشأن الخيارات الأساسية التي تغيّر الحياة. تلوّح الدكتورة بذراعيها، غضباً على ما يبدو من قطعية الاعتراضات، وتشير إلى أن مِن الناس من يتزوج بعمر أقل من 20 عاماً، ويختارون كلياتهم التي يذهبون إليها، وأن هذه أيضاً «خيارات تغير الحياة» تُتخذ في مرحلة المراهقة، وتنجح في معظم الأحيان. تقول: «نهدر وقتاً طويلاً في التركيز على الأشياء التي تخفق. ما نعرفه هو أن المراهقين لديهم فعلياً القدرة على اتخاذ قرار منطقي ومعلّل. وهو أمر لا جدال فيه حتى الآن». غير أن الوقاحة التي تتابع بها تقشعر لها الأبدان: «القصة مع جراحة الثديين، هي أنك إن أردت ان يكون لديك ثديان في وقت لاحق من حياتك، يمكنك الذهاب والحصول عليهما»[297].

حقاً؟ أين؟ كيف؟ هل الناس مثل مكعبات الليغو، يمكن لصق قطع جديدة عليهم وخلعها واستبدالها مرة أخرى، وحسب الرغبة؟ وهل الجراحة غير مؤلمة، بلا دم، وسلسة وخالية من الجروح، ويعلّق كل شخص ثدييه متى رغب ثم يتابع حياته بسعادة وهناء، مستمتعاً بملكيته الجديدة؟ ألا يتضمن التحوّل المعتاد من ذكر إلى أنثى، إلى جانب عمليات تغيير الثدي الأعضاء التناسلية، إعادة تشكيلٍ لعظم الذقن والأنف والجبهة، والذي يتضمن عملاً جراحياً لقشط الجلد عن الوجه؟ من دون أن ننسى زراعة الشعر وجلسات علاج النطق، وأموراً أخرى كثيرة[298]. وعلى المرأة التي تريد أن تصبح رجلاً أن تضع قضيباً معاد التكوين من نتف جلدية من مكان ما من الجسم. وغالباً ما يُنزع جلد الذراعين لهذا الغرض، من دون وجود ما يضمن نجاح الأمر. وذلك كلّه بتكلفة عشرات – وغالباً مئات

(297) شاهد الفيديو على الرابط:
https://archive.org/details/olson-kennedy-breasts-go-and-get-them

(298) للإطلاع على أوصاف تفصيلية من هذا القبيل، أنظر:
Susan Faludi, *In the Darkroom*, Metropolitan Books, 2016, p. 131.

– آلاف الدولارات. يتطلب الأمر مستوىً معيناً من الإفك لوصف هذه الإجراءات بالمتعة التي ما بعدها متعة.

هناك ما هو أسوأ. في فبراير 2017، عقدت منظمة تُدعى «الرابطة المهنية العالمية لصحة العابرين جندرياً» مؤتمرها الافتتاحي في لوس أنجلس، بعنوان: «المؤتمر العلمي الافتتاحي للرابطة المهنية الأميركية لصحة العابرين جندرياً»[299]. كان أحد أجزاء الندوة بعنوان: «خارج الثنائي – رعاية المراهقين الشباب غير الثنائيين»[300]. في هذه الجلسة، خاطبت الدكتورة أولسون كينيدي قاعة مليئة بالأشخاص الذين من الواضح أنهم يتبنون مسبقاً آراءها. بالإضافة إلى أنهم يُشاركونها بعضاً من قناعاتها على ما يبدو، تبيّن مدى صغر سن «المراهقين والشباب» المذكورين في العنوان.

على سبيل المثال، حكت أولسون كينيدي كيف كان عليها ذات مرة أن تتعامل مع طفلة تبلغ من العمر ثماني سنوات، كان «يُزعم أنها أنثى عند الولادة (من الواضح أنه أمر مضحك لها). أتت هذه الطفلة إلى عيادتها مع والديها المرتبكين. كانت ابنتهما ذكورية بالكامل: قصة شعر قصيرة، وملابس صبي». ما حدث هو أن هذه الطفلة ذهبت إلى مدرسة دينية جداً. وفي حمام الفتيات الذي كانت تذهب إليه الطفلة، تساءل الناس: «لماذا يأتي هذا الصبي إلى حمام الفتيات؟» هذه مشكلة حقيقية. لهذا كانت هذه الصغيرة من النوع الذي يُقنع نفسه أن الأمر «لا يسير على ما يرام بالنسبة إليّ، وأريد أن أفهم لماذا، أظن أن عليّ التسجيل في المدرسة بوصفي صبياً». كانت أولسون كينيدي تحكي هذه القصة كما لو كانت طرفة مرحة، وروت أيضاً انطباعات الوالدين المرتبكين والمواقف المجنونة لمن حولهم، والذين من الواضح أنهم لا يفهمون ما تنظر إليه الدكتورة وجمهورها على أنه بدهي وواضح.

---

(299) أنظر على الرابط:
http://uspath2017.conferencespot.org/

(300) 'Outside of the binary – care for non-binary adolescents and young adults'.

مِن الأطفال مَن يأتون إلى الدكتورة، ويتصفون بـ«الوضوح» الكبير و«التعبير الرائع» عن جنسهم، و«يتبنون الأمر بكل بساطة». يبدو أن «هذه الطفلة» لم تكن «منظّمة حقاً، ولم تُفكر في جميع هذه الاحتمالات المختلفة». ثم حكت أولسون كينيدي قصة طفلة تبلغ من العمر ثلاث سنوات، اعترفت لوالديها كيف كانت تعيش بوصفها صبياً (وهو ما كذّبه طبيب العائلة)، فقهقه الجمهور بأعلى صوته. في لحظة معينة، روت الدكتورة كيف سألت «الطفلة» (في المثال السابق) هل هي صبي أو فتاة، وقرأت الارتباك على وجهها. أجابت الفتاة: «أنا فتاة، لأن جسدي جسد فتاة». ثم أضافت الدكتورة: «على هذا النحو تعلمت هذه الطفلة الحديث عن جنسها، أي انطلاقاً من جسدها». هنا خطرت على بالها «فكرة عبقرية، اختلقتها في تلك اللحظة فقط». سألت الطفلة إن كانت تحب فطائر الفراولة، فردت الطفلة ذات الثماني سنوات بالإيجاب. أضافت أولسو كينيدي أنها سألت مريضتها الصغيرة ماذا لو سقطت على فطيرة فراولة داخل علبة لفطائر القرفة، هل الفطيرة التي وقعت فيها، بالفراولة أم بالقرفة؟ أجابت الصغيرة بما معناه: «ممم، إنها فطيرة الفراولة»، و«كنت مثل، جداً...». في هذه اللحظة، تعالت ضحكات وتصفيقات الحشود. تابعت أولسون كينيدي: «التفتت الصغيرة نحو أمها وقالت لها: «أعتقد أنني صبي، والفتاة تغطيني». تعالت من جديد صيحات الإعجاب والنشوة من الجمهور الذي ثمّن هذه اللحظة. ثم اختتمت الدكتورة: «أفضل لحظة هي لحظة نهوض الأم المذهولة وعناقها الكبير لطفلتها. كانت تجربة لا تصدق». وقبل أن يتمكن الجمهور من النهوض وسرد قصصهم الدافئة، تابعت الدكتورة بالقول: «أشعر بالقلق عندما يتحدّث شخص عن نفسه بصيغة المؤنث. أعتقد أن كثيراً من الأشياء تحدث في الحياة الخصوصية للأشخاص وفي طريقة فهمهم وحديثهم عن جنسهم. لذلك، لا أعتقد أنني جعلت من هذه الصغيرة صبياً». قهقه الجمهور الذي ثمّن هذا الأمر. «أعتقد أنّ منحَ هذا الصبي

الكلمات للحديث عن جنسه كان أمراً مهماً»[301].

بالنظر إلى رد فعل الجمهور، ثمة جانب واحد من الجوانب الغريبة في هذا كله، وهو أن أولسون كينيدي لا تتحدث في اجتماع لـ «المحترفين»، بل إلى مريديها. وتُكرر في هذا اللقاء سلسلة من الأفكار الثابتة، ويُحتفل بقيم تضاهيها بالثبات. ثم تُحصى مجموعة من المقترحات، يُسخر منها فيما بعد وتُرفض. ليس الجمهور هنا ليستمع إلى الأسئلة ويطحها، كما هو الحال في مؤتمر أكاديمي أو مهني. تهليلات وضحكات، وتذمر وتصفيق، كما لو كنّا في أحد اجتماعات «الإحيائيين» المسيحيين.

أو أيضاً في نادٍ للكوميديا. سألت أولسون كينيدي الشخص التالي الذي أخذ الميكروفون: «هل أنت مقدّم خدمات طبية؟» أجابها: «نعم نعم». ثم قالت «أوكيه». وعلى ما يبدو كانت غير راغبة في التخلي عن الميكرفون، فتابعت بالقول: «هذا أمرٌ تعلمته من زواجي من متخصص في الصحة العقلية». في هذه اللحظة، قال مقدم الخدمات الطبية بصوت أجش: «أخبرينا المزيد عن ذلك». تبع ذلك سيل من التصفيق والصياح والضحك التقديري لما بدا أنه نوع من التلميحات الهزلية. وما إن عاد الهدوء إلى القاعة، تابع الطبيب (الذي اتضح أنه من ولاية أيوا): «كنت سأبوح لك ما أفعله في ممارستي عندما ألتقي أحداً ما لأول مرة». أقول له: «إذا كان معك عصا سحرية أو أداة من تلك الأدوات المستخدمة في المسلسل Star Trek [ستار تريك]، وتستطيع أن تفعل ما تشاء، ماذا تود أن يحدث؟ ماذا أستطيع أن أفعل؟ وبهذه الطريقة أعرف إلى أين يريدون الذهاب وأرى ما أدواتهم». عادةً، إذا قال طفل إنه يرغب في تحريك عصا وتغيير وضع ما، ينتهي الأمر عندما يفتح عينيه، مدرِكاً أن العصا لا تعمل، مهما كانت التعويذة التي نطق بها. أما عالم الأيديولوجية العبورية، يُخبر الراشدون الأطفالَ أن العصا،

(301) أنظر على الرابط:
http://uspath2017.conferencespot.org/

إن لوحوا بها، فأمانيهم مُحقَّقة، وإن أرادوا أن يلبوا رغبة في شيء ما، يتدبر الراشدون أمرهم ليُحققوا السحر.

ليست هذه النكتة التي شارك فيها هذا المشارك الدكتورة أولسون كينيدي على هذا القدر من الهزل الذي اعتقده المشاركون في هذه الندوة. لأن «المتخصص في الصحة العقلية» الذي تزوجت منه، يُطبق، هو أيضاً، بعض المهارسات غير العادية.

يعمل آيدن أولسون كينيدي Aydin Olson-Kennedy في «مركز الجندر في لوس أنجلوس». توضّح سيرته الذاتية بالإضافة إلى كونه «أخصائياً اجتماعياً إكلينيكياً مرخّصاً» و«متخصِّصًا في الصحة العقلية» وملتزماً بـ «الدفاع عن الحقوق»، أنه حقق العبورَ الخاص به. وكما يقول «المركز»، فهو «يجلب معه منظوراً فريداً لمسيرته المهنية بوصفه عابراً جندرياً احتاج في لحظة معينة إلى الرعاية الطبية نفسها والصحة العقلية نفسها». في مثل هذه الحالة، فإن معرفة كيف يتمفصل الطب والرعاية والعمل الاجتماعي والدفاع عن الحقوق، هي مسألة وثيقة الصلة بالموضوع.

خضع آيدن لعملية استئصال الثديين في إطار عبوره إلى «هو» – وهي عملية نادراً ما تترك ندوباً. لكن ربما كان اختيار آيدن أن يخضع لهذه العملية هو أحد الأسباب التي تجعله يبدو سعيداً عندما يوصي بها الآخرين. من بين الحالات الموثقة فتاة في الرابعة عشرة من عمرها، مع تاريخ من الاضطرابات النفسية. الحالة الأكثر إثارة للصدمة هي حالة طفلة أميركية مصابة بمتلازمة داون. عانت هذه الفتاة – ميليسا – من مجموعة من المشكلات الصحية الجسدية والعقلية، وبحسب ما ورد، فقد عانت أيضاً من سرطان الدم. ولأسباب معقدة، بدا أن أم الطفلة كانت في بحث دائم عن تشخيص بديل لابنتها. ووصلت إلى استنتاج (بمساعدة) أن ابنتها كانت في الواقع عابرة. كان آيدن أولسون كينيدي من بين الأشخاص الذين أيدوا هذا الاستنتاج، ودعوا إلى خضوع الفتاة للعبور نتيجة

لذلك. كما طلب أيدن من أشخاص عابرين التبرع بالأموال لمساعدة الطفلة المصابة بمتلازمة داون لعملية استئصال الثديين[302].

في النهاية، ولمزيد من التعقيد، كما لو لم يكن الأمر معقداً مسبقاً بما يكفي، فإن الزوجين أولسون كينيدي هما مستشاران مسجلان لشركة «أندو للصناعات الصيدلانية»، التي تصنع هرمون التستوستيرون من بين أشياء أخرى.

إلى أين يودي بنا ذلك كله؟

إذا كان المثليون والمثليات ومزدوجو الميل الجنسي فئات غير مُحدّدة داخل الأقليات الجنسية، فإن العابرين جندرياً هم الأقل وضوحاً والأكثر زعزعة للاستقرار بينها جميعاً. وإذا كان معنى مصطلحات مثل «المثليون» و«المثليات» و«مزدجو الميل الجنسي» غير جامع مانع، فإن معنى «العابرون» بالغ الغموض، ولا سيما بالنظر إلى التبعات الجذرية التي يتضمنها. لا يعني ذلك رفض مطالبات المساواة في الحقوق – فالواقع أن قلة من الناس تعتقد وجوب حرمان أي شخص من الحقوق المتساوية. بل يعني أن الأفكار والافتراضات المسبقة هي التي تسبب المشكلات. وليست المطالبة بضرورة موافقة الجميع على استخدام ضمائر جندرية واعتياد وجود أشخاص من الجنس الآخر في حمامات واحدة، سوى الطرف الآخر – المبتذل نسبياً – من طيف القائمة الطويلة للمطالب. والأشد خطورة هو تشجيع الأطفال والضغط عليهم للخضوع لجراحات طبية في وقت لا نسيطر فيه على الإشكالية العبورية إلا قليلاً. من ناحية أخرى، لا يقف العمر الذي يُدفع فيه الأطفال إلى تنفيذ هذا الخيار عن الانخفاض: في نهاية عام 2018، أدين طبيب متخصص في اضطرابات الجندر في ويلز أمام المحكمة بتهمة تقديم خدمات

(302) للإطلاع على مزيد من لقطات الشاشة ومواد أخرى مرتبطة بهذه الحال، أنظر الرابط: http://dirtywhiteboi67.blogspot.com/2015/08/ftm-top-surgery-forsky-tragic-story-in.html

الرعاية الصحية بصورة غير قانونية. كانت عيادته توفّر هرمونات تغيير الجنس للأطفال حتى سن الثانية عشرة[303].

ولماذا قد لا يستمر هذا الانخفاض مع كل ما نراه من تشجيع للطلب عبر الترغيب والتهديد والابتزاز والتلويح بالكارثة؟ ينظر إلى مَن يأتي على ذكر العيوب والمخاوف المتعلقة بالتحول الجنسي على أنه مفعم بالكراهية، ويتهم بتشجيع العنف ضد العابرين، أو بدفعهم إلى إيذاء أنفسهم. ليس على غير العابرين إلا أن يلزموا الصمت بشأن هذه القضية، أو أن يتحدثوا عنها لإبداء قبولهم ورضاهم. أدى هذا الموقف بالفعل إلى ابتكار مفاهيمَ جديدة أتت من بعض التيارات النسوية والعبورية، مثل فكرة أن بعض الأشخاص هم «غير ثنائيين» أو «من جنس مائع». في فيلم لهيئة الإذاعة البريطانية بعنوان: «الأشياء التي لا يجب قولها لشخص غير ثنائي»[304]، يظهر شابان يتحدثان عن مدى تقييد وتبسيط فكرة أن يكون الإنسان ذكراً أو أنثى. وكما قال أحدهما: «أقصد، ماذا يعني رجل وماذا يعني امرأة؟» يتضح في الفيلم من مشاهدة هذين الشابين، وآخرين غيرهما يُدلون بتصريحات مشابهة، شعور واحد مهيمن، وهو الرسالة الحقيقية التي يبعثون بها، وهي: «انظروا إلينا!».

هل هذا هو الحال أيضاً مع بعض الشباب الذي يقول إنه عابر جندرياً؟ الاحتمال وارد جداً. لا توجد مع ذلك طريقة واضحة تتيح معرفة من ينطبق عليه كل هذا ومن لا ينطبق - أو من ذا الذي ينبغي تشجيعه على التحرك باتجاه التدخل الطبي، ومن يجب حثه خلافاً لذلك على الابتعاد عنه. أقرت حتى جوهانا أولسون-كينيدي Johanna Olson-Kennedy بأن معظم الأفراد الذين يعرِّفون أنفسهم بوصفهم عابرين، لا يعاني من أي اضطراب في النمو الجنسي.

إن الميل إلى تقديم أنواع العلاج بالهرمونات والجراحة في صورة تبسيطية للغاية

(303) 'GP convicted of running transgender clinic for children without licence', *The Telegraph*, 3 December 2018.

(304) 'Things not to say to a non-binary person', *BBC Three*, 27 June 2017.

من شأنه أن يُقنع عدداً من الناس بأن مشكلات حياتهم يمكن أن تُحلّ بسهولة عن طريق التركيز على سوء الفهم الأساس هذا. قد يكون الأمر قد نجح مع جاز جينينغز حتى الآن، وربما نجح أيضاً مع كايتلين جينر. لكن الجراحة لم تحلّ مشكلات ناثان فيرهيلست، على فرض أن ذلك كان ممكناً. ليست مشكلة عصرنا في التباين، بل في اليقين الزائف الذي يُقدّم مسألة بالغة الغموض بوصفها أوضح ما يمكن تخيّله وأكثر أمر نقبض عليه بإحكام.

خلاصة

يوحي دعاة العدالة الاجتماعية وسياسات الهوية وتقاطع أشكال التمييز بأننا نعيش في مجتمعات عنصرية، ومتحيّزة جنسياً، وكارهة للمثلية الجنسية والعبور الجندري. ويؤكّدون أن أشكال الاضطهاد هذه تتداخل وتتقاطع، وأننا إذا تعلّمنا كيف نتبيّن هذه التقاطعات والتداخلات، ثم كيف نحلّ عقدتها، سوف نتمكن في النهاية من تحرير المضطهدين في زمننا. ثم بعد هذا التحرير، سوف يطرأ حدثٌ ما. غير أن طبيعة هذا الحدث لا تزال ضبابية. قد تكون العدالة الاجتماعية حالة تظلّ دائمة ما إن نصل إليها. وقد تتطلب انتباهاً مستمراً. هذا ما لن نكتشفه في أغلب الظن.

أولاً، لأن أشكال الاضطهاد المتداخلة لا تتراصف تراصفاً منسجماً، بل تتطاحن ببشاعة وبصخَب الواحد فوق الآخر. وتزداد احتكاكات بعضها ببعض بدلاً من تقلّص حجمها. وبدلاً من أن يعمّ السلام وراحة البال، ستُفاقم هذه الأشكال التوترات، وستزيد من جنون الحشود. لقد ركّز هذا الكتاب على أربع من أكثر القضايا تكرّراً في مجتمعاتنا. أصبحت هذه الموضوعات مكونات أساسية في أخبار كل يوم، وعلاو على ذلك، باتت تؤلّف أساساً لأخلاق مجتمعية جديدة. لم يعد الحديث عن مصير المرأة والمثليين والأفراد من خلفيات عرقية متنوعة أو العابرين جندرياً، مجرّد سبيلٍ لإظهار التعاطف مع هؤلاء، بل بات أيضاً وسيلة لإظهار شكل من أشكال الأخلاق. على هذا النحو يُمارس هذا الدين الجديد. إذ أصبح «النضال» من أجل هذه القضايا والترافع عنها طريقةً لإظهار أننا من الأخيار.

ثمة معنى في ذلك كلّه. هو أن تلبية رغبة الناس في أن يعيشوا الحياة المتوافقة مع

تطلعاتهم مشروع يعكس بعضاً من أكثر الإنجازات الثمينة في مجتمعاتنا – علماً أن هذه الإنجازات نادرة بما يدعو للقلق في مناطق أخرى كثيرة من العالم. هناك 73 دولة في العالم يُحظر فيها أن تكون مثلياً، وثماني دول يُعاقب فيها المثليين بالإعدام[305]. في بعض من بلدان الشرق الأوسط وإفريقيا، تُحرم المرأة من الحقوق الإنسانية الأساسية. ولا تتوقف أعمال العنف بين الأعراق عن الاندلاع والتفجّر في مناطق متنوعة من الكوكب. في عام 2008، هرب 20 ألف موزمبيقي من إفريقيا الجنوبية، وعادوا إلى بلدهم بعد أعمال شغب قام بها مواطنون من جنوب إفريقيا ضد الموزمبيقيين في البلدات السوداء وخلّفت عشرات القتلى وآلاف المشردين. ما من مكان آخر في العالم يحمي فيه القانون حق الأشخاص العابرين جندرياً في عيش حياتهم التي يرغبون فيها أكثر من الغرب المتقدّم. يمكن لجميع هذه المكتسبات أن تكون موضوعَ احتفاء، شأنها شأن الإنجازات التي تُمثّل ثمرة منظومات تشريعية وتشبّثاً تاريخياً بحقوق الإنسان. وهنا تكمن المفارقة: تُقدَّم الدول الأكثر تقدّماً اليوم في حقول متنوعة بوصفها من بين الدول الأسوأ. نستطيع أن نرى في هذه المفارقة تنويعة على مَثِلِ دانيال باتريك موينيهان Daniel Patrick Moynihan، القائل: في جميع البلدان، تتناسب الادعاءات بانتهاكات حقوق الإنسان عكساً مع عدد انتهاكات حقوق الإنسان. فنحن لا نسمع عن مثل هذه الانتهاكات في دول غير حرة. وحده المجتمع الحرّ الذي يمتلك حرية كبيرة، مَن يسمح، ويُشجع الاتهامات المضادة التي لا نهاية لها حول الممارسات الجائرة. وبالمثل، لا يمكن لمواطن أن يُقدِّم كليةَ آداب وعلوم إنسانية، أو وجبةَ طعام في بورتلاند، على أنهما تقعان على حدود الفاشية، إلا إذا كان عالَم المشتكين على الطرف المناقض من الفاشية.

ومع ذلك، فقد انتشرت هذه الروح الاتهامية والادعائية والانتقامية، وذاعت بسرعة هائلة. لا يعود هذا الانتشار السريع إلى التكنولوجيات الجديدة، على

(305) أقام من المنتدى الاقتصادي العالمي الذي عُقِد في يونيو 2018.

الرغم من أن حقبة الهاتف الذكي وtweeter لا تتجاوز العقد من الزمن. ثمّة شيء أخذ ينحرف عن مساره في خطاب حقوق الإنسان والممارسات الليبيرالية قبل هذا العقد. ويبدو الأمر كما لو أن النهج الاستفهامي لليبيرالية قد أُستبدِلت به دوغمائية ليبيرالية تريد أن تقنعنا أن المشكلات العالقة وجدت حلاً لها، وأن المسائل الغامضة باتت بيّنة، وأن نظريات مختلّة تستطيع الآن أن تساعدنا على تشييد مجتمع متماسك. في هذا السياق، تُقدَّم نتائج حقوق الإنسان بوصفها أُسس هذه الحقوق، في حين أن هذه الأسس المزعومة تُشكّل كيانات على درجة لا تضاهى في تقلقلها. ليت هذه الليبيرالية سمحت بقطرة من التواضع داخل هذا الجليد المتجمّد من اليقينيات. ذلك أن هذا الشكل من التبشير الدوغمائي والانتقامي قد يُزعزَع عاجلاً أم آجلاً، أو حتى يتسبَّب بتهدّم الثقافة الليبيرالية بأسرها. ففي النهاية، من غير المؤكّد أن الأكثرية الكاثرة من السكان سوف تستمر بقبول المطالبات التي نحملهم على القبول بها، وسوف يتحمّلون لوقت طويل تكميم أفواههم بأوصاف ننهال بها عليهم بعد رفضهم هذه المطالبات.

ولا بد من تحديد مواضع الخلل في هذه النظرية الجديدة عن الوجود، وفي تسويغه الجديد، لأن الآلام التي سوف يستمر هذا القطار التقاطعي بالتسبب بها إذا استمر على الطريق نفسه هي آلام هائلة. يُضاف إلى ذلك أن الميتافيزيقا الجديدة التي يتمثّلها اليوم الجيل الجديد، ويخضع لها بالإكراه كلّ منّا، إنما تتضمن مكوّنات غير مستقرة، إلى جانب أنها تنبثق عن رغبة. قوام هذه الرغبة صياغة يقينيات في شأن ظواهر لا نعرفها، وإظهارنا أشخاصاً محتقرين بصورة مهينة، ونسبويين في شأن مشكلات نعرفها معرفة جيدة. وتنصّ العقيدة الجديدة على أن أي شخص يستطيع أن يُصبح مثلياً، وأن النساء قد يكن أفضل من الرجال، وأن بعضهم يستطيع أن يصير أبيض، لكن ليس أسود، وكل من يشاء يستطيع أن يُغيّر جنسه. وكلّ فرد يرفض هذا المخطط هو مضطهِد. وأن كل شيء على الإطلاق يُمكن أن يُسيّس.

ويوجد ما يكفي من التناقضات وأوجه اللبس هنا ليملأ حياةً بأكملها. لا تقتصر هذه التناقضات على التفصيلات، بل تطاول الأسس التي نُصّبت بوصفها أسساً مطلقة. ما الذي على الرجال والنساء، أكانوا مثليين أم غيريين، فعله بتأكيدات خبرائنا الذين يريدون إعطاء جنس إلى الأطفال مختلف عن جنس الولادة؟ لماذا قد يُنظر إلى شابة بملامح مسترجلة على أنها متحوّلة جنسياً، ويجب إخضاعها لعمل جراحي لكي تتحول إلى رجل؟ لماذا يُنظر إلى صبي صغير يُحب التنكّر كأميرة على أنه متحول جنسي يجب تحويله إلى أنثى ومن دون انتظار؟ قد تكون ادعاءات خبراء الجندر في شأن أولئك الذين يصفونهم بأنهم فطائر محلاة موضوعة في عبوة خاطئة ناتجة من خطئهم في قراءة محتويات العبوة لا من خطأ في العبوة بحد ذاتها. تُشير التقديرات إلى أن ما يقرب من 80 في المئة من الأطفال الذين شُخّص لديهم ما ندعوه اليوم اضطراب الجندر، يلاحظون أن هذه المشكلة تحل نفسها بنفسها خلال فترة البلوغ. أي إنهم يُشعرون بالراحة في نهاية الأمر مع جنسهم البيولوجي الذي جاء معهم عند الولادة. وستتحوّل الغالبية منهم إلى بالغين مثليين أو مثليات[306]. ماذا سيكون شعور المثليين أو المثليات بعد عقود من القبول بما هم عليه، حيال الواقع بأن جيلاً جديداً من الأطفال ممن سيكبرون ويصبحون مثليين ومثليات، يسمعون من يقول لهم إن سماتهم الأنثوية تجعلهم نساءً، أو أن خصائصهم الذكورية تجعلهم رجالاً؟ وكيف على النساء أن يتصرّفن حيال ذلك؟ بعد عقود من النضال من أجل فرض حقوقهن، كيف يقبلن أن تُملى عليهن هذه الحقوق – بما فيها حقهن في الكلام – على لسان أشخاص ولدوا ذكوراً؟

(306) انظر:
'Do trans kids stay trans when they grow up?, *Sexology Today* (www.sexologytoday.org), 11 January 2016.

هذه المطالبات لا تتقاطع، بل تودي إلى الجنون

بخلاف ما يزعمه ناشطو العدالة الاجتماعية، تتفاعل هذه الفئات بعضها مع بعض تفاعلاً سلبياً. ليست مصفوفة الاضطهاد مكعبَ روبيك كبير ينتظر أن يُنظّم علماء الاجتماع مربعاته كما يجب. تتعلق المسألة بلائحة من المطالب غير المتوافقة، ولا سيما بهذا الشكل.

في عام 2008، قامت مجلة Advocate بحملة ضد «الاقتراح 8»، الذي يريد إلغاء زواج المثليين في ولاية كاليفورنيا. أرادت أهم مجلة أميركية تُعنى بمثليي الجنس أن تُطلِق حملتها بقوّة، فعنونت صفحتها الأولى في نوفمبر 2008: «مثلي الجنس هو الأسود الجديد». لم تنل هذه المعادلة الترحيب من الأميركيين السود. وكذلك الأمر للعنوان الفرعي للمقالة على الصفحة الأولى، والذي جاء فيه: «الحلقة الأخيرة في نضال طويل من أجل الحقوق المدنية؟». حتى علامة الاستفهام هذه، التي هي حيلة صحفية قديمة، وأضيفت بعد وهلة، لم تخفّف من حدة الانتقادات[307]. كما قال أحد النقّاد، فإن حجة «مثلي الجنس هو الأسود الجديد» كانت مسيئة لأسباب متعددة، من بينها الانفصال الكامل بين «الزواج من الجنس نفسه، والقوانين التي تحظر الأزواج المختلطة عرقياً»[308]. في كلّ مرة يبدو أن هذه السجالات والمقارنات قد جرى تخطيها، وأن المطالبات المتنوعة يمكنها أن توجد معاً في وئام، تندلع سجالات أخرى جديدة ومن النسق نفسه.

في بعض الأحيان، يكفي أن يطرح أحد ما السؤال الخطأ. في أعقاب قضية راشيل دوليزال، نشرت مجلة الفلسفة النسوية Hypatia مقالة من تأليف الأكاديمية ربيكا توفيل Rebecca Tuvel. طرحت هذه الأخيرة السؤال الأكثر مدعاةً للاهتمام. فانطلقت من مقارنة في المعاملة بين راشيل دوليزال وكايتلين جينر Caitlyn Jenner، لتطرح السؤال الآتي: «إذا قبلنا بقرار الأفراد العابرين

(307) *Advocate*, 16 November 2008.

(308) Voddie Baucham, 'Gay is not the new black', *The Gospel Coalition*, 19 July 2012.

جندرياً تغيير جنسهم، علينا أن نقبل أيضاً بقرارات الأفراد العابرين عرقياً تغيير عرقهم». لقيت هذه الحجة حماساً فاتراً. غير أن توفيل سجّلت نقطة لجهة الاتساق المنطقي: إذا أبحنا للأفراد المطابقة بين الهوية والرغبة، لماذا يتوقف هذا الحق عند حدود العرق وليس عند حدود الجنس؟ لكن بالنظر إلى الأعراف الحالية، لا يوجد ما هو أسوأ حظاً من هذه الملاحظة. أثارت هذه المقالة ثائرة الناشطين السود خصوصاً. وُقّعت عريضة ضد توفيل، ورسالة مفتوحة جمعت التوقيعات الضرورية، واستنكرت مقالتَها إحدى المحررات المساعدات في المجلة. ثم اُتّهمت المجلة بأنها سمحت لـ«أكاديميين بيض منحازين» المشاركة في نقاشات أدت إلى مفاقمة «رهاب العبورية والعنصرية»[309].

تسببت هذه المجلة النسوية غير المعروفة جداً بتداعيات كبيرة في العالم لدرجة أنها في غضون فترة زمنية قصيرة جداً، اعتذرت عن نشرها المقالة، واستقالت محررتها، واستبدِل جميع مديري المجلة. حتى توفيل نفسها، فقد توسّلت حُكّامها القبول بأنها كتبت المقالة «انطلاقاً من دعم أولئك الذين لديهم هويات غير معيارية، ومن الإحباط من الطريقة التي يُدان بها الأشخاص الحاملون لها، ويوصمون بسبب جسدهم، وتُكمّ أفواههم»[310]. لكن هذه الإضافة التي أكدّت توفيل أنها هدف المقالة الوحيد، لم تلق الترحيب على ما يبدو. لو أن ريبيكا توفيل شاهدت راشيل دوليزال في برنامج الواقع على التلفاز في عام 2015، لكانت حصلت على إجابة عن سؤالها. أوضحت النساء الملونات لدوليزال في هذا البرنامج أن العبور العرقي غير مقبول لأن الشخص الذي نشأ أبيض اللون لا يستطيع أن يفهم ما يمكن أن يشعر به الشخص الذي نِشأ أسود اللون. لا يمكن أن يعيشا التجارب نفسها[311]. هذه هي الحجة التي كانت النسويات من الموجة

(309) رسالة مفتوحة إلى مجلة *Hypatia*، على الرابط:
https://archive.is/lUeR4#selection-131.725-131.731

(310) 'Philosopher's article on transracialism sparks controversy (Updated with response from author)', *Daily Nous*, 1 May 2017.

(311) *The Real*, KPLR, 2 November 2015.

الثانية تستخدمنها في الوقت نفسه بشأن المتحوّلين جنسياً. لكن الحجة التي نجحت مع العرق، لم تنجح مع النساء.

إذاً، قد تنبثق المشكلة لأن أحداً ما قد طرح السؤال الخطأ، أو سؤالاً محرجاً. أو قد تنبثق لأن أحداً ما ادّعى أنه يُعيد للأشياء جمالها ووضوحها، فإذا به إنسان فوضوي معقّد.

في أكتوبر 2017، أعلنت مجلة Gay Times البريطانية عن أول محرر لها من الـ BME [السود والأقليات العرقية]، وهو جوش ريفرز Josh Rivers (كان هذا في شهر لم تستبد فيه بعد BAME [السود والآسيويون والأقليات العرقية] بـ BME). لم يصمد ريفرز أكثر من ثلاثة أسابيع. فبعد هذا الإعلان مباشرة، قررت مجلة Buzzfeed إجراء بحث في تاريخه على tweeter، فوجدت شخصاً آخر مع قافلة طويلة من الرهائن. من 2010 إلى 2015، كان ريفرز قد أدلى بعدد من التعليقات لمتابعيه البالغ عددهم ألفي متابع. حذرت Buzzfeed أن هذه التعليقات «ستصدم كثيراً من القراء».

لم يكن ريفرز مثالاً لمناهضة العنصرية. في الواقع، بدا أن لديه مشكلة خاصة مع اليهود، ولم يكن يحب الآسيويين كثيراً. وعندما يأتي على ذكر فئات أخرى – مثل الأفارقة، وخاصة المصريين – فمن أجل الحط من قدرهم. نعت المصريين بـ«السمينين، وكريهي الرائحة، والمشعرين، وذوي وجوه بلهاء، ومغتصبين متخلفين». لم يكن يحب السمينين، والبروليتاريين، ومَن وصفهم بـ«المتخلفين عقلياً». وجه سهامه أيضاً إلى المثليات. ولم يسلم من هذه السهام العابرون جندرياً. عام 2010، كتب في تغريدته: «اسمعني قليلاً، أيها العابر: 1) أنت أشبه بمدمن مخدرات 2) أنت متحول جنسي 3) شعرك المستعار لا قيمة له. عثر لك على مكان آخر، عزيزي». حذّرت جهة نشرٍ أخرى معنية بالمثليين من هذه التغريدة، والتي نقلت القضية كلها بحزن. وقالت إن هذه التغريدة «مروّعة

بصورة خاصة»[312].

أجرت مجلة Gay Times «تحقيقاً» سريعاً، ثم أعلنت إقالة محررها الذي ينتمي إلى «السود والأقليات العرقية» في غضون 24 ساعة، وأنها أزالت جميع مقالاته السابقة من موقعها الإلكتروني. وطمأنت الجميع أنها «لا تتسامح مع مثل هذه الآراء، وستواصل السعي في سبيل تكريم الدمج وتعزيزه»[313]. بعد بضعة أسابيع، اعتذر ريفر عن محتوى تغريداته السابقة، ثمّ قدّم تأويله الشخصي لهذه الحوادث في مقابلة. قال إن ردود الفعل على تغريداته اصطبغت بصبغة «عنصرية». وتابع: «ردود الفعل البيضاء كانت: ها ها! ها! هاها! والأمر على هذا النحو بالفعل، إنه كذلك، واضح وفجٌّ، أبيض وأسود، تماماً كردود الفعل هذه»[314]. كان نقد تغريداته العنصرية في نظره فعلاً عنصرياً في حد ذاته.

نسمع احتجاجات مشابهة تتردد في جميع المجالات. عندما يُسمح للمتحولين جنسياً من رجل إلى امرأة بالمشاركة في المنافسات الرياضية النسائية، غالباً ما تكون النتائج متعارضة مع فكرة التكافؤ بين الجنسين. على سبيل المثال، في أكتوبر 2018، فازت المتحوّلة راشيل ماكينون Rachel McKinnon ببطولة العالم للسيدات في السباق العالمي للدراجات في كاليفورنيا. إلا أن المرأة التي أبعدتها ماكينون إلى المركز الثالث، جين فاغنر أسلي Jen Wagner-Assali، وصفت فوز ماكينون بأنه «غير منصف»، وطالبت الهيئة الدولية لركوب الدراجات بتعديل القواعد المنظّمة للمسابقة. لكن الفائزة وصفت فكرة أن النساء المتحولات جنسياً يهددن بأي شكل من الأشكال مشاركة النساء في الرياضة، بالفكرة «الكارهة

(312) Patrick Strudwick, 'The newly appointed editor of Gay Times has been fired for posting dozens of off ensive tweets', *Buzzfeed*, 16 November 2017.

(313) 'Gay Times fires "Jews are gross" editor who sent vile tweets', *Pink News*, 16 November 2017.

(314) Josh Rivers interview with Lee Gray, 'The Gray Area', *YouTube*, 8 June 2018.

للمتحولين»[315].

لم ينته الأمر بعد. عندما واجهت حنة مونسي Hannah Mouncey صعوبة في الانضمام إلى فريق كرة اليد الأسترالي للسيدات، قالت إن من شأن ذلك أن يبعث برسالة مروعة إلى النساء والفتيات عن أجسادهن: «إذا كنتِ كبيرة، فلا يمكنك اللعب. إنه أمر بالغ الخطورة والتخلف». كانت مونسي المرأة المتحولة الوحيدة في الفريق، والتفاوت في حجمها لم يكن طفيفاً. بدت صورة فريق لاعبات كرة اليد كأنها تضمّ لاعبَ رُوكبي ضخماً جداً في المؤخرة. هل كنّا أمام تمييز على أساس الطول؟ هل من التخلّف ملاحظة هذا الأمر؟ وهل من التخلّف التعليق على ميزّة لاعب وُلد رجلاً – مثل لوريل (المولودة باسم كافن Gavin) هوبارد Laurel Hubbard، ويُشارك في منافسات رفع الأثقال للسيدات من فئة الوزن أكثر من 90 كغ؟

في عام 2018، فازت فتاة تبلغ من العمر 18 عاماً، وتُدعى ماك بيغز Mack Beggs بلقب المصارَعة النسائية لفئة 50 كغ في تكساس للمرة الثانية على التوالي. كانت بيغز في مرحلة العبور من أنثى إلى ذكر، وتأخذ جرعات التستوستيرون. لم يلفت انتباه التقارير الصحفية عن انتصارات بيغز سوى صيحات الاستهجان من بعض الجمهور، عندما كانت بيغز تبطح منافستها أرضاً، كما لو أن التعصب الأعمى وضيق الأفق هما المشكلة الحقيقية هنا. يشي ذلك كله بإصرار على خداع لافت للذات. ذلك أن اكتشاف تناول هرمون التستوستيرون في عالم الرياضة يُعدّ أساساً لمنع شخص ما من المنافسة، اللهم إذا اتضح أنه يأخذ هذا الهرمون لتسهيل عبوره إلى الجنس الآخر. في هذه الحالة، تتراجع العقلانية، وتتصدّر المشهد الحساسية. لكن هناك ما هو أخطر من ذلك!

(315) 'Transgender women in sport: Are they really a 'threat' to female sport?', *BBC Sport*, 18 December 2018.

لا يقتصر منع العنف الجسدي ضد النساء على النسوية، بل هو القاسم المشترك بين جميع المجتمعات المحترمة والمتحضرة. والحال أن العالم يُشيح بوجهه عن حقيقة أن متباريات ولدن رجالاً يُشاركن في منافسات رياضية تتطلب الاحتكاك الجسدي، ويطرحون أرضاً النساء. في فنون القتال المختلطة، احتدم السجال بهذا الخصوص منذ سنوات. وتُعدّ حالة فالون فوكس Fallon Fox هي الأشهر في هذا السياق. وُلدت فوكس رجلاً، وتزوجت، وكانت أباً لطفلٍ، ثم انضمت إلى القوات البحرية. لكن في عام 2013، أعلنت أنها متحولة جنسياً، بالتزامن مع بداية مسيرته المهنية بوصفها متبارية نسائية. أوضحت أخصائية الغدد الصماء الحاصلة على شهادة البورد (الدكتورة رامونا كروتزيك Ramona Krutzik)، أن فوكس تتمتع بمزايا هي: كثافة العظام التي اكتسبتها عندما كانت رجلاً، والكتلة العضلية التي بنيت خلال جميع هذه السنوات، وبصمة التستوستيرون على الدماغ التي لا تختفي مع تناول مضادات الذكّار أو العملية الجراحية. إن من شأن جميع هذه المزايا أن تمنح فوكس ميزة بدنية، إلى جانب تفوق محتمل في الحلبة[316].

وكما أشار خبير الفنون القتالية ومقدّم البث الصوتي جو روغان Joe Rogan: "هناك فارق هائل في الدرجة بين القوة التي يمكن لرجل أو امرأة أن ينميّاها... هناك اختلاف في شكل الوركين، وحجم الكتفين، وكثافة العظام، وحجم العضلات. وفي هذه الرياضة، يقول روغان، الغرض منها واضح جداً: «أن تقضي على الشخص الذي ينافسك». ومع ذلك، فإن مجرّد السؤال هل يجب السماح لشخص يتمتع بالمزايا البدنية التي أتت إليه من ماضيه الذكوري، بالتغلب على المتباريات النساء أمام الجمهور وعلى الهواء مباشرة، إنما يُثير اعتراضات شرسة. وكما قال روغان لاحقاً: «لقد هاجمني الناس بقسوة لم أعهدها في أي موقف اتخذته من قبل. لم أكن لأتخيل في حياتي حالةً أقول فيها اسمعوا، لا أعتقد أنه من الملائم

---

(316) Stephie Haynes, 'Dr. Ramona Krutzik, M.D. discusses possible advantages Fallon Fox may have', *Bloody Elbow*, 20 March 2013.

أن يأتي رجلٌ بعد أن أزال قضيبه ويضرب النساء، ثم أسمع مَن يردّ بالقول "أنت تتجاوز الحدود". لكن هذا ما حدث لي بالحرف»[317].

كان من المفترض أن يُمهّد الوعي المتزايد بالفروقات بين الفئات الاجتماعية لتشييد منظومة أكثر إنصافاً، أو لإنهاء الأحكام المسبقة المتداخلة والمتشابكة بغية تحرير العالم منها. لكن لنعترف في هذه المرحلة المبكرة نسبياً بأن هذه العملية أسفرت عن مشكلات أكثر ممّا طرحت حلولاً، وأدت إلى استفحالٍ أكثر ممّا قادت إلى التعافي. وتستمر حروب اختيار الممثلين في إفساد غياب الأحكام المسبقة العرقية، وجعل لون البشرة هاجساً جماعياً، وذلك على حساب تجاهل الخصائص الأخرى، الأمر الذي أصبح بذاته مشكلة. يُفرض عرفٌ في كلّ مكان يقضي بأنه لا حق لنا أن نقدّم شخصية لا نتطابق معها. فبعد أن نجت سكارليت جوهانسون من السجالات التي أثارها فيلم [شبح في الهيكل]، والذي أدت فيه دور ضمير امرأة آسيوية داخل روبوت أبيض؛ كان من حظها العاثر أنها اختيرت في العام التالي لتأدية دور رئيسة عصابة في الستينيات في فيلم Rub & Tug [روب وتوغ]. لكن البطلة (المستوحاة من شخصية واقعية) التي كان عليا تجسيدها متحوّلة، فاضطرت الممثلة في نهاية المطاف إلى التخلي عن تأدية الدور بعد أن قُضي بأنها عاجزة عن تجسيد امرأة متحولة وإثر سيل الانتقادات الجديدة الذي انهال عليها. حتى أولئك الذين أثاروا أسئلة حول سداد انسحابها ذاقوا لوعة هذه الانتقادات. نشر موقع الأخبار المالية Business Insider مقالة دافع فيها عن جوهانسون «التي انتُقدت ظلماً لأنها قامت بعملها». لكن ما إن بدأت الحملة ضد جوهانسون حتى أزيلت المقالة دون تلكّؤ[318]. في العام نفسه، انتشرت دعوات لمقاطعة فيلم من بطولة الممثل المثلي مات بومر Matt Bomer. لم تأتِ هذه الدعوات من بعض

(317) Joe Rogan conversation with Maajid Nawaz and Sam Harris, Joe Rogan Experience 1107, *YouTube*, 18 April 2018.

(318) 'Business insider deletes opinion piece defending Scarlett Johansson's role as trans man in new film', *Pink News*, 9 July 2018.

الكنائس الهامشية، بل من محتجين اشتكوا من أن يؤدي «ممثل أبيض متوافق الجنس» – لم يشفع له أنه مثلي! – دور امرأة عابرة، ما شكّل في نظرهم «ازدراءً لكرامة النساء العابرات»[319].

بينما أدين الازدراء في بعض المناسبات، قُمع في مناسبات أخرى في حين كان من الممكن إدانته فحسب. في فبراير 2018، عندما كان رئيس الوزراء جاستن ترودور Justin Trudeau يخطب بالطلاب ويجيب عن أسئلتهم في جامعة ماك إيوان في إدمونتون، طرحت شابة بأدب سؤالاً ذكرت فيها عرضاً مصطلح mankind [الجنس البشري]. فما كان من رئيس الوزراء الكندي إلا أن قاطعها ملوّحاً بيده رافضاً، وقال: «نُفضّل أن نقول people-kind [people = الناس]، وليس mankind [man = الرجل]، لأن المصطلح الأخير أكثر شمولاً». ثم اشتعل الجمهور حماسةً وتصفيقاً، ولم ينتبه أحدٌ إلى أن رجلاً أبيض قوياً يتسبب بالإحراج لشابةٍ، هو بصدد ممارسة «الوصاية التفسيرية للرجل».

تنقسم الحركات الهوياتية إلى مجموعات فرعية متعددة، وهذه الأخيرة غير متفاهمة فيما بينها. في عام 2017، سلّمت مجموعة طلابية في جامعة كورنيل تُطلق على نفسها «الطلبة السود المتحدون»، سلطات الكلية قائمةَ مطالب من ست صفحات. كانت القائمة تحتوي على مطالب واضحة، مثل ضرورة تدريب أعضاء الهيئة التدريسية على «منظومات السلطة والامتياز»، وإفساح مزيد من المجال للسود الذين «تأثروا تأثراً مباشراً بالمحرقة الإفريقية في أميركا» و«الفاشية الأميركية». لكنهم طلبوا أيضاً أن تولي جامعتهم مزيداً من الاهتمام «بالأميركيين السود الذين يعيشون في هذا البلد منذ أجيال عدة (أكثر من جيلين)». يعمل هذا الطلب على تميز الطلاب من الجيل الأول القادمين من إفريقيا أو منطقة البحر

(319) 'Trans activists call for boycott of fi lm starring Matt Bomer as transgender sex worker, *Pink News*, 15 April 2018.

الكاريبي[320]. اعتذرت المجموعة لاحقاً تحت الضغط عن تقديم هذا الطلب. لكن الرسالة كانت واضحة. ثمة تسلسل هرمي للاضطهاد ولموقع الضحية داخل كل مجموعة واضحة المعالم. ليست القواعد وحدها غير واضحة، بل الأحكام المسبقة الكامنة وراءها أيضاً، والتي قد تتفجّر في مواقع وعلى نحو غير متوقع.

مشكلة الاستحالة

من الناحية الثقافية، دخلنا اليوم في منطقة ملغومة بمشكلات الاستحالة. تقول لنا أشهر النساء في الكوكب إن للمرأة الحق في أن تكون مثيرة من دون أن يُنظر إليها نظرة جنسية. وتقول لنا بعض الشخصيات الثقافية المرموقة في العالم إن مقاومة العنصرية تتطلب منّا أن نصبح عنصريين بعض الشيء. تُطلب اليوم مجموعة مماثلة من المستحيلات، وبطريقة على نفس القدر من اللاتوفيقية.

رأينا مثالاً جيداً عن ذلك في قناة BBC في برنامج This Week [هذا الأسبوع] في أكتوبر 2017، عندما ظهر فنان وكاتب باسم مستعار – سكوتي – كان مدعواً للحديث عن فيلم سياسي قصير من إخراجه، وبعد أن وصف نفسه بأنه «امرأة حرّة الجنس سمينة وكبيرة»، اشتكى من وقوعه «ضحية للذكورة بسبب الاعتداءات التي تعرض لها كل يوم». وعلى الرغم من أنه لم يكن لديه حلّ لهذه المشكل، أصرّ على أن تحييد «الذكورة السامة» ليست مهمة «أحرار الجنس أو العابرين أو غير الثنائيين». الحلّ يجب أن يأتي من الداخل – قال فناننا مؤكّداً. «على الرجال الاعتراف بامتيازاتهم، أريد منهم تسليم السلطة، وأن يتخلوا عن بعض المنابر. أنا بالفعل مع أن نحاول تجريب النظام الأمومي. جرّبنا النظام الأبوي لفترة طويلة. لكنه لم ينجح فعلياً»[321]. إذا تركنا جانباً القناعة الأساس بأن النظام الأبوي «لم ينجح فعلياً»، ولكنَّهُ يظلُّ أمرًا جليًّا للعيان، وهو أن إحدى المظالم التي

---

(320) William A. Jacobson, 'Cornell Black Students group issues a 6-page list of demands', *Legal Insurrection blog*, 27 September 2017.
(321) The BBC's This Week, 26 October 2017

قدّمتها هذه «المرأة الحرة الجنس السمينة والكبيرة» والمتأنقة إلى المجتمع الذي تعيش فيه تتعلق بالسخرية منها في الأوقات أغلبها. هكذا، ثمة طلب آخر متناقض ومستحيل: شخص يختار أن يكون سخيفاً ولا يُسمح لأحد بالسخرية منه.

نعثر على مطالب أخرى مستحيلة في كل مكان، مثل المطلب الذي قُدّم في كلية ولاية إيفرغرين وفي جامعة يال، والذي أشار إليه مارك ليلا Mark Lilla في نقاش روتجيرز Rutgers (إذ أصرّ فرد من الجمهور على كميلي فوستر Kmele Foster أن «لا حاجة بها إلى الوقائع»). في هذه المناسبة، لخّص ليلا بنظرة ثاقبة أحد أكثر الألغاز مركزية في عصرنا على النحو الآتي: لا يمكنك أن تقول إلى الناس في الوقت نفسه: عليك فهمي ولا يمكنك فهمي». والواضح أن عدداً كبيراً من الناس يستطيعون صياغة مثل هذه المطالب على نحو متزامن. لكن ليس عليهم ذلك، وإن فعلوا، فعليهم أن يُدركوا استحالة تلبية مطالبهم المتناقضة.

ثم هناك بالطبع سؤال عن كيفية ترتيب التسلسل الهرمي للاضطهاد، وتحديد أولوياته، ثم تبويبه. ليث أشلي Laith Ashley هو اليوم واحد من أبرز عارضي الأزياء المتحولين جنسياً في العالم. حظي هذا المتحول من امرأة إلى رجل بتغطية إعلامية كبيرة، وظهر في إعلانات لعلامات تجارية ومجلات رائدة. في مقابلة تلفزيونية عام 2016، سألته كاثي نيومان Cathy Newman من قناة Channel 4، هل واجه أي تمييز خلال العامين عندما عبر من امرأة إلى رجل. أجاب أشلي بالنفي، لكنه خفف بعد ذلك من خيبة أمل المحاورة عندما أضاف أن الناشطين العابرين، وغيرهم ممن ينتمون إلى حركات الدفاع عن حقوق العابرين، «شرحوا له» أنه حصل فعلياً على بعض الامتيازات الذكورية. عندئذ، جرَد أشلي حالته أمام المشاهدين على النحو الآتي: «لقد اكتسبت بعض الامتيازات الذكورية. وعلى الرغم من أنني شخص ملون، فإن بشرتي فاتحة، وألتزم بمعايير المجتمع لجهة

الجمال إلى حد ما. لهذا السبب، لم أواجه كثيراً من التمييز»[322]. هكذا فقد تسلّق درجتين على التسلسل الهرمي عندما أصبح رجلاً، وعاد إلى الوراء قليلاً لأنه ملوّن، ثم صعد خطوة لأنه ذو بشرة فاتحة. ولعلّ خطأه الذي لا يُغتفر هو أنه جذّاب. كيف يمكن لأي شخص أن يُحدّد مكانه الدقيق في تراتبية المضطّهِد/ المضطهَد عندما تتكّدس داخل سيرته الذاتية كثيراً من المتناقضات؟ لا عجب في أن أشلي قد بدا عليه القلق والارتياع، وهو يعدّ هذه القائمة. ذلك أن هذا الهوس بالجرد الذاتي المستمر من شأنه أن يُزعزع ثقة أي شخص بنفسه. واليوم، تُقترح نسخة من هذا الجرد الذاتي المستحيل على كثير من الناس، في وقت لا نعرف فيه على الإطلاق كيف نُنجز مثل هذا التقويم بطريقة منصفة للآخر، ناهيك عن الأنا. ثمّ ما الفائدة المرجوة من مِران غير قابل للتطبيق؟

ماذا بعد؟ إن إحدى المتع في السنوات الأخيرة هي رؤية الأشخاص الذين يعتقدون أنهم حرّاس جيدون للحدود الليبيرالية، وهم يتعثرون بأحد الألغام. في إحدى أمسيات السبت من عام 2018، كان ديفيد روبرتس David Roberts، الصحفي من مجلة Vox، يُمضي وقتاً سعيداً في اختبار لجنة الفضيلة العمومية على tweeter، إلى أن فلتت منه التغريدة الآتية: «أحياناً، أفكر في الأميركيين الذين يعيشون في الضواحي، والمصابين بأمراض القلب، والمتخمين من الوجبات السريعة، والمدمنين على السيارات والجلوس أمام شاشة التلفاز داخل قلاعهم، فيصدرون الحكم الهازئ تلو الآخر على اللاجئين ممن قطعوا آلاف الأميال هرباً من الاضطهاد وأمورٍ أخرى كثيرة، لا أخفيكم كم يجعلني ذلك حانقاً». لا شك في أنه قال في نفسه عندما نشر هذه التغريدة: «هذه التغريدة جيدة: أهاجم الأميركيين، وأدافع عن المهاجرين، لا يوجد أي احتمال لارتكاب أي زلّة...». إلا أن العارف المتبصّر في دقائق وسائل الإعلام الجديدة كان ليتساءل هل من الحكمة أن يُظهر المرء هذا القدر من الاحتقار تجاه الذين يعيشون في الضواحي. لكن في

(322) Laith Ashley interviewed on Channel 4 News, 13 April 2016.

الواقع، ليس رهاب الضواحي هو الذي جعل روبرتس يمضي أمسية السبت في محاولة محمومة لإنقاذ حياته المهنية بعشرات تغريدات الاعتذار. فما تسبب في رد الفعل العنيف والفوري هذا من الحشود التي كان روبرتس يرجو إثارة انطباع جيد لديهم، هو أنه «أهان السمنة». هذا ما كان «إشكالياً»!

في التغريدة السابعة عشرة، وبينما كان روبرتس يحاول إخفاء آثار جريمته، انتقل إلى الاستجداء: «إن وصم الأشخاص السمينين أمر واقعي، ومنتشر في كل مكان، وهو ظالم وشرير، ولا أريد أن أكون جزءاً منه». بعد ذلك بقليل، اعتذر مسوِّغاً أنه كان نصف نائم، وألقى اللوم على تربيته[323]. قد لا يتوقف هذا الزحف المتواصل لشكاوى الازدراء ومزاعم الوصم وتجدد توزيع المواقع في التسلسل الهرمي للمظالم المؤسَّسة على معايير دائمة التطور. لكن كيف سيتم ترتيبها؟ هل الرجل الأبيض السمين مكافئ للشخص النحيل ذي البشرة الملونة؟ أو أن هناك مقاييس مختلفة للاضطهاد على الجميع معرفتها، وإن لم يشرح أحدٌ قواعدها، لأنها نتيجة هيجان الحشود، وليس من وضع أشخاص عقلانيين.

ربما كان علينا أن نحاول إيجاد سبل للخروج من هذه المتاهة المستحيلة بدلاً من ضعضعة صحتنا العقلية استبسالاً في حلّ لغز لا يقبل حلاً.

ماذا لو لم يكن الناس مضطهدين؟

ربما يمكننا البدء في البحث عن مخرج من هذه المتاهة من خلال وضع قائمة بمختلف «المجموعات المضطهَدة»، بدلاً من البحث عن الاضطهاد ورؤيته في كل مكان. وسنرى كيف أن هذه المجموعات ليست مضطهَدة، بل سيتبيّن لنا أنها تتمتع بامتيازات. على سبيل المثال، أظهرت الدراسات أن المثليين والمثليات

(323) 'Vox writer navel-gazes his way into a hole over fat-shaming', *The Daily Caller*, 5 November 2018.

يتقاضون في المتوسط أجراً أكثر من نظرائهم الغيريين[324]. قد نورد أسباباً متعددة، ولا سيما حقيقة أن أغلب هؤلاء لن ينجبوا أطفالاً، ويمكنهم تمضية ساعات إضافية في مكتبهم، الأمر الذي يعود بالفائدة عليهم وعلى صاحب العمل. هل هذه ميزة للمثلي؟ وإلى أي درجة يحق للغيريين أن يزعموا أنهم تعرضوا للإجحاف في العمل؟ وهل على المثليين أن «يتراجعوا» ويسمحوا لأقرانهم الغيريين أن يتمتّعوا بأفضل الفرص المهنية؟

في السنوات الأخيرة، جرى استخدام الفوارق في الدخل بين المجموعات العرقية كسلاح استخداماً منتظماً. وعلى الرغم من تكرار أن متوسط دخل الأميركيين من أصل إسباني أقل من متوسط دخل الأميركيين السود، وأن دخل الأميركيين السود أقل من دخل الأميركيين البيض، لا أحد يركّز على الآسيويين، أي المجموعة التي يفوق دخلها دخل الجميع[325]. إن متوسط دخل الآسيويين في أميركا أعلى على الدوام من أي مجموعة أخرى، بما في ذلك من الأميركيين البيض. فهل علينا أن نحاول تخفيض هذا الرقم وإنقاص مداخيل الآسيويين بنسبة قليلة؟ أم علينا أن نخرج من هذا الهوس المرضي بأن ننظر إلى الناس بصفتهم أفراداً يمتلكون قدرات متباينة، وألا نحاول فرض حصص متساوية على كل شركة ومؤسسة؟

دائماً ما يُصغي الناس إلى أشد المطالبات تطرفاً، ويميلون إلى تصديقها والنظر إلى أسوأ سيناريوهاتها على أنها متحققة بكل تأكيد. على سبيل المثال، كشف استطلاع للرأي أُجري في 2018 أن معظم البريطانيين (سبعة من كل عشرة)

---

(324) أنظر، على سبيل المثال:

Marieka Klawitter, 'Meta-analysis of the effects of sexual orientation on earnings', 19 December 2014

على الرابط:

https://onlinelibrary.wiley.com/doi/abs/10.1111/irel.12075.

(325) أنظر وزارة العمل الأميركية، مكتب إحصاءات العمل، على الرابط:

https://www.bls.gov/opub/ted/2017/median-weekly-earnings-767-for-women-937-for-men-in-third-quarter-2017.htm

يعتقد أن النساء يتقاضين أقل من الرجال مقابل أداء الوظيفة نفسها. تتعلق «الفجوة في الأجور بين الجنسين»، الموجودة فعلياً، بمتوسط الدخل على مدى العمر، بالنظر إلى الفوارق في الخيارات المهنية وتربية الأطفال ونمط الحياة الذي يختاره الرجال والنساء. لكن هذه «الفجوة في الأجور» أصبحت مكوناً أساسياً في النقاش المحتدم في وسائل الإعلام وشبكات التواصل الاجتماعي بوصفه دليلاً على فجوة غير موجودة بالصورة التي يُحمل الناس على الاعتقاد بها. فمنذ عام 1970 في المملكة المتحدة، و1963 في الولايات المتحدة، من غير القانوني دفع أجر أقل للمرأة مقابل المهمة نفسها التي يؤديها الرجل. إحدى النتائج الناجمة عن هذا الالتباس هي أنه بالرغم من اعتقاد سبعة أعشار المستجيبين للاستطلاع بأن النساء يتقاضين أجوراً أقل من الرجال لدى أدائهن الوظيفة ذاتها تماماً، إلا أن النسبة ذاتها (67 في المئة) رأت مع ذلك أن النسوية قد تجاوزت حدّها، أو أنها وصلت بالفعل إلى غايتها.[326]. قد تلخّص هذه المعاينة الارتباك السائد في عصرنا. فنحن نرى الاضطهاد حيث لا اضطهاد، وليس لدينا أدنى فكرة عن أفضل طريق للرد عليه.

النقاشات المهمة التي نتفاداها

إنّ من شأن تمثيل الحياة بوصفها صراعاً بين مجموعات تتنافس بلا هدنة للفوز بمكانة المضطهَد، وربح أيّ مجموعة فيها يؤدي إلى خسارة المجموعات الأخرى، أن يسلبنا الوقت ويستنفد طاقتنا التي ينبغي استثمارها في التفكير والمحادثات الضرورية بحق. على سبيل المثال، لماذا بعد هذه العقود كلها، عجزت النسويات وغيرهن عن معالجة دور الأمومة في التيار النسوي؟ كانت الكاتبة كاميل باغليا Camille Paglia صادقة بما يكفي للاعتراف بأن الأمومة هي إحدى المسائل

(326) أجري استطلاع *Sky* في الفترة من 14 إلى 16 فبراير 2018. أنظر النتائج على الرابط:
https://interactive. news.sky.com/100Women_Tabs_Feb2018.pdf

الكبرى التي لم تُحلّ في هذا التيار. لسنا هنا أمام موضوع ثانوي نستطيع التغافل عنه أو تجاهله. وكما كتبت باغليا بهذا الخصوص: «لم تقارب الأيديولوجيا النسوية بصدق دور الأم في حياة الإنسان». وكان من شأن تمثيلها التاريخ بوصفه تاريخ المضطهِدين الذكور والضحايا الإناث، أن شوّه الوقائع تشويهاً سافراً[327].

اسألوا باغليا عن أسماء بطلاتها العظيمات الثلاثة في القرن العشرين، وستجيبكم: أميليا إيرهارت Amelia Earhart وكاثرين هيبورن Katharine Hepburn وجيرمين غرير، أي، النساء الثلاث اللائي «يرمزن إلى المرأة في القرن العشرين». ومع ذلك، فقد «كنّ من دون أطفال»، بحسب إشارة باغليا. هذه واحدة من أكبر المعضلات التي تواجه النساء في نهاية هذا القرن. وجه الخطاب النسوي من الموجة الثانية اللومَ إلى الرجال بشأن حالة المرأة، وجعلهم مسؤولين، إلى جانب «النظام الأبوي»، عن مصيرهن مسؤولية كاملة. كان التركيز الحصري للنسوية على آلية اجتماعية خارجية من الواجب تحطيمها أو إصلاحها. ولم تأخذ في الاعتبار الرابطة الحميمة للمرأة مع الطبيعة، أي، الإنجاب. أو، «لماذا نرصد ذمّاً وتقليلاً من قيمة دور الأمومة في عصر المرأة العاملة؟»[328]

تسبب الخداع المتواصل في هذا الموضوع بتراكم الأحكام المسبقة والأكاذيب، وغرس مفاهيم بشعة وكارهة للبشر داخل الثقافة. في يناير 2019، عرضت قناة CNBC تقريراً بعنوان: «يمكنك توفير نصف مليون دولار إذا لم تنجب أطفالاً»[329]. وأشارت المقالة: «قد يخبرك أصدقاؤك أن إنجاب الأطفال يبعث للسعادة. من المحتمل أنهم كاذبون». ثم يأتي النص على ذكر جميع المشكلات المرتبطة «بالمسؤوليات الإضافية، والعمل المنزلي، والتكاليف طبعاً»[330]. إليكم كيف قدّمت مجلة The Economist مؤخراً في مقالة حديثة ما دعته «جذور فجوة

(327) Camille Paglia, *Free Women, Free Men: Sex, Gender, Feminism*, Canongate, 2018, p. 133.

(328) المرجع نفسه. ص131-132.

(329) CNBC on Twitter, 24 January 2019.

(330) 'Here's how much you save when you don't have kids', *CNBC*, 17 August 2017.

الأجور بين الجنسين»، وهي فجوة ادّعت المجلة أن جذورها تعود إلى الأمومة. ذلك أن خياراتهن في إنجاب الأطفال هي أحد العوامل الرئيسة في واقع أنهن يحصلن على متوسط دخل أقل من متوسط دخل الرجال خلال مسيرة حياتهن العملية. وبكلمات الصحيفة: «إن من شأن إنجاب الأطفال أن يخفّض المداخيل التراكمية مدى الحياة. وهي نتيجة معروفة باسم "عقوبة الطفل"»[331]. ومن الصعب تخيّل أن نقرأ هذه العبارة من دون ارتعاش، فما بالك بكتابتها. إذا افترضنا أن الهدف الأساس في الحياة هو جني أكبر قدر من المال، فمن الممكن بالفعل أن يُشكل إنجاب طفل «عقوبة» للمرأة، تمنعها من امتلاك أكبر مبلغ من المال في حسابها المصرفي بعد موتها. لكن في المقابل، إن هي اختارت أن تتخلص من هذه العقوبة، فستكون محظوظة بما يكفي للمشاركة في أهم دورٍ يمكن لإنسان أن يضطلع به ويُحقق له الازدهار.

تعكس وجهة النظر هذه التي قدّمتها المجلة موقفاً مشتركاً على نطاق واسع، والذي انتشر انتشاراً كبيراً في العقود الأخيرة. من ناحية، أعفيت النساء – إلى حدّ كبير – من ضرورة إنجاب الأطفال إذا لم يرغبن في ذلك، من أجل السعي وراء أهداف أخرى وإعطاء غايات أخرى لوجودهن. وضع الكاتب الزراعي الأميركي ويندل بيري Wendell Berry إصبعه على هذه المشكلة منذ حوالي 40 عاماً، عندما كنّا نمرّ بالفعل، على حدّ تعبيره، «بأوقات سيئة للأمومة». صار يُنظر إلى مفهوم الأمومة نظرة سلبية: «ضرب من السخرة البيولوجية، كما يقول بعضهم، والتي من شأنها أن تستنفد النساء اللواتي يمكنهن تكريس أنفسهن لنشاط أكثر أهمية». ثم يلفت بيري الانتباه إلى حقيقة جوهرية:

علينا جميعاً أن نُستنفَد من طرف شيء ما. حتى إن لم أكن أماً، فأنا سعيد أن تستنفدني الأمومة وما تؤدي إليه، وأنا بالفعل أنتمي – في معظم الأحيان – بكل سرور إلى زوجتي وأولادي والماشية والأغنام والخيول التي أمتلكها. كيف يمكن

(331) *The Economist*, Twitter feed, 17 November 2018.

أن نُستنفَد أفضل من ذلك؟[332]

ألسنا هنا أمام تفكيرٍ أفضل في الحياة والأمومة؟ أي أن نعزّز روح المحبة والصفح، بدلاً من تقوية سجل الأسى أو الجشع اللامحدود؟

ما الذي يحدث حقاً

مع ذلك، لو كان غياب النقاش الجاد ووجود التناقضات المتأصلة كفيلين وحدهما بإيقاف هذا الدين الجديد للعدالة الاجتماعية، لما استطاع أن يبدأ أصلاً. وأولئك الذين يعولون على هذه التناقضات المتأصلة في استنفاد هذه الحركة لقوتها، عليهم أن ينتظروا وقتاً طويلاً. أولاً، لأنهم يتجاهلون الخلفية الماركسية لجزء كبير من مريديها، وتالياً استعدادها المتأصل للغوص في التناقض بدلاً من الالتفات إلى هذه الارتطامات المفاهمية الكابوسية، والتساؤل هل يخفون بعض ملامح الوجهة التي اخترتَها.

لكن السبب الآخر لعدم كفاية التناقض هو أن لا شيء في حركة العدالة الاجتماعية التقاطعية هذه يشي بأنها تكترث حقاً بحلّ أي من المشكلات التي تزعم أنها مهتمة بحلها. تكمن أول أمارة على ذلك في التمثيل المتحزّب والمتحيّز وغير التمثيلي أو المنصف لمجتمعاتنا. قلة قليلة من الناس تعتقد أن بلداً مثل المملكة المتحدة لا يمكن تحسينها، لكن تقديمها على أنها بلد تأكله الفئوية والكراهية والاضطهاد هو في أفضل الأحوال منظور متحيّز، وفي أسوئها منظور عدائي صريح يُسحب على المجتمع. إنه تحليل لا يمت بصلة إلى نقد يرجو تحسين الحالة، بلْ عداء عازم على التدمير. والواقع أننا نلحظ علامات هذه النية في كل مكان.

لنُعد النظر في مثال العابرين. كانت الأسباب التي دفعتنا إلى التأخر في مقاربة

(332) Wendell Berry, 'A Few Words for Motherhood' (1980), *The World-Ending Fire*, Penguin, 2018, pp. 174 – 5

المسألة الشائكة والمهمَلة حول الأشخاص البينيين جنسياً منذ الولادة أسباباً وجيهة. ليس حباً بالتشويق، بل رغبة في إثارة نقطة مهمة. فكما لاحظ إريك وينشتاين، إن أيّ شخص مهتم حقاً بوصم وتعاسة الأشخاص الذين يحلّون في الجسد الخطأ، سوف يبدأ بمعالجة قضية بينيي الجنس أولاً، متعرّفاً فيها إلى أوضح مشكلة جهازية من بين جميع المشكلات، والمشكلة التي تُستجلى استجلاءً كافياً. وقد كان من شأن ذلك أن يرتقي بوعي الجمهور بحالة فئة من الأشخاص، وأن يجري الاعتراف بهم اعترافاً أفضل. وكان من شأن ذلك أيضاً أن يستكشف معالم معالجة مشكلة تتطلّب بحق دعماً طبياً ونفسياً. وكان من شأن ذلك، أخيراً، أن يحمل ناشطي العدالة الاجتماعية على نذر أنفسهم لتقديم هذا الدعم.

لكنهم لم يفعلوا ذلك. لقد قرروا بدلاً من ذلك الضغط بقوة على القضية العبورية، فقدّموها من أصعب الزوايا على الإطلاق («أنا مَن يقول ما أكون، ولا يمكنك إثبات خلاف ذلك») واستخدامها من خلال رفع الشعار: «حياة الأشخاص العابرين مهمة»، والشعار: «بعض الناس عابرون، عليك التكيف مع ذلك». نرى كيف قرر الأشخاص دائمو الشكوى من جميع جوانب الدولة الأبوية، والمهيمنة، وذات النزعة التفوقية للمتوافقين جنسياً، والكارهة للمثلية، والعنصرية بنيوياً، والمتحيزة جنسياً...إلخ، الاستحواذ على القضية العبورية وفق إستراتيجية متوقعة توقّعاً مملاً. ولم يترددوا في تأكيد أن الرجل الذي يقول إنه امرأة من دون أن يفعل أي شيء حيال ذلك، فهو، نعم، امرأة، والقول بغير ذلك كره للعبورية ليس إلا. الترسيمة واضحة جداً. لماذا قامت ألكساندريا أوكاسيو كورتيز Alexandria Ocasio-Cortez في الأسابيع الأولى لها في الكونغرس بجمع تبرعات لمجموعة «حوريات البحر» البريطانية التي تدعو إلى تقديم علاج هرموني للأطفال[333]؟ ما تفسير هذا الاستعجال عند هؤلاء في الدفاع عن

(333) أنظر:
Madeleine Kearns, 'The successful, dangerous child sex-change charity', *National Review online*, 23 January 2019.

أصعب جزء من الموضوع، وتنظيمه والمناقشة فيه؟

في عام 2018، دار نقاش في مجلس العموم حول القضايا العبورية. خلال هذا النقاش، أُثيرت قضية كارين وايت Karen White، الرجل الذي أدين بالاغتصاب بينما كان يُعرّف عن نفسه بوصفه امرأة. لم يخضع وايت لجراحة تغيير الجنس، لكنه طلب وضعه في سجن النساء، ثم اعتدى جنسياً بجسده الذكوري على أربع نزيلات. وخلال هذا النقاش أيضاً، لخّصت إحدى النائبات عن الحزب الليبيرالي الديمقراطي، ليلى موران Layla Moran، راديكالية الفكر العبوري الجديد. عندما سئلت هل ستسعد بمشاركة غرفة تغيير الملابس مع شخص له جسد ذكر، أجابت موران: «إذا كان هذا الشخص امرأة عابرة، فسأفعل ذلك بالتأكيد. أنا فقط لا أرى المشكلة في ذلك. وبخصوص مسألة أن لدى بعضهن لحية [وهو سؤال كان قد أثير أيضاً]، فأجرؤ على القول إن بعض النساء لهنّ لحية. هناك أسباب عدة تجعل أجسامنا تتفاعل بصورة مختلفة مع الهرمونات. هناك عدة أشكال للجسم البشري. أنا أنظر إلى الإنسان في روحه وبوصفه إنساناً. لا يهمني حقاً إذا كان جسده جسد ذكر»[334].

ما مِن عاقل، وما مِن مجموعة ضغط تأمل تشكيل تحالف لإنشاء حركة حقوقية قابلة للحياة من أجل الدفاع عن حقوق العابرين، تنطق بمثل هذه الادعاء، أو تأكد أن مجرّد قول المرء عن نفسه إنه عابر يكفي لكي يكون عابراً. أو القول إن الرجل الملتحي لا يُمثّل مشكلة للنساء داخل غرفة تغيير الملابس، «لأنني أجرؤ على القول بأن بعض النساء لهن لحية». ولن تزعم أنها قادرة على القراءة داخل روح الإنسان والتعرّف إليه والقول بأنه رجلٌ أو امرأة. إنها ادعاءات مجنونة ومن شأنها، مثلها مثل كثير من التصريحات في النقاش الدائر حول القضايا العبورية، أن تبلبل جميع من يسمعها، ناهيك بالذين نطلب منهم الرضا، بل والانتساب

(334) House of Commons, *Hansard*, 21 November 2018.

الكامل إلى هذا المعتقد.

على الحركة التي تسعى إلى ترويج مطالبات العابرين أن تبدأ من البينية الجنسية، وعليه، أن تفحص بعناية كبيرة طيف التأكيدات العبورية، وتحليلها بصرامة علمية كاملة. ليس عليها أن تتجه مباشرة نحو الجزء الأصعب من المطالبات، وأن تصرّ على أنها مصيبة، وأنّ على الجميع القبول بها. ما هكذا تورد الإبل عندما نحاول بناء تحالف أو حركة. بل إن هذا ما نفعله إذا أردنا أن نمنع التوافق في الآراء. هذا ما نفعله إذا كنّا نسعى إلى إحداث الانقسام.

ما إن نرصد هذه الدوامة التي تأتي بنتائج عكسية، حتى نراها تتكرر في كل موضوع. على سبيل المثال، هناك عدد آخر من الفجوات في الأجور، مثل تلك التي أشار إليها جوردان بيترسون بين الأشخاص اللطفاء والأشخاص البغضاء، لصالح البغضاء. لكن هناك فجوة أيضاً بين الرجال والنساء. تحصل المرأة البغيضة على راتب أفضل من راتب الرجل اللطيف. والعكس صحيح. فإذا كانت فجوات الأجور هي التي تُقلقنا، لماذا لا نأخذ هذه الحالة أيضاً؟ لماذا لا توجد حملة عقابية لا نهاية لها تدعو إلى أن يحصل اللطفاء على رواتب أعلى وأن يُهمّش المشاغبون؟ لأن ذلك لن يتوافق مع الهدف الحقيقي. ليس الهدف الحقيقي النهوض بحقوق المرأة أو بمستوى دخلها، وإنما استخدامها وسيلةً لخدمة هدف آخر.

كان دأب ناشطي العدالة الاجتماعية الدائم المغالاة في إبراز كلّ قضية من القضايا التي سلّط عليها كتابنا الضوء (مثليو الجنس، والنساء، والعرق، والعابرون) بغية تقديمها بوصفها مظالم حقوقية وتحويل خطابها إلى شعلة ملتهبة دائمة التأجج. ولم يكن غرضهم من ذلك الشفاء، بل إحداث الانقسام، ولم يكن إخماد الحرائق، بل سكب الزيت عليها، ولم يكن التهدئة، بل التهييج. وفي هذا الموضع أيضاً نستطيع أن نرصد الخلفية الماركسية التي أثرناها سابقاً. وإذا عجزت عن أن تحكم مجتمعاً – أو أن تتظاهر بذلك، أو تحاول حكمه وتتسبب بانهياره –

فتستطيع أن تجرّب شيئاً آخر. تستطيع أن تزرع فيه الشك والانقسام والعداء والخوف، إنها أفضل وسيلة في هذا المجتمع الدائم الانتباه إلى نواقصه، والأفضل من بين المجتمعات على الرغم من كونه غير كامل. نعم، إنها أفضل وسيلة، تلك القائمة على حمل الناس على الارتياب في كل شيء على الإطلاق. احملهم على الارتياب في أنّ المجتمع الذي يعيشون فيه مجتمع جيد. اجعلهم يشكّون في مشروعية فئات معينة، مثل «الرجل» و«المرأة». اجعلهم يشكّون في كل شيء. ومن ثمّ، قدّم نفسك بوصفك مَن يمتلك الإجابات، ومن يمتلك المنظومة الكبيرة من الإجابات الشاملة والمتداخلة التي ستقود الإنسانية إلى مكان مثالي، والتي سيُقال لك إن أردت معرفة تفصيلاتها: عليك أن تنتظر المنشور الخاص لذلك.

قد يكون لدى هؤلاء سبلهم الخاصة للوصول إلى هذا المكان. قد يستخدم دعاة الدين الجديد المثليين والنساء وذوي البشرة الملونة والعابرين أكباشَ فداء لتأليب المواطنين على المجتمع الذي نشأوا فيه. وقد ينجحون في تحريض الناس ضد «النظام الأبوي الذكوري الأبيض المتوافق الجنس»، وقد يفعلون ذلك قبل أن تصل «المجموعات المضطهَدة والضحايا» المتداخلة والمتشابكة إلى مرحلة التمزّق فيما بينها. فذلك كله ممكن. لكن كل من هو مهتم بمنع هذا السيناريو الكابوسي من الحدوث، عليه أن يبحث عن حلول.

حلول

عثر كثيرون مسبقاً على نمط شخصي للتكيف مع التيار المهيمن في العصر الحالي، وطوروا طرقاً أكثر ذكاءً أو أقل للإبحار فيه. خيارات متعددة متاحة للناس. وأنا أكتب هذا الكتاب، اكتشفت سلوك نوع من الحبّار الذي يُخفي نياته في طقوس التزاوج، الأمر الذي يزيد في تعقيد ما هو معقّد أصلاً. الحبّار هو من بين الكائنات الأكثر مهارة في المحاكاة الجنسية. إنه الحبار الأسترالي العملاق، أو سيبيا أباما، والذي لديه نسبة الذكور إلى الإناث غير متوازنة، قد تصل إلى 11 ذكر لكل أنثى.

ونظراً إلى أن الإناث ترفض 70 في المئة من الذكور، تنشأ منافسة احترافية بين هؤلاء، وتزداد الصعوبة بسبب يقظة القرناء: فالذكور القرناء يحققون حوالي 64 في المئة من حالات التزاوج. لهذا السبب يلجأ الذكور الآخرون إلى إستراتيجيات بغية الحصول على فرصة لتلقيح الأنثى. إحدى هذه الإستراتيجيات تقليد سلوك أنثى الحبار. يقوم الذكر الأصغر بإخفاء ذراعه الرابع الثنائي الشكل جنسياً، ويتموّه بالجلد نفسه الذي يُغطي شريكته المختارة، حتى إنه يُحرّك أذرعه مقلّداً وضعية الأنثى، وهي تضع البيض. أثبتت هذه الإستراتيجية فعالياتها. في إحدى الدراسات التي لاحظت هذا السلوك، واحد فقط جرى رفضه من بين خمسة ذكور طبقوا هذه الإستراتيجية. وواحد أيضاً من بين الخمسة، جرى القبض عليه متلبساً من طرف القرين الذكر الحبّار. لكن الثلاثة الآخرين نجحوا في التزاوج[335].

جعلتني إستراتيجية الحبار أنتبه إلى أشياء عدة، وخاصة في شأن عدد من الرجال الذين يتبنون تكتيكات مماثلة. في اليوم التالي على تنصيب الرئيس ترامب في يناير 2017، خرجت مظاهرات كبيرة في واشنطن العاصمة ومدن أخرى. ركّزت هذه «المسيرات النسائية» على ملاحظات الرئيس السابقة الكارهة للنساء، وحشدت أعداداً كبيرة من المتظاهرات اللواتي ارتدين «قبعات مهبلية» وردية اللون. حملت اللافتات عبارات مثل: «لا تمل شيئاً على مهبلي». في إحدى الحفلات التي نُظمت عقب هذه المسيرة في واشنطن، لاحظ زميل صحفي سلوك بعض الرجال الذين كانوا حاضرين. كانت الفتيات يتحدثن بحماسة عن مسيرة النساء ودورهن فيها، وسط الفرق الموسيقية والبيرة والأكواب البلاستيكية. شدّد الشباب بقوة على دعمهم المسيرة، وأكدوا أنهم نسويين أيضاً. هزّ أحد الشباب رأسه بجدية كبيرة على حين كانت شابة جذّابة تتلو عليه الآراء الصحيحة للنسوية الحديثة. وبعد أن غادرت هذه الشابة لفترة وجيزة، التفت إلى صديقه وهمس: «يا صاح، هذا رائع!

---

(335) أنظر:
'Transient sexual mimicry leads to fertilization', *Nature*, 20 January 2005.

كل هؤلاء الفتيات السكرانات والهائجات في مدينة واحدة!»[336] لا نعلم إذا كان هذا التكتيك سينجح في حالته أم لا. لكنه ليس الشاب الوحيد الذي يُطبق استراتيجية الحبار من أجل تجاوز الفترة الحالية. إن استراتيجيات الحبار، من بين استراتيجيات أخرى، هي سبل عبقرية للنجاة في بيئة طبيعية شديدة العدائية. لكن السبل الأكثر جدارة بالثناء هي تلك التي ترمي إلى تغيير هذه البيئة.

اطرح السؤال الآتي: «بالمقارنة مع ماذا»؟

لعلّ هذ التغيير يبدأ بالمواظبة على طرح السؤال: «بالمقارنة مع ماذا؟» لا بد من طرح هذا السؤال عندما يجري تقديم مجتمعاتنا اليوم على أنها أبوية متوحشة وعنصرية ومتحيزة جنسياً وكارهة للعابرين. إذا لم ينجح هذا المجتمع أو هو غير ناجح اليوم، فما المنظومة التي نجحت أو هي ناجحة اليوم؟ لا يعني طرح هذا السؤال العجز أو القعود عن تحسين بعض العناصر في مجتمعنا، أو أن علينا ألا نباشر في معالجة اللاعدالة والظلم أينما رأينا ذلك. لكن على المتّهِم الذي يتحدث عن مجتمعاتنا بنبرة القاضي والمحلّف والجلاد العدائية، أن يتوقّع منّا طرح هذه الأسئلة عليه.

غالباً ما ينطلق تشريح سقوطنا المجتمعي من افتراض وجود عصر ذهبي سبق هذا السقوط: العصر الذي سبق اختراع الآلة أو البخار أو السوق. هذه الافتراضات متأصلة جداً، بدءاً من فكرة أننا ولدنا في حالة من الفضيلة، ثم انتزعتنا منها الثقافة انتزاعاً غير عادل. اشتهر جان جاك روسو Jean-Jacques Rousseau بتجسيد هذا النمط من التفكير في مقتطفات وردت في الكتاب الثاني من Emile, or On Education [إميل، أو في التربية] (نُشر بالإنكليزية عام 1963)، والذي كتب فيه: «الصيرورات الأولى للطبيعة البشرية هي دائماً صيرورات مستقيمة: لا يوجد أي شذوذ أصلي في قلب الإنسان. لا وجود لرذيلة

(336) Freddy Gray, 'Nigel Farage's groupies party in DC', *The Spectator*, 28 January 2017.

واحدة فيه لا يمكن أن يُقال عنها كيف دخلت؟ وأين؟ إذاً، من المهم ألا يفعل الطفل شيئاً بالمقارنة مع الآخرين، وإنما فقط ما تطلبه الطبيعة منه، وحينئذ لن يفعل سوى الخير»[337]. ولا يبقى أمام الأشخاص الذين يؤمنون بهذه الفكرة إلا إيجاد المذنب الذي تسبب بأخطائهم وأخطاء مَن حولهم، مادام أنهم ولدوا في مثل هذه الحالة من النعمة الفطرية. تُفضي هكذا قناعة بالضرورة إلى الاعتقاد بأن المجتمعات الأولية أو القديمة أو البدائية تُشكّل بطريقة أو بأخرى نظاماً اجتماعياً يستحق العودة إليه.

وهكذا، فإنه إلى جانب أسباب تتعلق بالذنب التاريخي، يُقنع عدد لا بأس به من الغربيين أنفسهم اليوم بأن المجتمعات «البدائية» توصّلت إلى حالة خاصة من النعمة نفتقر إليها اليوم، حالة أشبه بهيمنة أنثوية متنامية، وحياة اجتماعية يعمّها السلام، أقل كرهاً للمثلية، وأقل عنصرية، وأقل كرهاً للعبور الجندري. تعجّ هذه النظريات بالفرضيات غير المدعّمة. لا شكّ في صعوبة تحديد حجم رهاب المثلية ودرجته أو العنصرية في القبائل المختلفة. ربما كان العابرون أفضل حالاً، وربما تمتعوا بحقوق ما كنّا لنتخيلها. لكن الوقائع تشي في كثير من الأحيان بخلاف ذلك. تطرّق لورانس أش كيلي L. H. Keeley في كتابه المعنون War Before Civilisation: The Myth of the Peaceful Savage [الحرب قبل الحضارة: أسطورة السلام المتوحّش] إلى النسب المئوية لوفيات الذكور في الصراع بين مجموعة من قبائل أميركا الجنوبية وغينيا الجديدة. وتتراوح الوفيات العنيفة بين ما يقرب من 10 إلى 60 في المئة من الذكور. في المقابل، إن النسبة المئوية للذكور الذين قُتلوا في الصراع العنيف في الولايات المتحدة وأوروبا في القرن العشرين هي أدنى من 10 في المئة[338]. وإذا كان هناك دليل على أن المجتمعات القديمة

(337) Jean-Jacques Rousseau, *Emile, or On Education*, trans. Allan Bloom, Basic Books, 1979, pp. 92 – 3.

(338) L. H. Keeley, *War Before Civilisation: The Myth of the Peaceful Savage*, Oxford University Press, 1996, p. 90.

أنظر أيضاً لرسم البياني لهذه الأرقام في:

كانت أكثر تسامحاً بكثير حيال الفروقات الجنسية والبيولوجية مما نحن عليه في الغرب في القرن الحادي والعشرين، فيقع على عاتق الذين يقدمون هذه الادعاءات أن يقدّموا أدلةً على صحّتها.

نستطيع أيضاً أن نجري مقارنة من هذا القبيل مع المجتمع الحالي، وليس فقط مع المجتمع القديم. مِن المدافعين عن النظام الثوري في طهران مَن يسرهم الاستشهاد بالأعداد المرتفعة للمتحولين جنسياً في هذا البلد كدليل على تقدمه، ويتركون المستمعين في جهلٍ بواقع أن هذا البلد كان، حتى عام 2019، يشنق علناً الرجال المدانين بارتكاب أفعال مثلية، وفي كثير من الأحيان على الرافعات، عبرةً لأكبر عدد من الناس. والسؤال هنا: في أي دولة وصلت حقوق الإنسان اليوم إلى مرحلة أكثر تقدماً منها في بريطانية وأميركا؟ وإن وجدت مثل هذه الدول، فلا ضرر من ذكرها، بل مكاسب للجميع. قد يكون أحد الأسباب التي تجعل بعضهم – ولا سيما الماركسيين الجدد – خجولاً بشأن إجراء مقارنات دقيقة في هذا الصدد، هو أن من شأن البلدان التي ستُذكر في هذه المقارنات (فنزويلا وكوبا وروسيا) أن تكشف عن الجوهر الأعمق لأيدولوجيتهم، وعن البواعث الحقيقية لنظرتهم السلبية للغرب.

غالباً ما ستكون النتيجة الوحيدة للسؤال «بالمقارنة مع ماذا؟» هي الاستنتاج أن اليوتيوبيا التي يُقارن بها مجتمعنا ما زالت غير متحققة بعد. فإذا كان هذا هو الحال، وكانت الادعاءات بشأن الوحشية المزعومة لمجتمعاتنا تُقال بالمقارنة مع مجتمع لم يُنشأ بعد، قد تكون هناك حاجة لقدر معين من التواضع وسلسلة من الأسئلة الإضافية. وعلى الذين يزعمون أن مجتمعنا يتّسم بالتعصب، ويحسبون أنهم يعرفون كيفية القضاء على هذه الأمراض المجتمعية، أن يتأكدوا من صحّة الدليل المادي لهم. وإن عجزوا عن ذلك، من الحكمة أن نرتاب بشأن مشروع تُقدَّم

Steven Pinker, *The Blank Slate: The Modern Denial of Human Nature*, Penguin, 2003, p. 57.

مراحله الأولى بوصفها علماً صارماً، في حين هي أشبه بسحر أسود.

ليست الضحية على حق دائماً، أو ليست لطيفة دائماً، وليست جديرة بالثناء – وقد لا تكون ضحية

عرّج هنري ويليام براندز H. W. Brands في السيرة الذاتية التي كتبها عام 2000 عن فرانكلين دي روزفلت، على شلل الأطفال الذي أصاب الرئيس الأميركي الثاني والثلاثين. فكتب أن الناس من جيل روزفلت، «كانوا يواجهون المصائب بشيء من الازدراء. كان القدر أكثر تقلباً في ذلك الوقت، والجميع ضحية في لحظة أو أخرى. إلا أن أحداً لم يستدر التعاطف عن طريق حمل شعار الضحية»[339]. توحي هذه التأملات بأن العدد الهائل من ادعاءات الضحية في السنوات الأخيرة، قد لا يُشير فعلياً إلى ما أراد التقاطعيون وأنصار العدالة الاجتماعية قراءته فيه. لا تبرهن هذه الادعاءات على الإفراط في الاضطهاد في مجتمعاتنا، بل تكشف عما هو خلاف ذلك، أي عن خاصيتها الاضطهادية صغيرة الحجم. فلو كان الناس مضطهدين حقاً، ما كان لديهم الوقت أو الرغبة في الاستماع إلى كل مَن يشعر بالحاجة إلى الإعلان عن مدى انزعاجه من دردشة روائي في مهرجان أدبي، أو أنه من غير الجائز أن يبيع شخص من العِرق الخطأ أكلة مكسيكية.

لقد حلت وضعية الضحية محلّ الرواقية أو وضعية البطل، وراجت رواجاً كبيراً، وأصبحت من الأشياء المطلوبة في ثقافتنا. فأن تكون ضحية، يعني ذلك أن تكون قد ربحت، أو على الأقل أن تكون متقدماً بأشواط في سباق الاضطهاد الكبير في الحياة. يكمن في منشأ هذا لتطور الغريب أحد أهم الأحكام الخاطئة لحركات العدالة الاجتماعية، ومفاده أن الأشخاص المضطهدين (أو أولئك الذين يزعمون أنهم مظلومون) أفضل من الآخرين، وأن الانتماء إلى هذه المجموعة يكفل أخلاقية معينة، وبعض النقاء والطيبة. ولكن على أرض الواقع، لا تجعل

(339) H. W. Brands, *Traitor to His Class: The Privileged Life and Radical Presidency of Franklin Delano Roosevelt*, Doubleday Books, 2008, p. 152.

المعاناة وحدها من الشخص كائناً أفضل. وقد يكون مثلي الجنس، أو المرأة أو الأسود أو العابر جندرياً، شخصاً قليل النزاهة، ومخادعاً وفظاً، شأنه شأن أي شخص آخر.

يوحي قضاة العدالة الاجتماعية بأن مرحلة الأخوّة الكونية تالية مباشرة على إسقاط مصفوفة التسلسلات الهرمية المتنافسة وحلحلة تقاطع أشكال التمييز. لكن الأكثر ترجيحاً هو أن تتشابه سلوكات النوع البشري في المستقبل تشابهاً جوهرياً مع ما كانت عليه على مر التاريخ، وأن يبدي البشر الدوافع نفسها والضعف نفسه والعواطف والحسد، وكل ما كان محرّكاً لجنسنا حتى اليوم. ما من سبب يدفعنا إلى التفكير في أننا إذا أزلنا جميع أشكال الظلم الاجتماعي، وإذا كان لدى كل صاحب عمل التنوعَ الصحيح للموظفين في شركته (وفق الجندر والتوجه الجنسي والعرق)، سوف يتنازل جميع رؤساء الموظفين عن عملهم. على الأقل، سيكون من الصعب الحصول على رواتب من ستة أرقام في ذلك اليوم الميمون، بمقدار صعوبته اليوم. إضافةً إلى أن الذين تمكّنوا من الحصول على هذا الرقم عن طريق تقديم تفسير معادٍ للمجتمع، لن يتخلّوا عفو الخاطر عن رواتبهم حتى بعد إنجاز المهمة. يعلم هؤلاء أن هذا اللغز عصي على الحل وأنهم حصلوا على وظائف مدى الحياة. وسوف يظلون باقين في مكانهم ويؤدون هذه الأدوار ما استطاعوا، إلى وقت يُعتَرف فيه أن حلولهم لأمراض المجتمع هي النقيض المناقض لما يمكن أن يكون عليه الحل، بل هي دعوة إلى الجنون فحسب، جنون على نطاق واسع وبتكاليف باهظة على الفرد والمجتمع.

ماذا لو تعاملنا مع الحالة بشيء من المروءة؟

قال إيزرا كلاين في معرض شرحه التضمينات المهينة لعبارات مثل «اقتلوا جميع الرجال» و«البيض»، إنه كان يشعر أن قراءتها بحاجة «إلى شيء من المروءة». دفعت هذه المروءة كلاين إلى إعطاء تضمينات أخرى لهذه العبارات، فتحولت:

اقتلوا جميع الرجال إلى: «مِن الرائع أن يخشى العالمُ النساءَ ولو قليلاً»، وعبارة «احذفوا البيض» إلى نقد بنية السلطة والثقافة المهيمنة[340]. لماذا شعر بالحاجة إلى المروءة مع مثل هذه العبارات؟ رأينا في السابق، مع «المتكلّم، وليس الخطاب»، أن الأشخاص المسيّسين ميالون إلى تأويل الملاحظات الخاصة بمعسكرهم السياسي، حتى المتطرفة منها، من منظور سخي ومتسامح، ومن منظور سلبي وعدائي قدر الإمكان عندما يتعلق الأمر بفك رموز ملاحظات الموجودين في المعسكر المقابل، كائناً من كانوا.

هل يمكن أن نُطوّر منظور المروءة هذا ونجعل منه منظوراً شاملاً؟ فلو كنّا قادرين على تفسير ملاحظات الآخرين، حتى من هم في المعسكر الآخر، بشيء من المروءة، فقد يكون من الممكن تهدئة حرب الخنادق الحالية. تكمن المشكلة في أن وسائل التواصل الاجتماعي لا تحثّ على التهدئة، وإنما على الخيار المعاكس. والواقع أن عدم القدرة على التلاقي وعدم الشعور بالحاجة إلى ذلك يحمل الناس على تبني مواقع ومواقف حديّة ومتباينة، وعلى الثوران بسرعة أكبر. فعندما تكون حاضراً أمام شخص آخر، يشق عليك أن تختزله إلى مجرد عبارة نطق بها، وأن تجرّده من جميع خاصياته، وتستبقي واحدة منها فقط.

لاحظ ألكسيس دو توكفيل Alexis de Tocqueville خلال رحلاته في أميركا في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، أهمية الاجتماع في الولايات المتحدة، وبالتحديد، اللقاءات المباشرة بين المواطنين التي تسمح لهم في الغالب بمعالجة المشكلات وعدم الحاجة إلى تدخل سلطة خارجية. في كتابه الموسوم Democracy in America [الديمقراطية في أميركا]، عزا إلى هذه القدرة على التجمّع قوة كبيرة، ولاحظ أن الحوار وجهاً إلى وجه ليس أفضل وسيلة للتوصل إلى حلّ فحسب، بل إن في مثل هذه التفاعلات، «تُعرض الآراء بقوة وحرارة لا يستطيع الفكر

(340) Ezra Klein, 'The problem with Twitter, as shown by the Sarah Jeong fracas, *Vox*, 8 August 2018.

المكتوب بلوغها»[341]. إذاً، يحتاج الميل إلى المروءة إلى ضمانة أنه لن يُساء إليه، وأفضل طريقة لذلك هي التفاعل الشخصي، ولعلّها الطريقة الوحيدة. وإلا، فالحياة ستشبه أكثر فأكثر قائمة من الضغائن التاريخية التي يسهل البحث عنها وإيجادها وإحياؤها. لذا فإن الميل إلى المروءة، ليس تجاه الحلفاء فحسب، بل أيضاً تجاه المعارضين المعلنين، قد يكون الخطوة الأولى للخروج من هذا الجنون. لا أحب بالضرورة أفكار (الدكتور) مايكل ديفيدسون بشأن المثلية الجنسية، لكنني إذا قررت أنه يجب النظر إليه وإلى فيلمه القصير من منظور بالغ السلبية، فلن يتوقف الأمر على رفض سماعه، بل سوف أرفض العيش في مجتمع واحد معه. ومع ذلك، نعيش أنا وهو في مجتمع واحد، وعلينا أن نجد طريقة للتفاهم. إنه الخيار الوحيد المتاح لنا، وإلا إذا توصلنا إلى استنتاج مفاده أن الكلام والإصغاء باحترام هي أمور لا طائل منها، لن يتبقى أمامنا سوى وسيلة واحدة وحيدة، وهي: العنف.

تبيّن الوجهة التي نمضي إليها

ألقى مارتن لوثر كينغ في عام 1967، أي قبل عام واحد من وفاته، واحداً من أعظم خطاباته في أتلانت بجورجيا، بعنوان: «والآن، إلى أين نحن ماضون؟»، والذي تضمن نداءً لافتاً، جاء فيه: «لنكن غير راضين حتى ذلك اليوم الذي لن يصرخ فيه أحد «القوة البيضاء!»، ولن يصرخ فيه أحدٌ «القوة السوداء!»، بل يتحدث فيه الجميع عن قوة الله وقوة البشر»[342]. أكثر التطورات مدعاة للإحباط والقلق في السنوات الأخيرة هي السهولة التي عادت بها المسألة العرقية، وتصدرت المشهد. وقد حرّض على هذه العودة أشخاص لا يدركون مخاطر اللعبة

(341) Alexis de Tocqueville, *Democracy in America*, trans. Harvey C. Mansfield and Delba Winthrop, University of Chicago Press, 2000, p. 181.

(342) Martin Luther King Jr, 'Where do we go from here?', delivered at the 11th Annual SCLC Convention, Atlanta, Georgia, 16 August 1967.

التي يلعبونها، أو هم مدركون لها، وهو أمر لا يُغفر لهم. ظهرت بعض الآثار المحتومة لهذه اللعبة بالفعل، وهي إشارات تحذيرية على درجة عالية من الوضوح.

مَن كان يتوقع منذ جيل مضى أنه سيكون من المقبول أن تطرح مجلة يسارية السؤال: «هل اليهود بيض؟» لا أتحدث عما حدث مع National Geographic منذ قرن، وإنما عن مجلة The Atlantic في عام 2016[343]. طُرح هذا السؤال بسبب خلاف حول موقع اليهود في التسلسل الهرمي للاضطهاد الذي يجري إعداده شيئاً فشيئاً. هل يجب النظر إلى اليهود على أنهم يتبوؤون قمة سلّم الاضطهاد، أم أنهم ينتفعون من بعض الامتيازات الخاصة بهم؟ هل يستفيدون من الامتياز الأبيض أم لا؟ ما إن نطرح مثل هذه الأسئلة، فيجب أن نتوقع أجوبة وضيعة. في عام 2017، ظهرت بعض المنشورات في الحرم الجامعي لجامعة إلينوي بأوربانا، وقدمت إجاباتها الخاصة عن هذه الأسئلة. قدمت هذه المنشورات تسلسلاً هرمياً، أدرِج في أسفله الـ «99 في المئة» الذين تعرضوا للاضطهاد على يد الـ«1 في المئة» المزعومين. لكن المنشورات تساءلت هل الـ«1 في المئة» المضطهِدون هم من «الرجال البيض الغيريين» أم من اليهود؟ يبدو أن أصحاب هذا المنشور يعرفون الإجابة، ذلك أنهم خلصوا إلى أن اليهود هم أصحاب «الامتياز» الأساسيين، وإلى أن «إنهاء الامتياز الأبيض يبدأ بإنهاء الامتياز اليهودي»[344]. هل مَن يسترسلون في تأملاتهم التي لا نهاية لها حول «الامتيازات» هم متأكدون من أن حركتهم وتحليلهم لن يأخذا مثل هذه الانعطافات؟ هل هم على يقين من ضمان عدم تفاقم مشاعر الاستياء – هذه المشاعر الإنسانية الأساسية - التي أطلقوا العنان لها، فضلاً عن تشجيعها وتعزيزها؟ ما هي خططهم للحؤول دون ذلك التفاقم؟ وإذا لم يكن لديهم خطط من هذ القبيل، لعلنا نستطيع العودة إلى رؤية مارتن لوثر كينغ. ربما نستطيع أن

(343) Emma Green, 'Are Jews white?', *The Atlantic*, 5 December 2016.

(344) 'Anti-Semitic flyers attacking "Jewish privilege" appear to UIC', *Campus Reform*, 17 March 2017.

نستبعد العرق من كل النقاشات والحوارات، وأن نتخلّص من هذا الهوس المتنامي بلون البشرة، ونعود من جديد إلى عمى الألوان.

نزع الصبغة السياسية عن حياتنا

يبدو أن الهدف من سياسات الهوية هو تسييس كل شيء على الإطلاق، وتحويل كل جانب من جوانب التفاعل البشري إلى مسألة سياسية، بالإضافة إلى تفسير كل فعل وكل علاقة في حياتنا بواسطة ترسيمات فكرية تشكلت بناءً على سيرورات سياسية. إلا أن هذه الدعوات التي تحثّنا على تمضية وقتنا في تقويم موقعنا وموقع الآخرين داخل التسلسل الهرمي للاضطهاد، لا تقتصر على دعوتنا إلى الغرق في انشغال ذاتي أناني، بل تتجاوز ذلك نحو الدعوة إلى إخضاع كل علاقة إنسانية إلى معايرة سياسية لمستوى السلطة. تتضمن الميتافيزيقا الجديدة دعوة إلى إعطاء معنى لهذه اللعبة، أي، لعبة النضال والقتال والاستنفار و«التحالف» مع الآخرين بغية الوصل إلى أرض الميعاد. وفي عصر يفتقر إلى هدف، وعالم يفتقر إلى معنى واضح، تُمارس هذه الدعوة إلى تسييس كل شيء، والنضال في سبيل هدف يُمارس جاذبية لا شك فيها. إنها تعطي معنى للحياة، وليس أي معنى!

لكن السياسية هي واحدة من أكثر الإستراتيجيات تعاسة يمكن أن يلجأ إليها الناس لإعطاء معنى لحياتهم، ناهيك بهذا النوع من السياسة الممارس على نطاق واسع. قد تكون السياسة جانباً مهماً من جوانب حياتنا، لكن على مستوى المعنى الشخصي، السياسة كارثية. لا تقتصر هذه الكارثية على أن الطموحات التي تسعى وراءها لا تتحقق دائماً، بل إن الانخراط السياسي يستلزم بعداً شخصياً – ولا سيما الغضب – الذي من شأنه أن يُفسد المشروع بأكمله. فإذا اختلف شخصان بشأن مسألة مهمة، فإن اختلافهما هذا لا يُفسد للود قضية إذا كان الغرض أساساً البحث عن الحقيقة أو عن خيار أفضل. لكن إذا قدّر أحد الفريقين

أن مصير وجوده مقرون ببعض جوانب هذا الخلاف، سيخبو الود وتتقلص فرص الوصول إلى الحقيقة.

إن إحدى طرائق النأي بالنفس عن جنون هذا العصر، مع الاحتفاظ باكتراث من نوع ما بالسياسة، تتلخص في ألا نبحث عن مصدرٍ للمعنى في السياسة ومن خلالها. يجب دعوة الناس إلى تبسيط حياتهم وعدم الانحراف عنها باتباع نظرية لا تجيب عن أي سؤال ولا تقدم أي تنبؤ، إلى جانب كونها قابلة للتفنيد بسهولة. مصادر المعنى كثيرة ومتاحة، ويجدها معظمنا في حب الأشخاص والأماكن من حولنا: في حب الأصدقاء والعائلة والأقارب، وفي الثقافة والطبيعة، وفي العجب العجاب. إنما نُعطي هدفاً لوجودنا بإيجاد ما يُشكّل معنى لأنفسنا، ومن ثم بالإبحار أقرب ما يمكن من بؤرة المعنى هذه. لن يُسفر تكريس أنفسنا لسياسات الهوية والعدالة الاجتماعية (مفهومة على هذا النحو) أو لتقاطع أشكال التمييز إلا إلى هدر حياتنا بما لا معنى له.

ومن المشروع لأي شخص أن يرجو العيش في مجتمع لا يُمنع فيه عن الازدهار بفعل خاصية شخصية فرضها عليه القدر. إذا توافرت الكفاءة والرغبة، فلا ينبغي لشيء من قبيل العرق والجندر والتوجه الجنسي أن يمنع الفرد من الوصول إلى غايته. ونحن إذ نقلّل من الاختلاف لا نريد الزعم بأن هذا الاختلاف غير موجود. من السخافة افتراض أن الجنسانية ولون البشرة لا يعنيان شيئاً. في المقابل، الانطلاق من أنهما يعنيان كل شيء، سيوّجه لنا الضربة القاضية.

خـاتمـة

الحروب الثقافية، كحال غيرها من الحروب، قد تهدأ ثم تعاود الاشتعال في غضون أيام قليلة. توقّعت لدى صدور كتاب «جنون الحشود» في شهر سبتمبر من عام 2019، أن يواجَه بنفي فوريّ من أيٍّ من المجتمعات المهذبة التي ما تزال قائمة اليوم. بيد أنّ الاستنكار لم يأتِ. ومثلما حدث مع كتابي السابق The Strange Death of Europe [موت أوروبا الغريب]، فإنني سرت في حقل من ألغام قضايا عصرنا الأكثر خطورة، لينتهي الأمر بأن أجد نفسي وقد نجوت.

لم يُكتب للكتاب النجاة فبقي حيّاً فحسب، بل صار كسابقه وعلى الفور واحداً من بين أكثر الكتب مبيعاً. وحتى المراجعات التي تناولته، كانت منصفةً إلى حدٍّ كبير. صحيحٌ أنّ بعض الحذر وسم استقبال الكتاب، كما لو أنّ من اللازم الاحتفاظ بدرجة معقولة من الإنكار؛ بيد أن استقباله بدا دافئاً على وجه العموم، وجرى التعامل بجديّة تامة مع ما يعرضه من محاجّات. يشير كل ما سبق إلى بدايةٍ فعلية لرد فعل قوي على التطرف في أيديولوجيا «التوعّي». كما يشير إلى إمكان ألا تكون المياه التي تخوض فيها لدى نقدك لهذه الأيديولوجيا قارسة البرودة إلى الحدّ الذي قد نتخيّله أحياناً. صحيح أنها ليست دافئة تماماً، لكن أليس من الوارد وجود بعض المبالغة في تقدير شدة برودتها؟ يمضي الناس في أيامنا هذه وقتًا كثيراً وهم يتحدثون عن «الإلغاء»، إلى حدٍّ أننا قلما نطرح تساؤلات من نوع: «ما أسوأ السيناريوهات التي قد تحدث؟»، أو ببساطة «وماذا بعد؟».

ليس من الصعب مع ذلك البقاء في حالة من التجدد النشط. إذ تبقى الإجابة على هذه الأسئلة لدى البعض هي بكلمة واحدة: «الكثير». يظهر أن القدرة على قول الحقيقة والنجاة بها تتوقف – من بين أمور أخرى – على مجال عملك. لا شك في أنّ «ثقافة الإلغاء» (Cancel culture) موجودة بالفعل، وصارت آليات عملها واضحة اليوم. فهي تكون في أشدّ حالاتها فاعليّةً حين تتمكن من موضعة تراتبية هرمية متعالية على الفرد وتتسم في حد ذاتها بالتذبذب والجُبن والضعف أمام ضغط الغوغاء. صارت الجامعات موضع العرْض الأول[345] لكل هذا. في العام 2019، قامت جامعة كامبردج بفصل كلّ من نواه كارل Noah Carl والبروفسور جوردان بيترسون Jordan Peterson (وكان حينها زميلاً زائراً)؛ وفي هذه الحادثة ما يُظهر بوضوح كبير قدرة مجموعات من نشطاء الغوغاء المحمّلين بالمعلومات المغلوطة على ممارسة ضغطٍ على مؤسسة عريقة بحيث تتخذ إجراءات تخالف تمامًا المبادئ الوحيدة التي تسوِّغ وجودها. إذ إن كانت الجامعة ستشجّع أفراداً من غير ذوي الخبرة على إطلاق أحكامهم على الخبراء، وستمنح موقع الامتياز لمن لا يقرأ على حساب أولئك الذين يقرؤون، فما الغاية من الجامعة إذاً؟

لا شك في أنّ نطاق المشكلة أوسع من ذلك. إذ عايشنا في المملكة المتحدة حالات كمثل حالة العامل في سوبرماركت ASDA براين ليتش Brian Leach والذي طُرِد من عمله (وإن يكن قد أعيد لاحقًا بتأثير من الدعاية السلبية) لمشاركته مقطع فيديو لـ بيلي كونولي Billy Connolly. أن يطلق بيلي كونولي نكتة خارج المقبول لهو أمر يعزِّز من موقعه باعتباره كنزًا وطنيًا. لكن مشاركة عامل في سوبرماركت النكتةَ ذاتها على وسائل التواصل الاجتماعي قد يفقده عمله في طرفة عين. ليس من المستغرَب إذاً أن يجد عدد كبير من الأشخاص نفسه في حالة من الجمود التام، لدى محاولته تحديد ماهية القواعد القائمة هنا بالضبط.

بإمكاننا أن نلحظ الأثر ذاته في قضية هاري ميلر Harry Miller، الشرطي

(345) إشارة إلى الفيلم البريطاني الذي يحمل هذا العنوان. (م)

السابق الذي وجد نفسه مضطراً لأن يمضي عاماً كاملاً من حياته أمام المحاكم، وذلك بعدما حضرت الشرطة البريطانية إلى مكان عمله لتبلغه بأنّ عدداً من التعليقات التي كان قد أطلقها ثم غرّدها على الإنترنت، وتناولت العابرين، إنما ترقى إلى مستوى ما أطلقت عليه الشرطة تسمية «حادث كراهية غير جرمي». وبعد نجاح ميلر في اتخاذ إجراءات قانونية ضد الشرطة، سرعان ما اتضح أنّ السنوات القليلة الماضية كانت قد سجّلت مئة وعشرين ألف حالة من مثل هذه «الحوادث غير الجرمية». وأن مثل هذ الحالات «غير الجرمية» يمكن لها أن تظهر في فحص التحقق من خلفية الشخص المتقدم إلى فرصة عمل، فتحول دون حصوله عليه. وظهر علاوة على ذلك أنّ توجيهات كلية الشرطة تقضي بتسجيل أي فعل يُعتقد أنه مدفوع بالعداء إلى دين الشخص أو عرقه أو هويته، بصرف النظر عن مدى توافر أدلة قادرة على تحديد عنصر الكراهية هذا.

يدّعي البعض وجود مبالغة في تصوير نطاق امتداد أيديولوجيا «التوعّي»، غير أن من العسير المغالاة في تقدير المشكلات المخزونة لمجتمع أضحت فيه الشرطة، وبالمعنى الحرفي للكلمة، شرطةً على الأفكار، وصار ينظر فيه إلى غياب الأدلة بوصفه أمراً لا صله له بمسألة تسجيل الجريمة. على امتداد العام الماضي، تلقيت رسائل بانتظام وجرى التواصل معي، بعد حوادث عدة، من طرف أشخاص يعملون في القطاع العام، وفي «هيئة الخدمات الصحية الوطنية»، وفي شركات خاصة وعامة؛ لإخباري كيف حاول قسم الموارد البشرية في مكان عملهم أن يفرض عدداً من المعتقدات الراسخة اليوم، وكيف أنهم قاموا بإخفاء وجهات نظرهم غائصين بها تحت السطح، بينما تمرّ بهم أيديولوجيا هذا العصر. غير أنّ الأمل موجود مع ذلك، ولعل قضية ميلر وغيرها من القضايا تكشف عن تجاوزات هي في أمسّ الحاجة لأن تخضع للتصحيح.

لعل من أكثر التطورات إثارةً للاهتمام منذ تاريخ نشر هذا الكتاب هي تلك العقيدة التي تناولها الكتاب في نهايته. في الفصل الذي بحثتُ فيه مسألة العابرين،

أشرت إلى سلك التعثر النسوي – وهو الموضع الذي فيه اندفع عدد من النساء الشجعان، بقصد أو من دون قصد، نحو قضية العابرين. ازدادت أعداد هؤلاء بشكل ملحوظ في العام الماضي. وتعاظمت أعدادهن كثيراً بفعل إصرار جي كي رولينغ J. K. Rowling المهذب والحازم في آن، على أن النساء موجودات، ولا يمكن محوهن، ولا أن يُشار إليهن (مثلما فعل أحد كتّاب العناوين الرئيسة) بوصفهن «أشخاصاً يحيضون». توجد اليوم أعداد كبيرة من الأفراد، في مجموعات يتزايد تنظيمها يوماً تلو الآخر، تصرّ على عدم إمكان تجاهل الجنس البيولوجي، وعلى أنه ليس محض جهازيّ. وفي هذا الشأن كما في غيره، بدأ بلا ريب تيار من ردود الفعل ضد التطرف في أيديولوجيا العابرين. لكن إن سامحني القارئ بأن أسجل «امتيازاً» خاصاً بي في الوقت الحاضر، فقد بدأت أرى بوضوح متزايد خلال العام الماضي وجود نمط معين لأنشطة المجموعات الأكثر تنفيرًا من بين النشطاء العابرين. ذلك أنّ النسويات اللواتي لن يوافقن على كلّ ادعاء يصدر عن أيديولوجيا العابرين، يجدن أنفسهنّ اليوم، وبإفراط لا يوصف، الأكثر عرضة لمواجهة الاحتجاج ضدّهن، والحرمان من منابرٍ للتعبير، هذا عدا عن تعرضهن لمختلف الإهانات.

في وقت سابق من هذا العام، وقّع نحو خُمس القوة العاملة في صحيفة The Guardian عريضة موجهة إلى رئيس تحريرها، في اعتراض على حق سوزان مور Suzanne Moore كتابةَ عمود في الصحيفة. تمثّل الجرم الذي ارتكبته مور في مراجعتها بشكل مثير للإعجاب المعاركَ في شأن العابرين والتي وصّفناها هنا، وبأنها، كحال البطلات النسويات اللواتي أتينا على ذكرهن، ظلّت غير راغبة في التخلّي سلمياً عن البيولوجيا. وبالمثل، كان استهداف جي كي رولينغ في شأن تعليقاتها التي لا خلاف عليها مبالغًا به إلى حدّ كبير، فصار واضحًا في نظري أن شيئًا ما على وشك الوقوع. لم يقتصر الأمر في حالتها على حملة تولّاها النشطاء المعتادون فحسب، بل اجتمعت ضدها كذلك مخلّفات الصحافة المثلية، وتناوب

على التنديد بها معظم الممثلين الذين كانت قد ساعدتهم في أن يصيروا من أصحاب الملايين، كما هدد بالإضراب الموظفون العاملون لدى ناشريها بالذات، في دار نشر Hachette.

كلما تعمّقت في التفكير في الأمر، أدركت وجود أسباب رئيسة تفسر تعرّض النسويات الناقدات للعابرين لمشكلات لست أنا عرضةً لها. أولها هو انني قد أكون عبّرت عن نفسي بحذر أكبر وبتعاطف مع مناحٍ من قضية العابرين، وإن لم أتعاطف معها ككل بأي حال من الأحوال. أما السبب الثاني فهو أنه وبصرف النظر عما أكتب، فإنّ المتطرّفين يستشعرون (عن حق، لأن هذا ما يحدث بالفعل) أنّ ما يطرأ في طريقي من احتجاجات لا يثير انزعاجي ولو بمثقال ذرّة. لكنني أظن أن هنالك احتمالًا لسبب ثالث يتعلّق بما يحدث في الوقت الراهن بالفعل. وكما أخبرت الكاتب ليونيل شرايفر Lionel Shriver لدى لقائنا في إحدى الفعاليات الكبيرة التي أقامتها مجلة The Spectator بعد مرور بضعة أشهر على نشر هذا الكتاب، فإنني لا أنفكّ أفكّر في أن وراء رغبة نشطاء العابرين في الاحتجاج على الفعاليات الخارجية التي تتحدث فيها النساء في كلّ شيء، تكمن مجموعة من المعتقدات البشعة للغاية، و – نعم – قد تكون معتقدات معادية للمرأة. تتضمن هذه المعتقدات فكرة أنّ من الأسهل التنمّر على النساء مقارنةً بالرجال (وهم باعتقادهم هذا لم يولوا اهتمامًا كافيًا بشخصية هؤلاء النساء ودرجة ثباتهن). أو أنّ النشطاء العابرين يتلقون النقد الموجه إليهم من النساء بوصفه يشكل على نحو خاص خطورة على قضيتهم (وهي رؤية لاحظت أن الإسلاميين يحملونها في سياق مختلف تجاه منتقداتهم من النساء من أمثال آيان هيرسي علي Ayaan Hirsi Ali). أو قد يكون نشطاء العابرين في استهدافهم النساء، يتعاملون في الواقع مع مزيج من المشاعر التي من بينها الحسد، وإن لم تقتصر عليه بالطبع.

ومثلما توقعت في نسخة هذا الكتاب، بدأت تتزايد أعداد القضايا القانونية التي تستهدف المدافعين عن فكرة «الأطفال العابرين»، والذين يحثون على إجراء

تدخلات طبية وجراحية لهذا الغرض. في المملكة المتحدة، حصل أحد الشبان، ممن جرى توجيهه في عملية العبور من طرف عيادة Tavistock Clinic الشهيرة، على الضوء الأخضر لبدء اتخاذ إجراءات قانونية ضدّ تلك المؤسسة. تقدم لنا قصص المخاوِف التي أعرب عنها بعض العاملين في العيادة على وجه الخصوص عناصر تذكّرنا بإحدى الحقائق التي يسعى هذا الكتاب إلى الإشارة إليها: وهي أنّ عصرنا بات يقوم بعدد من الأمور التي ما كنا لنفعلها لو أننا سمحنا لأنفسنا بالاستمرار في التفكير.

هنالك جانب آخر يتعلّق بمفترق طرق العبور الجنسي جرى تجاوزه منذ تاريخ أول إصدار للكتاب، وهو الجانب الذي يخصّ الصدع داخل مجموعات الـ LGBT، أو «أناس الأبجدية» وفق التسمية التي أطلقها عليهم ديف شابيل Dave Chappelle في أحد العروض الكوميدية الخاصة على Netflix والذي حدث بالتزامن تقريباً مع إصدار كتاب جنون الحشود. رأى شابيل أن العربة التي كانت تُقلّ الـ LGBs بدت وكأنها أخذت في التباطؤ، أو لعلّها أُخرِجت عن مسارها لدى انضمام الـ T's إليها. لاحظت في مثل هذه التدخلات الشهيرة وعياً متزايداً بأنه في حين للعابرين الحق بكل تأكيد في حفظ الكرامة وفي التفهم التام أسوة بأي شخص آخر، فإن T بالمقابل لا تجمعها أي علاقة تُذكر بكلّ من L أو G أو B.

ولأن معارك الحقوق ليست جميعها واحدةً مثلما حاولتُ أن أُظهِر في هذا الكتاب، ينبغي أن يصير واضحاً أنّ السجالات المتعلّقة بالـ T لا تتبع بكل يسرٍ تلك التي تخصّ الـ LGB. يقود اختزال الفرق بين LGB وT إلى نتيجة من هذا القبيل: لم تقُل حركة حقوق المثلين على الإطلاق «نحن هنا، ونحن أحرار جنس، وينتج من ذلك أن ليس هنالك ما يُسمى الجنس البيولوجي»، أو «نحن هنا، ونحن أحرار جنس، وبالنتيجة فإننا نرى في القضيب والمهبل بنيات اجتماعيةً مفروضة». قدَّمت حركة المثليين تأكيدات في شأن الحقوق، لكنها لم تطالب بقية

المجتمع بقلب فهمه البيولوجيا رأساً على عقب، مثلاً، من أجل استيعاب هذه الحقوق. مثل هذه التأكيدات هي في واقع الأمر ما يقدّمه متطرفو العبور اليوم، والأكثر مدعاةً للقلق هو أنّهم نجحوا في إقناع جزءٍ ممن يتسم بمرونة ذهنية في مجموعات السكان الأعمّ بتأييدهم. حتى الأعوام القليلة الماضية، لم تكن هنالك دعوات إلى استخدام عبارات من قبيل «الجنس المُحدّد عند الولادة»، بدلاً من «الجنس». لنلحظ إذاً حجم العمل المندرج في العبارة الشائعة الاستخدام اليوم – والتي ترتأي بصورتها القائمة أنّ الطفل كان ليولد سعيداً في أي جنس يريده، ما لم يتدخل في الأمر طبيب غرفة التوليد المتعصب والمحكوم بمعايير الغيرية.

يمكن تلمس حقيقة أنّ مثل هذه الأفكار المشوِّشة ما عادت محصورة في ركنٍ أيديولوجي منزوٍ، من خلال ما تحظى به من قبول في التيار السياسي السائد. في شهر أكتوبر من عام 2019، شارك المتنافسون الديموقراطيون على الرئاسة الأمريكية في الفعالية المفتوحة LGBT Townhall والتي هي، في نظري كمشاهِد على أي حال، أشبه بهروب جماعي من مصحةٍ للأمراض العقلية. ولا يرجع ذلك إلى أنّ الناشطة السوداء العابرة رفضت أن تسمح للمقدِّم دون ليمون Don Lemon (الأسود والمثلي) بالكلام لأنها تفوقّت عليه في لعبة التظلُّم الهوياتي؛ بل إلى حقيقة أنّ رد فعل إليزابيث وارين Elizabeth Warren (من بين آخرين) اقتصر على الهتاف بـ«مرحى!» والتصفيق في كل مرة يظهر فيها أحد الوالدين رفقةَ «طفل عابر». لم يسر الأمر على نحو أفضل في المملكة المتحدة. ففي شهر فبراير من عام 2020، وفي أحد نقاشات الأستوديو، زعمت داون بتلر Dawn Butler النائبة في البرلمان عن حزب العمال ووزيرة دولة الظل لشؤون المرأة والمساواة، أنّ «الطفل يولد من دون جنس». وقبل أن توبّخ محاوِرها لمجرد التطرّق إلى علم التشريح، علّقت بتلر بتضجّر: «الحديث عن القضيب والمهبل لا يُسعِف الحوار في شيء!». كما لو كانت مثل هذه الأشياء تنتمي إلى القرن الماضي.

اختبرت بنفسي لمسة من هذا الجنون في أسبوع صدور هذا الكتاب. إذ صدر

مصادفةً بالتزامن مع تصريح مغني البوب سام سميث Sam Smith عن أنه «غير ثنائي»، وذلك بعد أن كان قد صرّح عن مثليته سابقاً (سنة 2014)، ثم أعلن نفسه من «أحرار الجنس» (سنة 2017). لم أسمع حتى تاريخه أيّ تفسير لما يعنيه وصف «غير ثنائي»، بخلاف الإلحاح على أنه شخص لا يُعرَّف على أنه ذكر أو أنثى بشكل حصري. وبالمثل، فإنني لم أحظَ بأي تفسير للفروقات بين أن يكون الفرد من «أحرار الجنس» وبين أن يكون «غير ثنائي». والحال فإن عرضي ما زال قائماً بتقديم مكافأة مالية لأي شخص يمكنه أن يخبرني عن الفرق بين التصريح عن النفس بصفة «غير ثنائي»، وبين القول «انظر إليّ» بكل بساطة. لكن هنا أيضاً لم يكن المثير للاهتمام هو تصرفات سميث، بل ردود الفعل من أشخاص في موقع المسؤولية، بما في ذلك بعض أقسام وسائل الإعلام. على سبيل المثال، استجاب موقع BBC على الفور لمطلب سميث بأن يشار إليه من الآن فصاعداً باستخدام ضمائر أولئك/ هم (بصيغة الجمع)، وبدأ في الحال التلاعب باللغة مشيرًا إليه على أنه «هم». أثناء ظهورٍ لي في برنامج Today على BBC، عرّجت على ذكر ما حدث مشيراً إلى أنه لم يكن من المستحسن تقديم مثل هكذا تنازل. فما كان من إحدى الزميلات إلا أن وبّختني لأنني لم أفعل باللغة ما أراده سميث، مع أنّها ولطرافة الأمر، ظلّت طوال الوقت تقدِّم برهاناً على حجم تعقيد المسألة، من خلال الإشارة إلى سميث مراراً وتكراراً باستخدام الضمير «هو».

أسفرت الحلقة عن مسألة أخرى تدخل في إطار اهتمامي الشخصي، وهي أنّ ما تبقى من إرث المنشورات المثلية في الولايات المتحدة والمملكة المتحدة سرعان ما نشر حكايات عن ظهوري على BBC واصفاً إياي بـ «الكاتب اليميني البريطاني» وبـ «الصحفي المحافظ» على التوالي. وتحت كلا المسمَّيين، طرحت مزاعم بأنني تلقيت «تعليماً هائلاً»، وأنني كنت مذنباً بارتكاب «إساءة استخدام الضمائر»، وأنه قد جرى «إسكاتي بمهارة». ما كنت لأولي أهمية البتّة لأي من مستخدمي تطبيق clickbait، ذلك أنّ ما أثار اهتمامي عوضاً عن ذلك هو أن كلا المنشورين حجب

عن القرّاء حقيقة أنني مثليّ. وفي هذه النقطة بالذات، كان من دواعي سروري أن أُدرَج في قائمة الأشخاص الذين أوردتهم في هذا الكتاب، والذين جرى محو سماتهم الشخصية، لأنهم يحملون آراء سياسية «خاطئة».

بات من الواضح تماماً الآن سبب استقطاب قضية العابرين لكل هذا الزخم من القوة الداعمة. إذ فضلاً عن وجود بعض المتخصصين في حاجةٍ إلى قضية جديدة، يبدو جلياً أن هذا الأمر يغذّيه الخوف الشائع من أننا سوف نخطئ في التعاطي مع حقوق العابرين تماماً مثلما كانت مجتمعاتنا في الماضي بالغة البطء في الاعتراف بالعنصرية وبالتمييز على أساس الجنس ورهاب المثلية. الأمر الذي يجعل هذا الزخم متوافقاً مع وجهة نظر الحجة الأوسع والتي أشرت إليها تحت مسمى «التصحيح المفرط»: أي أن الجنون الذي نعيشه اليوم هو رد فعل مفرط على واقع وجود تحيزات وقعت في الماضي ضد أشخاص بعينهم، وهي رؤية تقول إن أسرع الطرائق لمعالجة ما حدث وأفضلها، إن هي إلا العمل على الإفراط في التعويض لبعض الوقت، بغرض أن نصل إلى المساواة بسرعة أكبر. جلّ ما أدى إليه كل هذا هو أنه أبلغ بعض فئات المجتمع بأنهم أقلّ قيمة من غيرهم: فالرجال ليسوا بذكاء النساء، والأشخاص من ذوي البشرة البيضاء أكثر عرضة للاستسخاف من ذوي البشرة السوداء، والغيرية الجنسية هي بحق مملة ومحرجة بعض الشيء.

أدى تداول هذا الكتاب والجدل في شأنه مع أشخاص من جميع الأطياف إلى إيضاح فكرة إضافية أخرى. في عصر الانقسام السياسي المهني، لست مهتماً بشكل خاص بإيجاد محاجات تقود الناس إلى مزيد من الانقسام. بل صرت مهتماً جداً بالمساعي والمبادئ التي يمكن القول إننا نتفق عليها. يظهر لي أنّ نسبة كبيرة من السكان، لا بل وساحقة بالفعل، تتفق على مطمح مشترك، وهو أنه لا ينبغي الحيلولة مطلقاً دون أن يقوم أيّ شخص ممن لديه الكفاءة اللازمة بتولي أداء مهمة بإمكانه تولّيها، بسبب بعض السمات الشخصية التي لا حيلة له فيها. لا ينبغي إذاً منع أي فتاة شابة أو شخصٍ من الملوّنين أو شخص ليس غيريّاً، من دخول مجال

مهني ما أو الارتقاء إلى قمته، بسبب الجنس أو العرق أو الجنسانية. هذا مطمح يمكن أن نجد إجماعاً عليه لدى أغلبية الخصماء السياسيين. وعلى الرغم من أنّ البعض يدّعي خلاف ذلك لتحقيق أغراض سياسية في المدى القصير، فإن الأسئلة الوحيدة المتبقية هي في الواقع تلك التي تخصّ معرفة أفضل الطرائق اللازمة لضمان أن تصير هذه المطامح حقيقة، أو أن تظلّ كذلك.

بالنسبة إلى جزءٍ من اليسار السياسي، من بين آخرين، تكمن الإجابة في نظام المحاصصة، وفي الملاحقة الانتقامية ضد أي شخص لا يتفق مع العقيدة المتشددة الجديدة، وفي إطلاق تأكيدات خاطئة على الأرجح في شأن الطبيعة البشرية. في المقابل ففي نظر البعض منا، يبدو اعتماد منهجية كهذه بعيداً من أن يحقق مطامحنا، فضلاً عن أنه من المرجح أن يتسبب في المزيد من الانقسام وفي ردود فعل ذات طابع حدّي وخيم. يعني قولي هذا أن الحق السياسي في حاجة إلى تفسير خاص به في ما يخص كيفية تحقيق هذه المطامح، وكيفية التمسك بها بعد تحققها. تنزع السرديات المحافظة، في هذه القضية كما في غيرها من القضايا، إلى اعتبار الجواب قائماً في الفرد. قد يشير أحد مؤيدي هذه الرواية، مثلاً، إلى حقيقة أن الرئيس الحالي للولايات المتحدة عمد إلى تسمية أشخاص من المثليين صراحةً في مناصب رفيعة المستوى بأكثر مما فعل أي رئيس سابق أكان جمهوريّاً أم ديموقراطيّاً. كما أن هؤلاء المؤيدين قد يعمدوا علاوة على ذلك إلى إظهار كيف أنّ مجلس الوزراء البريطاني هو الآن أكثر المجالس تنوعاً عرقياً من بين كل المجالس في التاريخ البريطاني. لكن مجمل هذه الملاحظات يحمل في طياته مشكلاته الخاصة، لا سيما من خلال لفت الانتباه إلى المجتمع المهووس بلون البشرة والجنس والجنسانية، وإدامته بصورة ما؛ في حين يأمل هؤلاء في الحقيقة أن يتركوه وراءهم. ما يزال من غير الواضح إلى حد ما، ما قد يكون عليه المقترح المحافظ في ما يخص التعامل مع ما تبقى من حواجز تحول دون الفرد وتحقيق إمكاناته، وقد يبقى الحال كذلك طويلاً. مع ذلك، اتضحت خلال العام المنصرم الضرورة الملحة لأن يجري التوصل إلى حلول

للانقسام الحاد الذي أوجدَته سياسات الهوية في مجتمعاتنا. في وقت سابق من هذا العام، حين وقعت أزمة كوفيد، تساءل عدد من الأشخاص – وأنا من بينهم – عن مدى مواجهة سياسات الهوية فجوةً طبيعية. إذ في نهاية المطاف، وبينما كان العالم برمته يقف على مشارف كارثة حقيقية، وكانت لدى الجميع مظالم حقيقية ليشير إليها؛ بدا من المتوقع أن تتضاءل الرغبة في الاستماع إلى الأشخاص الذين يشتكون من مظالم ذات طابع مسرحي، أو مختلقة تماماً. في بدايات تلك الأزمة، نشر سام سميث على وسائل التواصل الاجتماعي بضعة صور له وهو يبكي داخل قصره في فترة الحجر. وجاءت الاستجابة أقل دعماً بوضوح مما كان يأمل. ومع أن بعض خفيفي الظل من المعلقين على الإنترنت أشار إلى أنّ «لديهم» رفقةَ «أنفسهم» على الأقل؛ لكن وبشكل عام، تراجعت خطوة إلى الخلف مثل هذه المحاولات الهادفة إلى مواصلة دفع القضايا الهامشية إلى الواجهة في ظل ظروف جائحة عالمية.

لم يدم هذا التراجع طويلاً مع ذلك. إذ ظهرت بدايةً محاولات متواصلة لإضفاء طابع عرقي على فيروس كوفيد، من خلال إشارة عدد من الصحفيين والسياسيين في المملكة المتحدة والولايات المتحدة وبشكل مستمر إلى تسجيل معدلات وفيات أكثر ارتفاعاً في أوساط الأقليات العرقية. قد ترجع هذه الحقيقة إلى عدد من الأسباب، بما في ذلك القضايا الصحية المضمرة (والجينية). غير أنّ هذه الإحصاءات جرى تقديمها بانتظام باعتبارها دليلاً إضافياً على عنصرية المجتمعات المعنية. وبالتزامن مع الحظر شبه الرسمي للإشارة إلى الفيروس بوصفه الفيروس الصيني أو فيروس ووهان، بدا أن هنالك جهود متضافرة تسعى إلى الإلماح بأنّ المجتمعات الديموقراطية الغربية عنصرية للغاية إلى حدّ أن ليس بإمكاننا حتى أن نستورد فيروساً من دون أن نلتف عليه فنحوله إلى فيروس عنصري. في أماكن أخرى، ظهرت جهود تسعى لأن تدفع إلى الواجهة بفكرة أن الفيروس يستهدف النساء أكثر من غيرهن. وحين أظهرت الإحصاءات أن الفيروس كان أكثر فتكاً في أوساط الرجال، انبرى المراقبون ذاتهم إلى الالتفاف

على المعلومة بالقول إنه بالرغم من كون الرجال يسجلون نسب الوفيات الأعلى، إلا أن النساء بشكل أو بآخر يسجلون النسب الأعلى في شدة المعاناة. يمكن أن نلتقط في أمثلة كهذه ملامح الاعتلال الكامن في مجتمعاتنا الحرة: فهي غير قادرة حتى على مواجهة وباء، من دون النظر إليه عبر المنظار التقسيمي التي بات مألوفاً اليوم.

ومع ذلك فقد بدأت أتبنى وجهة نظر ترى أن النشطاء والمؤمنين الصميمين الذين ليس بحوزتهم سوى هذه العدسة الوحيدة لرؤية العالم، لربما يزدادون بمنظورهم هذا تمسكاً بمعتقداتهم؛ لكنّ تسامح الجمهور مع مثل هذه النشاطات سيتضاءل في المقابل. ما كان بمقدور أحد التنبؤ بحما قد يحدث في واقع الأمر من انفجارٍ عنيف، ونبشٍ عميق.

كان الحجر العالمي قد دخل شهره الثالث حين ظهرت لقطات لشرطي من مينيسوتا يعتقل رجلاً أعزل من ذوي البشرة السوداء يدعى جورد فلويد George Floyd. ثارت ولاية مينيسوتا ولحقتها في ذلك المدن الأمريكية واحدة تلو الأخرى، ثم انتقل الغليان إلى جميع أنحاء العالم. هكذا وبشكل مفاجئ، سمحت البلدان التي ما يزال حظر التجمع فيها قائماً باحتشاد آلاف الأشخاص للاحتجاج – الذي رافقته في أحيان كثيرة أعمال شغب ونهب ومهاجمة للشرطة – باسم العدالة العرقية. عديدة هي الدروس المستفادة من تلك الواقعة. أولها ملاحظة تلك السرعة الهائلة في نشر قضية في بلد ما – وهي هنا قضية أفعال الشرطة في الولايات المتحدة – لتمتد فتغشى الوضع السياسي والاجتماعي في كل بلد آخر. لذلك، وعلى الرغم من أن العديد من المتظاهرين تحت شعار «حياة السود مهمة» (Black Lives Matter)، شرعوا في إيضاح وجهة نظرهم بسلمية تامة؛ إلا أن تظاهراتهم قادت باستمرار إلى حدوث أعمال عنف، إذ انزلقت في أماكن بعيدة تماماً كمثل ستوكهولم وبروكسل إلى أعمال شغب ونهب.

درسٌ آخر تقودنا هذه الواقعة إلى استخلاصه، ويتمثل في مدى سهولة الالتفاف

على قضية عادلة (الاعتراض على تصرفات رجل شرطة في مينيسوتا)، عبر المنظور التقسيمي الذي وصّفناه في هذا الكتاب في الفصل المعنون بـ«العرق»؛ ثمّ فرضها بعد ذلك فعليّاً في مجتمعات بأكملها. في الأيام التي تلت مقتل جورج فلويد، حدثت اعتداءات على تماثيل ومعالم أثرية على امتداد المملكة المتحدة، بما في ذلك إطاحة أحد الحشود في بريستول Bristol بتمثال إدوارد كولستون Edward Colston، مالك العبيد وأحد كبار مموّلي الأعمال الخيرية، ثم القفز عليه. وفي لندن جرى تشويه النصب التذكاري لضحايا الحربين العالميّتين، وكذلك تمثال ونستون تشرشل Winston Churchill الذي انتهى به الأمر معبّأً في صندوق لتأمين حمايته. وفي الولايات المتحدة، وصل الأمر في نهاية المطاف إلى حدّ القيام بهجمات عدة على تماثيل الآباء المؤسسين. وبين ليلة وضحاها، لم تشهد كتابات روبن دي أنجيلو Robin DiAngelo (الهشاشة البيضاء ذائعة الصيت)، وغيرها من الكتابات التي أوردنا وصفاً لها في هذا الكتاب، تعميماً فحسب؛ لا بل وجرى اقتراحها كقراءات إلزامية. حظيت عبارات كمثل «الشعور بالذنب بسبب البشرة البيضاء» بدفقة انتعاش هي الأكبر حتى تاريخه، بدءاً من الأوساط الأكاديمية الأمريكية الهامشية، ووصولاً إلى الثقافة ككل. على حين غرة، صار السياسيون والشخصيات العامة الأخرى في جميع أنحاء الغرب مطالبين بـ«ركوع الركبة»[346]. أخذت الشركات تنافس بعضها البعض في إثبات ولائها لحركة «حياة السود مهمة»، وفي التأكيد أو إعادة التأكيد على التزامها بأجندة «المساواة» و«التنوع». فجأة بدأت الشركات، بدءاً من Patreon ووصولاً إلى Ben and Jerry's Ice Cream، في الإشارة إلى أن غرضها الرئيس في الحياة هو محاربة العنصرية التي جرى تقديمها بوصفها قضية ملحة جداً وتشكل خطراً جدياً على الصحة العامة، إلى درجة أنها تغلبت حتى على المخاوف من انتشار فيروس كوفيد. تبدّت في هذه اللحظة بوضوح ماهية ما أضحت عليه القضايا المقدسة الحقيقية في مجتمعاتنا. سرعان ما أخذت الأفلام

(346) Take the Knee هو تعبير يشير إلى الركوع على ركبة واحدة في إيماءة رمزية ضد العنصرية. (م)

والمسلسلات الكوميدية الكلاسيكية، لا بل والحديثة جداً أحياناً، تختفي من خدمات البث المباشر؛ وأعلنت شخصيات حكومية مثل عمدة لندن، عن عمليات فحص ومراجعة تطال جميع التماثيل العامة، وساد على أوسع نطاق المطلب القائل بضرورة أن تعمل بريطانيا والدول الغربية الأخرى على التكفير عن ماضيها الاستعماري.

لم تصبح عواقب كل هذا متحققة بالفعل بعد. غير أن الاستجابة لقضية «حياة السود مهمة»، وطريقة المغالاة فيها، لربما تكون شكلاً من أشكال العودة إلى سياسات الهوية البيضاء، يوافق بالتمام النوع الذي كنت قد حذّرت منه أنا وآخرون غيري. انقلب مقتل جورج فلويد إلى أداة لا تستخدم للمطالبة بإصلاح الشرطة الأمريكية فحسب، بل للهجوم كذلك على ما يطلق عليه في العموم تسمية «الثقافة البيضاء».

بالنسبة إلى البعض منا، يعد هذا كله بمثابة انقلاب كارثي للحوادث. إذ كنا قد وضعنا جلّ آمالنا في فكرة إمكان الاحتفاء بثقافة كونية، وجعلها متاحةً للجميع. ذلك أن إعطاء غالبية السكان شعوراً بأن كل شيء تقريباً في ثقافتها وتاريخها ليس موضع نقد فحسب، بل واعتداء كذلك؛ من المرجح أن يؤدي إلى إعطاء السياسات العرقية أكبر دعم في السنوات المقبلة، بدلاً من تحجيمها. يكمن هنا مصدر القلق الرئيس لدي اليوم. أي في طريقة تحويل نداءات العدالة إلى دعوات للانتقام التاريخي؛ وفي طريقة تخريب الدعوات إلى اختفاء العرق كقضية، بتحويلها على أيدي «مناهضي العنصرية» إلى حالة يصير معها العرق قضية مركزية يُفهم المجتمع من خلالها؛ وكذلك في طريقة تنحية محتوى خطاب شخص ما (كما أوردت في الكتاب) إلى موضع ثانوي من حيث الأهمية، لا بل إلى موضع يكاد يكون بلا أهمية على الإطلاق، مقارنة بهوية المتحدّث.

نشأ جيلي على ألّا يولي للّون شأناً. واليوم يقال لنا إن عدم التركيز على العرق طوال الوقت يجعل منا عنصريين. لا يبدو هذا تقدماً في نظري. لكن سنرى. كنت

قد بدأت آمل في هذه السنة أن الرسائل التقسيمية التي تطلقها «سياسات الهوية» و«العدالة الاجتماعية»، و«تقاطع أشكال التمييز» وما شابهها، ستأخذ في الانحسار تحت ضغط تناقضاتها الداخلية الخاصة والعواقب الناجمة عن مغالاتها. لكن يبدو أن آمالي هذه ذهبت سدىً. إذ اتضح أنه مهما يكن من عدم نجاح وعدم ملاءمة هكذا مدرسة فكرية، ستقوم الآن محاولات لنشر هذه الأجندة على امتداد العالم الغربي – بقوة وطاقة وعزم يكاد لا يصدّق؛ وكل ذلك بروح انتقام كبيرة. لربما لا يكون هذا الكتاب قادراً على إيقافها، لكن لعلّني أفخر على الأقل بما يقدمه من شرحٍ لقصة أصل العالم التي يبدو أننا نندفع نحوها بسرعة هائلة اليوم.

دوغلاس موراي
يونيو 2020

شكر وتقدير

هذا هو كتابي الثاني مع دار Bloomsbury، ومرة أخرى، كان من دواعي سروري العمل مع الجميع في هذه الدار. والشكر الموصول للمحرّر روبن بيرد سميث Robin Baird-Smith الذي استفدت من دعمه ومشورته أيما استفادة، وكذلك من جيمي بيركيت Jamie Birkett وآخرين في مكتب لندن. وأود أن أشكر وكيل أعمالي ماثيو هاميلتون Matthew Hamilton من مكتب هاميلتون شكراً خاصاً.

استمدت عنوان هذا الكتاب من عملٍ للصحفي الأسكتلندي تشارلز ماكاي Charles Mackay، وهو كتاب بعنوان: Extraordinary Popular Delusions and the Madness of Crowds [الأوهام الشعبية العجيبة وجنون الحشود]. أرجو أن يغفر لي هذه السرقة، نظراً إلى الانتشار المخيّب للآمال للظاهرة التي وصفها قبل 180 عاماً.

تعلمت بعد تجربة كتابة عدة مؤلفات، أن أحذر من تقديم شهادات اعتراف للأشخاص الذين كان لهم أثرٌ في عملي، ناهيك بجميع الأشخاص اللذين أسهموا فيه. ليس لأنني لست ممتناً لهم، لكنني أحجم عن سرد قائمة بأشخاص يمكن اتهامهم لاحقاً بالمسؤولية عن تجاوزاتي. لا سيما في هذا الكتاب. لا يمنعني ذلك من التعبير عن امتناني العميق للعدد الكبير من الحوارات التي جمعتني مع أشخاص من القارات الأربع خلال إجراء البحوث التحضيرية لكتابة هذا الكتاب. وأخص بالشكر العميق والصادق أفراد عائلتي وأصدقائي الرائعين. ومع ذلك، ثمة شخص سأذكر اسمه، للدين الكبير الذي أشعر به تجاهه. وعلى الرغم من أن اسمه ظهر في أكثر من موضع في هذا الكتاب، فإن عدداً من الأفكار الموجودة فيه قد صقلِت بعد الخضوع لعقله الاستثنائي. من بين جميع المحاورين الذين استفدت منهم لدى مناقشة هذه الموضوعات، لم يوقظ عقلي أحدٌ بمقدار ما فعل إريك وينشتاين. يُسعدني أن أنسب له أفضل أفكاري وملاحظاتي، مع إصراري على أن أسوأها من ارتكابي أنا.

دوغلاس موراي

مايو 2019